

الشيخ أيوب الحائري

أفضل الليالي

ثلاثون ليلة في ضيافة الرحمن

دار الولاء

أفضل الليالي

ثلاثون ليلة على مائدة الرحمن



الفهرس الإجمالي لموضوعات الكتاب



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين وعلى أصحابه المنتجبين.

﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدىٰ وَالْفُرْقانِ﴾[1].

إنّ من أهمّ مواسم التبليغ هو شهر رمضان المبارك، ذلك الشهر الّذي أقرب ما يكون العبد بربه، وأكثر ما يكون استعداداً لقبول الموعظة الّتي تقرّبه إلى الله، وتبعّده عن الذنوب والآثام، إذ القلوب في هذا الشهر منفتحة على باريها، ميّالة إليه، والشياطين مطرودة مغلولة، والشهوات منكسرة، وهذه أعظم وأفضل حالة يصل إليها الإنسان في الاستعداد لقبول المواعظ والإرشاد.

ولهذا فمن المهم جدّاً أن نستغل هذه الفرصة بإفراغ أكبر قدر ممكن من المعارف

---

(١) البقرة: ١٨٥.

الإسلامية وبالأخص الأخلاقية والقرآنية، من أجل تأصيل الارتباط بين العبد وربّه، والتعريف بالطريق الموصل إلى مرضاته، والتعريف بسفراء الله في هذا الكون محمد وأهل بيته (عليهم أفضل صلوات المصلين)، حتى يتجهز العبد، بهذا المستوى من القابلية والاستعداد لمواصلة الطريق في ما تبقّى من عمره.

ومن هنا تكون مسؤولية المبلغين العاملين على إيصال الناس إلى ربهم، الّذين نصبوا أنفسهم في مقام الوصل بين العباد وخالقهم، ونصبوا أنفسهم نوّاباً لسفن النجاة، تكون هذه المسؤولية في شهر رمضان أكبر وأعظم وآكد، إذ عليهم في هذا الشهر أن يشمّروا عن سواعدهم للعمل الدؤوب على جعل شهر رمضان برنامجاً عبادياً، وميقاتاً إلهياً، ومعسكراً تربوياً، يقرّبون به العباد من ربهم، ويهذّبون نفوسهم على الإخلاص والطاعة، والتخلق بالأخلاق الإيمانية العالية حتى يكتبون عند الله من المبلغين الرساليين فيشملهم قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللهِ﴾ وتشملهم رعاية الله وعطفه وحنانه وبركاته.

ومن دافع الإحساس بالمسؤولية الملقاة على عاتقنا أحببنا المساهمة في هذه البرامج الرمضانية وإعانة المبلغين في رسالتهم وجهادهم، خدمة لهم في طريقهم الإلهي، وقد وجدنا أن خير معين للمبلغين الكرام توفير كتاب يشتمل على محاضرات وبحوث تستوعب ثلاثين ليلة على مدار الشهر، ليكون معيناً لهم في مجالس ليالي هذا الشهر الكريم، وقد رأينا أنّ كتاب (أفضل الليالي) الّذي كتبه سماحة الشيخ أيوب الحائري (حفظه الله) يحقق إلى حدٍّ كبير للمبلغين هذا الهدف، فقمنا وبمساعدة المؤلف، بمراجعته وترتيبه وطباعته، فخرج بهذه الحلّة، ونحن إذ نقدّمه بين يدي مبلغينا الأعزاء، نقدمه إلى مولانا صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف حيث كان تمامه في بركات مولده العظيم، سائلين الله

تعالى أن يهب لنا رضاه ودعاءه وبره، وأن يوفق إخواننا المبلغين إلى أداء واجبهم، وأن يشركونا في دعائهم في ليالي هذا الشهر المبارك، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

ذكرى ولادة الإمام صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف
منتصف شعبان لسنة ١٤٢٤هـ ق

الناشر



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء والمرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين.

خلال العمل التبليغي في سنوات متمادية خصوصاً في شهر رمضان المبارك وجدت أن المجتمع الإسلامي، وبالأخص الشباب بحاجة ماسة إلى التعرف على الفضائل الأخلاقية والتحلي بها، والمعارف الإلهية والاعتقاد بها، سيما التعرف على علوم ومعارف وأخلاق النبي وأهل بيته الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين) ورأيت أن أفضل الأوقات لاستماع هذه الأبحاث، والتأثر بها، شهر رمضان المبارك، ذلك لانكسار الشهوات واستعداد النفوس بفضل الصيام والقيام، ونزول البركة والتوفيق الإلهي من رب الأنام، وبذلك ينجوا الناس من الفساد والانحطاط، ويسموا نحو الصواب والرشاد.

وأيضاً خلال محاوراتي مع الخطباء والمبلغين، ومراجعاتي للمكتبات أحسست بأن المكتبة الإسلامية بحاجة إلى كتاب من هذا القبيل بأسلوب جديد في التدوين والترتيب بحيث يكون جامعاً ومختصراً مفيداً، يسهل فهمه وأداؤه، ويستفيد منه الجميع بالأخص المبلّغ والخطيب.

ومن هذا المنطلق توكلت على الله، واستعنت به وتوسلت برسوله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام ليوفقني لتأليف هذا الكتاب، فاخترت الخطبة الشعبانية للرسول الأعظم التي خطبها في استقبال شهر رمضان الأكرم، لما فيها من المعاني الأخلاقية العالية، والمعارف السامية، وجعلتها محوراً لأبحاث هذا الكتاب فشرعت بتأليفه على ضوء ما تتضمنه هذه الخطبة الشريفة مشتملاً على آيات من الكتاب العزيز، وأحاديث من السنة النبوية، وأخبار أهل البيت عليهم السلام، وقصص الأنبياء وأقوال العلماء، وبعض الحكايات الطريفة، وكذا تطرقت إلى مواضيع مهمة حسبما تقتضيه المناسبات الرمضانية من أحزان وأفراح، ومواضيع ينبغي أن تطرح ويتعرف عليها المؤمنون في هذه الليالي المباركة، من سيرة الرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، أو بحوث فكرية وثقافية واجتماعية، فكان هذا الكتاب الذي بين يديك أيّها القارئ الكريم.

ولقد رتبته على ثلاثين مجلساً في ثلاثين ليلة بما يناسب ليالي شهر رمضان المبارك، وختمته بالحديث عن العيد والعودة إلى الله تعالى، وسميته (أفضل الليالي) اقتباساً من الخطبة الشريفة، حيث جاء فيها (ولياليه أفضل الليالي)، وأرجو أن أكون ممن وفق في المساهمة في نشر المعارف الإلهية والعلوم الأخلاقية، والدعوة إلى الله وإرشاد الأمة الإسلامية، آملاً أن ينتفع به طلاب المعرفة بشكل عام، والخطباء والمبلغون بشكل

خاص...

هذا وأسأل الله تعالى أن ينفعني به في يوم لقائه، ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ ۞ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

وختاماً أسال المولى القدير أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم وأن يتقبل مني هذا الجهد المتواضع، ويوصل ثوابه إلى مولانا أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام، وأولاده الأئمة المعصومين، صلوات الله عليهم أجمعين، عسى الله أن يرزقني زيارتهم ويرحمني بشفاعتهم، والله تعالى ولي السداد والتوفيق.

ذكرى ولادة الإمام صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف
منتصف شعبان لسنة ١٤٢٤هـ ق
دمشق ـ السيدة زينب (س)
أيوب الحائري



الخطبة النبوية الشعبانية

روى الشيخ الصَّدوق بإسناده: عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام، عن أبيه موسى بن جعفر عن أبيه الصادق جعفر بن محمد عن أبيه الباقر محمد بن علي عن أبيه زين العابدين علي بن الحسين عن أبيه سيد الشهداء الحسين بن علي عن أبيه سيد الوصيين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله خطبنا ذات يوم فقال: أيّها الناس إنّه قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة والرحمة والمغفرة، شهر هو عند الله أفضل الشهور، وأيامه أفضل الأيام ولياليه أفضل اللّيالي، وساعاته أفضل الساعات، وهو شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله، وجعلتم فيه من اهل كرامة الله، أنفاسكم فيه تسبيح، ونومكم فيه عبادة، وعملكم فيه مقبول، ودعائكم فيه مستجاب، فاسألوا الله ربّكم بنيات صادقة وقلوب طاهرة أن يوفّقكم لصيامه، وتلاوة كتابه؛ فإنّ الشقي من حُرم غفران الله في هذا الشهر العظيم.

واذكروا بجوعكم وعطشكم فيه جوع يوم القيامة وعطشه، وتصدّقوا على فقرائكم ومساكينكم ووقّروا كباركم، وارحموا صغاركم وصلوا أرحامكم، واحفظوا ألسنتكم وغضّوا عمّا لا يحلّ النظر إليه أبصاركم، وعما لا يحلّ الاستماع إليه أسماعكم، وتحنّنوا

على أيتام الناس يُتحنّن على أيتامكم، وتوبوا إلى الله من ذنوبكم، وارفعوا إليه أيديكم بالدعاء في أوقات صلواتكم فإنّها أفضل الساعات، ينظر الله عز وجل فيها بالرحمة إلى عباده، يجيبهم إذا ناجوه ويلبيهم إذا نادوه، ويستجيب لهم إذا دعوه.

أيّها الناس إن أنفسكم مرهونة بأعمالكم ففكوها باستغفاركم، وظهوركم ثقيلة من أوزاركم فخففوا عنها بطول سجودكم، واعلموا أن الله تعالى ذكره أقسم بعزته أن لا يعذب المصلين والساجدين، وأن لا يروعهم بالنار يوم يقوم الناس لرب العالمين.

أيّها الناس! من فطّر منكم صائماً في هذا الشهر كان لـه بذلك عند الله عز وجل عتق رقبة ومغفرة لما مضى من ذنوبه، فقيل له: يا رسول الله وليس كلنا يقدر على ذلك فقال ﷺ اتقوا النار ولو بشق تمرة، اتقوا النار ولو بشربة من ماء.

أيّها الناس من حسّن منكم في هذا الشهر خُلُقه كان لـه جوازاً على الصراط يوم تزل فيه الأقدام، ومن خفّف من هذا الشهر عما ملكت يمينه خفّف الله عليه حسابه ومن كف فيه شره كف الله عنه غضبه يوم يلقاه، ومن أكرم فيه يتيما أكرمه الله يوم يلقاه، ومن وصل فيه رحمه وصله الله برحمته يوم يلقاه، ومن قطع فيه رحمه قطع الله عنه رحمته يوم يلقاه، ومن تطوع فيه بصلاة كتب الله لـه براءة من النار، ومن أدى فيه فرضاً كان لـه ثواب من أدى سبعين فريضة فيما سواه من الشهور، ومن أكثر فيه من الصلاة عليَّ ثقل الله ميزانه يوم تخف الموازين، ومن تلا فيه آية من القرآن كان لـه مثل أجر من ختم القرآن في غيره من الشهور.

أيّها الناس إن أبواب الجنان في هذا الشّهر مفتّحة فاسألوا ربكم أن لا يغلقها عليكم، وأبواب النيران مغلقة فاسألوا ربكم أن لا يفتحها عليكم والشياطين مغلولة فاسألوا

ربكم أن لا يسلطها عليكم.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: فقمت، فقلت: يا رسول الله ما أفضل الأعمال في هذا الشهر؟ فقال صلى الله عليه وآله: يا أبا الحسن! أفضل الأعمال في هذا الشهر الورع عن محارم الله عز وجل.

ثم بكى فقلت يا رسول الله ما يبكيك؟ فقال يا علي أبكي لما يستحل منك في هذا الشهر كأني بك وأنت تصلي لربك وقد انبعث أشقى الأولين والآخرين شقيق عاقر ناقة، ثمود فضربك ضربة على قرنك فخضب منها لحيتك.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: فقلت يا رسول الله؟ وذلك في سلامة من ديني؟ فقال صلى الله عليه وآله: في سلامة من دينك.

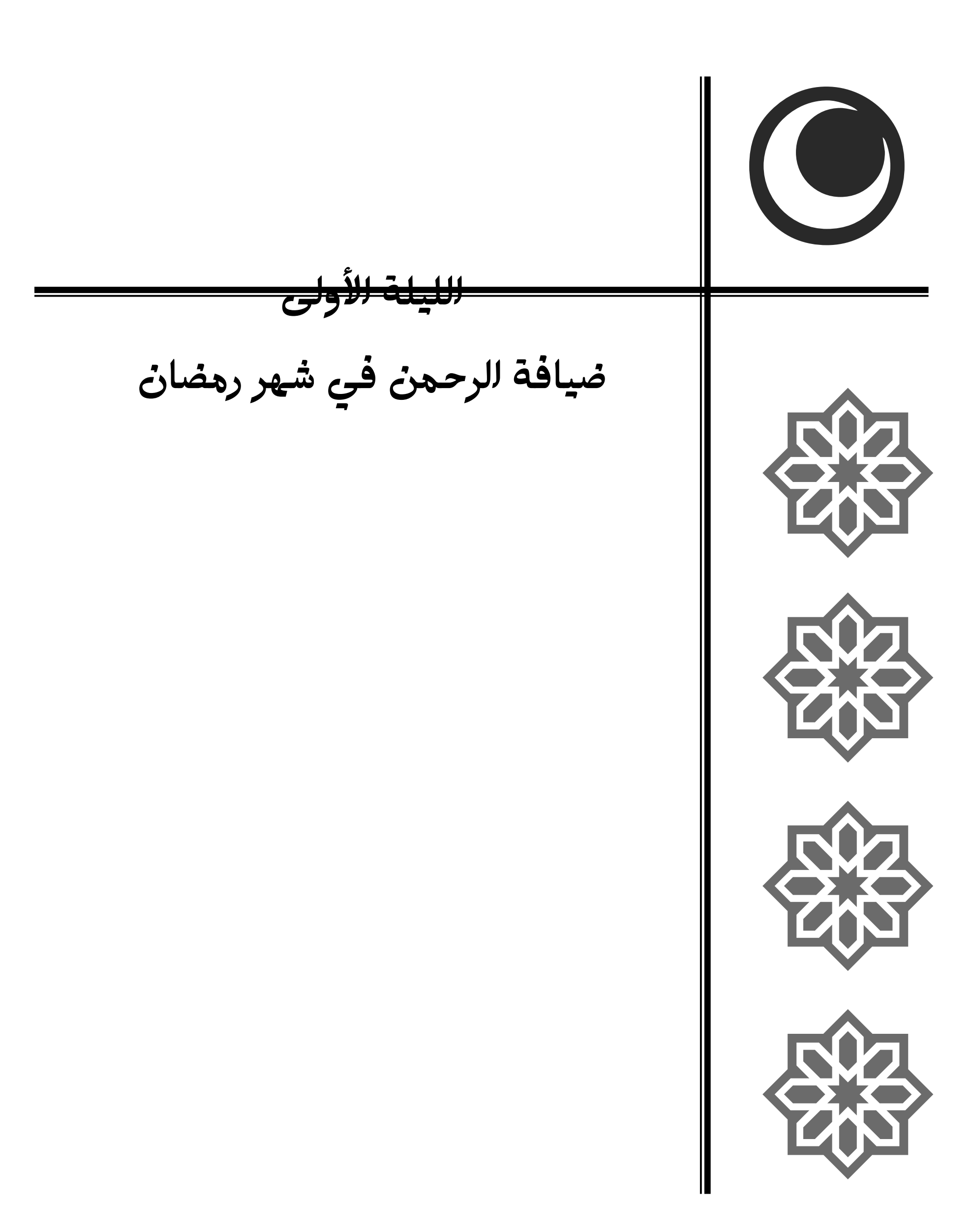
ثم قال: يا علي من قتلك فقد قتلني، ومن أبغضك فقد أبغضني ومن سبك فقد سبني لأنك مني كنفسي، روحك من روحي وطينتك من طينتي.

إن الله تبارك وتعالى خلقني وإياك، واصطفاني وإياك، واختارني للنبوة واختارك للإمامة فمن أنكر إمامتك فقد أنكر نبوتي.

يا علي أنت وصيي، وأبو ولدي وزوج ابنتي، وخليفتي على أمتي في حياتي، وبعد موتي، أمرك أمري، ونهيك نهيي، أقسم بالذي بعثني بالنبوة، وجعلني خير البرية، إنك لحجة على خلقه، وأمينه على سره، وخليفته على عباده.[٢]

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٩٥ ح٥٣/ الامالي للشيخ الصدوق: بحار الأنوار ٥٧، بحار الأنوار ٩٦: ٣٥٦، وسائل الشيعة ١٠: ٣١٣ ب٨ ح١٣٤٩٤.





الليلة الأولى

ضيافة الرحمن في شهر رمضان

- شهر الله المبارك
- التهيؤ لاستقبال شهر الله
- شهر الضيافة الإلهية
- ثلاثون ليلة على مائدة الرحمن

الليلة الأولى

ضيافة الرحمن في شهر رمضان

شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِی أُنْزِلَ فِیهِ الْقُرْآنُ هُدیً لِلنَّاسِ وَبَیِّناتٍ مِنَ الْهُدی وَالْفُرْقانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْکُمُ الشَّهْرَ فَلْیَصُمْهُ وَمَنْ کانَ مَرِیضاً أَوْ عَلی سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَیَّامٍ أُخَرَ یُرِیدُ اللهُ بِکُمُ الْیُسْرَ وَلا یُرِیدُ بِکُمُ الْعُسْرَ وَلِتُکْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُکَبِّرُوا اللهَ عَلی ما هَداکُمْ وَلَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ

البقرة: ١٨٥

ومّما جاء في خطبته ﷺ: أيّها الناس إنه قد أقبل إليكم شهر الله، بالبركة والرحمة والمغفرة، شهر هو عند الله أفضل الشهور، وأيامه أفضل الأيام، *ولياليه أفضل الليالي*، وساعاته أفضل الساعات، وهو شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله، وجعلتم فيه من أهل كرامة الله، أنفاسكم فيه تسبيح، ونومكم فيه عبادة، وعملكم فيه مقبولاً، ودعاؤكم فيه مستجاباً.



شهر الله المبارك

إن لشهر رمضان منزلة خاصة على سائر الشهور، وكثرة أسمائه ومعانيها تعكس فضله وشرفه وعظمته، فقد أطلق عليه شهر الله، حيث نسبه الله إلى نفسه تعظيماً لحرمته وتقديساً لمكانته، وإن كان كل شيء لله تعالى، فهو عز اسمه مالك الملك، إلا أنه اختار بعض الأزمنة والبقاع ونسبها إلى نفسه للتدليل على عظمتها ورفعة شأنها وبركتها، فعن النبي ﷺ: «إن لله خياراً من كل كما خلقه، فله من البقاع خيار، وله من الليالي والأيام خيار، وله من الشهور خيار، وله من عباده خيار، وله من خيارهم خيار، وأما خياره من البقاع فمكة والمدينة وبيت المقدس.. وأما خياره من الأيام فأيام الجمع والأعياد، وأما خياره من الشهور فرجب وشعبان وشهر رمضان،.. الحديث»[٣].

وسمي هذا الشهر أيضاً بشهر البركة والرحمة والمغفرة، حيث يتضاعف فيه الثواب أضعافه في غيره، «فمن تطوع فيه بصلاة كتب الله لـه براءة من النار، ومن أدى فيه فرضاً كان لـه ثواب من أدى سبعين فريضة فيما سواه من الشهور، ومن تلا فيه آية من القرآن كان لـه مثل من ختم القرآن في غيره من الشهور»[٤].

ويكفي أنّ فيه ليلة القدر التي تعدل ألف شهر، بل أكثر منه، كما أن رحمته تعالى وفيضه وإحسانه تتجلى فيه بأعظم مظاهرها، وأميز مصاديقها، حتى يصبح النوم فيه عبادة، والعمل فيه مقبول، والدعاء فيه مستجاب، كما أن مغفرته سبحانه تنبسط لعباده فيه فيقبل وفوداً من العاصين الراجعين إليه ويغفر ذنوبهم، وعن النبي ﷺ أنه قال: «شهر

---

(٣) بحار الأنوار ٣٧: ٥٢ ح٢٧.

(٤) الخطبة الشعبانية للنبي ﷺ، بحار الأنوار ٩٦: ٣٥٦ ح٢٥.

رمضان فرض الله صيامه، وسنّ قيامه، فمن صامه وقامه إيماناً واحتساباً، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[٥]، وقال أيضاً: «من صام شهر رمضان فحفظ فرجه ولسانه، وكفّ أذاه عن الناس غفر الله لـه ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر، وأعتقه من النار، وأحله دار القرار، وقبل شفاعته في عدد رمل عالج من مذنبي أهل التوحيد»[٦].

وسمي أيضاً شهر التوبة والإنابة، لأنه شهر قبول التوبة والرجوع إلى الله تبارك وتعالى، وسمي أيضاً شهر رمضان، و«رمضان» مشتقة من «الرمض» وهي بمعنى الهاجرة وشدة الحر[٧]، ولعله إشارة إلى ما يعانيه الصائم من الجوع والعطش، وقد ورد ما يدل على كراهة إفراد «رمضان» بالذكر، دون إضافة الشهر إليه، وقد علل هذا في بعض الأخبار بأن «رمضان» اسم من أسماء الله، وفي بعضها: أن البشر لا يفقهون ما رمضان، كما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لا تقولوا رمضان فإنكم لا تدرون ما رمضان، ولكن قولوا كما قال الله عز وجل: ﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾»[٨].

التهيؤ لاستقبال شهر الله

إن شهر رمضان باعتبار إقباله إلينا كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «قد أقبل عليكم شهر الله»، ينبغي أن نتهيأ لاستقباله على أحسن ما يكون قبل قدومه، بالتوبة إلى الله عن الذنوب، وترك كبائرها وصغائرها، والعزم على الاستفادة من هذه الضيافة العظيمة، ليأتي

(٥) بحار الأنوار ٩٦: ٣٤٩ ح١٧.
(٦) بحار الأنوار ٩٦: ٢٥٦ ح٢٤.
(٧) المعجم الوسيط ١: ٣٧٣.
(٨) وسائل الشيعة ١٠: ٣٢ ب ١٩ ح١٣٥٠٦.

شهر رمضان المبارك ونحن طاهرون من درن الذنوب والخطايا، وقد نفضنا عن قلوبنا وأنفسنا وعقولنا غبار التعلق بغير الله تعالى، وباعتبار أنه يقبل علينا كضيف يجب علينا إكرامه، بأن نستقبله أحسن ما يستقبل الضيف، ونرحب به بالتكبير والتهليل والتسبيح والاستغفار وتلاوة ما ورد من الأدعية في استقباله، وبالأخص دعاء الإمام زين العابدين ونودعه أيضا بالدعاء الوارد عنه عليه السلام في وداع شهر رمضان.

وينبغي أيضاً رد الحقوق إلى أصحابها ودفع المظالم قبل دخوله، والتسامح مع المؤمنين حتى لا يبقى ما يمنع من استجابة الدعاء، والقرب من الله تعالى، وفي الحقيقة كما نحن ضيوف عند الله تعالى وقد كتب ربنا على نفسه إكرامنا، كذلك شهر رمضان المبارك هو ضيف عندنا، وينبغي علينا إكرامه وتعظيمه.

شهر الضيافة الإلهية

مع دخول شهر رمضان المبارك تبدأ دعوة الله تعالى عباده إلى ضيافته، وما أعظم هذه الضيافة التي تعد بحق كرامة وسعادة للصائمين، وهي ضيافة خاصة واستثنائية يمنحها ويتفضل بها الباري جل وعلا على من عبد الله وأطاعه، وهي ضيافة ودعوة لعموم المسلمين، بل وللكافرين لأنهم جميعاً مكلفون بتكاليف ربهم، ومسؤولون عن إنجاز عظائمه وأحكامه، وإنما خص الكريم دعوته بالمؤمنين بقوله: ﴿يا أيّها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ﴾[٩] لأنهم الأولى بقبول دعوته، والأسرع إلى تنفيذ حكمه وهذه الدعوة العظيمة تحمل معناً عميقاً، وفهماً خاصاً، حيث أن بداهة الفطرة تنادي بلزوم

(٩) البقرة: ١٨٣.

تأدب الضيف عند مضيفه، وترك ما ينفره ويمنعه من دعوته، وسلوك كل ما يؤنسه ويسعده، كما أن على المضيف إكرام ضيفه، وإسعاده وطلب راحته، والمضيّف هنا هو الله، وقد كتب على نفسه إكرام ضيوفه المدعوين، فأجزل لهم الثواب، وقبلهم عنده، وتعطف عليهم بغفران ذنوبهم، وعتق رقابهم من النار، وبعد هذا فينبغي علينا نحن الضيوف أن نتأدب بحضرة المضيّف بترك الذنوب، وإلاّ حرمنا من هذه الضيافة الكريمة والإلتفاتة العظيمة والمنحة العظيمة الّتي تفضل بها علينا.

ثلاثون ليلة على مائدة الرحمن

ومن مظاهر كرم الله في هذا الشهر المبارك، أن الضيافة فيه لم تجعل ليوم أو أيام قلائل، بل دعا الله عباده على مائدة رحمته ولطفه وكرمه ثلاثين يوماً، وقد لوّن ونوّع ضيافته بكل ما يحتاجه الإنسان، ويتزود به، وما ينفعه ليوم لقائه، وإليك بعض ألوان هذه المأدبة المباركة:

١- **الأنفاس تسبيح:** قال رسول الله ﷺ: «أنفاسكم فيه تسبيح» وهذا غيض من فيض عطائه بحيث جعل أنفاس الصائم فيه تسبيحاً، أي ثوابه ثواب من سبّح الله تعالى في كل نهاره وليله، فإذا كان الإنسان - ما قيل - يتنفس في كل يوم وليلة، واحداً وعشرين ألف وستمائة مرة، فيكتب الله لـه بعدده تسبيحاً، ويثيبه عليه كمن سبح الله تعالى هذا العدد، وقد تفاوتت الأخبار ببيان فضل التسبيح وثوابه، ففي بعضها -كما جاء عن الصادق عليه السلام - قال: من قال: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم وبحمده، كتب الله لـه ثلاثة آلاف حسنة، ومحا عنه ثلاثة آلاف سيئة، ورفع لـه ثلاثة آلاف درجة،

وخلق منها طائراً في الجنة يسبح، وكان أجر تسبيحه له[١٠].

٢- النوم عبادة: قال رسول الله ﷺ: «ونومكم فيه عبادة» وهذا من كرمه، فإن النوم الذي فيه راحة الإنسان واستقراره، ولا يبذل فيه أي جهد عبادي، يجعله تعالى عبادة، فالصائم النائم في عبادة مستمرة وطاعة دائمة.

٣- العمل مقبول: قال رسول الله ﷺ: «وعملكم فيه مقبول»، وهذا لون ثالث من ألوان مائدة الرحمن، فإن عمل العامل قد يقبل منه وقد يرد، ولكن في شهر رمضان، وفي ضيافة الرحمن العمل مهما صغر يقبل ولا يرد، وهذا ضمان من رسول الله ﷺ لقبول الأعمال.

٤- الدعاء مستجاب: قال ﷺ: «ودعاؤكم فيه مستجاب»، فمهما دعا الإنسان - في غير حرام - يستجاب له، فإما أن يجعله الله تعالى لـه في الدنيا، أو يدخره للآخرة، وهذه فرصة استثنائية، ينبغي للصائم أن يستغلها، ليلجأ إلى بارئه، ويبوح لـه بحوائجه وطلباته.

٥- الأعمال مضاعفة: إن شهر رمضان عمّت بركاته إلى أن تضاعفت العبادة فيه أضعافها في غيره، فمن تطوع فيه بصلاة كتب الله لـه براءة من النار، ومن أدى فيه فريضة كان لـه ثواب من أدى سبعين فريضة فيما سواه من الشهور، ومن أكثر فيه من الصلاة على رسول الله ﷺ ثقّل الله ميزانه يوم تخف الموازين، ومن تلا فيه آية من

---

(١٠) ثواب الأعمال: نقلاً عن بحار الأنوار ٩٣: ١٨٢ ح١٧.

القرآن كان لـه مثل من ختم القرآن في غيره من الشهور[١١].

ويكفي عمل ليلة واحدة فيه، وهي ليلة القدر، فإنها خير من ألف شهر، أي ثلاثة آلاف يوم من غيرها، ويضاعف الله لمن يشاء.

٦- الكمالات مستحصلة: وأهم لون من ألوان هذه المائدة، أن شهر رمضان ميقات العبد مع ربه ليصلح ما خربته الأيام، ويعالج ما أفسدته الذنوب من روحه ونفسه وعقله، فيسترجع ما فقده من كمالاته، ويدنو من ربه، ويعود إلى خالقه، ولا تحصل هذه الكمالات، كما لا يدنو من ربه، إلا إذا أذاق نفسه ألم الطاعة، كما التذت بوهم سعادة المعصية، فكان الصيام بالجوع والعطش، وبالعبادة والطاعة والذكر، يستعيد بذلك نشاطه الروحي، ويشعر بلذة مناجاة الله عن لذائد الدنيا، ففي الخبر: أن موسى بن عمران عندما كان على جبل الطور يناجي ربه قلّ طعامه وشرابه بأقل مما كان عليه، لأنه كان يأنس بربه فيسلو عما سواه، وبالتذاذه بمناجاته ضعفت وقلت رغباته في غيره.

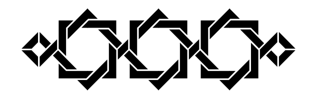
ومحض الكلام: إن الله تعالى بواسع ضيافته دعانا إليه، وعلى مائدته التي فيها ألوان وأصناف كثيرة من العطاء والرحمة والبركة، فحري بنا أن نستثمر هذا الظرف الاستثنائي لصقل أرواحنا، وتأديب أنفسنا، وعقال عقولنا، لنصبح عنده من المرحومين، ولا نخيب فنكتب في المحرومين.

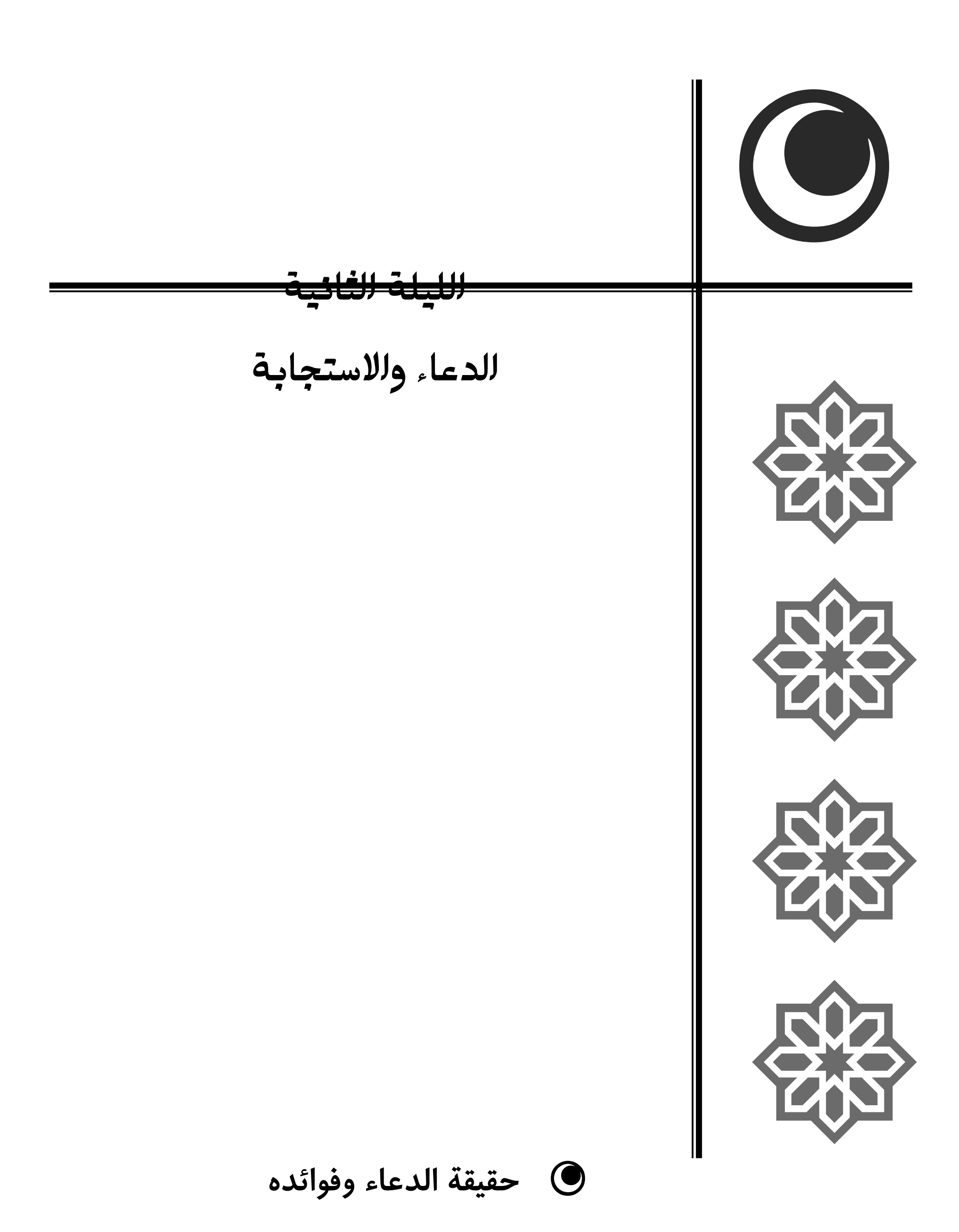
ولقد ضرب لنا أئمة أهل البيت (عليهم السلام) أروع وأعظم أمثلة الاستفادة من شهر رمضان المبارك، فهذا نبينا محمد (صلى الله عليه وآله) وقبل بعثته المباركة كان لا يلتقي في شهر رمضان مع أحد،

---

(١١) كما ورد في الخطبة الشعبانية الواردة في أول الكتاب.

بل كان يستغرق في جمال الله وعظيم مناجاته، ولذيذ خلوته به في غار حراء، كل ذلك حتى لا ينشغل بسواه ولا يتكلم فيه مع غيره، وكذا كانت سيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام حيث كانوا يعتبرون شهر رمضان المبارك الوقت الاستثنائي، فكانوا يعتكفون فيه ليواصلوا القرب إلى الله تعالى وبلوغ مراضيه حيث كانوا عليهم السلام يحثون على الاعتكاف فيه، وخصوصاً في العشر الأواخر منه.





الليلة الثانية

الدعاء والاستجابة

- حقيقة الدعاء وفوائده

- شروط استجابة الدعاء
- موانع استجابة الدعاء
- مستحبات وآداب الدعاء
- ملاحظات حول الدعاء

الليلة الثانية

الدعاء والاستجابة

وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ

البقرة ١٨٦

ومما جاءَ في خطبته ﷺ: «ودعاؤكم فيه مستجاب.. وارفعوا إليه أيديكم بالدعاء في أوقات صلواتكم ، فإنها أفضل الساعات ، ينظر الله عز وجل فيها بالرحمة إلى عباده ، يجيبهم إذا ناجوه ، ويلبيهم إذا نادوه ، ويستجيب لهم إذا دعوه».



من أهم الأعمال في شهر رمضان المبارك الدعاء، حتى عُدّ أحد أسمائه، وما ذلك إلا لاهتمام الشارع الأقدس بالدعاء في هذا الشهر العظيم، إذ أن شهر رمضان موسم الدعاء،

ووقت إثماره، ولهذا فلا بد أن يتعرف الداعي على حقيقته وشرائطه وموانع استجابته، كما لابد وأن يتعرف على كيفية الطلب والدعاء وآدابه، ليكون دعاؤه عن علم ومعرفة، لا لقلقة ألفاظٍ فارغة عن كل معرفة، وفيما يلي عرض موجز لهذه الأمور:

حقيقة الدعاء وفوائده

الدعاء هو نداء العبد ربه، وإقباله عليه، وهو روح العبادة وجوهرها فعن رسول الله ﷺ: «الدعاء مخ العبادة»(١٢)، والعبادة هي الغاية من الخلق، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(١٣)، وكذلك فإن الله تعالى لا يعبأ بالعباد لولا الدعاء، قال تعالى: ﴿قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْ لا دُعاؤُكُمْ﴾(١٤) وقد جعل الدعاء من أعظم ما يتقرب العبد به إلى ربه، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «عليكم بالدعاء فإنكم لا تتقربون بمثله»(١٥).

ومن الواضح أنَّ فائدة الدعاء كثيرة، فإنه يطهر النفس من درن الذنوب والآثام، كما يوطد العلاقة والارتباط مع الله، كما أنه به يدفع البلاء ويحل القضاء بعدما أبرم إبراماً، وهو سلاح المؤمن عند الشدائد والمصائب، وبه شفاء المريض ونزول البركة، وسعة الأرزاق.

---

(١٢) بحار الأنوار ٩٣: ٣٠٠.
(١٣) الذاريات: ٥٦.
(١٤) الفرقان: ٧٧.
(١٥) بحار الأنوار ٩٣: ٢٩٣/ ٢٢.

ولعلّ من أعظم فوائده فهم وإدراك الكثير من المعارف الإسلامية على الصعيد العقائدي والأخلاقي والتربوي، وهو ما تحمله أدعية أهل البيت من علوم إسلامية صاغوها في قوالب الدعاء، ويكفي للإذعان بهذه الفائدة العظيمة قراءة أدعية الصحيفة السجادية.

شروط استجابة الدعاء

قال الباري جل وعلا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[١٦].

تحدد هذه الآية المباركة شروطاً خاصة لاستجابة الدعاء:

أولاً) الإقبال بالدعاء والإخلاص في المسألة والصدق في الطلب: وقد أكده بقوله «أجيب دعوة الداعي إذا دعان» أي إذا دعا الله لا غيره، إذا كانت نيته خالصة في الطلب من الله تعالى، ومن هنا قال: ﷺ: «فاسألوا الله بنيات صادقة وقلوب طاهرة».

ثانياً) المعرفة لله تعالى: على الداعي أن يتعرف بالمقدار الممكن على الله تعالى من خلال أسمائه وصفاته وخلقه، وإلا فلو دعاه من دون أن يعرفه، فلا يستجاب له.

وقد سئل الصادق عليه السلام لماذا ندعو فلا يستجاب لنا؟! قال عليه السلام: لأنكم تدعون من لا تعرفونه»[١٧].

---

(١٦) البقرة: ١٨٦.

(١٧) بحار الأنوار ٩٣: ٣٦٨.

ثالثاً) الاستجابة لله فيما أمر: ومراعاة حدوده وعدم تجاوزها، وتعدّيها، «فليستجيبوا لي» فمن يستجيب لله فيما دعا إليه، استجاب لـه فيما دعاه. سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فما بالنا ندعوا فلا نجاب؟ قال عليه السلام: «لأن قلوبكم خانت بثمان خصال، أولها: أنكم عرفتم الله فلم تؤدوا حقه كما عليكم، فما أغنت عنكم معرفتكم شيئاً»(١٨).

رابعاً) طيب المكسب: فالمكسب من حل وطيب، شرط لاستجابة الدعاء. فعن النبي «من أحب أن يستجاب دعاؤه فليطيب مطعمه ومكسبه»(١٩)، وعنه صلى الله عليه وآله لرجل قال: أحب أن يستجاب دعائي، فقال لـه رسول الله صلى الله عليه وآله: «طهر مأكلك ولا تدخل بطنك الحرام»(٢٠).

ففي الحديث القدسي: «فمنك الدعاء وعلي الإجابة، فلا تحجب عني دعوة إلا دعوة آكل الحرام»(٢١).

خامساً) حضور القلب وقت الدعاء: ينبغي للداعي أن يكون حاضر القلب وقت الدعاء، مفكراً بما يدعوا، وخاشعاً إلى من يتوجه إليه بالدعاء.

---

(١٨) بحار الأنوار ٩٣: ٣٧٦.
(١٩) بحار الأنوار ٩٣: ٣٧٢.
(٢٠) عدة الداعي: ١٢٨.
(٢١) بحار الأنوار ٩٣: ٣٧٣.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يقبل الله دعاء قلب لاه»[٢٢]، وعنه صلى الله عليه وآله: «اعلموا أن الله لا يقبل دعاءً عن قلب غافل»[٢٣].

موانع استجابة الدعاء

وهناك مجموعة من الموانع ينبغي للداعي إزالتها ليتحقق مطلوبهُ ويستجاب دعاؤه، وهي:

١- **الذنب:** فعن الإمام الباقر عليه السلام: «إن العبد يسأل الله الحاجة فيكون من شأنه قضاؤها إلى اجل قريب، أو إلى وقت بطيء، فيذنب العبد ذنباً، فيقول الله تبارك وتعالى للملك: لا تقضِ حاجته واحرمه إيّاها، فإنه تعرض لسخطي واستوجب الحرمان مني»[٢٤].

وجاء في دعاء كميل: «اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء»

٢- **الظلم:** فمن موانع الاستجابة ظلم الآخرين، فعن الإمام علي عليه السلام: «إن الله عز وجل أوحى إلى عيسى بن مريم: قل للملأ من بني إسرائيل... إني غير مستجيب لأحد منكم دعوة ولأحد من خلقي قبله مظلمة»[٢٥].

٣- **مناقضة الدعاء للحكمة:** ينبغي أن لا يكون دعاء الداعي مناقضاً لحكمة الله في

---

(٢٢) الكافي ٢: ٣٧٢.
(٢٣) بحار الأنوار ٧٣: ٣٢٩.
(٢٤) بحار الأنوار ٧٣: ٣٢٩ح ١١.
(٢٥) بحار الأنوار ٤٦: ١٦ح ٩.

خلقه، فلا يصلح أن يدعو لطلوع الشمس من المغرب، وما شاكل ذلك.

فعن الإمام علي عليه السلام: إن كرم الله سبحانه لا ينقض حكمته، فلذلك لا تقع الإجابة في كل دعوة(٢٦).

وقد جاء رجلٌ لأمير المؤمنين عليه السلام يسأله عن قوله تعالى: ﴿ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، فما بالنا ندعو فلا نجاب؟ قال: إن قلوبكم خانت بثمان خصال:

أولها: أنكم عرفتم الله فلم تؤدوا حقه كما أوجب عليكم فما أغنت عنكم معرفتكم شيئاً.

والثانية: أنكم آمنتم برسوله ثم خالفتم سنته، وأمتّم شريعته فأين ثمرة إيمانكم.

والثالثة: أنكم قرأتم كتابه المنزل عليكم فلم تعملوا به، وقلتم سمعنا وأطعنا ثم خالفتم.

والرابعة: أنكم قلتم تخافون من النار- وأنتم في كل وقت تقدّمون إليها معاصيكم فأين خوفكم؟!

والخامسة: أنكم قلتم أنكم ترغبون في الجنة، وأنتم في كل وقت تفعلون ما يباعدكم منها فأين رغبتكم فيها؟!

والسادسة: أنكم أكلتم نعمة المولى ولم تشكروا عليها.

والسابعة: أن الله أمركم بعداوة الشيطان وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، فعاديتموه بلا قول، وواليتموه بلا مخالفة.

---

(٢٦) المصدر السابق.

والثامنة: أنكم جعلتم عيوب الناس نصب عيونكم، وعيوبكم وراء ظهوركم تلومون من أنتم أحق باللوم منه.

فأي دعاء يستجاب لكم مع هذا، وقد سددتم أبوابه وطرقه، فاتقوا الله وأصلحوا أعمالكم وأخلصوا سرائركم، وأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر فيستجيب الله لكم دعاءكم.(٢٧)

مستحبات وآداب الدعاء

هناك آداب كثيرة للدعاء منها.

١- **حسن الظن بالله في أنه يستجيب،** فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»(٢٨)، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «وإذا دعوت فاقبل بقلبك وظن حاجتك بالباب»(٢٩).

٢- **البسملة والتمجيد والصلاة على محمد وآله،** فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: لا يرد دعاء أولـه بسم الله الرحمن الرحيم(٣٠). وعن الصادق عليه السلام: إن كل دعاء لا يكون قبله تمجيد فهو أبتر(٣١)، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: صلاتكم عليّ إجابة لدعائكم وزكاة لأعمالكم(٣٢)،

---

(٢٧) بحار الأنوار: ٣٧٦/٩٣ ح١٧.
(٢٨) بحار الأنوار ٧٧: ١٧٥ح ٨.
(٢٩) بحار الأنوار٩٣: ٣٠٥ح ١.
(٣٠) بحار الأنوار٩٣: ٣١٣ ح١٧.
(٣١) بحار الأنوار ٩٣: ٣١٧ ح ٢١.
(٣٢) بحار الأنوار ٩٤: ٥٤ ح ٢٢.

وقال الصادق عليه السلام: لا يزال الدعاء محجوباً عن السماء حتى يصلى على محمد وعلى آل محمد[٣٣].

٣- مراعاة النظافة والطهارة واستقبال القبلة: وهناك شواهد كثيرة من الآيات والروايات.

٤- رفع اليدين حين الدعاء والمسح بهما على الوجه في آخره: فعن الإمام الصادق عليه السلام: ما أبرز عبد يده إلى الله العزيز الجبّار عز وجلّ إلا استحيا الله عز اسمه أن يردها صفراً حتى يجعل فيها من فضل رحمته ما يشاء، فإذا دعا أحدكم فلا يرد يده حتى يمسح على رأسه ووجهه»[٣٤].

٥- اختيار الأوقات الشريفة والأماكن المقدسة: إن اختيار الأوقات الشريفة أسرع للإجابة، كيوم عرفة وشهر رمضان، وليلة القدر، وليلة الجمعة ويومها ووقت السحر وهكذا.

وقيل: إن يعقوب إنما قال «سوف أستغفر لكم ربي» ليدعو في وقت السحر، فقيل إنه قام وقت السحر وأولاده يؤمّنون خلفه.

وأما اختيار الأماكن المقدسة للدعاء كالمساجد بالأخص المساجد الأربعة مسجد الحرام ومسجد النبي صلى الله عليه وآله ومسجد السهلة ومسجد الكوفة، والمراقد المشرفة كمرقد النبي صلى الله عليه وآله ومراقد الأئمة المعصومين عليهم السلام بالأخص مرقد الإمام الحسين عليه السلام وسائر

(٣٣) بحار الأنوار ٩٣: ٣١٢ح ٢٦.

(٣٤) الكافي ٢: ٣٤٢ ح٢.

الأماكن كعرفة ومنى فهي أقرب لاستجابة الدعاء.

٦- اغتنام الأحوال الشريفة للدعاء: فقد روي أن أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف في سبيل الله، وعند نزول الغيث وعند إقامة الصلاة المكتوبة، والدعاء بين الأذان والإقامة، والدعاء حالة السجود لقول النبي صلى الله عليه وآله «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»، ودعاء الصائم، فإنه لا يرد، لقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إن للصائم عند إفطاره دعوة لا ترد»[٣٥]، وهناك أوقات وحالات كثيرة مرجوة لإجابة الدعاء.

٧- الخضوع والخشوع والتضرع والبكاء حالة الدعاء: العمدة في آداب الدعاء الإقبال بالقلب بالخشوع والانكسار والترقيق والتفكر والتدبر في الدعاء، فعلى الداعي أن يكون خاضعاً ومتضرعاً وخاشعاً وباكياً على حاله معترفاً بذنبه يدعو الله رغبةً في ثوابه، وطمعاً في جنته ورهبة من عذابه وخوفاًمن عقابه وناره، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً﴾، وكذلك قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[٣٦].

٨- الإلحاح في الدعاء وبث الحاجات بين يدي الله: فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الله يحب الملحين في الدعاء»[٣٧] وعنه صلى الله عليه وآله: «إن الله يحب السائل اللحوح»[٣٨]. وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «إن الله تعالى يعلم ما يريد العبد إذا دعاه، ولكن يحب أن يبث

(٣٥) بحار الأنوار ٩٣: ٢٥٥.

(٣٦) الأعراف: ٥٥-٥٦.

(٣٧) بحار الأنوار ٩٣: ٣٠٠.

(٣٨) بحار الأنوار ٩٣: ٣٧٤.

إليه الحوائج، فإذا دعوت فسم حاجاتك»[٣٩].

٩- البدء بالدعاء للآخرين بالتعميم أو التخصيص: الدعاء لعموم المؤمنين الحاضرين والذين سبقونا بالإيمان يربطنا بالله تعالى، ويربطنا بالأمة المسلمة ممن آمن بالله تعالى في أعماق التاريخ وعلى وجه الأرض، قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا أحدكم فليعمم، فإنه أوجب للدعاء»[٤٠].

وهناك شواهد كثيرة من القرآن نذكر بعضها: ﴿رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عَذابَ النَّارِ﴾[٤١].

وأجمل من ذلك كله أن في هذه الأدعية القرآنية ما يجب أن يرفعها كل مسلم إلى الله تعالى في كل يوم مرات عديدة قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فإن الجميع يمثل الجميع في الدعاء للجميع، وهو من عجائب الدعاء في حساب الرياضيات.

وكما ورد التعميم في الدعاء كذلك ورد التخصيص في الدعاء للمؤمنين وتسميتهم بالدعاء بأسمائهم. وإن هذا النوع من الدعاء يربط صاحب الدعاء بالله تعالى وبإخوانه ومعارفه وأرحامه فعن الإمام الصادق عليه السلام: «من قدم أربعين من المؤمنين ثم دعا استجيب له»[٤٢]، وعن الحسن عليه السلام قال: «رأيت أمي فاطمة قامت في محرابها ليلة جمعتها، فلم تزل راكعة، ساجدة، حتى اتضح عمود الصبح، وسمعتها تدعو للمؤمنين

---

(٣٩) وسائل الشيعة ٤: ح٨٦٤٢.

(٤٠) ثواب الأعمال: ١٤٧، وعنه في بحار الأنوار ٩٣: ٣٨٦.

(٤١) البقرة: ٢٠١.

(٤٢) الكافي ٢: ٣٦٩ ح٥.

والمؤمنات، وتسميهم وتكثر الدعاء لهم ولا تدعو لنفسها بشيء، فقلت لها أماه: لم لا تدعين لنفسك، كما تدعين لغيرك؟ فقالت: يا بني الجار ثم الدار[٤٣].

وينبغي للإنسان أن يخص الوالدين أحياءً وأمواتاً بدعائه كما أمر القرآن بذلك بقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾[٤٤]. وهو من مصاديق بر الوالدين وهو دعاء مستجاب في حقهما فعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «كان أبي يقول: خمس دعوات لا يحجبن عن الرب تبارك وتعالى: دعوة الإمام المقسط، ودعوة المظلوم، ودعوة الولد الصالح لوالديه ودعوة الوالد الصالح لولده ودعوة المؤمن لأخيه بظهر الغيب»[٤٥].

١٠- الدعاء الجماعي: هناك أسلوب آخر للدعاء من أشهر أساليب الدعاء في القرآن والروايات والأدعية، وهو دعاء الجميع للجميع وطلب التأمين من المؤمنين.

فعن الإمام الصادق عليه السلام: «كان أبي إذا حزنه أمر جمع النساء والصبيان ثم دعا وأمّنوا»[٤٦]. وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «ما من رهط أربعين رجلاً اجتمعوا فدعوا الله عز وجل في أمر إلاّ استجاب الله لهم فإن لم يكونوا أربعين فأربعة يدعون الله عز وجل عشر مرات إلا استجاب الله لهم.... »[٤٧].

١١- مداومة الدعاء في الشدة والرخاء: ينبغي للإنسان المسلم المؤمن بالدعاء أن

---

(٤٣) علل الشرائع: ٧١.

(٤٤) الإسراء: ٢٤.

(٤٥) وسائل الشيعة ٤: ح٨٨٩٥.

(٤٦) الكافي ٢: ٤٨٧ ح٣.

(٤٧) المصدر السابق.

يدعو الله في السراء والضراء والشدة والرخاء، لأنه لم يسن الدعاء لمواقع الشدة والضنك كما يتبادر إلى أذهان الناس فلا يكون كالذين ذمهم الله بقوله تعالى: ﴿وَإِذا مَسَّ الإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٤٨]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً﴾[٤٩]، وهذا المعنى ورد أيضاً في آيات أخر من سورة يونس، والروم ولقمان والروايات أيضاً تؤكد على استحباب الدعاء في الشدة والرخاء لأن الدعاء كما قلنا هو عبادة، والإنسان دائماً يحتاج إلى التقرب إلى الله بالعبادة، فعن الإمام الصادق عليه السلام «من سره أن يستجاب لـه في الشدة فليكثر الدعاء في الرخاء»[٥٠].

١٢- التوسل برسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام في الدعاء: إن الله تعالى يدعونا أن نبتغي إليه الوسيلة بقوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[٥١]، وقال تعالى: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾[٥٢] وقد جعل الله تعالى هذه الوسائل لعباده الذين تعجز أعمالهم وأدعيتهم عن الصعود إليه رحمة بهم ولولا هذه الوسائل لم يتمكن الإنسان من أن يرفع دعاءه وتضرعه إلى الله ومن هذه الوسائل التي

(٤٨) يونس: ١٢.
(٤٩) فصلت: ٥١.
(٥٠) الكافي ٢: ٣٦٨.
(٥١) المائدة: ٣٥.
(٥٢) الإسراء: ٥٧.

يشير إليها القرآن العمل الصالح فإن الله تعالى يقول: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[٥٣].

ومن هذه الوسائل دعاء الرسول ﷺ واستغفاره لأمته في حياته ﷺ وبعد وفاته ﷺ، فإن رسول الله ﷺ حيٌّ يرزق عند الله، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾[٥٤].

ومن خلال تفسير الوسيلة في الآيات التي مرت والنصوص من الروايات الواردة عن الرسول ﷺ وأهل بيته يتضح لنا أن من أهم الوسائل التي عناها القرآن هو التوسل بالنبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام لمكانتهم عند الله وقربهم إليه فلا يخيب من توسل بهم، ونكتفي بحديث رواه داود البرقي حيث قال: «إني كنت أسمع أبا عبد الله عليه السلام أكثر ما يلح في الدعاء على الله بحق الخمسة، يعني رسول الله، وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام»[٥٥].

وذكر ابن حجر الهيثمي هذين البيتين من الشعر للإمام الشافعي:

آل النـــبي ذريعـــتي وهم إليه وسيلتي   أرجو بهم أعطى غداً بيد اليمين صحيفتي[٥٦]

(٥٣) فاطر: ١٠.

(٥٤) النساء: ٦٤.

(٥٥) وسائل الشيعة ٤: ١١٣٩ ح٨٨٤٤.

(٥٦) معاني الأخبار: ٢٧١.

ملاحظات حول الدعاء

١- إن الدعاء لا يعوّض عن العمل: فإذا كان بالإمكان تحقيق أمر من الأمور بالعمل، فلا يجوز الاكتفاء بالدعاء، لابد من حرث الأرض ونشر البذور وسقيها ثم بعد ذلك الدعاء، قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسانِ إِلاَّ ما سَعى﴾(٥٧)، وعن رسول الله ﷺ: «الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر»(٥٨).

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: أربعة لا يستجاب لهم دعاء:

رجل جالس في بيته يقول: يا رب ارزقني، فيقول له: ألم آمرك بالطلب؟ ورجل كانت لـه امرأة فدعا عليها فيقول: ألم أجعل أمرها بيدك؟ ورجل كان لـه مال فأفسده، فيقول: يا رب ارزقني، فيقول له: ألم آمرك بالاقتصاد؟ ألم آمرك بالإصلاح؟ ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً﴾(٥٩)، ورجل كان لـه مال فأدانه بغير بيّنة فيقول: «ألم آمرك بالشهادة»(٦٠).

٢- لا مصلحة في الاستجابة: قد تتوفر في نظرنا كل شروط الدعاء لكن استجابته ليست من مصلحتنا ولا من مصلحة الآخرين، لأننا لا نحيط بما يضرنا وما ينفعنا على الصعيد الفردي والاجتماعي، فقد نصرّ على تحقيق أمر، لو انكشفت لنا عواقبه ما طلبناه قال تعالى: ﴿وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ

---

(٥٧) النجم: ٣٩.
(٥٨) بحار الأنوار ٩٣: ٣١٢.
(٥٩) الفرقان: ٦٧.
(٦٠) بحار الأنوار ٩٣: ٣٦٠.

لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(٦١)، وقال تعالى: ﴿وَيَدْعُ الإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكانَ الإِنْسانُ عَجُولاً﴾(٦٢).

وما أجمل ما قيل: لو استجيب للعبد في كل ما سأل لخرج من حد العبودية، وإنما أمر بالدعاء ليكون عبداً، والله يفعل ما يشاء.

٣- تناقض دعوتين: قد نطلب شيئاً ونسأل الله تحققه، ويتضرع آخر إلى الله طالباً عدم تحقيقه، فماذا يفعل الله تجاه هاتين الدعوتين المتناقضتين؟

جاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «كان في بني إسرائيل رجل له ابنتان، فزوج إحداهما من رجل زراع، وزوج الأخرى من رجل فخار، ثم زارهما فبدأ بإمرأة الزراع فقال لها: كيف حالكم؟ فقالت: زرع زوجي زرعاً كثيراً، فإن أرسل الله السماء فنحن أحسن بني إسرائيل حالاً، ثم مضى إلى امرأة الفخار فقال لها: كيف حالكم، فقالت قد عمل زوجي فخاراً كثيراً، فإن أمسكت السماء فنحن أحسن بني إسرائيل حالاً، فانصرف وهو يقول: «اللهم أنت لهما» وكذلك نحن (٦٣).

٤- قد يستجاب الدعاء متأخراً: فإن تحققه في الواقع الخارجي يتأخر لمصلحة من المصالح، خلافاً لرغبتنا في الاستعجال. وقد يحدث هذا للأنبياء كما في قصة موسى وهارون إذ تضرعا إلى الله، وقال موسى: ﴿رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوالاً

(٦١) البقرة: ٢١٦.

(٦٢) الإسراء: ١١.

(٦٣) روضة الكافي ١: ١٢١.

فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الأَلِيمَ﴾[٦٤] فعن الإمام الصادق عليه السلام: «إن المدة بين هذه الاستجابة وغرق فرعون أربعون عاماً! »[٦٥] وفي بعض الروايات أن المدة تستغرق عشرين عاماً أو أكثر أو أقل[٦٦].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: إن العبد الولي لله يدعو الله عز وجل في الأمر ينوبه فيقول الله للملك الموكل به: اقض لعبدي حاجته، ولا تعجلها، فإني أشتهي أن أسمع نداءه وصوته، وإن العبد العدو لله ليدعو الله عز وجل في الأمر ينوبه فيقول للملك الموكل به: اقض حاجته وعجلها فإني اكره أن أسمع نداءه وصوته، قال: «فيقول الناس: ما أعطي هذا إلا لكرامته، وما منع هذه إلا لهوانه»[٦٧].

وبعد هذا كله فينبغي للمؤمن أن يتخذ من الدعاء سلاحاً، ومن المناجاة معراجاً، ولنا في ذلك خير قدوة من النبي صلى الله عليه وآله وآله، الذين كانوا يقبلون بقلبهم وجوارحهم على الله، فلم يكن النبي يقدم على عمل أو غزوة أو سفر الا ويستقبله بدعاء، ولم يكن أنيسه في أحزانه غير الدعاء، وهكذا أئمة أهل البيت، فعلي عليه السلام كان يرتقب الليل وسدوله ليخلو بربه بالدعاء والمناجاة، وكذا ولده الحسين عليه السلام حتى أنه عليه السلام طلب من جيش عمر بن سعد أن يؤجل القتال الى صباح يوم العاشر من المحرم ليقضي ليلته بالصلاة والدعاء هو

---

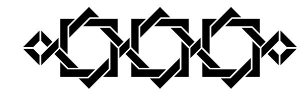
(٦٤) يونس: ٨٩.

(٦٥) بحار الأنوار ٩٣: ٣٧٥.

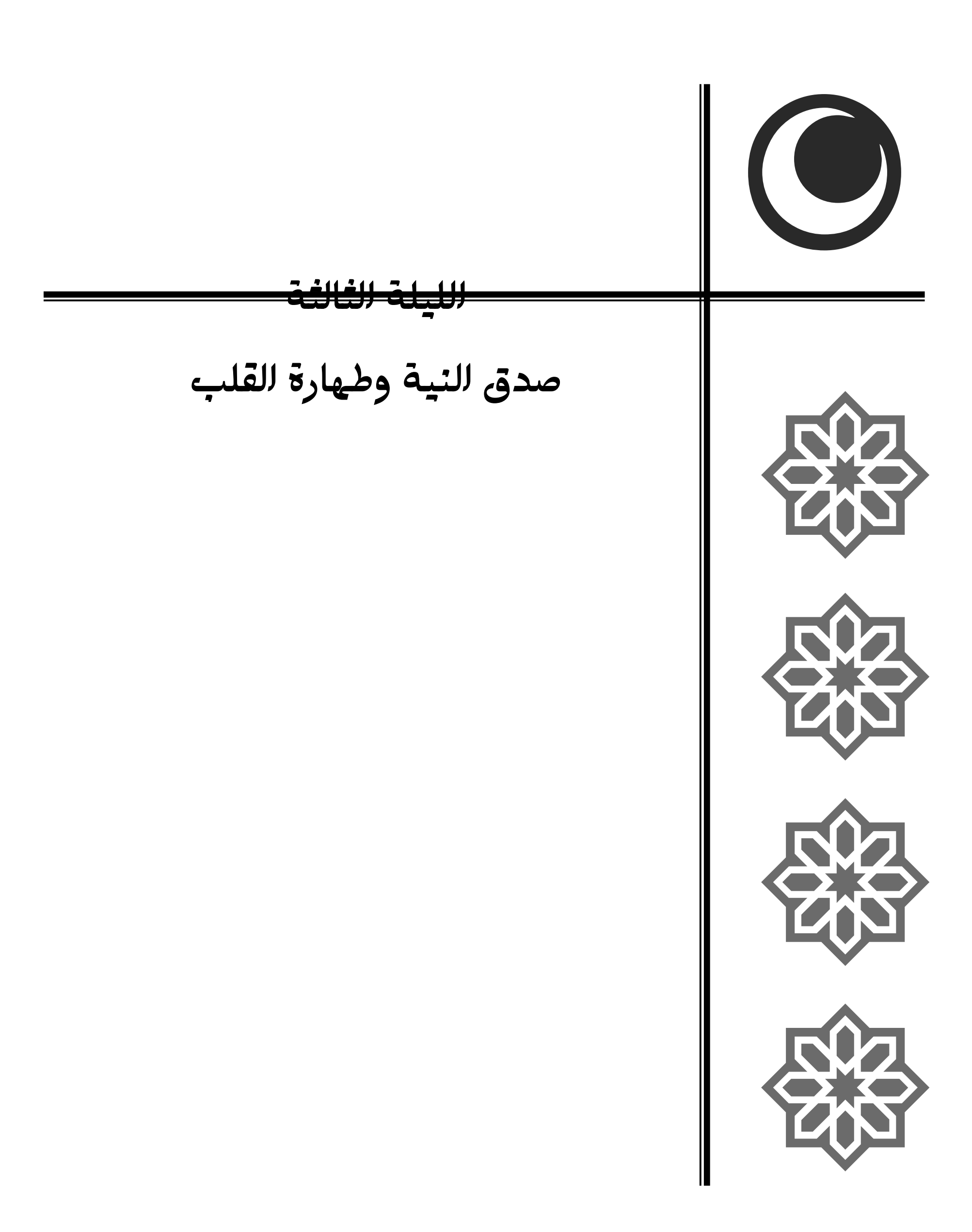
(٦٦) بحار الأنوار ٩٣: ٣٧٥.

(٦٧) الكافي ٤: ٢٤٦.

وأهل بيته وأصحابه، حتى كان يُسمع لهم دوي كدوي النحل، واستمر الإمام عليه السلام لا يفتر في الدعاء حتى الرمق الأخير الذي كان يقول فيه: اللهم إن كنت حبست عنا النصر فاجعله لما هو خير وأبقى، ولا يخلو موقف من مواقفه في كربلاء إلاّ ويشخص بنظره إلى السماء، ويدعو الله ليدلل على حقيقة مهمة ، وهي أنه كما أن الإنسان لا يفتر لحظة عن سلاحه، لأنه يرى به بقاءه وحياته، كذلك ينبغي أن لا يفتر عن الدعاء ومناجاة الله تعالى.







الليلة الثالثة

صدق النية وطهارة القلب

- اهمية النية وأثرها
- القلب في الكتاب والسنة
- القلوب المريضة علاجها

الليلة الثالثة

صدق النية وطهارة القلب

وَما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَه الدِّينَ

البينة: ٦

ومما جاء في خطبته ﷺ: ودعاؤكم فيه مستجاب فاسألوا الله ربكم بنيات صادقة وقلوب طاهرة أن يوفقكم لصيامه وتلاوة كتابه فإن الشقي من حرم غفران الله في هذا الشهر العظيم.



أهمية النية وأثرها

النية: هي القصد والإرادة المحركة للإنسان نحو الفعل، وهي واسطة بين العلم والعمل، إذ ما لم يعلم الشيء لم يمكن قصده، وما لم يقصده لم يصدر عنه، فلابد من النية ولا عمل إلا بالنية.

ثم إنه لما كان غرض الإنسان العامل العابد الوصول إلى مقصد معين، وهو الله تعالى، فلابد من تجريد النية من كل الشوائب الدنيوية، وذلك بالإخلاص والصدق في النية الذي جاء في الخطبة النبوية الشريفة قوله ﷺ: «فاسألوا الله بنيات صادقة» والروايات العديدة وقد أكد القرآن على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَه الدِّينَ﴾[٦٨].

فأساس العمل الصحيح المقبول هو العمل الذي فيه الإخلاص والنية الصادقة، وحتى أنّها أفضل من العمل؛ لقول رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهي إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٦٩] ولقول الإمام الصادق عليه السلام: «نية المؤمن خير من عمله، ونية الكافر شر من عمله، وكل عامل يعمل على نيته»[٧٠].

أما كيف تكون نية المرء خيراً من عمله؟ فهذا ما سأله زيد الشحام من الإمام الصادق عليه السلام بقوله: كيف تكون النية خيراً من العمل؟ فقال عليه السلام: «إن العمل ربما يكون رياءً للمخلوقين والنية خالصة لرب العالمين، فيعطي الله عز وجل على النية ما لا يعطي على العمل»[٧١].

وقال الفيض الكاشاني في معنى الحديث: «والذي يظهر لي أن ذلك لأن المؤمن ينوي

---

(٦٨) البينة: ٦.

(٦٩) إحياء علوم الدين٤: ٢٣٢، وسائل الشيعة ١: ٣٨.

(٧٠) الكافي٢: ٨٤٣، بحار الأنوار ٧: ٢٣٧.

(٧١) وسائل الشيعة ١: ٣٨ وعلل الشرايع ٢: ٥٢٤.

خيرات كثيرة لا يساعده الوقت على عملها، فكان الثواب المترتب على نياته أكثر من الثواب المترتب على أعماله»[٧٢] وإلى هذا المعنى أشارت الروايات التالية: فعن الإمام الصادق عليه السلام إن العبد الفقير ليقول: «يا رب ارزقني حتى أفعل كذا وكذا من البر ووجوه الخير فإذا علم ذلك منه بصدق النية كتب الله لـه من الأجر مثل ما يكتب لـه لو عمل»[٧٣] وعنه عليه السلام: «إن العبد لينوي من نهاره أن يصلي بالليل فتغلبه عينه فينام، فيثبت الله لـه صلاته ويكتب نفَسه تسبيحاً ويجعل نومه صدقة»[٧٤] إذن، فالنية روح الأعمال وحقيقتها، ولها التأثير على الأعمال في الدنيا والجزاء في العقبى، فإن كانت خالصة لوجه الله فهي ممدوحة، وكان جزاؤها خيراً وثواباً، وإن كانت مشوبة بالأغراض الدنيوية فهي مذمومة، وكان جزاؤها شراً وعقاباً، قال الإمام الصادق عليه السلام: «إن المؤمن لينوي الذنب فيحرم الرزق»[٧٥]، وروي عنه عليه السلام: «إن من حسنت نيته زاد الله في رزقه، وإن صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم»[٧٦]، وروي عنه عليه السلام: «أن الله يحشر الناس على نياتهم يوم القيامة»[٧٧]، وروي عنه عليه السلام؛ أيضاً: «إنما خلد أهل النار في النار؛ لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو خلدوا فيها أن يعصوا الله أبداً، وإنما خلد أهل الجنة في الجنة لأنّ نياتهم أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً. فبالنيات خلد هؤلاء ثم تلا:

---

(٧٢) الحقائق في مجالس الأخلاق: ٢٠٨.

(٧٣) الكافي ٢: ٨٥، المحاسن: ٢٦١.

(٧٤) علل الشرائع ٢: ٥٢٤.

(٧٥) الكافي ٢: ٨٥، علل الشرائع ٢: ٥٢٣.

(٧٦) بحار الأنوار ٧٠: ٢٠٨.

(٧٧) المحاسن للبرقي: ٢٦٢.

«كل يعمل على شاكلته»[٧٨] قال: «على نيته»[٧٩].

وفي الرواية المنقولة بشأن المعاصرين لرسول الله ﷺ والأئمة عليهم السلام يلاحظ بوضوح أهمية النية والقصد في تعيين منزلة الأفراد، ففي غزوة تبوك التي تحمّل المسلمون منها ألوان العسر والمشقة بسبب شدة الحر وقلة المؤونة بحيث أصابهم الجوع والعطش حتى همّ قوم بالرجوع. قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إنّ بالمدينة أقواماً ما قطعنا وادياً ولا وطأنا موطئاً يغيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة، ولا أصابتنا مخمصة، إلا شاركونا في ذلك وهم في المدينة، «قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله، ولم يسيروا معنا؟! فقال: حسبهم العذر، فشاركونا بحسن النية»[٨٠].

وروي أنّ رجلاً من المسلمين قتل في إحدى الغزوات وكان يدعى «قتيل الحمار» لأنه قاتل رجلاً ليأخذ حماره[٨١].

وبعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، ووصول خبر شهادته إلى المدينة، همَّ الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري بزيارة قبره وهو آنذاك شيخ ضرير، فوصل إلى القبر ومعه عطية بن سعد بن جنادة الكوفي، فوقع جابر على القبر، وأغمي عليه، ثم أفاق فندب الحسين ورثاه ثم قال: «السلام عليكم أيتها الأرواح التي حلت بفناء الحسين وأناخت برحله، أشهد أنكم أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة، وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن

---

(٧٨) الإسراء: ٨٤.
(٧٩) الكافي ٢: ٨٥، علل الشرائع ٢: ٥٢٣.
(٨٠) جامع السعادات ٣: ١١٣.
(٨١) جامع السعادات ٣: ١١٣.

المنكر، وجاهدتم الملحدين، وعبدتم الله حتى أتاكم اليقين، والذي بعث محمداً بالحق نبياً لقد شاركناكم فيما دخلتم فيه».

فسأله عطية متعجباً: وكيف نكون قد شاركناهم ولم نساهم معهم في قتال؟ قال جابر: «يا عطية سمعت حبيبي رسول الله ﷺ يقول: من أحب قوماً حشر معهم، ومن أحب عمل قوم أشرك في عملهم والذي بعث محمداً بالحق نبياً إن نيتي ونية أصحابي على ما مضى عليه الحسين عليه السلام وأصحابه»[٨٢].

القلب في الكتاب والسنة

اهتم الناس قديماً وحديثاً بالقلب وهو موضع اهتمام الأنبياء والأوصياء والحكماء والأدباء وغيرهم، ولكن هل القلب الذي اهتم به هؤلاء هو نفسه الذي اهتم به الأطباء؟، وبعبارة أخرى هل المضخة الدموية هي موطن الآمال والآلام والهدى والضلال والحب والبغض، والأمن والخوف، والفرح والحزن، والرقة والقوة إلى غير ذلك من الأحاسيس والمشاعر؟ أم لابد لهذه الأحاسيس من موطن آخر.

ورغم أن معرفة القلب ليست ضرورية وإنما من الضروري هو معرفة أنواعه وحالاته وصفاته ولكن لعل القارئ العزيز يريد معرفة ذلك فنقول: إن للقلب معنيين شائعين:

الأول: قطعة اللحم الصنوبرية الشكل، تلك المضخة الدموية الواقعة في وسط يسار الصدر والتي هي الفؤاد كما أشار الى ذلك القرآن الكريم.

---

(٨٢) بشارة المصطفى: ٨٩.

الثاني: الجوهرة الروحانية المتصلة والمتعلقة بهذا القلب ويقال لها: النفس والروح وهي العالمة وهي مورد التكليف الإلهي، أما كيفية تعلقها بالقلب الجسماني فهو أمر تحير فيه العقلاء والحكماء.

ويتضح لنا من خلال الآيات والروايات ما ذكره الحكماء والمفسرون ومنهم العلامة الطباطبائي «ره» أن المراد من القلب هو المعنى الثاني أي الروح والنفس، وللنفس والقلب حالات وتقسيمات:

منها النفس الملهمة: قال تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها ۞ فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها**﴾[٨٣].

ومنها النفس الأمارة بالسوء: قال تعالى: ﴿**وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[٨٤].

ومنها النفس اللوامة قال تعالى: ﴿**وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾[٨٥].

ومنها النفس المطمئنة قال تعالى: ﴿**يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾[٨٦].

والنفس والقلب المطمئن بالله هو القلب السليم الطاهر الذي قصده الرسول ﷺ في خطبته الشريفة والقلوب الطاهرة تحصل بترك الذنوب والمعاصي والابتعاد عن الإثم

---

(٨٣) الشمس: ٧-٨.

(٨٤) يوسف: ٥٣.

(٨٥) القيامة: ٢.

(٨٦) الفجر: ٢٧-٣٠.

والمعصية، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾[٨٧].

وتؤكد بعض الأخبار هذا المعنى فعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «القلب على ثلاثة أنواع: قلب مشغول بالدنيا وقلب مشغول بالعقبى وقلب مشغول بالمولى: أما القلب المشغول بالدنيا فله الشدة والبلاء وأما القلب المشغول بالعقبى فله الدرجات العلى وأما القلب المشغول بالمولى فله الدنيا والعقبى والمولى»[٨٨].

وقال صلى الله عليه وآله: إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد قيل: فما جلاؤها؟ قال صلى الله عليه وآله: ذكر الموت وتلاوة القرآن[٨٩] وقال الإمام علي عليه السلام: «إن للقلوب إقبالاً وادباراً، فإذا أقبلت فاحملوها على النوافل، وإذا أدبرت فاقتصروا بها على الفرائض»[٩٠].

القلوب المريضة وعلاجها

كما أن لبدن الإنسان سلامةً ومرضاً، فكذلك قلبه لـه سلامة ومرض وسلامة الجسم أن تكون تمام أجزائه صحيحة تؤدي دورها، ومرضه ذهاب عضو منه أو ذهاب خاصيته ونتيجة ذلك الألم وصعوبة الحياة.

وسلامة القلب في أن تظهر منه، وتترتب عليه جميع خصائص الإنسانية وآثارها؛ بأن

---

(٨٧) الأحزاب: ٥٣.

(٨٨) محاسبة النفس، لابن طاووس: ٣٥.

(٨٩) نهج الفصاحة، ذو الترجمة الفارسية: ٣٣٩.

(٩٠) نهج البلاغة، الخطبة: ١٧٦ ط صبحي الصالح.

يكون القلب يملك اليقين والاطمئنان بالنسبة للمعارف والحقائق، وأن يكون مطهّراً من جميع الأمور القبيحة والحيوانية.

ومرض القلب: الريب والإنكار والحقد والحسد والبخل والاستكبار وغيره من الذنوب والرذائل الأخلاقية، وعلاج جميع هذه الأمراض النفسية والروحية بيد الأنبياء والأولياء وأفضل نسخة كتبوها للعلاج هو: ذكر الله وذكر الموت ولقد كان رسول الله ﷺ طبيباً دوّاراً بطبه ليعالج هؤلاء المرضى كما وصفه الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «للجسم ستة أحوال الصحة والمرض والموت والحياة والنوم واليقظة، وكذلك الروح، فحياتها علمها، وموتها جهلها، ومرضها شكها، وصحتها يقينها، ونومها غفلتها ويقظتها حفظها»[٩١].

وعنه عليه السلام: «ألا وإن من البلاء الفاقة وأشد من الفاقة مرض البدن واشد من مرض البدن مرض القلب، ألا وإنّ من النعم سعة الحال وصحة البدن وأفضل من صحة البدن تقوى القلب»[٩٢] أي: الطهارة من أنواع الأوساخ والذنوب.

وعندما يكون القلب مطهراً من أنواع الذنوب فهو القلب السليم الذي أشار إليه القرآن الكريم: بقوله: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ ۞ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٩٣]، وعندما يكون القلب مملوءاً بالذنوب فهو القلب المريض الذي أشار إليه القرآن المجيد

---

(٩١) بحار الأنوار ١٤: ٣٩٨.

(٩٢) بحار الأنوار ٧: ٥١.

(٩٣) الشعراء: ٨٨-٨٩.

بقوله: «في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا»[٩٤].

والأمراض القلبية المذكورة في القرآن والأحاديث كثيرة أعظمها قسوة القلب، إذ بالإضافة إلى كونه مرضاً بحد ذاته، كذلك تنتج عنه أمراض أخرى روحية وبدنية.

ومعنى **قسوة القلب:** غلظ القلب وصلابته وعدم تأثره بالمواعظ والعبر في مقابل رقة القلب وخشيته وتأثره.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾[٩٥].

وقال تعالى: ﴿أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٩٦].

هناك أسباب عديدة تؤثر في قسوة القلب منها طول الأمل والحرص وكثرة الكلام والنوم، ولكن أهم هذه الأسباب على الإطلاق ارتكاب الذنوب، قال أمير المؤمنين عليه السلام «ما قست القلوب إلا بكثرة الذنوب»[٩٧] وقال عليه السلام: لا وجع أوجع للقلوب من الذنوب[٩٨] ولقسوة القلوب آثار وخيمة فهي تسبب الحرمان من الدعاء ولذة العبادة

(٩٤) البقرة: ١٠.

(٩٥) البقرة: ٧٤.

(٩٦) الحديد: ١٦.

(٩٧) بحار الأنوار ٧٠: ٥٥.

(٩٨) بحار الأنوار ٧٣: ٤٤٢.

والمناجاة.

وعن الصادق عليه السلام: «إن الله عز وجل لا يستجيب دعاء بظهر قلب قاسي»[٩٩]، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن أبعد الناس من الله القاسي القلب»[١٠٠].

وحياة القلوب بالعلم والموعظة والحكمة ومجالسة العلماء، وبالعبادة والمناجاة وتلاوة القرآن وذكر الموت، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ذكر الله شفاء القلوب»[١٠١] وقال صلى الله عليه وآله: «إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد قيل فما جلاؤها؟ قال: ذكر الموت وتلاوة القرآن»[١٠٢].

ومن القلوب المريضة تلك القلوب التي وقف أصحابها بكل جرأة واستكبار لحرب ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله فكانوا أبعد الناس من الله تعالى، ولو درسنا حياة هؤلاء، كعمر بن سعد وشَمِر وشبث بن ربعي، لوجدنا أنهم من كثرة ذنوبهم قست قلوبهم حتى وصلوا إلى درجة ما كانوا يفقهون ما يخاطبهم به الحسين عليه السلام مما فيه هدايتهم ونجاتهم، فيقف الحسين عليه السلام في يوم العاشر من المحرم، ويقول لهم: «ألست ابن بنت نبيكم؟ والله لا يوجد في شرق الأرض وغربها ابن بنت نبي غيري» فلم يجبه أحد، فقال لهم: هل جئتُ بدين الله ببدعة، أو أرقت دماً حتى تقاتلوني؟ فنادوا يا حسين إنّا لا نفهم ما تقول.

فقال الإمام الحسين عليه السلام: يا عباد الله إني عذت بربي وربكم أن ترجمون إني أعوذ

(٩٩) أصول الكافي: الكتاب الدعاء.

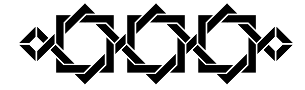
(١٠٠) مستدرك الوسائل: كتاب الجهاد باب ٧٣.

(١٠١) نهج الفصاحة ذو الترجمة الفارسية: ٣٣٩.

(١٠٢) المصدر السابق: ٦.

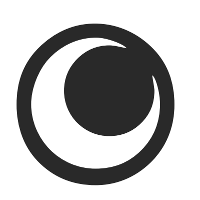
بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، وأخذ زهير بن القين ينصحهم ويرشدهم وكذا بُرير، ولكن وكما قال لهم الحسين: إن القوم استحوذ الشيطان على قلوبهم[(١٠٣)]، نعم استحوذ عليهم الشيطان فسلبهم الفهم والإدراك.

نعم لم يفهموا ما يقول ما دام على قلوبهم أقفالها، حتى أقدموا على ارتكاب أفجع وأبشع جريمة عرفها التاريخ، وهي قتل ابن بنت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) الامام الحسين (عليه السلام) وأهل بيته وأصحابه في كربلاء يوم العاشر من محرم الحرام.



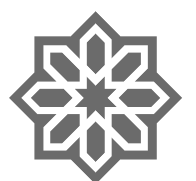
(١٠٣) نفس المهموم: ٥١٦.

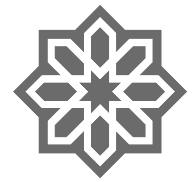


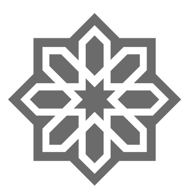


الليلة الرابعة

أهمية الصيام وفوائده









- أهمية الصوم وعلة تشريعه
- فوائد وآثار الصوم وآثاره
- درجات الصوم والصائمين
- الصوم المندوب وعلة تشريعه



الليلة الرابعة

أهمية الصيام وفوائده

يا أيّها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

البقرة: ١٨٣

وعن رسول الله ﷺ: يا جابر هذا شهر رمضان من صام نهاره وقام ورداً من ليله، وعفّ بطنه وفرجه، وكفّ لسانه خرج من ذنوبه كخروجه من هذا الشهر فقال جابر: يا رسول الله ما أحسن هذا الحديث! فقال رسول الله ﷺ: «يا جابر ما أشد هذه الشروط».

بحار الأنوار ٩٦: ٣٧١



أهمية الصوم وعلة تشريعه

الصوم في المصطلح الإسلامي عبادة تعني الامتناع عن تناول المفطرات كالأكل والشرب وغيرهما من طلوع الفجر إلى الغروب بنية التقرب إلى الله تعالى؛ وقد أوجبه الله على المسلمين كما أوجبه على غيرهم من الأمم السابقة، فكان مورد اهتمام الأنبياء

والأولياء، وهو من أركان الدين ودعائم الإسلام وجُنّة من النار، وباب عبادة الله، كما ورد في الأحاديث الشريفة المروية عن النبي ﷺ وأهل بيته الأطهار.

وقد فرض الله الصيام في أواخر السنة الثانية من الهجرة وقبيل شهر رمضان المبارك ونزلت الآيات تشرع الصوم على المسلمين جميعاً، ولكن خاطب الله المؤمنين لأنهم أولى بقبول هذا التشريع والحكم الجديد، ولأنّ العبادة لا تصح إلاّ منهم، وتكمن أهمية الصوم في أن المولى جل وعلا قد نسبه لنفسه، كما ورد ذلك في حديث قدسي قال تعالى: «الصوم لي وأنا أجزي عليه».

وإنما كان الصوم لله مع أن سائر العبادات لـه أيضاً لوجهين:

الأول: لأنه عبادة سرية لا يعلمها إلا الله فلا يمكن الرياء فيها ما لم يبح بها الصائم، إذ ليس فيه عمل يشاهَد.

والثاني: أن الصيام قهر لعدو الله وهو الشيطان، فإن وسيلة الشيطان الشهوات، والشهوات تقوى بالأكل والشرب وتنكسر بالجوع والعطش فتتهيأ النفس للإقبال إلى الله والارتقاء من النفس البهيمية إلى النفس الروحانية، والحصول على التقوى والقرب الإلهي.

صحيح أن هنالك طرقاً عديدة للحصول على التقوى، ولكن الصوم هو الطريق الأفضل والأسرع، لأن أساس تسلط الشيطان هو الذنوب والمعاصي والصائم الذي يكف نفسه عن الشهوات والمشتهيات المباحة كالأكل والشرب وغيرها طوال شهر رمضان فهو يتدرب على إتّقاء المحرمات واجتنابها، ومن أجاب الله وأطاعه في المباحات فهو في المحرمات والمعاصي أسمع وأطوع، وبذلك تحصل لـه ملكة التقوى.

ومن أسباب وعلل تشريع الصوم هو تذكر الناس بأحوال ومواقف يوم القيامة، وذلك بسبب الجوع والعطش، كما أشار إليه النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في خطبته الشريفة: «واذكروا بجوعكم وعطشكم جوع يوم القيامة وعطشه»، وإذا تذكر الصائم يوم الظمأ الأكبر خاف الله واتقاه على فقره، يقول الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنما أمروا بالصوم لكي يعرفوا ألم الجوع والعطش فيستدلوا على فقر الآخرة»[١٠٤].

ومن أسباب وعلل تشريع الصوم هو تحسيس الأغنياء بما يعانيه الفقراء، وهو الذي أشار إليه الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: «إنما فرض الله الصيام ليستوي به الغني والفقير»[١٠٥]، وقد يمكن تحسيس الأغنياء بما يعانيه الفقراء عن طريق الكلام ولكن الصوم يعطي هذه المسألة الاجتماعية المهمّة لوناً حسياً، فالصائم يشعر بنفسه ألم الفقر والجوع، بل ويعيشه في جوارحه فيرق قلبه على الضعيف ويؤدي إلى الفقير ما افترض الله لـه في أمواله، ويرحم الجائع المسكين.

لاشك أنه لا يمكننا أن نعرف جميع علل تشريع الصوم، ولعل هناك عوامل وأسباباً لم تُبيّن لنا ولكن يمكننا أن نستلهم بعض العلل والأسباب الأخرى من خلال ذكر بعض فوائد الصوم وآثاره الدنيوية والأخروية، وهو ما سنتعرض لـه في البحث التالي.

---

(١٠٤) وسائل الشيعة ٧: ٤.

(١٠٥) وسائل الشيعة ٧: ٤.

فوائد الصوم وآثاره

١- الفوائد الصحية للصوم:

إن أهمية الإمساك عن الطعام والشراب لفترة من الزمن في علاج أنواع الأمراض شائعة في الطب القديم والحديث، لأن العامل في كثير من الأمراض الجسمية هو الإسراف في تناول الأطعمة المختلفة وامتلاء المعدة، فعن رسول الله ﷺ: «المعدة بيت كل داء والحمية رأس كل دواء»[١٠٦]. وقال ﷺ: «صوموا تصحوا»[١٠٧] والصوم يحرق الفضلات المتراكمة على شكل مواد دهنية وهي في الواقع عملية تطهير شاملة للبدن، إضافة إلى انه استراحة مناسبة لجهاز الهضم وتنظيفه، وهذه الاستراحة ضرورية لهذا الجهاز المنهمك في العمل طوال السنة.

وبديهي أن الصائم ينبغي لـه أن لا يكثر من الطعام عند الإفطار والسحور كي تتحقق الآثار الصحية لهذه العبادة المهمة. وكثرة الطعام والشراب يثقل المعدة فيسبب عدم التوازن فيثقل على الدماغ ويقلل من قدرة الفكر والحافظة، ولذا قال لقمان لابنه: «يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الجوارح عن العبادة»، والصوم بعكس ذلك فإنه يزيد في الفكر والحافظة ويسهل العبادة وقد ورد في الحديث أنه باب العبادة، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «ثلاث يذهبن البلغم ويزدن في الحفظ: السواك والصوم وقراءة القرآن»[١٠٨].

---

(١٠٦) بحار الأنوار: ١٤.

(١٠٧) مستدرك الوسائل ١: ٥٩.

(١٠٨) وسائل الشيعة ٧: ٢٩٢.

٢- الفوائد المعنوية والروحية للصوم:

الحصول على القرب الإلهي والوصول إلى التقوى هو من أهم الفوائد المعنوية للصوم وأسباب تشريعه كما مر بيان ذلك، فالصائم يحصل على صفاء القلب والطمأنينة والسكينة، فيورث الحكمة «ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً» فعن رسول الله ﷺ في ليلة المعراج أنه قال: يا رب ما ميراث الصوم قال: يورث الحكمة، والحكمة تورث المعرفة، والمعرفة تورث اليقين، فإذا استيقن العبد لا يبالي كيف أصبح بعسر أم بيسر»[١٠٩].

ومن الفوائد المعنوية للصوم تقوية الإرادة والصبر وهما مهمان في تحمل الكثير من المصائب والتغلب على المشاكل، ولذا فسر الصبر بالصوم، فعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله: «واستعينوا بالصبر والصلاة» قال: «الصبر هو الصوم»[١١٠]. ووصف الرسول الأكرم شهر رمضان المبارك بأنه «شهر الصبر».

ومن الفوائد المعنوية للصوم بالأخص صوم شهر رمضان هو التمرين والممارسة على الاستيقاظ في السحر والاستفادة من بركاته والتوفيق لأداء صلاة الليل وقراءة القرآن والأدعية الواردة والمناجاة مع قاضي الحاجات سبحانه وتعالى.

وأخيراً من الفوائد المعنوية للصوم التذكير بالنعم الإلهية، فإن الصوم يعتبر أروع مذكر للإنسان بما أنعم الله عليه من خيرات، وإن حرمان الصائم عن الطعام اللذيذ وبقية المشتهيات يجعله يشعر بالنعم المادية أولاً، ومن ثم يشعر بنعم الله الكثيرة الأخرى غير

---

(١٠٩) مستدرك الوسائل ١: ٥٩.

(١١٠) بحار الأنوار ٩٦: ٢٥٤.

المادية كنعمة الإيمان والإسلام والقرآن ومحبة أهل البيت وموالاتهم وغيرها من النعم.

٣- الفوائد التربوية والاجتماعية للصوم:

يُعلّم الصوم الانتظام والانضباط في الأمور، فإن الصائم الذي يمسك عن أشياء من طلوع الفجر إلى غروب الشمس طوال شهر رمضان يستطيع أن ينظم برامج حياته اليومية حسب ما يريد طوال السنة.

ومن فوائد الصوم، المواساة بين أفراد المجتمع، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «وإنما فرض الله الصيام ليستوي به الفقير والغني وذلك إن الغني لم يكن ليجد مس الجوع فيرحم الفقير، وإن الغني كلما أراد شيئاً قدر عليه، فأراد الله تعالى أن يسوي بين خلقه، وأن يذيق الغني مس الجوع والألم، ليرقّ على الضعيف ويرحم الجائع»[(١١١)].

٤- الفوائد الأخروية للصوم:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «الصوم حجاب من عذاب الآخرة»[(١١٢)] وعنه صلى الله عليه وآله: «إن لله مائدة عليها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لا يقعد عليها إلا الصائمون»[(١١٣)]. وعنه صلى الله عليه وآله: «لما أسري بي إلى السماء، دخلت الجنة فرأيت فيها قصراً من ياقوت أحمر، يرى باطنه من ظاهره لضيائه ونوره وفيه قبتان من درّ وزبرجد فقلت: يا جبرائيل لمن هذا القصر؟ قال: «هو لمن أطاب الكلام، وأدام الصيام، وأطعم الطعام،

---

(١١١) وسائل الشيعة ٧: ٣.

(١١٢) مصباح الشريعة: ١٣٥.

(١١٣) كنز العمال ٨: ٤٥٢.

وتهجد بالليل والناس نيام»[114] وعن الإمام الصادق عليه السلام: «للصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره وفرحة عند لقاء ربه»[115].

درجات الصوم والصائمين

إن للصوم والصائمين ثلاث درجات:

١- صوم العموم: وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة، وهو الصوم الذي يصومه أكثر الناس باجتناب المفطرات ويتحقق الإفطار بفعل أحدها، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن أيسر ما افترض الله على الصائم في صيامه ترك الطعام والشراب»[116].

٢- صوم الخصوص: وهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا صمت فليصم سمعك وبصرك وفرجك ولسانك»[117]، وخير شاهد لهذا النوع من الصوم حديث رسول الله صلى الله عليه وآله لجابر بن عبد الله الذي مرّ ذكره.

٣- صوم خصوص الخصوص: وهو صوم القلب عن الهمم الدنية، والأفكار الدنيوية، وكفه عما سوى الله والانقطاع إليه، وهذا من كمال الصوم وهو رتبة الأنبياء والصديقين والمقربين، قال الإمام علي عليه السلام: «صيام القلب عن الفكر من الآثام أفضل

---

(١١٤) بحار الأنوار ٩٦: ٣٦٧.

(١١٥) وسائل الشيعة ٧: ٢٩٠.

(١١٦) وسائل الشيعة ٧: ١١٨.

(١١٧) بحار الأنوار ٩٦: ٢٩٥.

من صيام البطن عن الطعام»[١١٨].

صوم المستحب وعلة تشريعه

للعبادة المستحبة على العموم وللصلاة المستحبة بالخصوص التأثير الإيجابي على روح الإنسان أفضل من العبادات الواجبة، لأن في العبادات الواجبة يحس الإنسان بالجبر والتكليف، وعليه أن يؤدي هذا التكليف تجاه معبوده كرهاً أو رغبة، أما العبادة المستحبة فيأتي بها الإنسان عن الحب والرغبة والعشق.

والصوم المستحب طوال السنة كثير، وآكده صوم الأيام الأربعة التي خصت بالصيام بين أيام السنة، وهي السابع عشر من ربيع الأول ذكرى مولد النبي ﷺ والسابع والعشرون من رجب ذكرى المبعث النبوي الشريف، والخامس والعشرين من ذي القعدة، يوم دحو الأرض من تحت الكعبة، وصوم يوم الغدير، وهو الثامن عشر من ذي الحجة، وبعد هذه الأيام الأربعة يتأكد استحباب صوم ثلاثة أيام من كل شهر ويعادل صوم الدهر، وأفضل كيفياته هو أن يصوم أول خميس من الشهر وآخر خميس منه وأول أربعاء في العشر الوسطى، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «صيام شهر الصبر «رمضان» وثلاثة أيام من كل شهر يذهبن ببلابل الصدر، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر صيام الدهر إن الله عز وجل يقول: ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها﴾[١١٩].

وقال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه: «أيكم يصوم الدهر؟» فقال سلمان: أنا يا

---

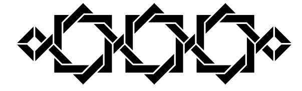
(١١٨) غرر الحكم ١: ٤٥٨.

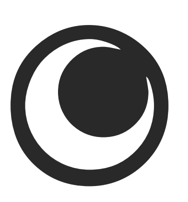
(١١٩) وسائل الشيعة ٧: ٣١٠.

رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «فأيّكم يحيي الليل؟» قال سلمان: أنا يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وآله: فأيّكم يختم القرآن في كل يوم؟ فقال سلمان: أنا يا رسول الله، فغضب بعض أصحابه فقال: يا رسول الله إن سلمان رجل من الفرس يريد أن يفخر علينا معاشر قريش، فقال النبي صلى الله عليه وآله: مه يا فلان أنى لك بمثل لقمان الحكيم، سله فإنه ينبئك، فقال الرجل لسلمان: يا أبا عبد الله أليس زعمت أنك تصوم الدهر؟ فقال: نعم، فقال: رأيتك في أكثر نهارك تأكل! فقال: ليس حيث تذهب إني أصوم الثلاثة أشهر وقال الله عز وجل: ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها﴾، وأصل شهر شعبان بشهر رمضان فذلك صوم الدهر، فقال: أليس زعمت أنك تحيي الليل؟ فقال: نعم، فقال أنت أكثر ليلتك نائم، فقال: ليس حيث تذهب، ولكن سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «من بات على طهر فكأنما أحيا الليل كله» فأنا أبيت على طهر، فقال: أليس زعمت أنك تختم القرآن في كل يوم؟ قال نعم قال فإنك أكثر أيامك صامت، فقال: ليس حيث تذهب ولكني سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعلي: «يا أبا الحسن مثلك في أمتي مثل قل هو الله أحد فمن قرأها مرة قرأ ثلث القرآن، ومن قراها مرتين فقد قرأ ثلثي القرآن ومن قرأها ثلاثاً فقد ختم القرآن، فمن أحبك بلسانه فقد كمل لـه ثلث الإيمان ومن أحبك بلسانه وقلبه كمل له ثلثا الإيمان، ومن أحبك بلسانه وقلبه ونصرك بيده فقد استكمل الإيمان، والذي بعثني بالحق يا علي لو أحبك أهل الأرض كمحبة أهل السماء لما عذب أحداً بالنار، وأنا أقرأ قل هو الله أحد في كل يوم ثلاث مرات فقام الرجل وكأنه قد ألقم حجراً».[(١٢٠)]

---

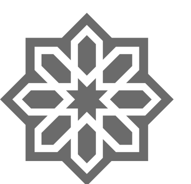
(١٢٠) بحار الأنوار ٢٢: ٣١٧ح ٢.

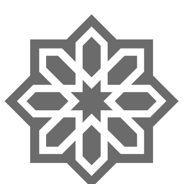


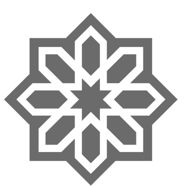


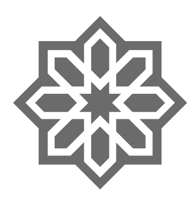
الليلة الخامسة

ربيع القرآن شهر رمضان









- القرآن في الكتاب والسنة
- القرآن المعجزة الخالدة
- وظيفتنا تجاه القرآن

١ـ تعلّم القرآن وتعليمه

٢ـ تلاوة القرآن والتدبر في آياته

٣ـ التفقه في القرآن والعمل بأحكامه

الآداب الظاهرية والباطنية لتلاوة القرآن

الليلة الخامسة

ربيع القرآن شهر رمضان

شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقانِ

البقرة: ١٨٥

وممّا جاء في خطبته صلى الله عليه وآله: «ومن تلا فيه آية من القرآن كان لـه مثل أجر من ختم القرآن في غيره من الشهور».

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «لكل شيء ربيع ، وربيع القرآن شهر رمضان»

بحار الأنوار ٩٢: ٢١٣



القرآن في الكتاب والسنة

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ

الله﴾[١٢١].

وقال تعالى: ﴿قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[١٢٢].

شهر رمضان ليس شهر نزول القرآن فحسب، بل هو شهر نزول الكتب المقدسة أجمع كما دلت عليه الروايات ففي الليلة السادسة منه نزلت التوراة على النبي موسى عليه السلام، وفي الليلة الثاني عشر منه نزل الإنجيل على النبي عيسى عليه السلام وهكذا نزلت بقية الكتب السماوية طوال شهر رمضان، وفي ليلة القدر نزل القرآن الكريم كله جملة ودفعة واحدة على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى الأمين صلى الله عليه وآله، وبهذا النوع من النزول صرحت الآيات التالية: قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[١٢٣] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ﴾[١٢٤] وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[١٢٥].

وللقرآن نزولٌ آخر تدريجي طوال ثلاث وعشرين سنة من بداية البعثة بنزول سورة العلق في غار حراء في مكة المكرمة حتى نزول آخر سورة من القرآن وهي سورة النصر، وهذا النوع من النزول الذي عبر عنه القرآن بالتنزيل وصرحت به الآيات التالية:

---

(١٢١) الحشر: ٢١.
(١٢٢) الإسراء: ٨٨.
(١٢٣) القدر: ١.
(١٢٤) الدخان: ٣.
(١٢٥) البقرة: ١٨٥.

﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾[١٢٦] قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾[١٢٧].

والقرآن العزيز، هو كلام الله العظيم والمنزل على نبيه الكريم ومعجزته الخالدة إلى قيام يوم الدين، وهو الثقل الأكبر والحبل الإلهي الممدود من السماء إلى الأرض الذي ينجو من تمسك به، ويضل ويهلك من يزيغ عنه، وعظمة القرآن ليست إلا مظهراً من عظمة الله تبارك وتعالى، والأشياء إنما تكتسب العظمة الحقيقية عندما تقترن بالقرآن، فشهر رمضان صار شهراً عظيماً لنزول القرآن فيه، فلذا إذا أردنا أن نعرف القرآن وعظمته فالأفضل أن نوكل بيان ذلك إلى من خوطب به القرآن ونزل عليه وهو الرسول الأعظم ﷺ والى أهل بيته الكرام، نظراء القرآن وقرناءه في الفضل والأدلاء عليه والعاملون به، فإنهم أعرف الناس بفضله ومنزلته، وسمو قدره، وهم شركاؤه في الهداية كما صرح بذلك جدهم المصطفى ﷺ في حديث الثقلين المعروف.

ومما ورد عنهم في بيان عظمته ما قاله رسول الله ﷺ: فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»[١٢٨]، وروى الحارث الهمداني عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال عليه السلام: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم[١٢٩].

وروى الإمام الصادق عليه السلام عن جده المصطفى ﷺ قال: «فإذا التبست عليكم الفتن

---

(١٢٦) الإسراء: ١٠٦.

(١٢٧) الإنسان: ٢٣.

(١٢٨) بحار الأنوار ٩٢: ١٩.

(١٢٩) المجلسي في بحار الأنوار ٨٩: ٢٤. والترمذي ٣: ٢٨.

كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنه شافع مشفع، وما حلٌ مصدَّق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل الذي يدل على خير سبيل»[١٣٠].

القرآن المعجزة الخالدة

المعجزة هي التي يأتي بها مدعي النبوة بعناية الله الخاصة، خارقةً للعادة وخارجاً عن حدود القدرة البشرية وقوانين العلم والتعليم، لتكون بذلك دليلاً على صدق النبي وحجته في دعواه النبوة.

وتختلف المعجزة بسبب اختلاف الناس في أطوارهم ومعارفهم ومألوفاتهم، ففي عصر النبي موسى عليه السلام كان من الرائج بين المصريين السحر المبتني على قوانين عادية يجري عليها التعليم والتعلم. ولأجل ذلك اقتضت الحكمة أن يحتج عليهم بمعجزة العصا التي ألقاها موسى عليه السلام أمام أعينهم فصارت ثعباناً تلقف ما يأفكون ويسحرون به الناس، ثم رجعت بعد ذلك عصا كحالها الأول ولم يبق لسحرهم أثر، فإنهم بسبب معرفتهم لحدود السحر عرفوا أن أمر العصا خارج عن صناعة السحر، وعن حدود القدرة البشرية، ولذا آمن السحرة.

وكانت فلسطين وسوريا في عصر المسيح مستعمرة للرومان، فكان للطب فيها رواج ظاهر، فلأجل ذلك كانت معجزات المسيح بشفاء الأبرص والأكمه، مما يعرفون أنه خارج عن حدود الطب وقدرة البشر، ومن مخارق العادة التي لا تكون إلا بقدرة الله تعالى.

---

(١٣٠) أصول الكافي ٢: ٥٩٨ كتاب فضل القرآن.

وأما العرب الذين ابتدأت بهم دعوة الإسلام فقد كانت معارفهم نوعاً ما منحصر بالأدب العربي وبلاغة الكلام التي تقدموا فيها تقدماً باهراً، ولذا اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة، والحجة البالغة لرسالة خاتم النبيين وصفوة المرسلين ﷺ فكان حجة عليهم بإعجازه مضافاً إلى أنه قد امتاز على غيره من المعجزات بأنه باق مدى السنين.

هذا من وجهة الإعجاز الذي تقوم به الحجة على العرب، وأيضاً للقرآن وجوهُ من الإعجاز مما يشترك في معرفتها كل بشر ذي رشد، إذا اطلع عليها وهي عديدة نشير إلى بعض منها.

فقد خاض القرآن الكريم في فنون العلوم والمعارف من تاريخ البشر والأديان السماوية وقصص الأنبياء والعلوم الاجتماعية والسياسية والفلسفية والعقائدية والأخلاقية والعرفانية وأخبار الغيب، ولم يعثر على تناقض فيه واختلاف ولا وهن اضطراب ولا سقوط حجة ولا فساد مضمون ولا سخافة بيان. وها هو بارز في جميع هذه العلوم والمعارف لكل من يريد الهدى والتعلم، فهل يمكن في العادة أن يكون كل هذا من بشر؟! ﴿أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾(١٣١).

انظر إلى العهدين الذين يفخر بهما الرهبان والأحبار وينسبونهما إلى كرامة الوحي، فكم وكم يوجد فيها من الوهن والاختلاف والتناقض وكم وقع الاختلاف والتناقض بين

---

(١٣١) النساء: ٨٢.

العهد الجديد وبين العهد القديم، كل هذا بسبب التحريف من قبل علماء هذه الأديان أو أصحاب المصالح والتيجان.

أما القرآن المضمون حفظه من قبل الرحمن، فهو مصون من التحريف إلى آخر الزمان، فالله خير حافظ لكتابه الفرقان حيث يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا له لَحافِظُونَ﴾[١٣٢]، ويقول: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ ۞ لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[١٣٣].

وأما ما ينسب إلى بعض علماء المسلمين من القول بالتحريف بالزيادة أو النقصان أو النسخ في تلاوة القرآن فلا عبرة فيه، فإن هذه الأقوال ضعيفة والروايات المعتمد عليها في هذا الباب مطعون بها غير مقبولة فيجب ردها أو تأويلها كما صرح بذلك الكثير من علماء المسلمين، فالقرآن محفوظ من أي زيادة ونقصان بحفظ الملك الديان، كما دل عليه صريح القرآن وكثير من الأخبار وإجماع علماء الإسلام في كل زمان، ولولا ذلك لما صح لرسول الإسلام أن يدعو للتمسك بالكتاب وبأهل بيته قرناء القرآن في حديث الثقلين المعروف، وهو قوله صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً».

واعتقاد الشيعة الإمامية بوجود مصحف أمير المؤمنين عليه السلام ووجود مصحف فاطمة الزهراء عليها السلام اللذين سيظهرهما صاحب الأمر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف لا يدلان على الاعتقاد

---

(١٣٢) الحجر: ٩.

(١٣٣) فصلت: ٤١-٤٢.

بالتحريف، بعد تصريح وإجماع علماء الإمامية على سلامة القرآن، فالأول نفس القرآن الموجود إلا انه فيه تفسير وتأويل وبيان من الإمام أمير البيان، والثاني ليس بقرآن وإنما هو كتاب يشتمل على ما كان وما يكون من وقائع وأحداث وأسرار تلقتها الزهراء عليها السلام من الملك الذي كان يأتيها بعد وفاة أبيها ليؤنس وحشتها، وانتقل هذا الكتاب بعد رحيلها إلى أبنائها عليهم السلام كما صرح بذلك ابنها الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «إن عندي مصحف فاطمة ما أزعم أنَّ قرآناً، وفيه ما يحتاجه الناس إلينا ولا نحتاج إلى أحد»[١٣٤].

وظيفتنا تجاه القرآن

إن واجبنا ووظيفتنا كمسلمين، في جميع العصور والأزمان، تجاه القرآن حسب ما يستفاد من أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام كما يلي:

أولاً: تعلم وتعليم القرآن «القراءة، الترتيل، الحفظ».

ثانياً: تلاوة القرآن والتدبر في آياته.

ثالثاً: التفقه في القرآن والعمل بأحكامه.

١- تعلّم القرآن وتعليمه «القراءة، الترتيل، الحفظ»

إن لطلب العلم وبالأخص العلوم الإلهية ومنها علوم القرآن خاصة في الإسلام، ولطلاب تلك العلوم درجة رفيعة تساوي درجة الشهداء، بل هي أفضل كما ورد في

(١٣٤) أصول الكافي ٢: ٢٤.

الحديث الشريف: «إذا كان يوم القيامة وزن مداد العلماء بدماء الشهداء فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء»[١٣٥].

ثم إن من أهم تلك العلوم التي يجب على كل مسلم أن يتعلمها ويعلمها غيره هي العلوم القرآنية من القراءة والترتيل والتفسير، لأنها أشرف العلوم وأفضلها وأكملها وأنفعها للمسلمين، ولذا جاءت الروايات لتؤكّد هذا المعنى وتحث المسلمين على ضرورة تعلم القرآن وتعليمه للآخرين قراءة وترتيلاً وحفظاً.

فعن رسول الله ﷺ: «خياركم من تعلم القرآن وعلمه»[١٣٦] وعنه قال ﷺ: من علم ولده القرآن فكأنما حج بيت الله عشرة آلاف حجة واعتمر عشرة آلاف عمرة وأعتق عشرة آلاف رقبة من ولد إسماعيل عليه السلام[١٣٧].

وعن الإمام علي عليه السلام قال: «ينبغي للمؤمن أن لا يموت حتى يتعلم القرآن أو يكون في تعلمه»[١٣٨].

٢- تلاوة القرآن والتدبر في آياته:

تلاوة القرآن مستحبة مؤكدة في حد ذاتها في كل أوقات السنة، ولكن في شهر نزول القرآن يزداد هذا الاستحباب بحيث يصبح تلاوة آية منه تعدل أجر من ختم القرآن كله في غير شهر رمضان، وهذا الأمر يحثنا على أن نتعرف على فضل تلاوة القرآن في كل

---

(١٣٥) بحار الأنوار ٢: ١٦ح ٣٥.
(١٣٦) بحار الأنوار ٩٢: ١٨٦ح ٢.
(١٣٧) بحار الأنوار ٩٢: ١٨٨ح١٢.
(١٣٨) أصول الكافي ٢: ٦٠٧.

زمان بالأخص في شهر رمضان.

هناك آيات عديدة وأخبار كثيرة في فضل قراءة القرآن وتلاوته وآثارها المعنوية والروحية وفوائدها الدنيوية والأخروية.

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أفضل العبادة قراءة القرآن»[١٣٩] وعنه صلى الله عليه وآله: «إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، قيل: فما جلاؤها قال صلى الله عليه وآله ذكر الموت وتلاوة القرآن»[١٤٠].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في وصاياه لابنه محمد بن الحنفية قال: «وعليك بتلاوة القرآن والعمل به ولزوم فرائضه وشرائعه وحلاله وحرامه وأمره ونهيه والتهجد به وتلاوته في ليلك ونهارك، فإنه عهد من الله تعالى إلى خلقه، وواجب على كل مسلم أن ينظر كل يوم في عهده ولو خمسين آية، ودرجات الجنة على قدر آيات القرآن فإذا كان يوم القيامة يقال لقارئ القرآن: اقرأ وارق، فلا يكون في الجنة بعد النبيين والصديقين أرفع درجة منه»[١٤١].

وعنه عليه السلام: «البيت الذي يقرأ فيه القرآن ويذكر الله فيه تكثر بركته وتحضره الملائكة وتهجره الشياطين، ويضيء لأهل السماء كما تضيء الكواكب لأهل الأرض»[١٤٢].

الآداب الظاهرية والباطنية لتلاوة القرآن

إن الطهارة والوضوء واستقبال القبلة والطمأنينة والسواك والطيب والملابس النظيفة

---

(١٣٩) بحار الأنوار كتاب القرآن.

(١٤٠) كنز العمال ١: ٥٤٥، وعوالي اللئالئ: ١: ٢٧٩.

(١٤١) من لا يحضره الفقيه ٢: ٣٨٣.

(١٤٢) أصول الكافي ٢: ٦١٠.

والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم قبل القراءة؛ والختم بصدق الله العلي العظيم، وتلاوة القرآن في المصحف بصوت حسن الترتيل[١٤٣]، كل ذلك من الآداب الظاهرية للتلاوة.

وأما الآداب الباطنية لتلاوة القرآن فهي كثيرة منها الخضوع والخشوع والحزن وحضور القلب عند القراءة، عن الإمام الصادق عليه السلام: «من قرأ القرآن ولم يخضع لـه ولم يرق قلبه ولم يكتسي حزناً ووجلاً في سره فقد استهان بعظيم شأن الله تعالى»[١٤٤].

ومنها التدبر في معاني القرآن والتفكر في مقاصده وأهدافه، قال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها﴾[١٤٥] وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا في قراءة لا تدبر فيها»[١٤٦].

وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بالترديد فليردد قراءة الآيات، فعن أبي ذر «رض» قال: «قام بنا رسول الله صلى الله عليه وآله فقام ليلة بآية يرددها: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[١٤٧]»[١٤٨].

ومن الآداب الباطنية لتلاوة القرآن: أن يتأثر القارئ للقرآن بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فعند وصف النار والوعيد بها وتقييد المغفرة بالشروط يحزن ويخاف كأنه

---

(١٤٣) الترتيل هو حفظ الوقوف وبيان الحروف.

(١٤٤) بحار الأنوار ٨٥: ٤٣ح ٣٠.

(١٤٥) محمد صلى الله عليه وآله: ٢٤.

(١٤٦) تحف العقول: ١٤٤.

(١٤٧) المائدة: ١٨.

(١٤٨) إحياء علوم الدين ١: ٣٤٩. هذا لا يفتى بجوازه الفقهاء في صلوات الفريضة.

يكاد يموت وعند وصف الجنة والوعد بها، يستبشر كأنه يطير من الفرح، كما جاء في خطبة همام لأمير المؤمنين عليه السلام التي يصف بها المتقين، بقوله: «وأما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن، يرتلونها ترتيلاً يحزنون به أنفسهم ويستثيرون به دواء دائهم، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً وتطلّعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم وظنّوا أنّ زفير جهنم وشهيقها في أصول أذانهم»(١٤٩).

فلابد لقارئ القرآن أن يستجلب هذه الأحوال إلى القلب، بتلاوة القرآن حق تلاوته بأن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب، فحظّ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل وحظّ العقل التدبر وتفسير المعاني وحفظ القلب الاتعاظ والتأثر، فاللسان واعظ والعقل مترجم ومفسر والقلب متعظ.

٣- التفقه في القرآن والعمل بأحكامه:

ينبغي التفقه في آيات القرآن والتعرف على أحكامه من خلال مراجعة كتب التفاسير، لأن القرآن أصل إيمان المسلم ومنبع دينه وأساس فكره وعقيدته وأخلاقه وأحكام شريعته وعلاقاته السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وإنه مقياس ومعيار لكل شيء.

فعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «تعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب واستعينوا بنوره فإنه شفاء الصدور»(١٥٠).

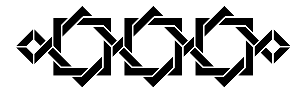
ثم بعد التفقه في القرآن يجب العمل به، لأن القرآن إنما نزل لكي يتدبر في آياته ويعمل

(١٤٩) نهج البلاغة: خطبة المتقين.

(١٥٠) نهج البلاغة خطبة: ١١٠.

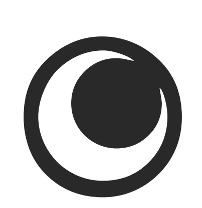
بأحكامه، وقد أكد الإمام علي عليه السلام بذلك في وصيته بقوله: الله الله في القرآن، لا يسبقكم بالعمل به غيركم[١٥١]، ولم يقل الإمام لا يسبقكم بتلاوته أو حفظه غيركم، بل أكد على العمل، فإن الهدف الحقيقي من نزول القرآن ليس التلاوة والقراءة والحفظ فحسب، بل العمل بمنهجه، والسير على نوره، ومن هنا نجد سيرة أهل البيت عليهم السلام هي الترجمة الحقيقية، والتفسير المنطقي والسليم للقرآن الكريم، فما من سلوك سلكه الإمام عليه السلام إلاّ وأصله وبيانه ونظريته القرآن، ولهذا فيمكننا أن نقرأ تفسير كل آية من آيات الله عبر سلوكهم وأخلاقهم وأقوالهم.

ومن بين هؤلاء الأئمة العظام الإمام الحسين عليه السلام فلقد كان القرآن مخالطاً روحه كما خالط دم عروقه، فلا تجد حركة من حركاته إلاّ ويقدمها بآية من كتاب الله، وخصوصاً عند خروجه من المدينة لإعلان ثورته المباركة على الطاغية يزيد بن معاوية، فلما خرج من المدينة بعدما حيكت المؤامرات لقتله غيلة قال مستشهداً لخروجه بقوله تعالى ـ : ﴿فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾، كما أنه كان كثيراً ما يستشهد بآيات القرآن في وقائع عاشوراء، بل حتى بعد قطع رأسه الشريف، وحمله على رأس رمح طويل كان يردد الرأس المبارك في طريقه إلى الشام: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً﴾، فخرج زين بن ارقم من روشنه وسمع ما تلاه فصاح يابن رسول الله رأسك والله أعجب وأعجب.[١٥٢]



(١٥١) بحار الأنوار ٩٢: ١٨٥.

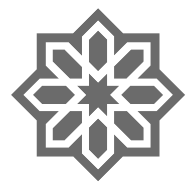
(١٥٢) الإرشاد ١.

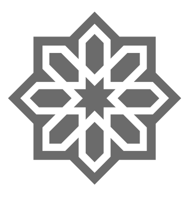


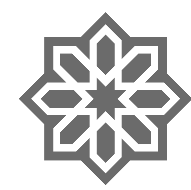
الليلة السادسة

البيعة للإمام الرضا ﵇ بولاية العهد









- شخصية الإمام الرضا ﵇
- من خصائص الإمام الرضا ﵇ وصفاته
- الإمام الرضا ﵇ في طريقه إلى مرو
- الإمام الرضا ﵇ ومسألة ولاية العهد
- دوافع المأمون في مسألة ولاية العهد
- أسباب قبول الإمام ﵇ بولاية العهد
- شهادة الإمام الرضا ﵇ في خراسان
- الإمام الرضا ﵇ والشاعر دعبل الخزاعي



الليلة السادسة

البيعة للإمام الرضا عليه السلام بولاية العهد

إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً

الفتح: ١٠

وعن الإمام الرضا عليه السلام قال: كلمة لا إله إلاّ اللّه حصني ، فمن دخل حصني أمن من عذابي ، بشرطها وشروطها وأنا من شروطها.(١٥٣)



كانت البيعة للإمام الرضا عليه السلام بولاية العهد من قبل المأمون العباسى وأعوانه وسائر الناس، في اليوم الخامس أو السادس من شهر رمضان المبارك؛ سنة مئتين وواحد للهجرة النبوية «٢٠١ هـ. ق»(١٥٤).

---

(١٥٣) عرف هذا الحديث بحديث سلسلة الذهب الذي تحدث به الإمام الرضا عليه السلام عند دخوله مدينة نيسابور في محافظة خراسان متوجهاً إلى مرو، وقد ورد هذا الحديث في عيون أخبار الرضا ٢: ١٣٥ وعنه في بحار الأنوار ٤٩: ١٢٣ وغيرها من كتب الحديث.

(١٥٤) جاء ذلك في رواية الشيخ الصدوق في عيون أخبار الرضا عليه السلام وذكره الشيخ عباس القمي في

É

وبمناسبة هذه الذكرى الخالدة والحادثة المهمة التي وقعت في شهر رمضان المبارك ندرس باختصار حياة وشخصية الإمام عليه السلام ومسألة ولاية العهد واهدافها ودوافعها السياسية ونتائجها العملية.[١٥٥]

شخصية الإمام الرضا عليه السلام

الإمام أبو الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام[١٥٦] ثامن أئمة أهل البيت عليهم السلام، ولد في المدينة المنورة في الحادي عشر من ذي القعدة سنه «١٤٨ هـ. ق»، وأبوه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وأمه خيزران وقيل نجمة وتكنَّى بأم البنين وقيل غير ذلك، استشهد بطوس متأثراً بسّم المأمون في نهاية صفر سنه «٢٠٣ هـ. ق»، على المشهور، فكان عمره الشريف خمساً وخمسين سنه، قضى أكثر عمره في مدينة جده، إلى أن استدعاهُ المأمون سنة «٢٠٠ هـ. ق» إلى خراسان، ليكون ولياً للعهد وخليفة من بعده، فعاش فيها ثلاث سنوات من عمره الشريف، إلى أن توفي ودفن فيها، وقيل لم يترك الإمام عليه السلام إلا ولداً واحداً هو الإمام الجواد عليه السلام، وعاش الإمام الرضا عليه السلام مع أبيه نحو ثلاثين عاماً أو تزيد، شاهد فيها أنواع المحن والبلايا التي أحاطت بأبيه الإمام موسى بن جعفر، من قبل

Ë
مفاتيح الجنان وقال: ذكر السيد ابن طاووس أنه يستحب أن يصلى في هذا اليوم، ركعتان يقرأ في كل ركعة بعد الحمد سورة الاخلاص خمساً وعشرين مرة.

(١٥٥) ولمزيد الاطلاع على شخصية الإمام عليه السلام عليك بمراجعة كتاب لمحات من حياة الإمام الرضا عليه السلام وأخته السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام. (للمؤلّف)

(١٥٦) ورد عن الإمام الجواد عليه السلام في وجه تسميته بهذا اللقب انه: «رضى به المخالف من أعدائه كما رضى به الموافقون من اوليائه، ولم يكن ذلك لأحد من ابائه عليهم السلام فلذلك سمي من بينهم الرضا عليه السلام» عيون أخبار الرضا ١: ١٣ ويقال انّ المأمون هو الذي لقبّ الإمام بهذا اللقب.

الخلفاء العباسيين الثلاثة، المهدي والهادي، ثم هارون الرشيد الذي كان قد اعتقل الإمام عليه السلام، وضيق عليه في ظلمات سجونه المرعبة، مدة أحد عشر عاما، أو أكثر من ذلك، وهكذا كان ينقل من سجن إلى سجن، إلى أن قضى شهيداً بسم دسه إليه السندي بن شاهك، بمساعدة الوزير يحيى بن خالد البرمكي، هذا والإمام يشاهد بألم ومرارة تلك الأحداث القاسية.

وأقام الإمام الرضا عليه السلام بعد ابيه في امامة المسلمين عشرين سنة، قال الشيخ المفيد: كان الإمام بعد موسى بن جعفر: ابنه علي بن موسى الرضا عليه السلام لفضله على جماعة إخوته وأهل بيته وظهور علمه وحلمه، وورعه، واجتماع الخاصة والعامة على ذلك منه، ومعرفتهم به منه، ولنص أبيه عليه السلام على إمامته من بعده وأشار إليه بذلك دون إخوته وأهل بيته»[١٥٧] وبالإضافة إلى النصوص العامة على إمامة الأئمة الاثنى عشر من النبي صلى الله عليه وآله، فلقد كان كل إمام ينص على الإمام من بعده ويُبّينُه للمسلمين وشيعته، حتى لا يّدعي الإمامة غيره.

ومع ذلك لقد ادّعت بعض الفرق من الشيعة في بعض أئمة أهل البيت عليهم السلام أنهم لم يموتوا، وإنّما رفعوا كما رفع عيسى بن مريم عليه السلام، ومن الفرق التي نادت بذلك الواقفية، حيث وقفوا عند الإمام الكاظم عليه السلام، ولم يرجعوا إلى الإمام الرضا عليه السلام، وانكروا وفاة الإمام الكاظم عليه السلام بدعوى أنه القائم من آل محمد صلى الله عليه وآله، وأنه رفع كما رفع المسيح عليه السلام، وسوف يعود إلى الدنيا مرة أخرى.

ولقد روى أن أوّل من أظهر الوقف على الإمام موسى بن جعفر وعمل على انتشاره جماعة من أعيان أصحابه المقربين إليه، وكان قد عهد إليهم بجباية الخمس من شيعته،

---

(١٥٧) الإرشاد للمفيد: ٣٠٤.

وقد اجتمع لديهم مبلغ كبير من المال فلما استشهد الإمام الكاظم عليه السلام طالبهم الإمام الرضا عليه السلام، بما عندهم من الأموال فغرتهم الدنيا، وأنكروا موت الإمام الكاظم عليه السلام،

والنتيجة: أنّ الموقف الصارم من الإمام الرضا عليه السلام إزاء هذه الفرقة، وكذلك موقف سائر الأئمة عليهم السلام، وعلماء المذهب الإمامي قد سبّب ضعفها وانقراضها.

من خصائص الإمام الرضا عليه السلام وصفاته

لابدّ وأن يكون الإمام المعصوم، جامعاً لجميع العلوم والمعارف الإلهية والطبيعية، والفضائل والمكارم الأخلاقية، ليكون مناراً يهتدى به، وأسوة لجميع الناس يقتدى به، لأنّه حجة اللّه في ارضه على خلقه ولابدّ أن يكون في جميع هذه الخصائص والصفات أعلى من غيره لتتم الحجة.

والإمام الرضا عليه السلام كجده المصطفى صلى الله عليه وآله وآبائه الأئمة البررة، قد اتصف بجميع تلك الخصال والصفات الحميدة، ولم تكن صفة يسمو بها الإنسان نحو الكمال إلاّ وهي موجودة فيه.

أما أخلاقه: فيقول إبراهيم بن العباس الصولي: ما رأيت أبا الحسن الرضا عليه السلام جفا أحداً بكلمة قط، ولا رأيته قطع على أحد كلامه حتى يفرغ منه، وما ردَّ أحداً عن حاجة يقدر عليها ولا مد رجله بين يدي جليس لـه قط، ولا اتكأ بين يدي جليس لـه قط ولا رأيته شتم أحداً من مواليه ومماليكه قط، ولا رأيته تفل قط، ولا رأيته يقهقه في ضحكه قط، بل كان ضحكه التبسم، وكان إذا خلا ونصب مائدته أجلس معه على مائدته مماليكه، ومواليه وكان كثير الصيام فلا يفوته صيام ثلاثة أيام في الشهر، ويقول ذلك صوم الدهر، وكان عليه السلام كثير المعروف والصدقة في السّر وأكثر ذلك منه في الليالي

المظلمة، فمن زعم انه رأى مثله في فضله فلا تصدقوه»[١٥٨]

وأما علمه: فقد أحاط الإمام بجميع العلوم، وكان اعلم أهل زمانه، وذلك مما اشتهر واتفق عليه المؤرخون وهو الشيء البارز في شخصية الإمام عليه السلام لا يستطيع أن ينكره أحد، وقد لقّب بعالم آل محمد، وقد اعترف بذلك المأمون بنفسه ـ وهو من العلماء البارزين ـ أكثر من مرة وفي مناسبات عديدة ((أنّ، الإمام الرضا عليه السلام أعلم أهل الأرض)).

ومن مظاهر علم الإمام ومعرفته التامة؛ إخباره عن كثير من الملاحم والأحداث قبل وقوعها، ومن جملة ما أخبر به نكبة البرامكة وما يحل بهم، وقتل الأمين على يد أخيه المأمون، وقتل المأمون له، وقد تحقق كل ما اخبر به.

ومن مظاهر علم الإمام عليه السلام مناظراته في البصرة، والكوفة وخراسان مع علماء اليهود والنصارى، والمسلمين، والتي اعترف لـه فيها جميع هؤلاء العلماء بالفضل والعلم والتفوق عليهم[١٥٩].

الإمام الرضا عليه السلام في طريقه إلى مرو

استلم المأمون زمام الحكم بعد حرب دامية استمرت خمس سنين، وقتل فيها ألآلاف من بينهم أخوه الأمين، الذي كان يحكم في بغداد بعنوان خليفة المسلمين، وبعد سنتين من سيطرة المأمون على الحكم، وبالتحديد في سنه «٢٠٠ هـ» كتب إلى الإمام الرضا عليه السلام يدعوه للقدوم إلى خراسان، فاعتلَّ عليه السلام بعلل كثيرة، واستمر المأمون يكاتبه ويراسله

(١٥٨) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٨٠.

(١٥٩) راجع عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٨٠ وبحار الأنوار ٤٩: ٩٥.

حتى علم الإمام عليه السلام أنه لا يكفّ عنه، فاستجاب له، وأمر المأمون رجاء ابن ضحاك ومعه الجلودي أن يذهبا ليرافقا الإمام في سفره إلى خراسان وأمرهما أن لا يسيرا بالإمام عن طريق الكوفة وقم، لأنّ في هذه المدينتين شيعةً موالين للإمام فسارا به عن طريق البصرة والأهواز وفارس «شيراز»، وصحراء يزد ونيسابور وطوس، ثم سرخس حتى وصلوا إلى «**مرو**» عاصمة خلافة المأمون العباسي[١٦٠].



خارطة مسير الإمام الرضا عليه السلام من المدينة المنورة الى مرو

(١٦٠) مدينة مرو ـ التي كانت آنذاك مركز (عاصمة خلافة المأمون العباسي ـ هي من أهم مدن خراسان، وتقع قريبة من مدينة سرخس الإيرانية المحاذية لدولة تركمنستان وتقع مدينة مرو حاليا في تركمنستان إحدى دول الاتحاد السوفيتي السابق، وهي حالياً ليست عامرة، وقد بنى في جنبها مدينة باسم (بيرام علي). وفي مسير هجرة الإمام من المدينة إلى مرو ومروره على بعض المدن والقرى وقعت حوادث ووردت أخبار، عليك بمراجعة كتاب لمحات من حياة الإمام الرضا للمؤلّف، وغيرها من الكتب للاطلاع عليها.

الإمام الرضا ﷺ وولاية العهد

عندما قدم الإمام الرضا ﷺ إلى مرو، أكرمه المأمون ورحّب به، وجمع خواصّ أوليائه وأصحابه فقال: أيّها الناس! إنّي نظرتُ في آل العبّاس وآل علي فلم أر أفضل ولا أورع ولا أحقّ من عليّ بن موسى بالخلافة، ثمّ التفت إلى الإمام ﷺ فقال له:

«إنّي قد رأيت أن أعزل نفسي عن الخلافة وأجعلها لك وأُبايعك».

فقال لـه الإمام الرّضا ﷺ:

«إن كانت هذه الخلافة لك واللّه جعلها لك فلا يجوز أن تخلع لباساً ألبسكهُ اللّه وتجعله لغيرك، وإن كانت الخلافة ليست لك فلا يجوز أن تجعل لي ما ليس لك».

فقال لـه المأمون: يا بن رسول اللّه! لابدّ لك من قبول هذا الأمر.

فقال لـه الإمام: «لست أفعل ذلك طائعاً أبداً، فما زال يجهد به أيّاماً حتّى يئس من قبوله، فقال له: فإن لم تقبل الخلافة، ولم تحب مبايعتي لك فكن ولي عهدي لتكون لك الخلافة بعدي».

فقال الإمام الرّضا ﷺ: «واللّه لقد حدّثني أبي عن آبائه، عن رسول اللّه ﷺ، أنّي أخرج من الدّنيا قبلك مقتولاً بالسمّ مظلوماً، تبكي عليَّ ملائكة السّماء وملائكة الأرض، وأُدفن في أرض غربة إلى جنب هارون الرّشيد».

فبكى المأمون ثمّ قال له: يا بن رسول اللّه! ومن الّذي يقتلك، أو يقدر على الإساة إليك وأنا حيّ؟

فقال الإمام ﷺ: «أمّا إنّي لو أشاء أن أقول من الّذي يقتلني لقُلت».

فقال المأمون: يا بن رسول اللّه! إنّما تريد بقولك هذا، التخفيف عن نفسك، ودفع هذا الأمر عنك، ليقول النّاس أنّك زاهد في الدّنيا.

فقال الإمام الرضا عليه السلام: «واللّه ما كذبت منذ خلقني ربّي عزّوجلّ، وما زهدت في الدّنيا للدّنيا، وإنّي لأعلم ما تريد».

فقال المأمون: وما أُريد؟

قال عليه السلام: «تريد بذلك أن يقول النّاس: إنّ عليّ بن موسى لم يزهد في الدنيا، بل زهدت الدّنيا فيه، ألا ترون كيف قبل ولاية العهد طمعاً في الخلافة؟».

وغضب المأمون من قول الإمام ثم قال: إنّك تتلقّاني أبداً بما أكرهه، وقد أمنت سطوتي، فباللّه أُقسم لئن قبلت ولاية العهد،و إلاّ أجبرتك على ذلك.

فقال الإمام الرضا عليه السلام: قد نهاني اللّه تعالى أن ألقي بيدي إلى التهلكة، فإن كان الأمر على هذا فافعل ما بدا لك وأنا أقبل ذلك، على أنّي لا أُولّي أحداً، ولا أعزل أحداً، ولا أنقض رسماً ولا سنّة، وأكون في الأمر من بعيد مشيراً، فرضي المأمون منه ذلك، وجعله وليّ عهده على كراهة منه عليه السلام بذلك.

ثم رفع الإمام عليه السلام يده إلى السماء قائلاً: «اللّهمّ إنّك قد نهيتني عن الإلقاء بيدي إلى التّهلكة، وقد أُكرهت واضطُررت، كما اضطر يوسف ودانيال عليهما السلام إذ قبل كلّ واحدٍ منهما الولاية من طاغية زمانه، اللّهمّ لا عهد إلاَّ عهدك، ولا ولاية لي إلاّ من قبلك، فوفّقني لإقامة دينك، وإحياء سنّة نبيّك، فإنّك أنت المولى والنّصير، ونعم المولى أنت ونعم النّصير».

وبعد قبول الإمام الرضا عليه السلام بولاية العهد على هذا النحو عقد المأمون لبيعة الإمام عليه السلام مجلساً ومهرجاناً شعبياً عاماً حضره كبار الدّولة العباسية وعامة الناس، وفي

طليعتهم العلويون، وكان ذلك في اليوم الخامس أو السادس من شهر رمضان المبارك.

وفي هذا اليوم بايع المأمون وابنه العباس، ووزيره فضل بن سهل السرخسى، وكبار رجال الدّولة، الإمام الرضا عليه السلام، ثم أخذ يبايعه الناس، واحداً تلو الآخر، وأخذ الخطباء والشعراء يشيدون بفضل الإمام ويمدحونه وينشدون فيه الشعر ويدعون الناس إلى مبايعته، وخطب المأمون في ذلك اليوم خطبة مدح فيها أهل البيت عليهم السلام وعلي ابن موسى الرضا عليه السلام، واعترف بأحقّيتهم في خلافة المسلمين، وبارك للإمام هذا اليوم، ثم أصدر قرارات مهمة بمناسبة عقد ولاية العهد للإمام عليه السلام منها: ترك لباس السواد الذي كان شعار العباسيين وارتداء اللباس الأخضر الذي كان شعار العلويين، وهو لباس أهل الجنة، إذ يقول تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾[(١٦١)]، ومنها أمر المأمون بضرب الدراهم والدنانير باسم الإمام الرضا عليه السلام

وقيل إنّ المأمون زوّج ابنته أم حبيب للإمام الرضا عليه السلام وعقد ابنته الأخرى أم الفضل لابنه محمّد الجواد عليه السلام.

دوافع المأمون في مسألة ولاية العهد

ولم تكن دوافع المأمون من نصب الإمام عليه السلام ولياً لعهده نابعة من ولائه لأهل البيت عليهم السلام، ولم يكن المأمون صادقاً في ولائه، وكان ميله للعلويين اصطناعاً وتظاهراً، فهل يعقل أن يضحي المأمون بالحكم الذي قتل من أجله ألآلاف من الجنود والقادة،و قتل أخاه وبعض أهل بيته، ثم يسلّمه إلى غيره؟!

---

(١٦١) الكهف: ٣١.

فدوافع المأمون نابعة من مصلحة حكمه ومستقبل أهل بيته، ويمكن تحديد هذه الدوافع بالنقاط التالية:

أولاً: تهدئة الأوضاع المضطربة، وايقاف واخماد ثورات العلويين في كل البلاد الإسلامية بالأخص خراسان، فأراد المأمون من تقريب الإمام وتوليّه ولاية العهد، أن يستقطب أعوان الإمام وانصاره، ويوقف صفهم ونشاطهم العسكري، بل يستميلهم إلى جانبه.

ثانياً: الحصول على شرعية الحكم والخلافة، لأن المأمون كان يعرف ويعلم أن الإمام الرضا عليه السلام، وسائر الأئمه هم الذين نصَّ عليهم رسول اللّه صلى الله عليه وآله بالخلافة، وهي حقهم الإلهي، فإمّا أن يتنازل عن الخلافة له، وقد تظاهر بذلك ورفض الإمام عليه السلام وإما أن يشاركه في الحكم. فعرض عليه ولاية العهد وأجبره على القبول، وبما أن الإمام كان موضع قبول ورضى من قبل جميع المسلمين فقبوله لولاية العهد يعنى اعترافه بشرعية حكم المأمون.

ثالثاً: منع الإمام من الدعوة لنفسه، لأنّ الإمام مسؤول عن دعوة الأمة للارتباط بالإمام الحق، والمتجسد بإمامته، وبمنهج أهل البيت عليهم السلام، ومن هنا كان تفكير المأمون منصباً على منع الإمام من الدعوة لنفسه، والمتعارف عليه، أنَّ ولي العهد يدعو للحاكم الفعلي، ثم يدعو لنفسه، وقد عبّر المأمون عن هذا الدافع لـه بقوله: «قد كان هذا الرجل متستراً عنّا يدعو إلى نفسه دوننا، فأردنا أن نجعله ولي عهدنا ليكون دعاؤه إلينا»[١٦٢].

رابعاً: إبعاد الإمام عن قواعده الشعبية لتحجيم عمل الإمام أو تقليله، ومن خلال

(١٦٢) فرائد السمطين ٢: ٢١٤.

ذلك يمكن مراقبة الإمام عليه السلام، مراقبة دقيقة ومعرفة تحركاته، ولقاءاته اليومية فقد قام المأمون بتقريب هشام بن إبراهيم - وهو من خواص الإمام - وولاّه حجابة الإمام فكان ينم الأخبار إليه، وكان يمنع من اتصال كثير من مواليه به.[(١٦٣)]

خامساً: تشويه سمعة الإمام، وقد كشف الإمام عليه السلام هذه الحقيقه للمأمون بقوله: «تريد بذلك أن يقول الناس أنَّ علي بن موسى الرضا عليه السلام لم يزهد في الدنيا، بل زهدت الدنيا فيه، ألا ترون كيف قبل ولاية العهد طمعاً بالخلافة»،[(١٦٤)]

أسباب قبول الإمام عليه السلام بولاية العهد

إنّ أهم تلك الأسباب والمكتسبات هي:

أولاً: تهديد المأمون بقتل الإمام عليه السلام إذا لم يقبل بولاية العهد حيث قال له: «إنّ عمر جعل الشورى في ستة، أحدهم: جدك، وقال: من خالف فاضربوا عنقه، ولابد من قبول ذلك....[(١٦٥)] وقيل للإمام عليه السلام: يا ابن رسول اللّه ما حملك على الدخول في ولاية العهد؟ فقال عليه السلام: «ما حمل جدى أمير المؤمنين عليه السلام على الدخول في الشورى».[(١٦٦)]

وقال الإمام الرضا عليه السلام في جواب الريان، عن سرّ قبوله لولاية العهد: «... قد علم اللّه كراهتي لذلك، فلما خُيّرت بين قبول ذلك وبين القتل، اخترت القبول على القتل ويحهم! أما علموا أنّ يوسف عليه السلام كان نبياً ورسولاً، فلما دفعته الضرورة إلى تولّي

(١٦٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٥٣ ح ٢٢.
(١٦٤) علل الشرايع: ٢٣٨.
(١٦٥) مقاتل الطالبين: ٥٦٢ وقريب منه ما في الإرشاد المفيد: ٣١٠.
(١٦٦) عيون أخبار الرضا ٢: ١٤١.

خزائن العزيز، قال: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[(١٦٧)]، ودفعتني الضرورة إلى قبول ذلك بإكراه واجبار بعد الإشراف على الهلاك

ثانياً: حقن دماء أصحابه وأهل بيته: حيث قام المأمون تقرباً للإمام عليه السلام[(١٦٨)] بإعلان العفو العام عن جميع قادة الثورات،و منهم زيد وإبراهيم أخوي الإمام عليه السلام، وأردف العفو بتنصيب بعضهم ولاة في بعض الأمصار.

ثالثاً: استثمار الظروف لإحياء السنة، وعلوم أهل البيت عليهم السلام، ونشر فضائلهم: وهذه هي أهم فوائد ومكتسبات الإمام عليه السلام بقبوله لولاية العهد حيث اغتنم الإمام الفرصة، وأخذ يبلّغ الإسلام الحقيقي المتمثل بالسنة والسيرة النبوية الشريفة، وعلوم ومعارف وفضائل أهل البيت عليهم السلام، ويثقّف الناس بذلك ويربّي العلماء والفقهاء.

وكان المأمون نفسه يتحدث عن فضائل أهل البيت عليهم السلام، واستخدم وسائل الإعلام من الخطباء والشعراء وأئمة الجمعة، والولاة والأمراء لصالح الإمام عليه السلام فأصبح من أكثر الناس شيوعاً، وتحققت معرفة المسلمين وغير المسلمين به وانتشرت مناقب أهل البيت في جميع الأمصار.

---

(١٦٧) يوسف: ٥٥.

(١٦٨) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٣٩ بحار الأنوار ٤٩: ١٣٠.

شهادة الإمام الرضا ﷺ في خراسان[١٦٩]

ولم يمض على تقلّد الإمام الرضا ﷺ لولاية العهد إلاّ سنتين، حتى تنكّر لـه المأمون وفرض عليه الرقابة الشديدة، والإقامة الجبرية في بيته، ومنع العلماء وخواص شيعته من الإتصال به. واضمر لـه السوء والغدر، وما ذلك إلاّ انه لم يحصل على ما أراده، بل العكس فقد رأى المأمون مكانة الإمام قد ترسخّت في نفوس المسلمين حينما أسندت إليه ولاية العهد، لأنّهم رأووا بعدُهُ عن مغريات الدنيا، ومشاركته للناس في آلامهم، وعطفه على الضعفاء وسعة علومه، واحاطته بما تحتاج إليه الأمة في جميع شؤونها، وشدة تقواه ومعالي اخلاقه، والسير على سنة جده رسول اللّه وآبائه الطاهرين، وقد تمثل نموذج من ذلك في كيفية ذهابه إلى صلاة العيد التي دعاه المأمون لإقامتها مكانه حيث خرج الإمام ﷺ للصلاة كما كان يخرج إليها جده رسول اللّه وأمير المؤمنين، حافياً مكبّراً، ولمّا أحس المأمون بالخطر أرجع الإمام وأعفاه من الصلاة.

وعليه فقد ابتلى الإمام ابتلاءاً شديداً في تصدّيه لولاية العهد، فقد ضيّق عليه المأمون غاية التضييق، بحيث سئم الإمام الحياة، وراح يدعو اللّه تعالى أن ينقله إلى دار الخلود قائلاً: «اللهم إن كان فرجي مما أنا فيه بالموت فعجّل لى الساعة....»[١٧٠]، وما اكتفى المأمون بالتضييق على الإمام ﷺ، بل كان يترصّد الفرصة المناسبة ليقضي عليه كما

---

(١٦٩) لقد استشهد الإمام ﷺ في طوس ودفن في قرية سناباد نوقان التابعة آنذاك لمدينة طوس في محافظة خراسان وتلك القرية اليوم أصبحت مدينة كبرى باسم مشهد المقدس لشهود الإمام وشهادته فيها وهي اليوم مركز محافظة خراسان وإحدى المدن الإيرانية الكبيرة وتقع مدينة طوس القديمة حاليا قرب مشهد بعشرين كيلو متراً، وفيها قبر الشاعر الإيراني المعروف الحكيم أبي القاسم الفردوسي.

(١٧٠) عيون أخبار الرضا ﷺ ٢: ٢٤١.

قضى من قبل على وزيره فضل بن سهل لمّا أحسّ بالخطر منه على خلافته، ولذا لم يتمكن من اضمار ما في نفسه من حقد على الإمام عليه السلام وأخذ يغتنم الفرص ليتخلص من الإمام عليه السلام، ولو اقتضى ذلك أن يقتله بيده الغادرة، وقد فعل ذلك حيث ذكر معظم المؤرخين والرواة أن المأمون هو الذي دسّ السّم في العنب أو الرّمان إلى الإمام واستشهد في آخر صفر سنة «٢٠٣ هـ. ق»، وبعد ذلك أظهر المأمون الحزن الشديد على الإمام، فقد خرج حافياً، يضرب على رأسه ويقبض على لحيته ويبكي ويقول: «ما أدري أي المصيبتين أعظم عليّ فقدي لك، وفراقي إياك، أو تهمة الناس لي أني اغتلتك وقتلتك»[١٧١].

وأخفى المأمون موت الإمام عليه السلام يوماً وليلة، وبعد ذلك شيّع جثمان الإمام تشيعاً حافلاً لم تشاهد مثله خراسان في جميع أدوار تاريخها، وجيء بالجثمان الطاهر فحفر لـه قبراً بالقرب من قبر هارون الرشيد[١٧٢]، وواراه المأمون فيه، ويقال إنّه أقام عند قبره الشريف ثلاثة أيام، وذلك لتنزيهه من قتله، وإظهار إخلاصه وحبّه للإمام.

وسئل المأمون عن السبب من دفن الإمام إلى جانب قبر أبيه فأجاب: ليغفر الله لهارون بجواره للإمام الرضا عليه السلام، وقد فنّد ذلك شاعر أهل البيت عليهم السلام دعبل الخزاعي بقوله:

---

(١٧١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٤١.

(١٧٢) خرج هارون الرشيد العباسي من بغداد متجها إلى خراسان لمقاتلة العلويين وفي طوس مرض ثم توفي ودفن في قرية سناباد في دار حميد بن قحطبة الطائي، وتلك القرية اليوم أصبحت مدينة كبيرة باسم مشهد وهي مركز محافظة خراسان في ايران.

إربع بطوس على قبر الزكي بها   إن كنت تربع من دين على وطر
قبران في طوس خير الناس كلهم   و قبر شرهم، هذا من العبر
ما ينفع الرجس من قرب الزكي   ولا على الزكي بقرب الرجس من ضرر

قيل: فضرب المأمون بعمامته الأرض وقال: «صدقت واللّه يا دعبل».

وحيث وصل الحديث بنا إلى دعبل الخزاعي، فالجدير بنا أن نذكر علاقته مع

الإمام عليه السلام، ثم نذكر مقتطفات من قصيدته التائية المعروفة التي نظمها في مدح ورثاء أهل البيت عليهم السلام، والإمام الرضا عليه السلام.

الإمام الرضا عليه السلام والشاعر دعبل الخزاعي

كان الإمام الرضا عليه السلام يشجّع الشعراء الرساليين المحبين لأهل البيت عليه السلام على نظم الشعر من أجل نشر فضائل أهل البيت عليه السلام وتبيان دورهم العلمي والقيادي في الأمة، ومظلوميتهم على مرّ التاريخ، لأنّ الشعر كان خير وسيلة إعلامية في ذلك العصر، لسرعة انتشاره وسهولة حفظه وإنشائه.

ومن بين الشعراء كان دعبل الخزاعي وأشعاره في مدح أهل البيت ورثائهم أكثر صيتاً وشهرةً وما ذلك إلاّ بسبب إخلاصه وشدة ولائه لأهل البيت عليهم السلام.

وقد دخل دعبل على الإمام الرضا عليه السلام بمرو – بعد البيعة بولاية الإمام – فقال له: يا ابن رسول اللّه إني أنشدتُ فيكم قصيدة وآليت على نفسي ألاّ أنشدها أحداً قبلك، فقال لـه الإمام عليه السلام هاتها يا دعبل، فأنشده إياها وفيها استعراض للوقائع التي مرّت على أهل البيت من حين وفاة النبي صلى الله عليه وآله مروراً بأحداث السقيفه، وموقف المسلمين من الخلافة، وما جرى على أهل البيت خلال العهدين الأموي والعباسي، والخصائص التي حباهم اللّه بها، ثم ختم القصيدة بخروج الإمام العادل الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، وقد تأثر الإمام بهذه القصيدة وأخذ يبكى ويقول: صدقت يا دعبل، ولما فرغ دعبل من إنشاد القصيدة التائية المعروفة، قام الإمام الرضا عليه السلام وأنفذ إليه صرة فيها مئة

دينار[١٧٣]، وقيل عشرة ألاف درهم من الدّراهم التي ضربت بإسمه، فردها دعبل وقال: واللّه ما لهذا جئت، وإنما جئت للسلام عليك والتبرك بالنظر إلى وجهك الميمون وإني لفي غنى فإن رأى الإمام أن يعطيني شيئاً من ثيابه للتبرك فهو أحب إليّ، فأعطاه الإمام عليه السلام جبة خزّ وردّ عليه الصرة،[١٧٤] وانصرف دعبل.

وينبغي هنا أن نختم المقال حول شخصية الإمام عليه السلام بمقتطفات من تلك القصيدة التائية الرائعة تبركاً وتوسلاً بأهل البيت، وبالإمام الرضا عليه السلام:

ذكرتُ محل الرَّبع[١٧٥] من عرفات	فأجريتُ دمع العين بالعبرات
مدارس آيات خلت من تلاوة	و منزل وحي مقفر العرصات[١٧٦]
ديار علي والحسين وجعفر	و حمزة والسجاد ذي الثفنات[١٧٧]
منازل كانت للصلاة وللتقى	و للصوم والتطهير والحسنات
أفاطم لو خلت الحسين مجدلا	و قد مات عطشانا بشط فرات
إذاً للطمت الخد فاطم عنده	و أجريت دمع العين في الوجنات
أفاطم قومي يا ابنة الخير واندبي	نجوم سماوات بأرض فلاة
قبور بكوفان وأخرى بطيبة	وأخرى بفخ[١٧٨] نالها صلواتِ

(١٧٣) الفصول المهمة: ٢٤٩.

(١٧٤) نفس المصدر: ٢٥٠.

(١٧٥) الربع: المكان الذي يتوقف به ويطمأن.

(١٧٦) العرصات: الساحات.

(١٧٧) الثفنات: ما تقرن من الجلد، علامات في الجبهة من كثرة السجود.

(١٧٨) فخ: موقع بمكة وقعت فيه حادثة فخ.

وقبر بأرض الجوز جان محلّه ... و قبر بيا خمرى[١٧٩] لدى الغربات

قبور بجنب النهر من أرض كربلاء ... معّرسهم فيها بشط فرات

توفوا عطاشى بالعراء فليتني ... توفيت فيهم قبل حين وفاتى

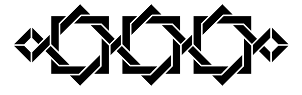
وقبر ببغداد لنفس زكية ... تضمنها الرحمن في الغرفات[١٨٠]

ولما وصل دعبل إلى هذا البيت من القصيدة، قال لـه الإمام الرضا عليه السلام: أفلا أُلحق لك بيتين بهذا الموضع، بهما تمام قصيدتك فقال بلى يا ابن رسول اللّه، فقال الرضا عليه السلام:

وقبر بطوس[١٨١] يا لها من مصيبة ... ألحت على الاحشاء بالزفرات[١٨٢]

إلى الحشر حتى يبعث اللّه قائماً ... يفّرج عنا الغم والكربات

فقال دعبل: هذا القبر الذي بطوس قبر من؟ قال الرضاعليه السلام: هو قبري، ولا تنقضي الأيام والليالي حتى تصيرطوس مختلف شيعتي وزوّاري، ألا فمن زارني في غربتي بطوس كان معي في درجتي يوم القيامة مغفوراً له.[١٨٣]



(١٧٩) باخمرى: مكان بين الكوفة وواسط في العراق فيه قبر القاسم أخو الإمام الرضاعليه السلام.

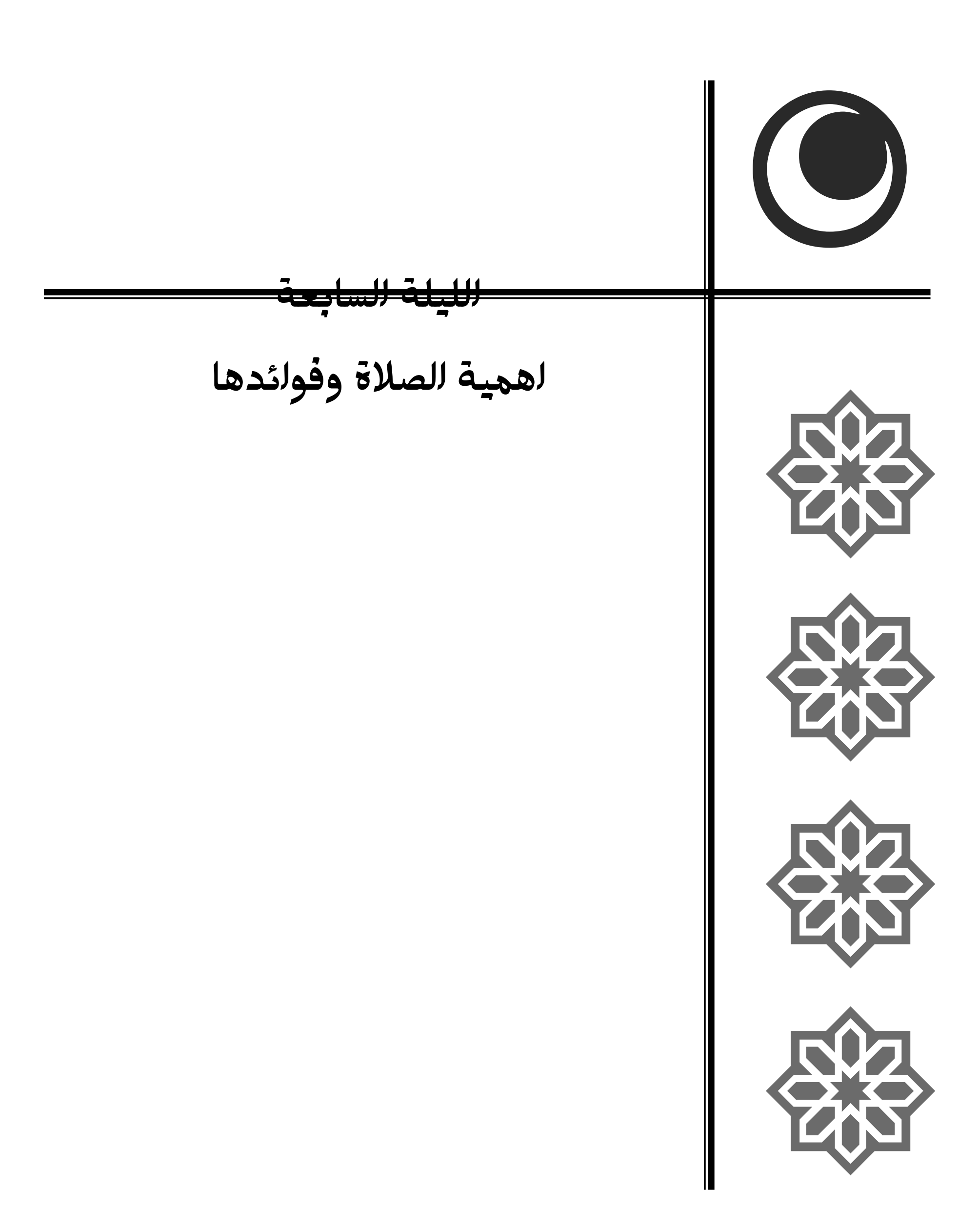
(١٨٠) الغرفات: غرف الجنة.

(١٨١) قد جاء في الحديث الشريف أن بين جبلي طوس لقبضة من تراب الجنة، وفيها قبر الإمام الرضا عليه السلام.

(١٨٢) الزّفرات: تتابع الأنفاس من شدة الغم والحزن.

(١٨٣) عيون أخبار الرضاعليه السلام ٢: ٢٩٥ ط – ايران، منشورات الشريف الرضي.





الليلة السابعة

اهمية الصلاة وفوائدها

- الصلاة في القرآن والسنة
- وجوه اهمية الصلاة
- فوائد الصلاة وآثارها
- عدم الإهتمام بالصلاة أو تركها
- آداب الصلاة واسرارها

الليلة السابعة

اهمية الصلاة وفوائدها

أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً ۞ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً

الإسراء: ٧٨-٧٩

ومما جاء في خطبته ﷺ: «أيّها الناس إن أنفسكم مرهونة بأعمالكم ففكوها باستغفاركم ، وظهوركم ثقيلة من أوزاركم فخففوا عنها بطول سجودكم ، واعلموا أن اللّه تعالى ذكره أقسم بعزته أن لا يعذب المصلين والساجدين ، وأن لا يروعهم بالنار يوم يقوم الناس لربّ العالمين»



الصلاة في القرآن والسنة

تعتبر الصلاة أقدم العبادات تاريخياً في جميع الأديان الماضية، والنماذج المذكورة من صلاة الأنبياء في القرآن الكريم خير شاهد على ذلك، فهي عمود الدين ومرضاة الرب وأحب الأعمال إليه، وكانت مورد اهتمام الأنبياء والأوصياء والأولياء وآخر وصاياهم.

وفي دين الإسلام يروى أن الرَّسول ﷺ تلقى الحكم بوجوب الصلاة أثناء عروجه إلى السماء ليلة الإسراء ثم أبلغه المسلمين، وقبل هذا كان يؤدي الصلاة هو والإمام عليه السلام وخديجة عليها السلام على دين الحنيفية، وقد جرى في السنين الأولى من تأسيس حكومة الرسول ﷺ في المدينة تغيير في محتوى الصلاة وعدد ركعاتها، وتعتبر الصلاة في الإسلام من أهم العبادات،حيث كان رسول اللّه ﷺ، إذا أسلم الرجل علّمه الصلاة، ويقول له: «ليكن أكثر همّك الصلاة فإنّها رأس الإسلام بعد الإقرار بالدين»[١٨٤].

وقد أثني على الصلاة في أحاديث الرّسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام بعناوين وتعابير تكشف عن مدى أهمية هذه العبادة في الإسلام. مثل الصلاة عمود الدين ومرضاة الرب وأحب الأعمال إليه، وهي ثمن الجنة ومفتاحها ومَهرُ نسائِها؛ وجواز العبور على الصراط وسبب خزي الشيطان، وزاد المؤمن ومعراجه إلى اللّه وأنيسه في قبره وتاج فخره يوم القيامة وجواب منكرٍ ونكير، ونور على وجهه عند المحشر، وأنّها قرة عين الرّسول ﷺ، وما شابه ذلك من الثناء والتعريف.

والسؤال الذي يطرحُ هنا، لماذا تقابل هذه العبادة بهذا الاحترام والأهمية؟

---

(١٨٤) بحار الأنوار ٧٧: ١٢٧.

سنبحث ونجيب على هذا السؤال بتقديم موارد من وجوه أهمية الصلاة من خلال دراسة الآيات والروايات الواردة في هذا الموضوع، ثم نبيّن الأهداف والفوائد والنتائج الحاصلة من هذه العبادة المهمة.

وجوه أهمية الصلاة

١- اشتراك الشرائع السماوية في الصلاة: الصلاة هي نهج الأنبياء كما عبّر عنّها الرسول صلى الله عليه وآله[(١٨٥)] وآخر وصاياهم، كما قال حفيده الإمام الصادق عليه السلام، وكان دور الأنبياء هو إقامة الصلاة، والظاهر أن المراد من إقامة الصلاة ليس مجرد القيام بأدائها فقط، بل سوق الآخرين نحو الصلاة، كما أشار إلى هذا المعنى سماحة القائد الإمام الخامنئي[(١٨٦)].

٢- لا عفو في الصلاة ابداً: يرتبط كل واحد من التكاليف الشرعية بصنف خاص من العباد، أو يعفى منه بعض الأصناف من الناس، فالصوم مثلاً واجب على غير المريض والمسافر... والخمس والزكاة والحج تتعلق بمن لهم القدرة المالية، والنساء والشيوخ مستثنون من حكم الجهاد، وبعض هذه التكاليف كالحج تجب على المستطيع مرة واحدة في العمر لا أكثر، لكن الصلاة فريضة دائمة وعامة، واجبة حال الصحة والمرض والأمن والخوف والليل والنهار وتتكرر خمس مرات في اليوم، وفي جميع الشهور والسنين وعلى الحّر والعبد،و الرجل والمرأة والغني والفقير والمريض والسقيم والمقيم والمسافر...، بل يأمر

---

(١٨٥) بحار الأنوار ٨٢: ٢٣١.

(١٨٦) أعماق الصلاة، للإمام الخامنئي «دام ظله»: ١٥.

الشارع المقدس بأداء الصلاة مشياً أو ركوباً إن كانت الظروف صعبة لا يسع المجال معها للتوقف أو النزول كحالة الحرب والجهاد. ولذا سُنّت صلاة الخوف. وقد صلاها الإمام الحسين وأصحابه عليه السلام ظهر عاشوراء ودعا لأحد أصحابه ذكَّره بوقت الصلاة بقوله: جعلك الله من المصلين، ولأهمية هذه الفريضة للإنسان يستحب أن يعّرف الطفل في أول ساعات ولادته بنداء الصلاة، ويُهمس بالأذان والإقامة في أذنيه، وكل هذا يدل على أهمية الصلاة. بحيث تكون مع الإنسان من ولادته إلى وفاته.

٣- كفر تارك الصلاة: فعن الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «ما بين المسلم وبين أن يكفر إلاّ أن يترك الصلاة الفريضة متعمداً أو يتهاون بها فلا يصليها»[(١٨٧)]، وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «لا حظّ في الإسلام لمن ترك الصلاة»[(١٨٨)].

٤- الصلاة أول ما يسأل عنه العبد: دلت النصوص على أن الصلاة أول سؤال يسأل عنه يوم القيامة، وتعتبر صحة الصلاة وقبولها شرطاً في النظر في سائر الأعمال أيضاً، فعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «إنَّ أوّل ما يحاسب به العبد الصلاة، فإن قبلت قبل ما سواها وإن رُدّت ردّ ما سواها»[(١٨٩)]

ألا تنبئ هذه الأمور كلها عن أهمية هذه الفريضة التي يجب أن تستوعب عمر الإنسان كله من الطفولة إلى الموت؟

---

(١٨٧) بحار الأنوار ٨٢: ٢١٦ و٢٣٢.

(١٨٨) المصدر السابق.

(١٨٩) بحار الأنوار ٨٣: ٢٥.

فوائد الصلاة وآثارها

١ – الصلاة تحقق حاجة الإنسان الفطرية النفسية للعبادة: يقول الشهيد المطّهري: «إنَّ أجلى تجّليات روح الإنسان، وأعظمها قدماً، وأعمقها غوراً وأصالة في أبعاد النفس الإنسانية حسه العبادي»(١٩٠).

وهذه الفريضة العبادية في الإسلام تلبي هذا الإحساس والإحتياج الفطري الحقيقي للإنسان، وهي أفضل طريقة لإشباع هذا الاحتياج والسيطرة على الإضطراب والقلق النفسي، وذكر الله خير شافٍ ومسكن للأفئدة والقلوب: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(١٩١)، وتعبير الصلاة خير مصداق لذكر اللّه، بل هي ذكر الله تعالى قال تعالى: ﴿وأقم الصلاة لذكرى﴾.

٢ – الصلاة تحقق حاجات الإنسان الحياتية: إنَّ الاستمداد والاستعانة بغير القدرة الإلهية في الحياة أمرٌ يتبرأ منه الإنسان في كل يوم في صلاته بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وأمرنا اللّه أن نستعين بالصبر والصلاة في قضاء حوائجنا بقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾(١٩٢) كما أوصى بأداء صلوات مختلفة لكل مشكلات الحياة وقضاء الحاجات، فإنّه وإن كان نظام العالم لا يقوم إلاّ على أسباب وعلل مادية لكن حدوث هذه الأسباب وتأثيرها بيد اللّه سبحانه. ولابد من الاستعانة بقوة غيبية لإيقاع الانسجام بين هذه الأسباب والعوامل، وهو ما يحصل بالصلاة ففي حديث رسول

(١٩٠) إحياء علوم الدين: ١٠٥.

(١٩١) الرعد: ٢٨.

(١٩٢) البقرة: ٤٥.

اللّه ﷺ ـ ما معناه ـ : من صلّى ركعتين لم يسأل اللّه شيئاً إلاّ اعطاه[١٩٣]

٣ – الصلاة تدارك للذنوب وإصلاح للنفس: قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ الَّيْلِ إِنّ الْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾[١٩٤]، وَعن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير هذه الآية: الصلوات الخمس كفارة لما بينهنّ، ما اجتنب من الكبائر وهي التي قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[١٩٥].

ويصف رسول اللّه ﷺ الآية السالفة في رواية؛ بأنّها أرجى آية في كتاب اللّه ويقول: «و الذي بعثني بالحق بشيراً ونذيراً إنّ أحدكم ليقوم إلى وضوئه فتتساقط عن جوارحه الذنوب، فإذا استقبل اللّه بوجهه وقلبه لم ينفتل عن صلاته وعليه من ذنوبه شيء، كما ولدته أمه» وورد في روايات كثيرة أن المصلي إذا كان مبتلياً بفساد أخلاقي، واستمر في أداء صلاته، فإنّ الآثار المعنوية للصلاة ستجعل منه فرداً صالحاً في المستقبل، ففي رواية أنَّ فتى من الأنصار كان يصلي الصلاة مع رسول اللّه ﷺ يرتكب الفواحش، فوصف ذلك لرسول اللّه ﷺ فقال: «إن الصلاة تنهاه يوماً فلم يلبث أن تاب»[١٩٦] وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[١٩٧].

---

(١٩٣) كنز العمال ٧: ٣٠٨.

(١٩٤) هود: ١١٤.

(١٩٥) بحار الأنوار ٨٢: ٢٣٣.

(١٩٦) بحار الأنوار ٧٩: ١٩٨.

(١٩٧) العنكبوت: ٤٥.

٤ - **الصلاة تقوّي الإرادة والقابلية على التركيز:** إنّ الاضطرابات الفكرية والصراعات النفسية من الأمراض المهلكة التي تهدّد البشرية في القرن العشرين. ولذا يحاول العلماء والمتخصصون في علم النفس إنقاذ الإنسان من هذه الاضطرابات والتقلبات الروحية وتوفير الراحة لفكره ونفسه فترة من الزمن، والصلاة خمس مرّات في اليوم تضع الفكر في مدار التركيز، وتيّسر عملية تنامي القدرة على تركيز الذهن، وما جاء في الصلاة بأنه يكره للمصلي الوقوف عند الباب المفتوح، وقبالة المرآة وأمام الصور (لوحات الرسم) والصلاة متضائقاً، وغيرها، يصبّ جميعاً في مدار الوصول إلى الدرجة القصوى من التركيز.

٥ - **الصلاة نهج تربوي وظاهرة اجتماعية:** على المصلي إذا أراد الصلاة رعاية عدد من الشروط اللازم توفرها في لباسه. ومكسبه، ومكان صلاته، وكذا رعاية حقوق الغير مثل دفع الزكاة، واجتناب الغيبة، والاهتمام بحقوق الناس ورعاية بر الوالدين، كي تقع صلاته موقع القبول عند اللّه سبحانه وتعالى، وهذه القيود والالزامات ذات التأثير الكبير على كل حياة الإنسان وتخرج الصلاة عن هيئتها كعمل فردي وشخصي لتبدو على شكل نهج تربوي، وظاهرة اجتماعية مستمدة من صلب الحياة، ممّا يجعلها عاملاً في مسير تحقق العدالة الاجتماعية وتحكيمها.

٦ - **الصلاة تعلّم الإنسان النظم والانضباط في الأمور:** إذ تدخل في أوقات محددة، وهي خمس أوقات في اليوم فهذا التقيّد والإلتزام بالوقت، وهكذا الترتيب الموجود في أجزاء الصلاة وركعاتها وألفاظها وأفعال حركات المصلي، كل هذا يبعث في الإنسان

روح النظم والانضباط ورعاية المنهج والنظام.

٧ – **الصلاة جرس الإيقاظ ومحذِّرٌ من ضياع العمر:** نعمَ، ما قاله في هذا السياق سماحة الإمام الخامنئي دام ظله في كرّاس كتبه عن الصلاة إذ يقول: «نادراً ما يتمكن الإنسان من تفريغ نفسه وتخليصها من المشاغل الفكرية التي تحيط به، ليتدبر نفسه وحاله، ومصيره، والصلاة – كجرس الإيقاظ – منّبه في ساعات الليل والنهار المختلفة. يجّدد للإنسان برامجه وخططه، ويأخذ منه العهد بأن يعطي لنهاره وليله معنى وقيمة، ويحسب لمرور اللحظة حساباً»[١٩٨]

٨ – **الصلاة استحكام للإيمان ومصاحبة للكون:** ما من جيش ولا منظمة إلاّ وتعلّم أفرادها وأتباعها نشيداً يبعث فيهم روح المقاومة والصمود كل صباح ومساء، ويصنع من إرادتهم وعزمهم إرادة حديدية وعزماً لا يلين.

وكل ما في الوجود وذرّاته التي تتراءى جامدة، هامدة تنشد كل صباح ومساء نشيد الثبات والصمود في طاعة الخالق: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[١٩٩]، فإذا كان مالا شعور لـه ولا وعي ولا إدراك من المسبحين لله سبحانه كيف يسوغ للإنسان ذي الفهم والشعو أن لا يخضع لعظمته، ففي الصلوات اليومية يشترك الناس مع سائر ذرّات الكون في أنشودة الثبات والصمود في طاعة الله.

٩ – **الصلاة مصحة للبدن ومطهرة للباس:** إنّ جسم الإنسان من خلال الوضوء

(١٩٨) في أعماق الصلاة للإمام الخامنئي دام ظله: ١٠.

(١٩٩) الإسراء: ٤٤.

والغسل، كمقدمات للصلاة يتعرض يومياً إلى النظافة والطهارة، كما أن المصلي عليه أن يعطّر ثيابه، ويستحب لـه أن يأخذ زينته ويتعطر للصلاة، وتأثير هذه الأعمال لابد أن يسري وينتقل إلى سائر شؤون حياته مما يجعل منه شخصية أنيقة ومرتبة.

١٠ – بالصلاة يكتسب الإنسان الوقار والشعور بالقدرة والعزة: قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلاَّ الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾(٢٠٠)، فالمصلي يكتسب من خلال أذكار الصلاة ومفاهيمها السكون والطمأنينة، وهدوء النفس والوقار في شخصيته، والإعتدال في السلوك مع الآخرين، وبالرغم مما تثير الصلاة في الإنسان من الشعور بالتواضع والخضوع، غير أنها لا تدع المصلى يحسّ بالذلة والحقارة في نفسه أبداً، فهى تربطه بالقدرة الأبدية مما يبعث في نفسه الشعور بالقدرة والعزة يقول الإمام علي عليه السلام في مناجاته: «إلهي كفى بي فخراً أن أكون لك عبداً، وكفى بي عزاً أن تكون لي ربّاً»، فبمقدار ما يتصف المصلي بالذلة أمام خالقه العظيم تخلق فيه الصلاة العزة والكرامة مع الآخرين.

عدم الاهتمام بالصلاة أو تركها

إنّ من أهمّ عوامل عدم الاهتمام بالصلاة أو تركها؛ هو ارتكاب الذنوب والمعاصي، والآثام والتعلق بالدنيا، والتأثر بهاو الجهل بالصلاة وفلسفتها وفوائدها، والجهل بالمعبود وما يحتاجه الإنسان منه، ويمكن أن يترك الإنسان الصلاة لا لجهلٍ وعمدٍ، بل يعرف

---

(٢٠٠) المعارج: ١٩-٢٣.

ضرورتها وفضلها ولكن يتركها إهمالاً وتهاوناً واستخفافاً بها فذاك هو الإنسان الفاسق والعاصي بحكم علماء المسلمين.

ومن ترك الصلاة الواجبة عامداً منكراً لضرورتها عدَّ منكراً لأحد ضروريات الدين، وخارجاً عن الإسلام فهو بحكم الكافر المرتد، ومهدور دمه إلاّ إذا تاب، وهذا رأي علماء الفريقين.

ويرى علماء الإمامية أنّ «كل من ترك واجباً كالصلاة والزكاة والخمس والحج والصوم، يؤدب بما يراه الحاكم، فإن ارتدع وإلاّ أدّبه ثانياً، فإن تاب وإلاّ أدبه ثالثاً، فإن أصرَّ قتل في الرابعة»(٢٠١)

سئل الإمام الصادق عليه السلام ما بال الزاني لا تسميه كافراً، وتارك الصلاة تسميه كافراً، وما الحجة في ذلك؟ قال عليه السلام: «لأنَّ الزاني وما أشبه إنما يفعل ذلك لمكان الشهوة لأنها تغلبه، وتارك الصلاة لا يتركها إلاّ استخفافاً بها»(٢٠٢).

هذا بالنسبة إلى ترك الصلاة، وأما بالنسبة إلى عدم الإهتمام بها، فإنّه أيضاً ذنب عظيم يترتب عليه عواقب عديدة، منها غضب اللّه ورسوله وأهل بيته عليهم السلام، والحرمان من الدُعاء والإستجابة والعسر في المعيشة وضيق القبر وظلمته، وفي النهاية عدم قبول الصلاة، وشمول العذاب والويل الإلهي الذي جاء في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾(٢٠٣)

---

(٢٠١) الفقه على المذهب الخمسة: ٧٧.

(٢٠٢) وسائل الشيعة ٣: ٢٨.

(٢٠٣) الماعون: ٤-٥.

وما من شك من أنَّ معرفة مصاديق عدم الإهتمام مقدمة للإجتناب والأمن من عواقبه في الدنيا وفي الآخرة، ومصاديق عدم الاهتمام بالصلاة كما جاء في الروايات كثيرة، منها ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ﴾[٢٠٤]، قال: «تأخير الصلاة عن أوّل وقتها لغير عذر»[٢٠٥]

وفي رواية عن الإمام علي عليه السلام قال: «من أحسن صلاته حين يراه الناس وأساءها حين يخلو فتلك استهانة»[٢٠٦]. وعنه عليه السلام: «ما وقَّر الصلاة من أخّر الطهارة لها حتى يدخل وقتها». ويُروى عنه عليه السلام أنه رأى رجلاً يصلي مستعجلاً فقال له: «منذ كم صليت بهذه الصلاة؟ فقال الرجل: منذ كذا وكذا، فقال: مثلك عند اللّه مثل الغراب إذا نقر، لو متَّ، متَّ على غير ملة أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله، ثم قال عليه السلام: «إن أسرق الناس من سرق من صلاته»[٢٠٧].

ومن أهم علائم عدم الاهتمام بالصلاة؛ جهلنا وغفلتنا عن معاني الأوراد والأذكار التي نردّدها دائماً في الصلاة، فلو كان لمخاطبنا بعض الأهمية لتعلمنا معاني ومفاهيم هذه الألفاظ كما نتعلم الكثير من العلوم التي نحتاجها في أمور دنيانا.

وفيمايلي عرض بعض هذه المعاني والمفاهيم.

---

(٢٠٤) الماعون: ٤-٥.

(٢٠٥) بحار الأنوار ٨٣: ٦.

(٢٠٦) مستدرك الوسائل ٣: ٢٦.

(٢٠٧) بحار الأنوار ٨٤: ٢٤٢.

آداب الصلاة وأسرارها

إن للصلاة صورة ظاهرية وصورة باطنية؛ وكما أن لظاهرها أحكاماً وآداباً يؤدي عدم رعايتها إلى بطلان الصلاة أو نقصانها، فإنّ لباطنها آداباً وأسراراً يلزم من عدم معرفتها ومراعاتها نقصان في الجانب المعنوي للصلاة، كما أنه بمعرفة تلك الأسرار والآداب ومراعاتها تكون الصلاة ذات روح ملكوتية ومعراجاً روحياً للمؤمن يعرج به إلى ربه.

وكما أن ظاهر القرآن لا يمسه إلاّ المتطهرون من الحدث، وباطنه لا يعرفه ولا يصل إليه إلاّ المتطهر من دنس الذنوب، كذلك الصلاة لا يأتيها ولا يؤديها إلاّ المتوضىء أو المغتسل والمتطهر من الحدث والخبث، وباطنها لا يأتيه ولا يعرفه إلاّ المتطهر من الذنوب والعارف بحقيقتها وأسرارها والمراعي لآدابها. فإنّ صورة الصلاة واحدة يشترك فيها المصلون ولكن سيرتهاوسرّها متفاوت، ولذا يتفاوت المصلون كما روي عن النبي ﷺ: «إنَّ الرجلين من أمتي يقومان في الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد، إنَّ ما بين صلاتيهما مثل ما بين السماء والأرض»[٢٠٨]، فالتفاوت في درجة الصلاة والمصلين هو في معرفة الآداب والأسرار للصلاة ومراعاتها، ومن بين تلك الآداب وأهمّها هو حضور القلب.

---

(٢٠٨) جامع أحاديث الشيعة ٥: ٣١ ح ٢٩٩٢.

حضور القلب في الصلاة

إن أهم المعاني والآداب الباطنية للصلاة، والذي يعتبر روح الصلاة وتمامها وكمالها وحقيقتها؛ حضور القلب وإقباله، ومعنى حضور القلب: أن يجعل الإنسان قلبه منذ بداية العبادة إلى نهايتها ملتفتاً بصورة اجمالية إلى أنه مشتغل بالثناء على المعبود،بحيث لا يكون في قلبه غير المعبود. وليعلم أن المنشأ والسبب الوحيد لظهور الشواغل القلبية هو حب الدنيا والاهتمام بها، فإذا انصرف الإنسان عن الدنيا توجه نحو الآخرة، ومنشأ حضور القلب هو أن يتلقى القلب الصلاة بالتعظيم، ويراها من المهمات، وأنها تسبب السعادة، وأنها زاد الحياة في عالم الآخرة، وليعلم أنه قد وردت الأحاديث الكثيرة في الترغيب بحضور القلب، ونحن نكتفي بذكر بعضها: فعن رسول اللّه ﷺ: «لا ينظر اللّه إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه». وعنه ﷺ: «أعبد اللّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراهُ فإنه يراك»، وعنه ﷺ قال: «يا أباذر ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه «لاه». والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وهذا المقدار كافٍ لأرباب القلوب اليقظه.

ولله در المحقق الفريد المهدي الطباطبائي (قده) حيث قال في الدرة:

عليك بالحضور والإقبال في جملة الأقوال والأفعال
وصلِّ بالخضوع والتخشع وكن إذا صليت كالمودع

وللحصول على حضور القلب في الصلاة: ينبغي للمصلي أن يختار المكان المناسب للصلاة لتمركز الذهن والفكر والخيال والحواس، فيتجنب حتى المكروهات في الصلاة، ثم من آداب الصلاة بعد معرفة حضور القلب وتحصيله، معرفة معاني أسرار كل واحدة من شروط الصلاة وافعالها وأركانها، فها هي نذكرها باختصار.

١ – دخول الوقت «الأذان والإقامة»: قال الشهيد الثاني: إذا دخل الوقت

استحضر أنه ميقات جعله اللّه لك لتقوم فيه بخدمته. وليظهر على قلبك السرور، لكونه سبباً لقربك ووسيلة إلى فوزك. وقد روي عن بعض أزواج النبي ﷺ أنهاقالت: «كان رسول اللّه ﷺ «يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه شغلاً باللّه عن كلّ شيء»[٢٠٩]

وقال الشهيد الثاني (قده): واعتبر بفصول الآذان وكلماته كيف افتتحت باللّه، واختتمت باللّه، ووطن قلبك بتعظيمه وتكبيره عند سماع التكبير، واستحقر الدنيا وما فيها لئلا تكون كاذباً في تكبيرك كما ورد في الحديث الشريف.

وفي صحيحة محمّد بن مسلم قال: قال لي أبو عبداللّه «إذا أنت أذّنت وأقمت، صلّى خلفك صفان من الملائكة، وإن أقمت إقامة بغير أذان صلّى خلفك صف واحد»[٢١٠].

٢ – **القيام واستقبال القبلة:** القيام هو الوقوف مستقبل القبلة بين يدى اللّه سبحانه، وهو من أعلى مراتب الإيمان وأما إستقبال القبلة: فهو صرف ظاهر الوجه عن سائر الجهات إلى جهة بيت اللّه، وهذا إشارة إلى أنه ينبغي صرف وجه القلب عن سائر الأشياء إلى اللّه. فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إذا استقبلت القبلة فأيس من الدنيا وما فيها والخلق وما هم فيه؛ واستفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن اللّه تعالى».[٢١١]

٣ – **النية في الصلاة**: ينبغي الإخلاص في الصلاة، وأن لا يشوبها غرض دنيوي، لأن في الإخلاص يكون الخلاص، والمراد من النية في الصلاة، قصد القربة إلى اللّه سبحانه،

(٢٠٩) بحار الأنوار ٨١: ٢٥٨ كتاب الصلاة ب ٣٨ ح ٥٦.
(٢١٠) وسائل الشيعة ٤: ٦٢٠ والتهذيب ١: ١٤٨.
(٢١١) مصباح الشريعة الباب ١٣ في افتتاح الصلاة.

وقد ورد في شأنها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[٢١٢]

٤ – تكبيرة الإحرام: ومعناه اللّه أكبر من كل تصور، ومن أن يوصف، أو أن يدرك بالحواس، أو أن يقاس بالناس أو بشيء.

وفي مصباح الشريعة: قال الصادق عليه السلام: «إذا كبّرت فاستصغر ما بين السموات العلى والثرى دون كبريائه، فإن اللّه تعالى اذا اطلع على قلب العبد، وهو يكبّر وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره قال: يا كاذب أ تخدعني! وعزتي وجلالي لأحرمنك حلاوة ذكري، ولأحجبنّك عن قربي والمسارّة بمناجاتي»[٢١٣].

٥ – القراءة: يجب قراءة سورة الحمد في الصلاة في الركعتين الأوليتين مع ضم سورة إليها، وتعني سورة الفاتحة الشيء الكثير من العقائد والأخلاق، فهي تبدأ باسم الله تعالى الذي يتصف بالرحمة الواسعة، ثم تحمده على آلائه ونعمه، ثم تشير إلى المعاد ويوم القيامة، وأنّه المالك المطلق لذلك اليوم، ثم يتوجه المصلي ليعترف أمام خالقه بأنه لا أحد يستحق العبادة والارتباط به ليعينه على كل مجريات الحياة، ثم يتوجه إليه ليطلب منه العون والهداية إلى الصراط الحق، ويبعده عن طريق الضلالة وكل ما يوجب غضب الله تعالى، وفي هذا نجد أن سورة الحمد هي النشيد الإيماني الذي يرتله المصلي كل يوم على الأقل عشر مرات، لتتركز مبادئها وغاياتها في نفوس المصلين، وليعمّق من ارتباطهم بربهم

(٢١٢) الأنعام: ١٦٢–١٦٣.

(٢١٣) مصباح الشريعة الباب ١٣ في افتتاح الصلاة.

وخالقهم ومدبر أمورهم.

٦ - **الركوع:** عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لا يركع عبدٌ لله ركوعاً على الحقيقة، إلاّ زيّنه اللّه تعالى بنور بهائه، وأظّله في ظلال كبريائه وكساه كسوة أصفيائه. والركوع أوّل،

والسجود ثاني، فمن أتى بالمعنى الأول صلح للثاني وفي الرّكوع أدب، وفي السجّود قرب، ومن لا يحسن الأدب لا يصلح للقرب، فاركع ركوع خاضع خاشع للّه عز وجل.[(٢١٤)]

٧ - **السجود:** السجود أعلى درجات الإستكانة والخضوع، إذ فيه وضع أعّز الأعضاء وهو الوجه على أذل الأشياء، وهو التراب، ومن هُنا قال الإمام الصادق عليه السلام: «السجود منتهى العبادة من بنى آدم»[(٢١٥)]، وعنه عليه السلام: أقرب ما يكون العبد إلى اللّه وهو ساجد»[(٢١٦)]، وقد ورد في مدح الساجدين قوله تعالى: ﴿**سِيماهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ**﴾[(٢١٧)]، كما كان للإمام زين العابدين ثفنات على مسجد جبهته، فكان يقطعها في السنة مرتين، ولذا لقب بالسجاد لكثرة سجوده.

وقال الرسول صلى الله عليه وآله في خطبته الشعبانية، الشريفه: «و ظهوركم ثقيلة من أوزاركم فخففوا عنها بطول سجودكم واعلموا أنّ اللّه تعالى ذكره أقسم بعزته أن لا يعذب المصلين والساجدين، وأن لا يروّعهم بالنار يوم يقوم الناس لرب العالمين».

---

(٢١٤) مصباح الشريعة الباب ١٥، بحار الأنوار ٨٢: ١٠٨.

(٢١٥) جامع أحاديث الشيعة ٥: ٢٢٨.

(٢١٦) وسائل الشيعة ٤: ٩٨٠.

(٢١٧) الفتح: ٢٩.

وروى الصدوق عن أمير المؤمنين عليه السلام في معنى السجود قال: (معناه منها خلقتني) يعنى من الأرض والتراب ورفع رأسك من السجود معناه (منها أخرجتني)، والسجدة الثانية «وإليها تعيدني»، ورفع رأسك في السجدة الثانية، (و منها تخرجني تارة أخرى).[٢١٨]

٨ – **القنوت:** القنوت في الصلاة بمعنى الدُعاء والتوسل وهو مظهر تام للتضرع والابتهال، وهو موجب لكمال الصلاة، فإذا تُرك القنوت فيها فتفقد حينئذٍ كمالها، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «أفضل الصلاة ما طال قنوتها».[٢١٩]

٩ – **التشهد والتسليم:** التشهد ما هو إلاّ شهادة بوحدانية اللّه ورسالة محمد صلى الله عليه وآله، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله، وحيث أن الصلاة عليه بدون الصلاة على أهل بيته بتراء فالصلاة عليهم أجمعين من أجزاء الصلاة، لقوله صلى الله عليه وآله: «من صلَّى صلاة لم يصل فيها عليّ وعلى أهل بيتي لم تقبل منه»[٢٢٠].

وأما التسليم الأخير الذي هو واجب في الصلاة في قولك: «السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته» فهو سلام على النبي محمد صلى الله عليه وآله وعلى بقية الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، والملكين المخصصين لأعمال المصلين، وقد جاء في الروايات[٢٢١] أن التسليم في دبر كل صلاة علامة الأمن وتحليل الصلاة، أمن من أن يدخل في الصلاة ما يفسدها، وتحليل

(٢١٨) بحار الأنوار ٨٥: ١٣٩.

(٢١٩) الخصال ٢: ١٠٣.

(٢٢٠) جامع أحاديث الشيعة ٥: ٣٣٧.

(٢٢١) مصباح الشريعة باب ١٨، وجامع أحاديث الشيعة ٥: ٦٨.

للكلام والخروج من الصلاة، والسلام والتسليم إذا وضع موضعه فهو أمان من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة، والسلام اسم من أسماء اللّه تعالى وهو واقع من المصلّي على ملكي اللّه الموكَّلين به.

١٠ – تعقيبات الصلاة: قال اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۞ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب﴾[٢٢٢]، أي: فانصب نفسك لإدامة العبادة بتعقيب الصلاة بالدعاء والمناجات مع قاضي الحاجات، فعن رسول اللّه ﷺ قال: «من أدّى للّه تعالى صلاة مكتوبة فله في أثرها دعوة مستجابة»،[٢٢٣] بل قد نهى ﷺ عن ترك التعقيب لإيهامه الإستغناء عن اللّه تعالى. وعن حفيده الإمام الصادق عليه السلام قال: «من صلى صلاة فريضة وعقَّب إلى أُخرى فهو ضيف اللّه، وحق على اللّه أن يكرم ضيفه»[٢٢٤]، وأدنى مراتب التعقيب البقاء على الوضوء بعد الصلاة كما ورد في الحديث الشريف.

هذا مجمل القول في أصل التعقيب ورجحانه، وأمّا ما ورد في تعيينه وبعض أسراره، فعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «إذا سلّمت فارفع يديك بالتكبير ثلاثاً»[٢٢٥]، ولعل سر التثليث هو التنبه للمراحل الثلاث من التوحيد الذاتي والصفاتي والأفعالي.

وقد أمروا وأكّدوا في التعقيب بأمور أخرى نافعة، وأنفعها تسبيح فاطمة الزهراء عليها السلام وقراءة آية الكرسي الحاوية للاسم الأعظم وسجدة الشكر التي تعكس أسمى حالات

---

(٢٢٢) الشرح: ٧–٨.

(٢٢٣) جامع أحاديث الشيعة ٥: ٣٥٧ ح٣٣٨٣.

(٢٢٤) جامع أحاديث الشيعة ٥: ٣٥٩ ح ٣٣٩١.

(٢٢٥) جامع أحاديث للشيعة ٥: ٣٦٤ ح ٣٤٠٣.

الخضوع والتعبد، وقد نقل في توقيع مولانا صاحب العصر عجل الله تعالى فرجه الشريف أن: «سجدة الشكر ألزم السنن وأوجبها».(٢٢٦)

ومن التعقيبات التبرك بالمسجد، فقد أمر في وداع الصلاة بعد سجدة الشكر أن يمرَّ المصلي يده على موضع السجود، ويمسح بها وجهه وجسمه، وهو ما يضمن السلامة من كل مرضٍ وضعف بإذن الله تعالى.(٢٢٧)

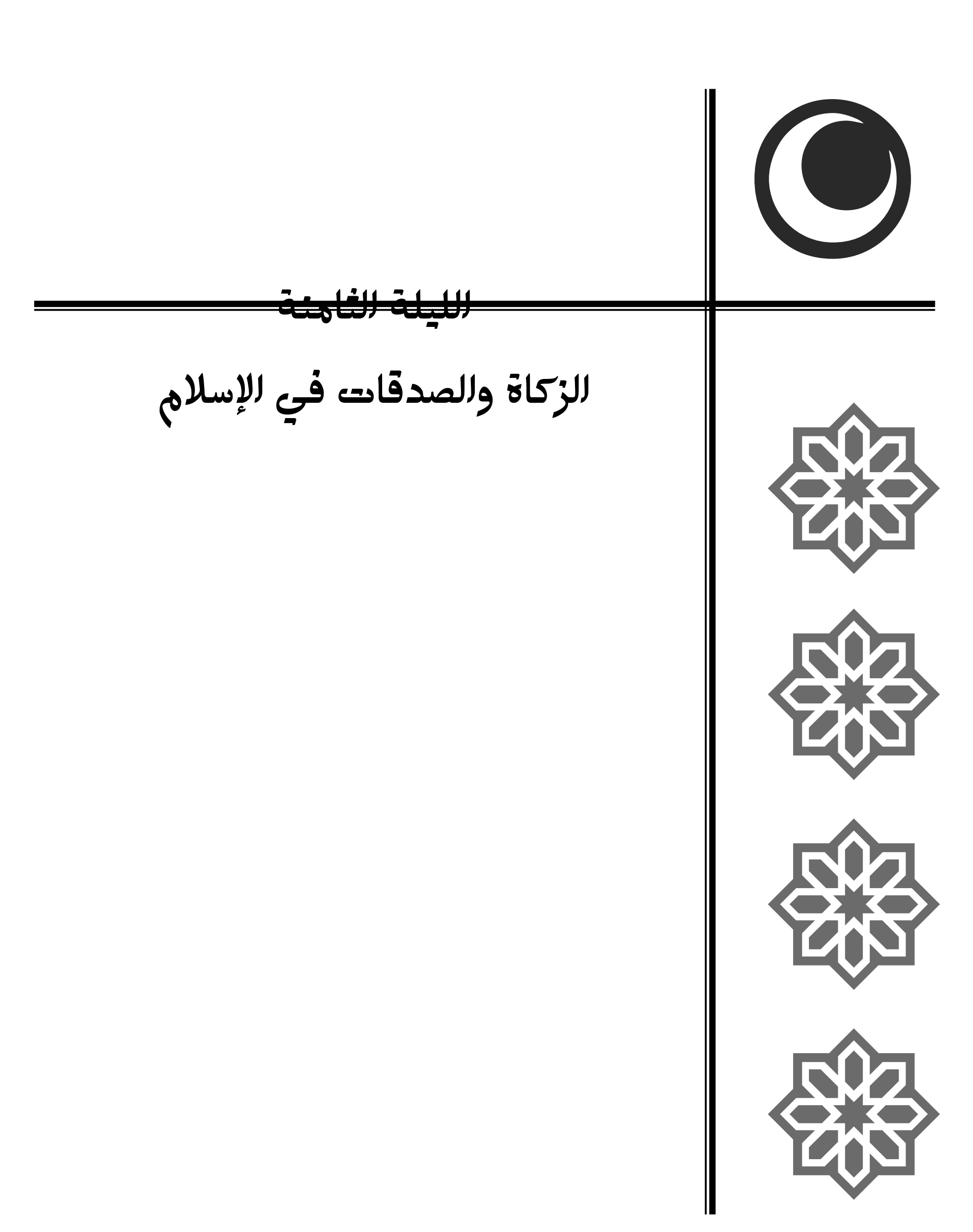
هذا مجمل يعكس اهتمام الإسلام بالصلاة، كما أننا نرى مولانا أمير المؤمنين في حرب صفين يفرش بين الصفين ليصلي صلاته، ولا يأبه بالسهام التي تمر على رأسه، كما أن الحسين عليه السلام وفي أحلك الحالات يقول لـه الصائدي، يا ابن رسول الله أحب أن أصلي معك، هذه الصلاة التي قد دنا وقتها قبل أن أموت، فقال لـه الحسين عليه السلام ذكرت الصلاة جعلك الله من المصلين، نعم هذا أول وقتها، سلوهم أن يكفوا عنا حتى نصلي لربنا...(٢٢٨)

اللهم اجعلنا من المقيمين للصلاة واجعلنا من العارفين بحقيقتها وأسرارها والمراعين لآدابها والمنتفعين بها في الدنيا والآخرة برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

---

(٢٢٦) جامع أحاديث الشيعة ٥: ٤٥٣ ح ٣٦٤٥.
(٢٢٧) بحار الأنوار ٨٥: ٢٠٦.
(٢٢٨) بحار الأنوار ٤١: ١٤٨.





الليلة الثامنة

الزكاة والصدقات في الإسلام

- الصدقات الواجبة (الفريضة)
- الصدقات المستحبة (التطوعية)
- فوائد الصدقة وآثارها
- التصدق والتحنن على اليتيم

الليلة الثامنة

الزكاة والصدقات في الإسلام

خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

التوبة: ١٠٣

ومما جاء في خطبته صلى الله عليه وآله: «**وتصدقوا على فقرائكم ومساكينكم... وتحننوا على أيتام الناس يُتَحَنَّنْ على أيتامكم**».



الصدقات الواجبة (الفريضة)

الصدقة: ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه التقرب إلى اللّه، وجوباً وفريضة كزكاة الأموال وزكاة الفطرة أو استحباباً تطوعاً، والزكاة: وهي الصدقة الشرعية يجوز كونها مأخوذة من النّمو والإزدياد، فإنَّ المزكّي لماله قد أنماه وكثّرهُ ويجوز كونها مأخوذة من معنى التطهير والتزكية فإنَّ المزكي لماله قد طهّره من الأوساخ، وطهر نفسه من البخل

والحرص. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾[(٢٢٩)].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لما نزلت آية الزكاة ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾ في شهر رمضان، أمر رسول اللّه صلى الله عليه وآله مناديه فنادى في الناس: إنّ اللّه فرض عليكم الزكاة كما فرض عليكم الصلاة... أيّها المسلمون زكّوا أموالكم تقبل صلاتكم».[(٢٣٠)]

وقال عليه السلام: إنَّ اللّه قرن الزكاة بالصلاة فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[(٢٣١)]، فمن أقام الصلاة ولم يؤتِ الزكاة لم يقم الصلاة.

وهذهِ الآية ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾؛ تتضمن حكم زكاة المال التي هي من أركان الشريعة الإسلامية، وقد أمر اللّه النبي صلى الله عليه وآله بأخذ الصدقة من بعض أموال الناس، وهي النقدان: (الذهب والفضة)، والأنعام الثلاثة: (الإبل والبقر والغنم) والغلات الأربع: (الحنطة والشعير والتمر والزبيب)، وأُمر بعد أخذ الصدقة منهم أن يدعوا لهم، فكان صلى الله عليه وآله يدعوا لمعطي الزكاة ولماله بالخير والبركة، وكان ذلك الدعاء سكناً لنفوسهم، وهو نوع من الشكر لسعيهم في طاعة اللّه.[(٢٣٢)]

وهذه الصدقات، تصرف لثمان أصناف من طبقات المجتمع التي ذكرتها الآية في

---

(٢٢٩) الأعلى: ١٤–١٥.

(٢٣٠) وسائل الشيعة ٩: ٩.

(٢٣١) البقرة: ١١٠.

(٢٣٢) الميزان في تفسير القرآن ٩: ٣٧٧.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٢٣٣). والدليل على أنَّ الآية لبيان موارد صرف الصدقات الواجبة أي الزكاة قوله تعالى في آخرها: ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللهِ﴾.

والفقير: هو الذي اتصف بالعدم والفقدان لما يرفع حوائجه الحيوية من المال، وهو لا يسأل الناس من التعفف قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾(٢٣٤).

وأما المسكين: فهو الذي حلّت به المسكنة والذلة، مضافاً إلى فقدان المال فهو يسأل كل كريم ولئيم من شدة الفقر، وعليه فالمسكين أسوء حالاً من الفقير.

وأما العاملون على الصدقات، فهم الساعون لجمع الزكاة.

وأما المؤلفة قلوبهم، فهم الذين يؤلف قلوبهم بإعطاء سهم من الزكاة ليسلموا، أو يدفع بهم العدو.

وأما الرِّقابِ، فهو فكهم، كما في العبد المكاتب الذي لا يقدر على تأدية ما شرطه لمولاه على نفسه لعتقه وغيره.

والغارمون أي، المديونون الذين ركبتهم الديون، فيقضى ديونهم بسهم من الزكاة.

---

(٢٣٣) التوبة: ٦٠.

(٢٣٤) البقرة: ٢٧٣.

وفي سبيل اللّه هو كل عمل يعود نفعه إلى الإسلام والمسلمين، ومن أظهر مصاديقه الجهاد في سبيل اللّه.

وابن السبيل هو المنقطع عن وطنه الفاقد لما يعيش به، وإن كان غنياً ذا يسار في بلده، فترفع حاجته بسهم من الزكاة.

هذا ما جاء في القرآن حول تشريع الزكاة وأهميتها وموارد مصرفها، وهناك آيات أخر تتعرض لذلك تركناها للاختصار، وأما ما جاء في الروايات حول أهمية الزكاة، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «إنما وضعت الزكاة اختباراً للأغنياء، ومؤونة للفقراء، ولو أنَّ الناس أدّوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقير محتاج، وإنّ أحب الناس إلى اللّه أسخاهم كّفاً، وأسخى الناس من أدى زكاة ماله، ولم يبخل على المؤمنين بما افترض لهم في ماله».[٢٣٥]

وهناك قصة وقعت في زمن الرسول صلى الله عليه وآله فيها مذمة لأحد الأصحاب، وهو ثعلبة بن حاطب الأنصاري بسبب بخله، وعدم اعطائه الزكاة، وقد عاهد اللّه لئن آتاه اللّه من فضله ليتصدق فنقض عهده، فأنزل اللّه فيه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عاهد اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَنَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّلِحِينَ ۞ فَلَمَّآ ءَاتَهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[٢٣٦].

قيل نزلت هذه الآية في ثعلبة بن حاطب، وكان من الأنصار، فقال للنبي صلى الله عليه وآله أدع اللّه أن يرزقني مالاً، فقال صلى الله عليه وآله: يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه، أما لك في

(٢٣٥) من لا يحضره الفقيه ٢: ٧ ح١٥٧٩.

(٢٣٦) التوبة: ٧٥-٧٦.

رسول اللّه أسوة حسنة والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت ثم أتاه بعد ذلك، فقال: يا رسول اللّه أدع الله أن يرزقني مالاً، والذي بعثك بالحق لئن رزقني اللّه مالاً لأعطينّ كل ذي حّقٍّ حقّه، فقال ﷺ اللهم ارزق ثعلبة مالاً، فاتخذ ثعلبة غنماً فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحا عنها فنزل وادياً من أوديتها، ثم كثرت نُمُواً حتى تباعد عن المدينة فاشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة، فبعث رسول اللّه ﷺ إليه المصدق ليأخذ الصدقة فأبى وبخل، وقال ما هذه إلاّ أخت الجزية، فقال رسول اللّه ﷺ: يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة وأنزل اللّه الآيات. وقيل: «إنّ ثعلبة أتى مجلساً من الأنصار فأشهدهم فقال لئن أتاني اللّه من فضله تصدقت منه وآتيت كل ذي حق حقه، ووصلت منه القرابة، فابتلاه اللّه فمات ابن عم لـه فورثه، ولم يف بما قال فنزلت الآيات».(٢٣٧)

ومن الصدقات الواجبة زكاة الفطرة التي تسمى بزكاة الأبدان، وهي واجبة على من تتوفر فيه الشرائط، وتدفع عند انتهاءشهر رمضان، وقد أنزل اللّه تعالى فيها قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾(٢٣٨)، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ من تمام الصوم إعطاء الزكاة كالصلاة على النبي ﷺ من تمام الصلاة».(٢٣٩)

هذا ما أردنا أن نبحثه باختصار حول الصدقات الواجبة من زكاة الأموال وزكاة الأبدان، والآن نبحث عن الصدقات المندوبة التي جاءت في خطبة الرسول الأكرم ﷺ

(٢٣٧) بحار الأنوار ٢٢: ٤٠.

(٢٣٨) الأعلى: ١٤-١٥.

(٢٣٩) تهذيب الأحكام ٣: ١٥٩ ح٨٣..

في قوله: «وتصدقوا على فقرائكم ومساكينكم».

الصدقات المستحبة (التطوعية)

قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ﴾[٢٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٢٤١]

يريد القرآن بهذه الدعوة إلى الإنفاق والتصرف، أن يرتفع مستوى معيشة الطبقة الفقيرة التي لا تستطيع رفع حوائج الحياة بدون إمداد مالي من غيرهم وتقييد الإنفاق بقوله: ﴿سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾، فإن من الإنفاق ما يحسن فيه الإسرار إذا كان في إعلانه مظنة الرياء، أو الشهرة أو إهانة وإذهاب ماء وجهه، ومن الإنفاق ما يحسن فيه الإعلان فيما كان في إعلانه تشويق الناس على البّر والمعروف ودفع التهمة ونحو ذلك، لذا ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام: كل ما فرض عليك فإعلانه أفضل من إسراره، وما كان تطوعاً فإسراره أفضل من إعلانه»[٢٤٢]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوها وَتُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[٢٤٣]، يفهم منه أن

---

(٢٤٠) إبراهيم: ٣١.

(٢٤١) المنافقون: ١٠.

(٢٤٢) تفسير الصافي ١: ٢٢٨.

(٢٤٣) البقرة: ٢٧١.

إعطاء الصدقات بكلتا الصورتين مقبول حسن، ولكن الإخفاء فيه أفضل للحفاظ على ماء وجه الفقير المتصدق عليه، والحذر من الرياء وبطلان العمل، وذلك لأنّ، الرياء يبطل الصدقات كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَتِكُم بِالْمَنِ وَالْأَذَىٰ كَالذى يُنفِقُ مَالَهُ رِيَآءَ النَّاسِ﴾[٢٤٤]، فالإخلاص والتقوى والإنفاق من طيبات الكسب ومما يُحب هو من شروط قبول الإنفاق والصدقات، كما نص عليه القرآن بقوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾[٢٤٥]، وقوله تعالى: ﴿لن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٢٤٦]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[٢٤٧].

وينبغي أن يكون هذا الإنفاق والتصدق بمقدار لا يضرُّ بشخص المتصدق وعياله كما خاطب اللّه تبارك وتعالى رسوله الكريم بقوله: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَة إلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً﴾[٢٤٨].

ثم إن الصدقة لا تنحصر بالمال ولا بالفقير، فعن رسول اللّه ﷺ: «كل معروف صدقة إلى غنّي أو فقير»، وإنَّ أحق الناس بالإنفاق والصدقات المستحبة هم الأقربون من ذوي الأرحام كما نصت عليه الآيات والروايات. قال تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَما تَفْعَلُوا

(٢٤٤) البقرة: ٢٦٣.

(٢٤٥) البقرة: ٢٦٧.

(٢٤٦) آل عمران: ٩٢.

(٢٤٧) المائدة: ٢٧.

(٢٤٨) الإسراء: ٢٩.

مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[٢٤٩]. وعن النبي ﷺ «لا صدقة وذو رحم محتاج، فإن الصدقة على مسكين صدقة، وهي على ذوي رحم صدقة وصلة».[٢٥٠]

ثم فليعلم أن هناك أياماً وليالٍ يتأكد فيها استحباب التصدق، وأهمها يوم الجمعة وليلتها، وشهر رمضان ولياليه وبالأخص ليالي القدر، لأن الصدقة فيها تتضاعف، وقد أكد الرسول ﷺ في خطبته الشعبانية على التصدق في رمضان بقوله: «و تصدقوا على فقرائكم ومساكينكم»، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «من تصدق في شهر رمضان بصدقة صرف اللّه عنه سبعين نوعاً من البلاء».[٢٥١]

والآن بعد هذه الجولة السريعة حول أهمية الإنفاق والصدقات المستحبة نذكر أهم فوائد الصدقة من خلال الآيات والروايات والحكايات.

فوائد الصدقة وآثارها

للصدقة فوائد عديدة ذكرتها الآيات والروايات والحكايات، ومن تلك الفوائد المهمة:

الحصول على الأجر والثواب الكبير، قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[٢٥٢].

والصدقة على ما جاء في الرويات سبب لنموّ المال وازدياده وحفظه، ونفي الفقر

---

(٢٤٩) البقرة: ٢١٥.

(٢٥٠) الاختصاص للمفيد: ٢١٩ وعنه في بحار الأنوار ٩٦: ١٣٧.

(٢٥١) بحار الأنوار ٩٦: ١٧٩.

(٢٥٢) الحديد: ٧.

وقضاء الدين واستنزال الرزق، وأنها تدفع الشر والبلاء والنحوسة، وتردّ القضاء المبرم، وتدفع ميتة السوء وسبب لشفاء المريض، وهناك فوائد أخرى أيضاً...، وكل ما ذكرناه يرجع إلى المتصدِّق وأهله وعياله، وهناك فوائد ترجع إلى أفراد المجتمع من نفي الفقر والتضامن الاجتماعي، والتحابب والتقارب في اللّه، قال الإمام الصادق عليه السلام: «ما من شيء إلاّ وكّل به ملك إلاّ الصدقة فإنها تقع في يد اللّه»[٢٥٣]، ويشهد على ذلك قوله تعالى: ﴿أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ﴾[٢٥٤] ولأنَّ الصدقة تقع بيد اللّه كره لنا ردّ السائل بخشونة ونهر، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾[٢٥٥]، وقال الرسول صلى الله عليه وآله: «رُدّوا السائل ببذل يسير أو بلين ورحمة، فإنّهُ يأتيكم من ليس بإنسٍ ولا جان لينظر كيف صنعكم فيما خوّلكم اللّه»[٢٥٦].

وفي ختام هذا البحث ننقل بعض الحكايات الواردة حول فوائد الصدقة وأثرها في الفرد والمجتمع.

روي عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «ظهر في بني إسرائيل قحط شديد سنين متوالية، وكانت عند إمرأة منهم لقمة من خبز فوضعتها في فمها لتأكلها فنادى السائل: أمة الله الجوع، فقالت المرأة: أتصدق في مثل هذا الزّمان، فأخرجتها من فمها فدفعتها إلى السائل، وكان لها ولد صغير يحطب في الصحراء، فجاء الذئب فالتقمه فوقعت الصيحة

---

(٢٥٣) بحار الأنوار ٩٦: ١٢٧.

(٢٥٤) التوبة: ١٠٤.

(٢٥٥) الضحى: ١٠.

(٢٥٦) بحار الأنوار ٩٦: ١٥٩.

فخرجت المرأة في أثر الذئب، فبعث اللّه جبرئيل فأخرج الطفل من فم الذئب فدفعه إلى أمّه، وقال لها يا أمة اللّه أرضيت لقمة بلقمة[٢٥٧].

وحُكي أن رجلاً أراد الحج ودخل الكوفة، ورأى إمرأة أخذت ميتة فمشى معها فلما دخلت إلى أهلها، قالت لأولادها: جئتكم بالمأكول فعلم الرّجل أنّها فقيرة، وتصدّق بجميع ماله وبقي في الكوفة إلى أن رجع الحجيج فاستقبلهم، وكان كلّما مرّ على أحد منهم سمع أنّه كان معهم، فرأى في المنام قائلاً يقول له: يا فلان أنا ملك بعثني اللّه تعالى أن أحج عنك لما تصدقت على الفقراء.[٢٥٨]

التصّدق والتحنّن على اليتيم

إنَّ فاقد الأب أو الأم يسمى يتيماً، وفاقد الأبوين يُسمّى لطيماً، وكم من الأيتام بين أيدينا متروكون، مهضومون، وأحياناً مظلومون؟! إنّ أحق الناس بالإنفاق والصدقة بعد ذوي الأرحام والأقارب هم اليتامى، لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[٢٥٩]، وإنّ الإنفاق والتصدق على اليتيم هُو نوع من أنواع التحنن عليه الذي أكّد عليه الرّسول ﷺ في خطبته الشريفة، بقوله ﷺ: «و تحننوا على أيتام الناس يُتحنن على أيتامكم»، وإن أقل مراتب التحنن على اليتيم المسح على رأسه ترحماً، وفيه الأجر العظيم، وينبغي للمؤمنين

---

(٢٥٧) فروع الدين الإسلامي: ٧٥ للشيخ الفرطوسي.

(٢٥٨) فروع الدين الإسلامي: ٧٥ للشيخ الفرطوسي..

(٢٥٩) البقرة: ٢١٥.

الاهتمام بمعيشة اليتامى وتربيتهم وإعطاء حقوقهم وعدم الاكتفاء بالأمور العاطفية.

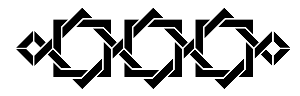
وينبغى أن نذكر هنا بالمناسبة أيضاً ما جرى لأبي الأرامل والأيتام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأهل بيته عليهم السلام مع المسكين واليتيم والأسير في لياليهم الثلاث وهم صائمون، حتى نزلت فيهم سورة «هل أتى» تصف أهل البيت عليهم السلام في قمة الإيثار والتقوى والمقام الرفيع، وتصفهم بالأبرار المبشَّرين بالجنة والموعودين بنعيمها، من الحرير والسندس والإستبرق والعين التي تسمى سلسبيلاً، والشراب الطهور وغيرها من نعم الجنة.

روى صاحب الكشاف «الزمخشرى» في تفسير قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ۞ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ۞ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلاَ شُكُوراً﴾[٢٦٠]، عن ابن عباس «رض»: أن الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول اللّه صلى الله عليه وآله في ناس معه، فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك، فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما؛ إن برئا مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام، فشفيا وما عندهم شيء، فاستقرض علي عليه السلام ثلاثة أصوع من شعير، فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم، فوضعوها بين أيديهم ليفطروا، فوقف عليهم سائل فقال: السلام عليكم يا أهل بيت محمد صلى الله عليه وآله، مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني أطعمكم اللّه من موائد الجنة، فآثروه وباتوا ولم يذوقوا إلاّ الماء، وأصبحوا صيّاماً، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه،

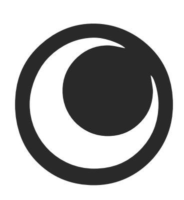
---

(٢٦٠) الإنسان: ٧-٩.

ووقف عليهم أسير في اليوم الثالث ففعلوا مثل ذلك، فلما أصبحوا أخذ علي عليه السلام بيد الحسن والحسين عليهما السلام وأقبلوا إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله، فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع: قال ما أشد ما يسوؤني ما أرى بكم، وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها، فساءه ذلك، فنزل جبرئيل، وقال: «خذها يا محمد هنّأك اللّه في أهل بيتك فأقرأه السورة»[٢٦١].

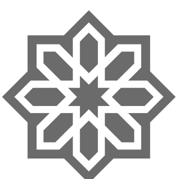


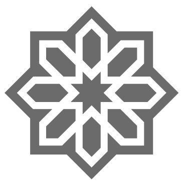
(٢٦١) بحار الأنوار ٣٣: ٤٠٢/ ٦٢٤.

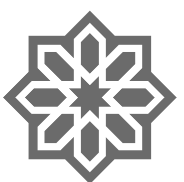


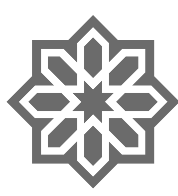
الليلة التاسعة

مكانة المرآة وحقوقها في الإسلام









- حقوق المرأة في الكتاب والسنة
- الحقوق الزوجية في الشريعة المحمدية
- ارث المرأة في الشريعة الإسلامية

الليلة التاسعة

مكانة المرأة وحقوقها في الإسلام(٢٦٢)

يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الذى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَحِدَة وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً وَاتَّقُواْ اللَّهَ الذى تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا

النساء: ١

وقال رسول الله ﷺ: الا إنّ خيركم خيركم لنسائه وأنا خيرُكم لنسائي

الوافي ١٢: ١١٧ عن الفقيه



(٢٦٢) لما كانت وفاة خديجة الكبرى في العاشر من شهر رمضان، أحببنا أن نلقي نظرة عامة على مكانة المرأة، وحقوقها في الإسلام ومكانة النساء الأربعة: خديجة وفاطمة وآسية ومريم (عليهن السلام) في ضمن الكلام عن الكمالات الإنسانية للمرأة، فخصصنا لذلك ليالٍ ثلاثاً، الليلة التاسعة والعاشرة والحادية عشرة للحديث عن المرأة.

حقوق المرأة في الكتاب والسنة

ما هي مكانة المرأة في الإسلام؟... وما هي حقوقها؟... وما هو فرقها عن الرجل في نظر الإسلام؟... وقبل أن نبيّن حقيقة وضع المرأة في الإسلام يجدر بنا أن نلمّ إلمامة سريعة بتأريخ المرأة قبل الإسلام.

كانت المرأة قبل الإسلام مضطهدة بأنواع الإضطهاد، في عصر الحضارات اليونانية والمصرية والرومانية والإيرانية، حيث لم يعترف بالمرأة كإنسان إلاّ بعد ظهور الأديان السماوية، وبمرور الزمن شاركت المرأة حياة الرجل دون الإعتراف لها بالشخصية الحقوقية الاجتماعية، وكانت خاضعة لإرادة الرجل كلّياً[٢٦٣].

وفي اليونان القديم: كانت المرأة تعدّ كالبضائع والسلع التجارية تُباع وتُشترى في الأسواق، ولا يحقّ لها الحياة بعد وفاة الزوج[٢٦٤].

وعند الرومان: كان للأب في الأُسرة الحقّ في بيع ابنته، بل والقضاء عليها عند الضرورة، غير أن هذا الحق الأبوي كان يفوّض بعد زواج البنت إلى زوجها، باعتباره مالكاً للمرأة بحكم القانون، وفي الهند: كانت المرأة تحرق مع جثمان زوجها وهي على قيد الحياة، كي تتخلّص روح الزوج من العزالة، والإنفراد[٢٦٥].

وفي الجزيرة العربية، كان بعض العرب يئد البنات خوفاً من أن يقعن بيد العدو وينجبن لـه الأطفال، لذلك كنّ يتعرض للوأد بعد الولادة[٢٦٦]، ومنهم من كان يقتل

(٢٦٣) حقوق المرأة في الإسلام وأوروبا: ٢٧ ط ١٩٧٨.
(٢٦٤) المصدر السابق: ٤١.
(٢٦٥) روح الدين الإسلامي، عفيف عبد الفتاح طبارة: ٣٤٥.
(٢٦٦) راجع سورة النحل: ٥٨-٥٩.

البنات خشية إملاق[٢٦٧]، وكنَّ محرومات من الإرث لعدم اشتراكهنّ في الحروب[٢٦٨]، وكانت العرب ترث النساء وتعتبرها قسماً من تركة المتوفي[٢٦٩]، وكانوا يرغمونهنَّ على البغاء ليكسبوا منهن مالاً[٢٧٠]، فجاء الإسلام وألغى كل هذه التقاليد الغاشمة والعادات البربرية في جزيرة العرب، وبتصدير تعاليمه إلى كافّة الأقطار أصبح محرّراً لنساء العالم.

أجل كانت المرأة في العالم، وخاصة في الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام تلقى شتّى أنواع الاضطهاد، وهي محرومة من ممارسة حقوقها، فبينما كانت المرأة عند الشعوب الأوربية وغيرها تُعدّ من الحيوان، لا من نوع الإنسان، إذْ جاء الإسلام معلناً أنّ المرأة والرجل أحدهما يكمّل الآخر، لأنهما خُلِقا من نفس واحدة، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الذى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَحِدَة﴾[٢٧١].

وبينما كان البعض يرى أن المرأة لا يصحّ أن يكون لها دين، حتّى أنهم كانوا يحرّمون عليها قراءة الكتب المقدّسة[٢٧٢]،جاء الإسلام مقرّراً: أنّ لهن ثواب أعمالهّن الصالحة كالرجال، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾[٢٧٣].

---

(٢٦٧) راجع سورة الإسراء: ٣١.
(٢٦٨) راجع سورة النساء: ٧.
(٢٦٩) راجع سورة النساء: ١٩.
(٢٧٠) راجع سورة النور: ٣٣.
(٢٧١) النساء: ١.
(٢٧٢) روح الدين الإسلامي: ٣٤٦.
(٢٧٣) النساء: ١٢٤.

وفي عصر كان البعض ينكح الأثرياء من النساء اللواتي لا جمال ولا شباب لهنّ، بل طمعاً في أموالهن، ثم كانوا يتركونهنّ دون طلاق حتّى يأتي أجلهنَّ لكي يرثوهن، جاء الإسلام محرّماً ذلك بقوله تعالى: ﴿لا يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَرِثُوا النِّساء كَرْهاً﴾(٢٧٤).

وفي عصرٍ كان بعض العرب يعذّبون النساء كي يتنازلن عن صداقهن ويحرّرن أنفسهنّ، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَعْضُلُوهُنّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إلاّ أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَة مُبَيِّنَة﴾(٢٧٥).

وبينما كان الرجل الذي يريد استبدال زوجته، يقذفها بالفحشاء كي ترغم بالتنازل عن صداقها لتحرير نفسها، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إحْداهُنَّ قِنْطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيّاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾(٢٧٦).

وفي عصر كانت المرأة تباع وتشترى كالبضائع، ويُدفع صداقها إلى أوليائها ليتمّ امتلاكها، ألغى القرآن الكريم هذاالتصرّف المُهين، مؤكّداً على أن صداق المرأة هو رمز محبّة الزوج وتقديره واخلاصه وصدقه تجاه زوجته، ولم يكن عوضاً عن تملّكها، ولذا أمر القرآن بأن تُؤتى المرأة مهرها الكامل، واصفاً هذا العطاء بـ «النحلة» أي عطاء عن طيب نفس، كما تُقدّم الهدية ويُهدى العسل ﴿وَءَاتُواْ النِّسَآءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَة﴾(٢٧٧).

وفي عصر كانت الشعوب لا تعترف بملكية المرأة، أقرَّ الإسلام للمرأة بالاستقلال

---

(٢٧٤) النساء: ١٩.

(٢٧٥) النساء: ١٩.

(٢٧٦) النساء: ٢٠.

(٢٧٧) النساء: ٤.

الاقتصادي، واعتبرها مالكة ما تكتسبه قال تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾[٢٧٨]. علماً بأنَّ النساء في بريطانيا حتى عام «١٨٥٠»، وفي ألمانيا حتى عام «١٩٠٠»، وايطاليا حتى عام «١٩١٩» لم يكن لهُنّ حقّ في التملّك[٢٧٩].

وبينما نرى الشعوب تحتقر المرأة، فلا تعتبرها أهلاً للاشتراك مع الرجال في النشاط الاجتماعي، جاء الإسلام وأثبت للمرأة حقّها في النشاط الاجتماعي، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يأمرون بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[٢٨٠].

وفي عصر كانت الشعوب بأسرها لا تعترف بحقوق المرأة، جاء في القرآن الكريم: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الذى عَلَيْهِنّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[٢٨١]، أي لهُنَّ حقّ في الاشتراك في الشؤون الاجتماعية، بقدر ما لهُنَّ من المسؤولية في المجتمع.

وفي عصر كان لا يُسمح للمرأة أن تعبّر عن رأيها، ساوى الإسلام بين المرأة والرجل في حقّ التصويت (المبايعة)، وقد قبل الرسول الكريم صلى الله عليه وآله بيعة النساء بحكم الكتاب: ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ إنَّ اللَّه غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٢٨٢].

---

(٢٧٨) النساء: ٣٢.

(٢٧٩) روح الدين الإسلامي: ٣٤٥.

(٢٨٠) التوبة: ٧١.

(٢٨١) البقرة: ٢٢٨.

(٢٨٢) الممتحنة: ١٢.

وإزاء هذه الأفكار السخيفة لتلك الشعوب التي كانت تعتقد بأن المرأة خلقت لخدمة الرجل، أكّد القرآن الكريم: ﴿هُنّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ﴾[٢٨٣]، أي كلاهما بحاجة إلى الآخر وفي خدمة الآخر.

ورغم كل ما تعرّضت لـه المرأة من أساليب الاحتقار والمعاملة البشعة قبل الإسلام، ورد في القرآن الكريم: ﴿وَعاشِرُوهُنّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[٢٨٤]، وعن رسول اللّه ﷺ قال: «خَيرُكُمْ خَيرُكُمْ لِنسائِه وبَناته»[٢٨٥]، وقال ﷺ:« إنّما المرأة لعبة من اتّخذها فلا يضيّعها»[٢٨٦]، وقال ﷺ: «ما أكرم النّساء إلاّكريم ولا أهانهنّ إلاّ لئيم»[٢٨٧]، وخاطب رسول اللّه ﷺ المسلمين في حجّة الوداع قائلاً: «أمّا بعد، أيّها النّاس، فإنّ لكم على نسائكم حقّاً، ولهنّ عليكم حقّاً، واستوصوا بالنّساء خيراً، فإنّهنّ عندكم عوان، وإنّكم إنّما أخذتموهنّ بأمانة اللّه»[٢٨٨].

وأمّا السيرة العملية لرسول الإسلام ﷺ نفسه مع زوجاته وأولاده بنين وبنات، حتى من قبل أن يصدع بما أمر به من القرآن، فقد أكرم امرأته خديجة بنت خويلد، وأكرم أولاده منها بنين وبنات، فلم يُتّهم بأي تفريق في تكريمه لهم، اللّهم إلاّ ما أولاه من عنايته الخاصة بابنته الزهراء فاطمة عليها السلام، وذلك لأسباب خاصّة تطلب من مظانّها.

---

(٢٨٣) البقرة: ١٨٧.

(٢٨٤) النساء: ١٩.

(٢٨٥) مستدرك الوسائل ١٤: ٢٥٥.

(٢٨٦) فروع الكافي ٥: ٥١٠.

(٢٨٧) وسائل الشيعة ١٣: ١٤.

(٢٨٨) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٥١.

هذا وقد أعطى الله تعالى للمرأة حقوقاً ليرفع من مكانتها وليبين من قدرها، فأعطاها حقوقاً من جهة كونها أمّاً، وأعطاها حقوقاً من جهة كونها عاملة، ومن جهة أنها زوجة... وللاختصار كما أن لأهمية موضوع الحقوق الزوجية والميراث نسلّط الأضواء على هذين الجانبين فقط.

الحقوق الزوجية في الشريعة المحمدية

قال اللّه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢٨٩].

الزواج: هو الرابطة المقّدسة، والحياة المشتركة بين الزوجين، شرّعه اللّه عزوجل لحفظ النوع البشري وتكاثره، وعمران الأرض وازدهار الحياة فيها، وقد رغبت فيه الشريعة الإسلامية وحرّضت عليه كتاباً وسُنة، ومن الثابت أنّ السعادة الزوجية لا تتحقق، إلاّ إذا أحسن كل منهما اختيار صاحبه، وشريك حياته، واصطفاه على ضوء القيم الأصيله والمقاييس الإلهية، والزوجان بعد هذا لا يكسبان السعادة الزوجية والهناء العائلي، إلاّ برعاية كل منهما حقوق الآخر وأداء واجباته.

وقد أولت الشريعة الإسلامية الحياة الزوجية عناية بالغة، بصفتها الخلية الأولى من خلايا المجتمع الكبير، ورعتها بالتنظيم والتوجيه، وقررت الحقوق المشتركة بين الزوجين، والحقوق الخاصة بكل منهما على انفراد. فالحقوق المشتركة التي يجدر تبادلها بين

---

(٢٨٩) الرّوم: ٢١.

الزوجين، هي: الإخلاص، والثقة، والأمانة، والتعاطف، والتآزر، وهذه عناصر الحياة الزوجية الناجحة، ومقوماتها الأصيلة. وأما الحقوق الخاصة فسنعرضها في مطاوي هذا البحث:

حقوق الزوجة

١- **النفقة:** وهي حق محتم على الزوج يجب أداؤه إليها، وتوفير حاجاتها المعاشية، من الملبس والمطعم والمسكن، ونحوذلك من مستلزمات الحياة حسب شأنها وعاداتها، وإن كانت ثرية موسِرة، لايسقط إلاّ بنشوزها وتمردها على الزوج.

ويستحب للزوج أن يوسع على زوجته وعياله ولا يكتفي بالنفقات الواجبة.

٢ – **المعاشرة بالمعروف:** الزوجة أنيسة الرجل، وشريكة حياته في السرّاء والضرّاء، وتواسيه في الأفراح والأحزان، تنفرد بجهود شاقة من تدبير المنزل، ورعاية الأسرة، ووظائف الأمومة. فعلى الرجل أن يحسن عشرتها ويسوسها بالرفق والمداراة، تلطيفاً لمشاعرها ومكافأة لها على جهودها. وذلك مما يسلّيها، ويخفف متاعبها، ويضاعف حبّها وإخلاصها لزوجها، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بالمَعْرُوفِ﴾[٢٩٠] وقال تعالى: ﴿و لَهُنَّ مِثلُ الذى عَلَيهِنَّ بالمعروف ﴾[٢٩١]. وقال رسول اللّه ﷺ: «ألا إنّ خيركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائي»[٢٩٢].

---

(٢٩٠) النساء: ١٩.

(٢٩١) البقرة: ٢٢٨.

(٢٩٢) الوافي ١٢: ١١٧ عن الفقيه.

وفي قبال ذلك جعل المولى تبارك وتعالى حقوقاً للزوج على زوجته، وينبغي على الزوجة مراعاتها وفيما يلي عرض مختصر لها.

حقوق الزوج

للزوج حقوق على زوجه بحكم رعايته لها وقيمومته عليها، وهي:

١ - الطاعة: وهي أول متطلبات الزوج وحقوقه المفروضة على زوجته فهي مسؤولة عن طاعته وتلبية رغباته المشروعة، واجتناب كل ما يسيئه ويغيظه، كالخروج من الدار بغير رضاه، والتبذير في ماله، وإهمال وظائفها المنزلية، ونحو ذلك مما يعرّض الحياة الزوجية لأخطار التباغظ والفرقة، كالخلاعة والاستهتار وإفشاء أسرار الزوج، وكشف ما يسعى إلى إخفائه من الفقر وغيره، فعن أبي جعفر عليه السلام قال: جاءت إمرأة إلى النّبي صلى الله عليه وآله فقالت: يا رسول اللّه، ما حقّ الزوج على المرأة؟ فقال لها: أن تطيعه ولا تعصيه، ولا تتصدّق من بيته إلا بإذنه ولا تصوم تطوعاً إلا بإذنه، ولا تمنعه نفسها وإن كانت على قتب، ولا تخرج من بيته إلا بإذنه، فإن خرجت بغير إذنه لعنتها ملائكة السّماء وملائكة الأرض، وملائكة الغضب وملائكة الرّحمة حتّى ترجع إلى بيتها.

فقالت: يا رسول اللّه من أعظم النّاس حقاً على الرّجل؟

قال صلى الله عليه وآله: والداه.

قالت: فمن أعظم النّاس حقاً على المرأة؟

قال صلى الله عليه وآله: زوجُها....[٢٩٣]

---

(٢٩٣) الوافي ١٢: ١١٤ عن الكافي والفقيه.

وقال رسول اللّه ﷺ: «ما استفاد امرء مسلم فائدة بعد الإسلام أفضل من زوجة مسلمة تسرّه إذا نظر إليها وتطيعه إذا أمرها وتحفظه إذا غاب عنها في نفسه وماله»[٢٩٤].

٢- حسن العشرة والمداراة: وعلى الزوجة أن تحيط زوجها بحسن العشرة، وجميل الرعاية، ولطف المداراة، وذلك بتفقد شؤونه، وتوفير وسائل راحته النفسيه والجسميه، وحسن التدبير المنزلي ورعاية عياله، ليستشعر منها العطف والحنان. فعن رسول اللّه ﷺ: «جهاد المرأة حسن التّبعُّل»[٢٩٥].

وهذه وصية بليغة لأعرابية حكيمة، توصى بها ابنتها ليلة البناء بها: «أي بنية، إنّك فارقت بيتك الذي منه خرجت، وعشّك الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه. فكوني لـه أمة يكن لك عبداً، واحفظي لـه خصالاً عشراً:

أمّا الأولى والثانية: فأصحبيه بالقناعة وعاشريه بحسن السمع والطاعة.

وأمّا الثالثة والرابعة: فالتفقد لموضع عينه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلاّ اطيب ريح.

وأمّا الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت طعامه ومنامه، فإن تواتر الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبه.

وأمّا السابعة والثامنة: فالاحتراس بماله، والارعاء على حشمه وعياله، وملاك الأمر في المال حسن التقدير وفي العيال حسن التدبير.

---

(٢٩٤) وسائل الشيعة ٢٠: ٤٠.

(٢٩٥) الوافي ١٢: ١١٤ عن الكافي.

وأمّا التاسعة والعاشرة: فلا تعصين لـه أمراً، ولا تفشين لـه سرّاً. فإنك إن خالفتيه أوغرت صدره، وإن أفشيت سرّه لم تأمني غدره.

ثمّ إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتماً، والكآبة بين يديه إذا كان فرحاً، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير.

وكوني أشد الناس لـه اعظاماً يكن أشدهم لك اكراماً، واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبيّن حتى تؤثري رضاه على رضاك،و هواه على هواك، فيما أحببت وكرهت واللّه يخير لك»[٢٩٦].

إرث المرأة في الشريعة الإسلامية

من أهمّ الحقوق المادية للمرأة هو الإرث، وقد كان هذا الحق منذ بداية خلقة الإنسان إلى يومنا هذا مهملاً، وكانت المرأة على مرّ العصور محرومة من هذا الحق الطبيعي والالهي بالاخص في الجاهلية قبل الإسلام حيث كانت المرأة محرومة من الإرث وكان الذكر هو الوارث الوحيد واذا لم يكن بين الأولاد ذكور ذهب الميراث إلى الأعمام، كما أخرج مسلم في الصحيح عن عمر بن الخطاب قال: «و اللّه إن كنّا في الجاهلية ما نعدّ للنّساء أمراً، حتّى أنزل اللّه فيهنّ ما أنزل وقسم لهنّ ما قسم»[٢٩٧] وكذا كانت المرأة الأوربية في العصور الوسطى حتى عصر النهضة الصناعية الكبرى كانت محرومة من الإرث عموماً، بينما حصص الميراث في الإسلام شاملة للأولاد جميعاً بنات وبنين، أعزاباً

(٢٩٦) مختارات المنفلوطي: ٢٤٠، نقلاً عن كتاب، أخلاق أهل البيت، للسيّد مهدي الصدر.

(٢٩٧) صحيح مسلم ٤: ١٤.

ومتزوّجين، إلاّ أنّ حصّة الذكر مثل حظ الأنثيين من الميراث. قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾[٢٩٨]

والسبب في تحديد الإسلام سهم المرأة وجعله نصف سهم الرجل، هو الوضع الخاص للمرأة حيث إنه لّما جعل الإسلام لها المهر في النكاح وأوجب نفقتها على الرجل فما تأخذه من الميراث لا تحتاج إليه في حياتها إلاّ في كمالياتها، بينما على الرجل أن يدفع لزوجته المهر وعليه نفقتها ونفقة عياله، والنفقة على والديه فهو بحاجة لهذا المال وليس خارجاً عنها في الحالات الطبيعية، وهذا ما أجاب به الإمام الصادق عليه السلام ابن أبي العوجاء حين اعترض على الإسلام. فقد روى الصدوق في علل الشرائع بسنده عن هشام بن سالم عن الأحول قال: «قال لي ابن أبي العوجاء: ما بال المرأة الضّعيفة لها سهم واحد وللرجل القويّ الموسر سهمان؟ قال الأحول: فذكرت ذلك للصّادق عليه السلام فقال: على الرّجال النّفقة والعاقلة والجهاد، وعدّ غيرها وقال: وليس هذا عليها، فلذلك جعل لـه سهمان ولها سهم». وروى فيه بسنده عن عبد اللّه بن سنان قال: «قلت للصّادق عليه السلام لأيّ علّة صار الميراث للذّكر مثل حظّ الأنثيين؟ قال عليه السلام: لما جعل لها من الصّداق». وروى فيه بسنده عن أخيه محمد بن سنان أنه كتب إلى الرضا عليه السلام بمسائل،فكتب إليه فيما كتب من جواب مسائله: «علّة إعطاء النّساء نصف ما يعطى الرّجال من الميراث لأنّ المرأة إذا تزوّجت أخذت وأعطاها الرّجل، فلذلك وفّر عليه، ولأنّ الانثى في عيال الذّكر إن احتاجت فعليه أن يعولها وعليه نفقتها، ليس على المرأة

---

(٢٩٨) النساء: ١١.

أن تعول الرّجل، وإن احتاج فلا تؤخذ هي بنفقته، فلذلك وفّر عليه»[٢٩٩].

إذن تأخذ المرأة ثلث الثروة الموروثة لتنفقها على نفسها، ويأخذ الرجل ثلثي الثروة لينفقها أوّلاً على زوجته – أي على امرأة – وثانياً على أسرته – فأيّهما يصيب أكثر من الآخر بمنطق الحساب والأرقام؟ فهل بقيت بعد ذلك شبهة القدر الحقيقي الذي تناله المرأة من مجموع الثروة؟ وهل هو امتياز حقيقي في حساب الاقتصاد أن يكون للرجل مثل حظ الانثيين وهو مكلّف بما لاتتكلفه الأنثى؟ على أن هذه النسبة إنّما تكون في المال الموروث بلا تعب، أما المال المكتسب فلا فرق بين الرجل والمرأة لأنه يتبع مقياساً آخر هو المساواة بين الجهد والجزاء، قال تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾[٣٠٠].

هذا وفي كثير من الفروض يتساوى الرجل والمرأة في الإرث، منها: أن الأبوين يتساويان في الإرث وهو السدس. ومنها: ان المرأة والرجل من أقرباء الأمّ يتساويان في الإرث في بعض الفروض.

إذن فلا ينبغي أن يتوهّم وجود أي ظلم للمرأة في مسألة تقسيم الإرث بين الذكر والأنثى وليس معنى قوله: ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ أن قيمة المرأة هي نصف قيمة الرجل في حساب الإسلام كما يفهمه العوام، ويقوله أعداء الإسلام.

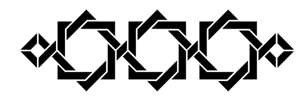
ولكن الظلم بالنسبة للمرأة أن تحرم من الإرث كلياً كما كان في الجاهلية قبل الإسلام،

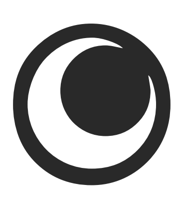
---

(٢٩٩) علل الشرائع ٢: ٢٩٣–٢٩٤ ط بيروت، نقلاً عن مقال تحت عنوان: المرأة في الإسلام والجاهلية بقلم الشيخ محمد هادي اليوسفي في مجلة رسالة الثقلين العدد ٢٥ سنة ١٤١٩ هـ. ق.

(٣٠٠) النساء: ٣٢.

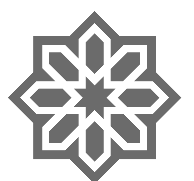
وكما فعله القوم بالنسبة إلى فاطمة الزهراء عليها السلام بعد وفاة أبيها رسول اللّه صلى الله عليه وآله: إذ حرموها من الإرث، محتجين بحديثٍ موضوع ينافي الشرع والعقل، نسبوه إلى النبي صلى الله عليه وآله، وهو قولهم أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نُورِّث».

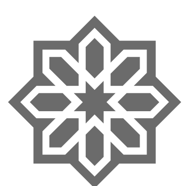


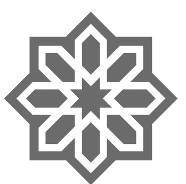


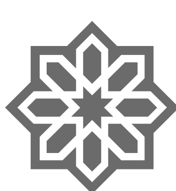
الليلة العاشرة

في رحاب أم المؤمنين خديجة الكبرى









- زواج خديجة من رسول اللّه ﷺ
- وفاة خديجة الكبرى ام المؤمنين
- زيارة أم المؤمنين خديجة الكبرى

الليلة العاشرة

في رحاب أم المؤمنين خديجة الكبرى عليها السلام

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: أفضل نساء أهل الجنة أربع: خديجة بنت خويلد عليها السلام وفاطمة عليها السلام بنت محمد صلى الله عليه وآله ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون[٣٠١]

وقال صلى الله عليه وآله: «خديجة وأين مثل خديجة، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها اللّه أولاداً إذ حرمني أولاد النساء»[٣٠٢].

---

(٣٠١) كتاب الخصال للشيخ الصدوق: ٢٠٦ وأسد الغابة ٧: ٨٣.

(٣٠٢) الإصابة ٢٧٥: ٤ وأسد الغابة ٥: ٥٣٩.

زواج خديجة من رسول الله ﷺ

يقال إن خديجة رأت في منامها، شمساً من سماء مكة استقر في دارها، وملأ الدار نوراً وبهاءً، ويفيض ذلك النور من دارها ليضيء كل ما حولها، ولما استيقظت من نومها، راحت عند ابن عمها ورقة ابن نوفل النصراني لكي تقصَّ عليه ما رأت في منامها، وما انتهت خديجة من كلامها حتى ابتسم ابن عمها، ثم قال لخديجة: «أبشري يا ابنة العم، لو صدَّق اللّه رؤياك ليدخلنَّ نور النبوة دارك، وليفيضنّ منها نور خاتم النبيين».

وأخذت خديجة تسأل ابن عمها عن خاتم النبيين وصفته، وعن أحواله، وهُو يجيبها عن هذه الأشياء الغامضة التي قرأها وأخذها من الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل، فكانت خديجة عليها السلام إذا تقدم إليها سيدٌ من سادات قريش لخطبتها، تقيسه بمقياس الحلم الذي رأته، والتفسير الذي سمعته من ابن عمها، وإذا لم تجد فيه صفات النبوة، كانت ترده ردّاً جميلاً وتخبره بأنّها لا تودّ الزواج.

وكانت خديجة ابنة خويلد تعرف محمد بن عبد اللّه ﷺ حق المعرفة، لأنّ محمداً ﷺ كان قد اشتهر بالصادق الأمين في مكة وعند قريش، ولذا طلبت خديجة منه أن يتاجر بأموالها، مضاربةً ويبدو أن أبا طالب قد رغّب ابن أخيه محمداً ﷺ أن يقبل طلب خديجه ويتّجر بمالها، لأن محمداً ﷺ وأباطالب آنذاك كانا يفتقران إلى المال، فلذا لّما أخبره بطلب خديجة، قال له: رزق ساقه اللّه إليك، فقبل رسول الله ﷺ عرضها، وفرحت وقالت لغلامها ميسرة: أنت وهذا المال كله بحكم محمد ﷺ.

وخرج محمد الأمين عليه السلام مع ميسرة للتجارة إلى الشام، وربحا في ذلك السفر ربحاً كثيراً، وبعد ما رجعا، إلى مكة ذهب ميسرة إلى خديجة وحدَّثها عن أخلاق محمد ﷺ

في السفر، وحدثها من دلائل مستقبل هذا الفتى مما سمعه عن تنبؤات الرّهبان، ومظاهر رعاية اللّه له، وأتى الخبر لخديجة بأنّ الغمامة والشجرة قد أظلت محمداً ﷺ وكما أتتها الأخبار بأنَّ محمداً ﷺ سوف يصبح رسول اللّه ﷺ، وذلك مما قاله الكثير من علماء أهل الكتاب حينما رأووه[٣٠٣].

نعم لقد عرفت خديجة كل شيء عن محمد ﷺ، ولكن ما الطريق الذي يوصلها إليه؟! لقد خطبته وعرضت نفسها عليه بطريقتها الخاصة، فإنّها كانت عاقلة ولبيبة، تقول نفيسة بنت منية: أرسلتني خديجه دسيساً إلى محمد ﷺ بعد أن رجع من عيرها من الشام، فقلت يا محمد ﷺ ما يمنعك أن تتزوج؟

فقال ﷺ: ما بيدي ما أتزوج به.

فقلت: فإن كفيت ذلك ودُعيت إلى الكمال والجمال والمال والشرف والكفائة، ألا تجيب؟ قال: «فمن هي»؟

قلتُ: خديجة.

عند ذلك قبل رسول الله ﷺ بالزواج بها لما عرفه عنها واشتهر في قومها من جلالة قدرها وطهارتها حتى كانت تسمى في قومها بالسيدة وبالطاهرة[٣٠٤] وبسيدة قريش، ثم رجع إلى عمه أبي طالب وطلب منه أن يخطب لـه خديجة.

فذهب هُو ومحمد ﷺ وأعمامه إلى بيت ورقة بن نوفل ابن عم خديجة وقيل غيره،

---

(٣٠٣) البداية والنهاية ٢: ٢٩٦، السيرة الحلبية ١: ١٣٦.

(٣٠٤) تاريخ الخميس ١: ٢٦٣.

وفي ذلك المجلس خطب ابوطالب خطبة واثني على بني هاشم وعلى محمد ﷺ،ثم تكلم ابن عمّ خديجة ورقة ابن نوفل وأثنى على أبي طالب ومحمد واعتزّ وافتخر بهذا الزواج، ثم قال: فاشهدوا عليّ معاشر قريش بأني قد زوّجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد اللّه ﷺ، وقيل ـ كما في رواية أخرى ـ بأنّه عندما خطب أبو طالب خديجة من ابن عمها أو من عمها، لم يستطع الكلام فغالبت خديجة حياءها، وقالت يا عم يا ابن عم: إنه وإن كنت أولى بالكلام في هذا المقام غير أني الأولى بالاختيار، وإني قد زوجت نفسي من محمد وأنا الضامنة لمهري(٣٠٥)، فاطلب من عمّك فلينحر جزوراً، وليولم بها، وقد نحر أبو طالب ناقة، وكذلك أولم رسول اللّه على زواجه بخديجة، وفرحت خديجة بهذا الزّواج فرحاً شديداً.

والماديّون والمستشرقون الذين ينظرون إلى كل شيء من ناحية المال والمادة، يزعمون: أن خديجة بما أنّها كانت ذات مال تتاجر به، كانت أحوج ما تكون إلى رجل «أمين» لإدارة أمور تجارتها، لذلك اندفعت للزواج بمحمّد «الصادق الأمين»، وكان النبي ﷺ يعلم بوضعها المالي وحياتها الكريمة لذلك قبل خطوبتها مع ما بينهما من تفاوت العمر! والجواب: إنّ كون خديجة هي التي عرضت نفسها على النبي، وأنّه لم يكن هُو الذي تقدّم لخطبتها لخير جواب على ما جاء في كلمات هؤلاء من اتهام باطل بأنّه ﷺ إنّما تزوج خديجة طمعاً في مالها.

علاوة على ذلك إنّ القول بأنّ عمرها كان ٤٠ سنة خالفه أكثر المحققين، ويمكن

(٣٠٥) الصحيح من سيرة النبي ٢: ١١٢-١١٣.

التشكيك فيه، إذ يحتمل قوياً أن خديجة كان عمرها ٢٨ سنة عندما تزوجها النبي ﷺ كما رجّحه الكثير من المؤرخين[٣٠٦]، بل عن البيهقي أنه صحح أن عمرها كان ٢٥ سنة.[٣٠٧]

وأمّا بالنسبة إلى خديجة فإنّ الذي نراه في التاريخ هو أنَّ دوافع خديجة للزواج بالصادق الأمين كانت دوافع معنوية، والشاهد لذلك: عندما أخبرها ميسرة بالكرامات الّتي ظهرت لـه وما قاله علماء النصارى في حقه، ازدادت شوقاً وحباً لـه فعرضت عليه الزّواج، وإنَّ سبقها إلى الإيمان بالإسلام ورسالة محمد ﷺ بحيث كانت أوّل امرأة آمنت به لهو خير دليل على كون زواج خديجة كان بدافع معنوي لا مادي.

ومضت مدّة على الزّواج الميمون، وقد وهب اللّه سبحانه لخديجة فاطمة سيدة نساءالعالمين وولدين هُما: القاسم وعبد اللّه[٣٠٨]، عرفا بالطيب والطاهر، وشاءت إرادة اللّه ان لا يعيش للنبي ﷺ ولدٌ ذكر، وكانت العرب بعد مبعثه تعيّره بهذا، ويقولون بأنَّ أثره سينقطع، وذكرُه سينتهي لأنّه فقد أولاده الذكور، ولم يبق لـه سوى أنثى، ووصفوه بالأبتر فنزلت الآيات: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾[٣٠٩]. ولقد ورد في عدة من التفاسير أن اللّه أكثر نسل محمد ﷺ وذريته من ولد فاطمة، كثرة لا يعادلهم فيها أي نسل آخر مع ما نزل عليهم من النوائب.

---

(٣٠٦) تهذيب تاريخ دمشق ١: ٣٠٣.

(٣٠٧) دلائل النبوة ٢: ٧١.

(٣٠٨) طبقات ابن سعد ١: ١٣٣ والكامل في التاريخ ٢: ٤٠ والسيرة النبوية لابن هشام: ٦٥.

(٣٠٩) الكوثر: ١ و٢ و٣.

وأحبّت خديجة عليها السلام زوجها محمداً صلى الله عليه وآله حبّاً شديداً، لذا كانت تهيئ لـه كل أسباب الرّاحة، في داخل البيت، ولم يبق هذا التقدير والحب والخدمة من خديجة، للنبي من طرف واحد، بل قابلها بالحب والتقدير في أيام حياتها وبعد مماتها، بحيث ظلّت خديجة بعد وفاتها في قلب النبي صلى الله عليه وآله في كل مناسبة، وفي كلّ مكان، وكان يثني عليها ويذكرها بخير دائماً، ويبدو أنَّ ثناء رسول اللّه المتزايد على أم المؤمنين خديجة عليها السلام أثار الغيرة عند عائشة حتى اعترفت وصرّحت بذلك، فقالت: «ما غرتُ على امرأة مثل ما غرتُ على خديجة، مما كنت أسمع من ذكر رسول اللّه صلى الله عليه وآله لها، وما تزّوجني إلاّ بعد موتها بثلاث سنين، ولقد أمره ربّه أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب»[٣١٠].

وقالت عائشة: «كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة، فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الأيام فأخذتني الغيرة، فقلت: هل كانت إلاّ عجوزاً قد أبدلك اللّه خيراً منها، فغضب صلى الله عليه وآله حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ثم قال: «و اللّه ما أبدلني اللّه خيراً منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها اللّه أولاداً إذ حرمني أولاد النساء، قالت عائشة: فقلت في نفسي لا اذكرها بعدها بسيئة»[٣١١].

وعن عائشة أن النبي صلى الله عليه وآله كان إذا ذبح الشاة قال: «ارسلوها إلى أصدقاء خديجة»، وهذا الحديث وغيرها من الأحاديث التي ذكرنا البعض منها، تدل على أن وفاء رسول

---

(٣١٠) سير اعلام النبلاء ٢: ١١٢.

(٣١١) الاصابة ٤: ٢٧٥ وأسد الغابة ٥: ٥٣٩.

اللّه ﷺ لخديجة الطاهرة لم يكن لـه نظير في دنيا الوفاء، فقد كان يود من يود خديجة ومن كانت تود خديجة.

وفاة خديجة الكبرى أم المؤمنين عليها السلام

ومضت الأيام والسنين ويئس رؤساء الكّفار من مضّى المسلمين في طريقهم وراحوا يتشاورون فيما بينهم عمّا يعملونه لتحطيم الدعوة، قبل أن تنتشر، فأجمعوا أن يقتلوا محمداً ﷺ وثار بنوهاشم وبنو المطلب على ما أجمع به كفار قريش، وأعلن بنو هاشم حمايتهم لرسول اللّه ﷺ وإن لم يكونوا جميعاً على دينه، ثم اجتمعت قريش في دار الندوة، وكتبوا بينهم صحيفة: أن لايواكلوا بني هاشم ولا يبايعوهم ولا يزوّجوهم، ولا يحضروا معهم حتى يدفعوا إليهم محمّداً ليقتلوه، وختموا الصحيفة بأربعين خاتماً وعلّقوها في الكعبة فرأى أبو طالب أن الحرب قد أعلنت على قومه، فجمع بني هاشم وعبد المطلب مؤمنهم وكافرهم، وأمرهم أن يدخلوا برسول اللّه ﷺ الشعب، فدخلوا شعب أبي طالب وكان ذلك في هلال المحرم سنة سبع من البعثه النبوية، فضرب كفارقريش حول شعب أبي طالب حصاراً، وكانوا يمنعون الناس من الدخول أو الاتصال بمن يريد الحماية لرسول اللّه، ومضت ثلاث سنوات عجاف على الهاشميين والمطلبيين وهم محاصرون داخل الشعب، وكانت خديجة عليها السلام شاركته آلام المحنة ومرارتها راضية صابرة تواسي الحبيب المصطفى ﷺ والمسلمين بنفسها ومالها، حتى نفد مالها كله، خلال سنين الحصار في شعب أبي طالب، ثم جاء الفرج الإلهي، ومزّقت الصحيفة الظالمة، وخرج المسلمون وهم يكبرون وكان خروجهم من الحصار في السنة العاشرة من البعثة، قبل الهجرة إلى

المدينة بثلاث سنين، وخرج محمد ﷺ منصوراً يتابع دعوته ورسالته ولكن خديجة ﷺ، لم تلبث إلاّ قليلاً بعد الخروج من الحصار، حتى ضعفت ومرضت، ولما قرب منها الأجل أخذت توصي رسول اللّه ﷺ فقالت: يا رسول اللّه إنّي مقصرة في حقك فاعفني وسامحني، فقال لها رسول اللّه ﷺ: حاشا وكلا ما رأيت منك تقصيراً فقد بلغت جهدك وتعبت في داري غاية التعب، ولقد بذلت جميع أموالك في سبيل اللّه، فجزاك اللّه خير الجزاء.

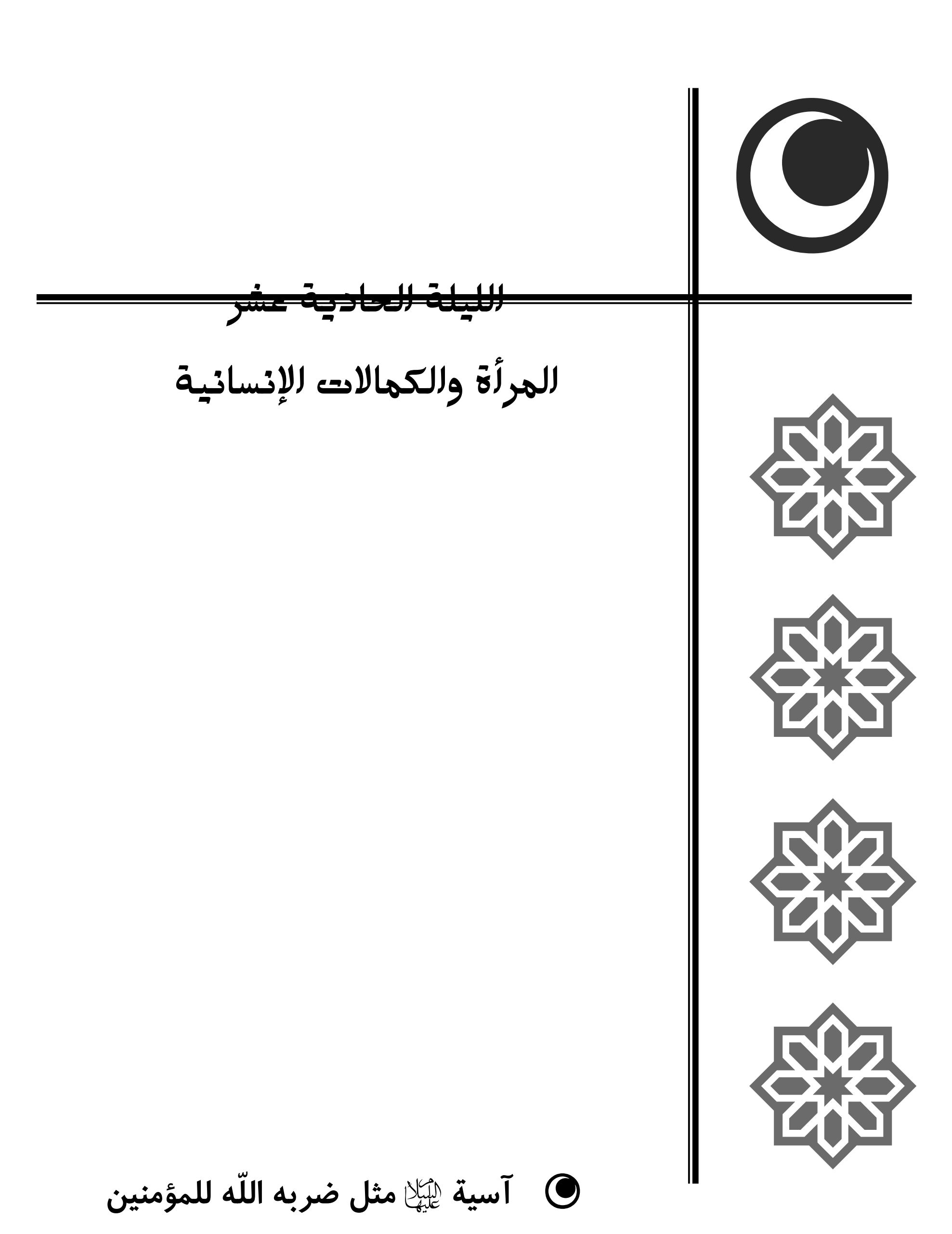
ثم قالت: يا رسول اللّه أوصيك بهذه، وأشارت إلى ابنتها فاطمة، فإنّها يتيمة غريبة من بعدي فلا يؤذيها أحد من نساء قريش، وكذلك أوصت اسماء بنت عميس أن تقوم مقامها عند ليلة زفاف فاطمة، فتعهدت أسماء بذلك وامّا الوصية الثالثة يا رسول اللّه فإني أقولها لابنتي فاطمة وهي تقولها لك: فإني مستحية منك فقام النبي ﷺ وخرج من الحجرة فدعت بفاطمة عليها السلام وقالت لها: يا حبيبتي وقرّة عيني قولي لأبيك رسول اللّه ﷺ أنَّ أمي تقول: أنا خائفة من القبر، أريد منك ردائك الذي تلبسه حين نزول الوحي، تكفنني به، فخرجت فاطمة عليها السلام وقالت لأبيها ما قالت أمها خديجة، فقام النبي ﷺ وسلم الرداء إلى فاطمة وجاءت به إلى أمها فسرّت به سروراً عظيماً، فلما توفيت خديجة في يوم العاشر من شهر رمضان للسنة العاشرة بعد البعثة النبوية، أخذ رسول اللّه ﷺ في تجهيزها فغسلها وحنطها، فلما اراد أن يكفّنها بالرداء، هبط الأمين جبرئيل وقال: يارسول اللّه إن الله يقرئك السلام ويخصك بالتحية والإكرام ويقول لك إن كفن خديجة من عندنا فإنّها بذلت مالها في سبيلنا، فجاء جبرئيل بكفن خديجة وهُو من اكفان الجنة اهداه اللّه إليها، فكفّنها رسول اللّه ﷺ بردائه الشريف أولاً وبماجاءبه

جبرئيل ثانياً، فكان لها كفنان كفن من اللّه وكفن من رسوله ﷺ. ثم نزل رسول اللّه ﷺ في قبرها، ولم يكن يومئذٍ قد شرعت الصلاة على الجنائز فانزلها في حفرتها في مقبرة الحجون ودفنها بيده الشريفه ولما رجع إلى البيت هاج به الحزن، واغتم، وكان ﷺ في زمان حياتها اذا غلب عليه الحزن نظر إلى وجه خديجة فيذهب عنه الحزن ويسر بذلك كما أنه يسرّ بمجرد سماع اسم خديجة، والآن بعدوفاتها، إذا اشتد حزنه نظر إلى ابنتها فاطمة، فتذكرهُ بخديجة ويسر بذلك سروراً عظيماً، ولكن ماذا يصنع رسول اللّه ﷺ بحزن فاطمة على أمّها، وهي تبكي وتقول: أين أمي؟ أين أمي؟ حتى قالت يوماً يا أبة ما اتغدى ولا أتعشى حتى أعلم أين أمي، ولايدري رسول اللّه ﷺ ماذا يجيبها، فنزل جبرئيل وقال: إنَّ ربّك يأمرك ان تقرأ على فاطمة السلام وتقول لها أمك في بيت من قَصَبْ لا صَخَب فيه ولا نَصَب، كعابه من ذهب وعمده من ياقوت أحمر، بين آسية إمرأة فرعون ومريم بنت عمران. فقالت فاطمة ان اللّه هُو السلام ومنه السلام وإليه السلام، وقد عزّاها اللّه ورسوله وجبرئيل بأمها، ولكن لما توفى أبوها رسول اللّه ﷺ هل عزّاها أحدٌ؟

زيارة أم المؤمنين خديجة الكبرى عليها السلام

السلام عليك ياأم المؤمنين، السلام عليك يا زوجة سيد المرسلين، السلام عليك يا أُمَّ فاطمة الزهراء سيد نساء العالمين،السلام عليك يا أوّل المؤمنات، ألسَّلام عليك يا من أنفَقتْ مالها في نصرة سيد الأنبياء، ونصرته ما استطاعت ودافعت عنه الأعداء، السّلام عليك يا من سلَّمَ عليها جبرَئيلُ، وبلَّغها السلام من اللّه الجليل، فهنيئاً لكِ بما أولاك اللّه من فضل، والسلام عليك ورحمة اللّه وبركاتُهُ.





الليلة الحادية عشر

المرأة والكمالات الإنسانية

- آسية عليها السلام مثل ضربه اللّه للمؤمنين

- مريم بنت عمران عليها السلام أسوة المؤمنين
- خديجة الكبرى عليها السلام أم المؤمنين
- فاطمة الزهراء عليها السلام سيدة نساء العالمين
- زينب الحوراء عليها السلام اسوة المجاهدين

الليلة الحادية عشر

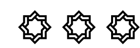
المرأة والكمالات الإنسانية

وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۞ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا وَصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَكُتُبِهِ وَكانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ

التحريم: ١١-١٢

قال رسول اللّه ﷺ: كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلّا أربع: آسية بنت مزاحم إمرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمّد ﷺ.

مجمع البيان ١٠: ٣٢٠



لا شك أنه قد كمل من الرجال كثير من يوم خلق اللّه آدم عليه السلام إلى يومنا هذا، وذلك: بما فضل اللّه عليهم ومنحهم من قوة العقل والإيمان والإرادة والصبر، ليحملوا الأمانة وليتحملوا مسؤلية هداية البشر، فكان منهم الأنبياء والأولياء والأوصياء، والعلماء والحكماء والعرفاء، والقادة العظماء، فهؤلاء هم المصاديق الحقيقية للإنسان الكامل.

ولكن هذا الأمر لا يعني أنَّ سلوك طريق الكمال، ينحصر بالرجال، بل هذا الطريق مفتوح لكل إنسان رجلاً كان أو إمرأة كلٌ بحسب علمه وجهده وإرادته وقوة إيمانه وتقواه، فيصل إلى الكمال من كان قوياً في العلم والإيمان ذكراً كان أو أنثى.

وممن سلك هذا الطريق من النساء ووصل إلى الكمال، النساء الأربع المذكورات في الحديث النبوي الشريف، وغيرهن من النساء اللاتي اقتدين بهنَّ وسلكن طريقهنّ كالحوراء زينب عليها السلام.

وقبل البدء بالحديث حول الجوانب الإيمانية لتلك النسوة، لأبُد من تصدير مقدمة حول إيمان المرأة وعرفانها باللّه تعالى، لكي نردَّ من خلالها على النظرية القديمة التي تقول: إنّ المرأة لا تستطيع أن تسموا إلى درجات عالية نحو الإيمان والكمال.

فنقول كثيراً ما يصرّح القرآن الكريم بأنّ الإيمان والقرب الإلهي، والعمل الصالح لا يرتبط بجنس الفرد ذكراً أو أنثى فمن سلك طريق الإيمان والمعرفة وعمل صالحاً من العبادات وغيرها، حصل على بعض الكمالات، فتكون لـه حياة طيبة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً﴾[٣١٢].

---

(٣١٢) النحل: ٩٧.

ويمكن القول بأن مقدمات وقابليات الوصول إلى الكمال توجد في كثير من السناء، وذلك لشدة عواطفهن وسرعة انفعالهنَّ بمجالس الوعظ والإرشاد، وهذا ما يؤهل المرأة لسلوك طريق المعرفة والكمال، لولا وجود بعض التعلقات الدنيوية التي غالباً ما تكون في المرأة أكثر من الرجال، بسبب سرعة التأثر والتّغير والانفعال بالأقوال والأفعال في مجالس النساء والرجال.

وعندما تترك المرأة التعلقات الدنيوية وتسلك طريق الإيمان والمعرفة الإلهية، لا شك أنّها سوف تصل إلى القرب الإلهي، وقد حدثنا التاريخ عن نماذج من النساء اللاتي قطعن مراحل من السير والسلوك، ووصلن إلى بعض المقامات كالرابعة الشامية والرابعة العدوية البصرية، وغيرهُن من النساء العارفات، وقد صدر منهنَّ بعض الأشعار والكلمات في العرفان، فقد أنشدت الرابعة الشامية تقول:

حبيب ليس يعدله حبيبٌ   وما لسواه في قلبي نصيبٌ
حبيب غاب عن بصري وشخصي   ولكن عن فؤادي لا يغيب[٣١٣]

وللسلوك العرفاني، والوصول إلى القرب الإلهي سواء للرجل أو المرأة ـ كما جاء في الآيات والروايات وكلام العرفاء ـ طريقان:

الأول) ما يسمّى بالعرفان النظري، وهو طريق العقل والفكر والإستدلال.

الثاني) ما يسمّى بالعرفان العملي، وهو طريق القلب والمشاهدة، والعبادة وتهذيب النفس.

---

(٣١٣) بحار الأنوار ٤٣: ٢١٦.

وعلى ما ذكرنا من أرضية المرأة وقابليتها في الوصول إلى الكمال والقرب الإلهي فإنَّ الطريق الثاني للمرأة أسهل وأسرع وصولاً إلى اللّه تعالى، لأنّها ـ كما قلنا ـ أكثر تقّبلاً وأسرع تأثراً من الرجل بالمواعظ الدينية والمحاضرات الأخلاقية، لكن ينبغي الاحتياط في اختيار مرشدها ومعلمها في هذا الطريق الخطير جدّاً، حذراً من الانحراف الفكري والعملي.

وأفضل معلم وخير قدوة للمرأة في هذا السلوك الإلهي هم الأنبياء والأولياء، والأوصياء، لاسيما خاتم الأنبياء محمد المصطفى ﷺ وأهل بيته الطاهرون معدن العلم والمعرفة، ثم العلماء الربانيون الذين سلكوا طريقهم.

وأيضاً خير معلم وقدوة للمرأة في هذا السلوك الرباني، النساء اللواتي قطعن هذا الطريق، ووصلن إلى الكمال، كآسية إمرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وأم المؤمنين خديجة الكبرى، والصديقة فاطمة الزهراء، وابنتها العقيلة، زينب الحوراء، ومن حذا حذوهُنَّ وسلك طريقهّن إلى الإيمان والعرفان وعبادة الرحمن.

فلو كان النساء كمن ذكرنا لفُضلت النساء على الرجال
فلا التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلالِ

بعد هذه المقدمة المختصرة حول إيمان المرأة وكمالها، نبدأ الحديث حول السيرة الإيمانية وفضل ومقام سيدات نساء أهل الجنة الأربع، ثم نختم المقال بمنْ لحقت بهنّ في الإيمان والكمال، الصديقة الصغرى العقيلة زينب الحوارء صاحبة المناقب والكمالات العُليا، وأم المصائب.

آسية مثل ضربه اللّه للمؤمنين

قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٣١٤]

آسية بنت مزاحم إمرأة فرعون المرأة المؤمنة باللّه، والتي كانت على دين إبراهيم عليه السلام قبل نبوة موسى عليه السلام، كما يشهد بذلك رسول الإسلام في قوله صلى الله عليه وآله: «ثلاثة لم يكفروا بالوحي طرفة عين، مؤمن إل ياسين «حبيب النجار» وعلي بن أبي طالب وآسية إمرأة فرعون»[٣١٥]، لقد كانت تخفي إيمانها باللّه الواحد، خوفاً من فرعون وأعوانه ولمّا عاينت المعجزات من عصا موسى، وغلبة السحرة، آمنت بنبوة موسى واتبعته، فلما ظهر إيمانها لفرعون نهاها فأبت، فأوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد، وألقاها في الشمس، ثم أمر أن يلقى عليها صخرة عظيمة، فلما قرب أجلها قالت ــ كما حدث عنها الله تعالى في كتابه ــ : ﴿قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّة وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾[٣١٦] فقد اختارت جوار ربّها والقرب منه في الجنة، وتركت زخارف الدنيا وزينتها والمقام لدى فرعون وملكه، وآثرت بيتاً يبنيه لها ربها على بيت فرعون الذي كان فيه مما تشتهيه الأنفس وتتمناه القلوب، وهذا ما رفعها إلى مستوى جعلها اللّه مثلاً وقدوة للمؤمنين.

---

(٣١٤) التحريم: ١١.

(٣١٥) الخصال للشيخ الصدوق ١: ١٧٣.

(٣١٦) التحريم: ١١.

ثم طلبت من اللّه أن ينجيها من فرعون وعمله وينجيها من القوم الظالمين، فاستجاب اللّه دعاءها وخلصها من كيد فرعون وقومه.

مريم بنت عمران أسوة المؤمنين

قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا وَصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَكُتُبِهِ وَكانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ﴾[٣١٧]

مريم بنت عمران مثل نموذجيّ شامخ، في صلابة الإيمان والعفة والتقوى ضربه اللّه للمؤمنين، وقد أثنى اللّه عليها، وهي الوحيدة التي صرّح القرآن باسمها في أكثر من ثلاثين موضعاً في أكثر من عشرين سورة من القرآن، ويدل هذا على جلالة قدرها وعظمة مقامها عند اللّه.

مريم التي نذرتها أُمها للّه وهي في بطنها، على أن تكون خادمة لبيت المقدس، ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُها أُنْثى وَاللهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثى وَإِنِّى سَمَّيْتُها مَرْيَمَ وَإِنِّى أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ ۞ فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً وَكَفَّلَها زَكَرِيَّا كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾[٣١٨]

فكان زكريا وهو زوج خالة مريم ونبي زمانها، كلما دخل عليها المحراب وجد عندها

(٣١٧) التحريم: ١٢.

(٣١٨) آل عمران: ٣٦-٣٧.

رزقاً غير معهود ولا في أوانه حيث كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، فكان يتعجب ويسأل: أنّى لك هذا؟ فكانت تجيبه: هُو من عند اللّه.

مريم التي اصطفاها اللّه واختارها للعبادة، وطهرها وعصمها من جميع الذنوب وفضلها على نساء عالمها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ الْعَٰلَمِينَ﴾[٣١٩]، قال العلامة الطباطبائى في الميزان: وشأنها العجيب في ولادة عيسى المسيح عليه السلام واختصاصها بهذا النوع من الولادة من بين النساء؛ هُو وجه اصطفائها وتقديمها على النساء من العالمين لا من جميع الجهات[٣٢٠]، فهى سيدة نساء عالمها، وفاطمة سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين.

ومن المقامات العالية لمريم بعد الاصطفاء والعصمة من قبل اللّه، هو نزول الملائكه عليها والتحدث معها كما أشارت الآية السابقة إلى ذلك، وهو يكشف عن علو منزلتها ومقامها عند اللّه عن الدرجة التي بلغتها بحيث أصبحت تشارك الأنبياء في بعض المقامات والكمالات، وقد فضلها اللّه بكلمات تقارب فضائل وكمالات الأنبياء إلاّ أنها ليست بنبية.

خديجة الكبرى أم المؤمنين

كانت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، من أسرة معروفة بالعلم والعلماء، وكانت على دين إبراهيم عليه السلام، وكانت ذات شخصيه شامخة قوية، وذات عقل وكياسة، ومن نبوغها

(٣١٩) آل عمران: ٤٢.

(٣٢٠) الميزان في تفسير القرآن ١٨٨: ٣.

وحدة ذكائها ونظرتها البعيدة ما أدركته من عظمة شخصية الرسول الأكرم ﷺ ومستقبله الزاهر قبل تكليفه برسالة السماء، فأحبته واختارته زوجاً لها من دون الرجال والشخصيات المعروفة وصدقته وآمنت به وبذلت لـه نفسها وما تملك قبل البعثة وبعدها، حتى اشتهر أنه ما استقام الإسلام إلاّ بأموال خديجة وسيف علي عليه السلام وحماية أبي طالب.

وكان رسول اللّه ﷺ يحب خديجة حباً كثيراً ويذكرها، ويثني عليها في حياتها وبعد مماتها، بحيث أثار ذلك غيرة بعض نسائه فخاطبهنَّ رسول اللّه ﷺ وهو يصف خديجة أم المؤمنين: «خديجة وأين مثل خديجة، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وآزرتني على دين اللّه، وأعانتني عليه بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني اللّه منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء»[٣٢١]. خديجة أم المؤمنين بهذه المواصفات التي تدّل على قوة إيمانها ومعرفتها باللّه ورسوله، هي من النساء الأربع اللاتي وصلن إلى الكمال، وأصبحن سيدات نساء أهل الجنة، وقد بشَّرها رسول اللّه ﷺ ببيت في الجنة من قَصَب، لا صخب فيه ولا نصب[٣٢٢]

ولما دنت وفاة خديجة عليها السلام نزل جبرئيل على رسول اللّه ﷺ، وقال لـه إن اللّه يقرئك السلام، ويأمرك أن تقرأ سلامه على خديجة أم المؤمنين وتقول لها: إن كفن خديجة من عندنا، فإنّها بذلت مالها في سبيلك، فلما توفيت كفنها رسول اللّه ﷺ بردائه

(٣٢١) أسد الغابة ٥: ٥٣٩.

(٣٢٢) الإصابة ٤: ٢٧٥ ـ والقصب: اللؤلؤ المعجوف المنظوم بالدر والياقوت، والصخب: الصياح، والنصب: الهم والتعب.

الشريف بوصية منها، ثم كفنها بما جاء به جبرئيل عليه السلام من أكفان الجنة، ثم دفنها بيده الشريفة في مقبرة الحجون بمكة المكرمة.

فاطمة الزهراء عليها السلام سيدة نساء العالمين

إذا كنا في مقام البحث عن فضائل الزهراء عليها السلام ومقاماتها الإلهية، فحسبنا منها ما نزل من القرآن في حقها، من سورة الكوثر، وآية المباهلة وآية التطهير وسورة هل أتى، وغيرها من الآيات، وحسبنا ما تحدث به رسول اللّه صلى الله عليه وآله، والأئمة الأطهار عن مقامها ومنزلتها، ففي القرآن يصفها بالطاهرة في آية التطهير، وقد كان النبي صلى الله عليه وآله يركز على جلالتها، وعظيم قدرها بحيث ينبئ عن أن الله يرضى لرضاها ويغضب لغضبها، مما يكشف عن عصمتها، وكفى باللّه ورسوله شاهداً لهذا المقام الرفيع، وهُو منتهى الكمال وأعلى مراتب الإيمان.

وحيث إن رضا فاطمة هُو رضى اللّه ورسوله صلى الله عليه وآله، وغضبها غضب اللّه ورسوله، كما صرحت به أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وتناقله أهل بيته، فهو دليل على عصمتها، وعلو مقامها ولزوم ولايتها ووجوب طاعتها على الخلق، حتى يحصل رضاها ويتحقق عدم غضبها، وكفى للزهراء عليها السلام هذا المقام والمنزلة عند اللّه ورسوله، وكل هذا حصلت عليه فاطمة الزهراء عليها السلام بسبب إيمانها وتقواها ومعرفتها باللّه وكثرة عبادتها للّه.

يقول رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «ابنتي فاطمة سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، وهي بضعة منّي، وهي نور عيني وثمرة فؤادي، وهي روحي التي بين جنبي، وهي الحوراء الإنسية، متى قامت في محرابها بين يدي ربّها جل جلاله - زهر نورها لملائكة السماء كما

يزهر نور الكواكب لأهل الأرض، ويقول اللّه لملائكته: «يا ملائكتي أنظروا إلى أمتي سيدة إمائي، قائمة بين يدي ترتعد فرائصها من خيفتي، وقد أقبلت بقلبها على عبادتي، أشهدكم أني قد أمنت شيعتها من النار»[٣٢٣]، وقال الحسن البصري: ما كان في الدنيا أعبد من فاطمة عليها السلام كانت تقوم حتى تتورم قدماها»[٣٢٤]

ومن ألقاب فاطمة: «الزهراء» و«المحدثة»، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: إنما سميت فاطمة عليها السلام «محدثة»، لأن الملائكة كانت تهبط من السماء تناديها كما تنادي مريم بنت عمران فتقول: يا فاطمة إنَّ اللّه اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين، يا فاطمة اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين، فتحدثهم ويحدثونها، وقالت لهم ذات ليلة: أليست المفضلة على نساء العالمين مريم بنت عمران؟ فقالوا: «إن مريم كانت سيدة نساء عالمها وإنَّ اللّه عزّ وجلّ جعلك سيدة نساء عالمك وعالمها، وسيدة نساء الأولين والآخرين»[٣٢٥].

وروي: أنَّ فاطمة مكثت بعد رسول اللّه خمسة وسبعين يوماً، كان قد داخلها حزن شديد على ابيها، فكان ملك يأتيها فيحسن عزاءها على أبيها، ويطيّب نفسها ويخبرها عن أبيها ومكانه، ويخبرها بما يكون بعدها، وكان علي عليه السلام يكتب ذلك، فسمي هذا بمصحف فاطمة عليها السلام.

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إن عندي مصحف فاطمة ما أزعم أن فيه

---

(٣٢٣) (٢ و٣) بحار الأنوار ٤٣: ٧٦.

(٣٢٤) بحار الأنوار ٤٣: ٧٥/ ٦٢.

(٣٢٥) علل الشرايع للشيخ الصدوق: ١٨٣.

قراناً، وفيه ما يحتاج الناس إلينا ولا نحتاج إلى أحدٍ... »[٣٢٦].

وإذا كان الأئمة من أهل البيت عليهم السلام حجج الله على خلقه فإنَّ امهم فاطمة حجة اللّه عليهم، كما صرحت بذلك رواية الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «نحن حجة اللّه على الخلق وأمّنا فاطمة حجة علينا»[٣٢٧]، ويشهد لهذا المعنى ما ورد عن مصادرعلومهم، ومنها مصحف فاطمة الزهراء عليها السلام مما يدل على كونها واسطة علمية بين الأئمة عليهم السلام وبين اللّه تعالى في العلم المحفوظ.

وكل هذه الفضائل والمناقب والمقامات التي ذكرناها للزهراء عليها السلام من الطهارة والعصمة، والتحديث والحجية على جميع خلقه، ما عدا رسول اللّه وأمير المؤمنين عليه السلام، إلى غيرها من الكمالات تركناها مراعاة للاختصار، وهي تدلّ على علوّ مقامها عند اللّه وكمالها الذي تضاهي به مقام الأنبياء إلاّ أنها ليست نبيّةً.

زينب الحوراء عليها السلام أسوة المجاهدين

ويلحق بالنساء الأربع في الإيمان والكمال الإلهي زينب الحوراء، التي ورثت من جدتها خديجة الكبرى وأمّها فاطمة الزهراء، جميع الصفات والخصال الحميدة، والفضائل الأخلاقية، والكمالات الإنسانية، كما ورثت المحن والمصائب منهما، وكيف لا تكون كذلك وهي التي تربّت وتهذبت على يد جدها المصطفى، وأبيها المرتضى وأمها الزهراء، وأخويها الحسن والحسين عليهما السلام، وقد شهد ابن أخيها الإمام زين العابدين بفضلها وعلمها،

(٣٢٦) أصول الكافي ٢: ٢٤٠.
(٣٢٧) تفسير أطيب البيان ١٣: ٢٣٥.

فقال عليه السلام: «يا عمة أنت ـ بحمد الله ـ عالمة غير معلمة وفهمة غير مفهمة»، وهذا يدل على أنَّ علمها كان من العلوم اللدنية التي تحصل بالإيمان والتقوى، فقد ورد في الحديث القدسي: «اتقوا اللّه يعلمكم اللّه»، وورد عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «من أخلص للّه أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[٣٢٨]، وقد أخلصت زينب عليها السلام للّه طوال عمرها الشريف، وقدّمت أعزّ ما عندها تقرباً لله، ولذا جرت وظهرت ينابيع العلم والحكمة على لسانها، فكانت تنظر بنور اللّه، وتعلم علم المنايا والبلايا، كجملة من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، وليس هذا عجيباً ولا غريباً، لأنّها من أهل بيت زقوا العلم زقا.

وعن الشيخ الصدوق كانت الحوراء زينب عليها السلام لها نيابة خاصة عن أخيها الإمام الحسين عليه السلام، وقد نابت عن ابن أخيها الإمام زين العابدين في أيام مرضه، فكانت تجيب عمّا يرد عليه من المسائل الشرعية في الحلال والحرام، حتى برأ الإمام من مرضه[٣٢٩].

وروي أنَّ زينب عليها السلام كانت تروي عن أمها وأبيها وأخويها، وعن أم سلمه، وقد روت خطبة أمها الزهراء عليها السلام حول فدك.

وروي: أنها في طفولتها كانت جالسة في حجر أبيها وهو يلاطفها بالكلام، فقال لها يا بنيتي قولي واحد فقالت واحد، فقال لها قولي إثنين فسكتت، ثم قالت عليها السلام يا أبتاه ما أطيق أن أقول إثنين بلسان أجريته بالواحد فضمها عليه السلام إلى صدره، وقبلها بين

(٣٢٨) تفسير أطيب البيان ١٣: ٢٣٥.

(٣٢٩) عيون اخبار الرضا عليه السلام: ٢٥٨ وأصول الكافي ٢: ١٦.

عينيها.[٣٣٠]

وروي أيضاً أن الإمام علي عليه السلام قد تعجب من شدة ذكائها عند ما سألته «أتحبنا يا أبتاه» فأسرع الإمام قائلاً: «فكيف لا أحبكم وأنتم ثمرة فؤادي»، فأجابته بأدب واحترام: «يا أبتاه، إنَّ الحبّ لله تعالى والشفقة لنا... »[٣٣١].

نعم هكذا كان علم الحوراء زينب عليها السلام وعرفانها باللّه، وأمّا عبادتها فقد روي أنّها لم تترك التهجد للّه في الليل طوال حياتها، حتى ليلة الحادي عشر من المحّرم بعد تلك المصائب العظيمة، التي جرت عليها في يوم عاشوراء، وقد روي عن الإمام زين العابدين الذي حضر واقعة الطف أنه قال: «رأيتُ عمتي زينب تلك الليلة تصلي من جلوس»، وبتهجدها في ليلة الحادي عشر، وبقولها بعد شهادة أخيها الحسين عليه السلام: «إلهي تقبل منّا هذا القربان»، جسدت أروع وأعلى مراتب الإيمان، والعرفان والكمال الإلهي والصبر والتسليم لأمر اللّه والرضا بقضائه.

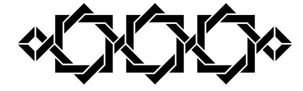
إنَّ إيمان وعرفان الحوراء زينب عليها السلام باللّه هُو الذي أعطاها الصبر على تلك المصائب، من شهادة أمها الزهراء وأبيها أمير المؤمنين وأخويها الحسن والحسين عليهم السلام، وبالأخص مصائب كربلاء وما بعد كربلاء من حرق الخيام، والأسر والضرب والشتم وابتداءً من مصرع الحسين في كربلاء، ومروراً بالعراق، وختاماً في الشام.

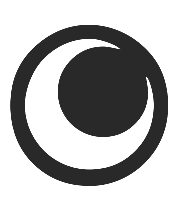
بأبي التي ورثت مصائب أمها فغدت تقابلها بصبر أبيها

---

(٣٣٠) السيدة زينب: ٤٤.

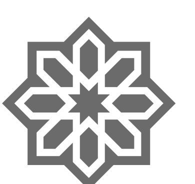
(٣٣١) السيدة زينب رائدة الجهاد في الإسلام: ٤٥.

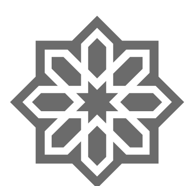


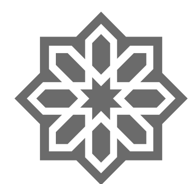


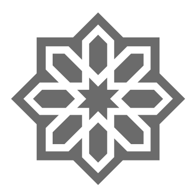
الليلة الثانية عشر

الصداقة والأخوة في الإسلام









- نظرية الإسلام في التآخي والتصادق
- معنى الأخوة والصداقة
- أقسام الأخوة
- صفات الصديق

- اختبار الصديق
- حق الصديق
- آثار الصداقة

الليلة الثانية عشر

الصداقة والأخوة في الإسلام[٣٣٢]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

الحجرات: ١٠

وقال الإمام علي عليه السلام: «الأصدقاء نفس واحدة في جسوم متفرقة».

ميزان الحكمة



خلق الله تعالى الإنسان، وفطره فيما فطره على التآلف والتحابب بين أفراد نوعه، فلا يتمكن المرء أن يعيش بعيداً وبمعزل عن الناس، وأفراد الإنسان، ودائماً يميل إلى تكثير العلاقات والروابط ويعززها، حتى أن من كثر أصدقاؤه وأحباؤه يعتبر مرموقاً في المجتمع، وذكياً وواعياً بنظر الآخرين، وعلى العكس يعتبر المجتمع المنطوي على نفسه، والذي لا يميل إلى تكثير الارتباط بالآخرين، ولا يحقق روابط الصداقة والإخاء، مريضاً وشاذاً،

---

(٣٣٢) اليوم الثاني عشر من شهر رمضان المبارك، السنة الأولى للهجرة، آخى النبي بين المهاجرين والأنصار وآخى بينه وبين الإمام علي عليه السلام، فرأينا من المناسب أن يكون الحديث في هذه الليلة حول الصداقة والأخوة في الإسلام.

وميت الفطرة والوجدان.

وقد جاءت الأديان السماوية لتؤكد على نداء الفطرة، وتربط بين خلايا المجتمع، وتوطّد الروابط والعلائق بين بني الإنسان، وقد جعلت لـه ركائز وأسس وقواعد، لكي يبنى هذا الارتباط على أساسها فتنتج وتؤثر في حياة الأفراد النتاج الصحيح، والأثر السوي، وفيما يلي عرض لنظرية الإسلام تجاه الصداقة والأخوة، والقواعد والركائز التي ينبغي بناء العلاقة على ضوئها.

نظرية الإسلام في التآخي والتصادق

لقد حثّ الإسلام كثيراً على أنّه ينبغي للمؤمن أن يتخذ الأخ والصديق، ويسعى جاهداً لتكثير الأصدقاء، وأن من سعادة المؤمن الظفر بأكثر عدد ممكن منهم، قال الصادق عليه السلام: «من لم يرغب في الاستكثار من الاخوان ابتلي بالخسران»[٣٣٣]. وقال الإمام علي عليه السلام: «أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان، وأعجز منه من ضيّع من ظفر به منهم»[٣٣٤]. بل في جملة من الأخبار أن ذخيرة المرء في الدنيا الإخوان والأصدقاء، كما جاء عن علي عليه السلام: «من لا صديق لـه لا ذخر لـه»[٣٣٥]، وعلى ما ذكرناه نعرف أن الإسلام يحث حثاً شديداً على إقامة الروابط والعلائق بين أفراد الإنسان، ويعتبر من لا صداقة لـه خاسراً، ولا ذخر لـه أبداً.

٢ـ معنى الأخوة والصداقة: ربما يكون للوهلة الأولى معنى الأخوة والصداقة

---

(٣٣٣) تحف العقول: ٣١٩.

(٣٣٤) بحار الأنوار ٧٤: ٢٧٨ ح١٢.

(٣٣٥) غرر الحكم: ٨٧٦٠.

واضحاً، ويعتبر على ما قيل: من أصعب الصعوبات توضيح الواضحات، ولكن الأمر ليس كذلك، فإنه حينما ننظر إلى طائفة من الأحاديث المباركة، والتي رسمت أبعاد المعنى، وأسس المبنى، وعمق الارتباط بين الاسم والمسمى في ضمن الحدود التي حثّت الشريعة الغرّاء على المحافظة عليها، وحذّرت من تجاوزها كالنزاهة عن الخيانة... وغيرها، كما في حديث الصادق عليه السلام في بيان سبب تسمية الإخوان والأصدقاء، قال: «إنّما سمّوا إخواناً لنزاهتهم عن الخيانة، وسمّوا أصدقاء لأنّهم تصادقوا على حقوق المودة»[٣٣٦]، من الواضح أنه عليه السلام ليس بصدد بيان تمام معنى الصداقة والأخوة، وإنما يشير إلى بعد من أبعادهما، وللوقوف على الحال نبين فيما يلي معنى الأخوة، ومعنى الصداقة، وأقسامهما وصفاتهما:

أقسام الأخوّة

أ) الأخوة النسبية: وهي العلاقة والرابطة بين إنسانين من خلال اشتراكهما في أب وأم أو في أحدهما تولداً، ولها آثار شرعية عديدة كالإرث والحرمة وغيرهما.

ب) الأخوة الرضاعية: وهي عبارة عن الربط القائم بين انسانين من خلال الارتضاع من امرأة واحدة، ولها آثار شرعية أيضاً، كحرمة التزاوج وغيرها، إلاّ أن هذه الأخوة أضيق دائرة مما تقدمها، إذ أن الأخوان الرضاعيين لا يتوارثان.

ج) الأخوة الدينية: وهي عبارة عن الرابطة والعلاقة القائمة بين شخصين في الدين والايمان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٣٣٧]، وقال الإمام علي عليه السلام:

---

(٣٣٦) مستدرك الوسائل ٨: ٣٣١.

(٣٣٧) الحجرات: ١٠.

«فإنّهم ـ أي الناس ـ صنفان: إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق»[٣٣٨]، فالذي يوجب الإخاء هو الدين والإيمان، والروابط التوحيدية والعقائدية.

وأما الصداقة فهي منزلة أعمق من الأخوة، إذ جميع المؤمنين، ولأجل إيمانهم أخوة من تعارف منهم ومن لم يتعارف، القريب منهم والبعيد، ولكن الصداقة هي مع خصوص بعض المؤمنين ممن يسرّ إليهم وممن يتعارفون ويتوادون ويتصاحبون على مصائب الدهر الخؤون.

صفات الصديق

لا يكون الشخص أخاً لشخص حتى تتحقق فيه جملة من الأوصاف، ولهذا الأمر أهمية خاصة في الإسلام، لأن الإسلام نهى عن مصادقة من تدخل صداقته في الباطل، وتوصل بالمرء إلى الضلال والضياع، ولهذا فينبغي على المؤمن أن لا يتخذ صديقاً حتى يجد فيه صفات الصديق التي بيّنها الإسلام.

ألف) أن يكون عاقلاً: ينبغي على المؤمن إذا أراد أن يتخذ صديقاً، أن يختار العاقل والحكيم في رأيه وفعله، فإن من تزيّن بالعقل، واتصفت أفعاله وآراؤه بالعقلانية، ينفع المؤمن في مواقع الحيرة والتردد، فيصله من عقله ما ينقذه ويدفع عنه السوء، فعن الإمام علي عليه السلام: «صاحب العاقل وجالس العلماء، واغلب الهوى ترافق الملأ الأعلى»[٣٣٩]، وأما مرافقة الأحمق فتوجب التعب، إذ يحملك الأحمق حماقته، كما وتنعكس آثارها أمام

(٣٣٨) بحار الأنوار ٧٧: ٢٤٣ ح١.

(٣٣٩) غرار الحكم: ٥٨٣٧.

المجتمع عليك، فعن الإمام علي عليه السلام: «عدو عاقل خير من صديق أحمق»[٣٤٠]، كما أن الأحمق في غالب الأحيان لا يدرك ما يحسن مما يسوء، فقد يكون من نيته الاحسان اليك، فيكون ذلك إساءة، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «إيّاك وصحبة الأحمق، فإنّه أقرب ما يكون منك، أقرب ما يكون إلى مساءتك»[٣٤١]. وفي بعضها: «إيّاك ومصاحبة الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك»[٣٤٢].

ب) أن يكون مؤمناً: ومما ينبغي أن يتوفر في الصديق الإيمان والتقوى والعمل الصالح، فإن هذه الأوصاف من شأنها أن تنعكس على صديقه بكثرة المخالطة والمجالسة، فإن من طبع الإنسان أنه إذا أنس بشخص أنس بأفعاله وسيرته وأخلاقه وسجاياه، ومن هنا أكدت الروايات على هذه الخصوصية، فعن الإمام علي عليه السلام: «المعين على الطاعة خير الأصحاب»[٣٤٣]، وعنه عليه السلام: «من دعاك إلى الدار الباقية، وأعانك على العمل لها فهو الصديق الشفيق»[٣٤٤]. فالصديق الأفضل الذي يوجد الواحد منا علاقة الاخوة والصداقة معه من كان نفعه لآخرتنا، فإذا تركنا الصلاة أمرنا بها، واذا تركنا واجباً حذّرنا من غضب الله، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: لما سئل عن أفضل الأصحاب: «من إذا ذكرت أعانك، وإذا نسيت ذكّرك»[٣٤٥]. وعنه قال صلى الله عليه وآله: «إذا أراد الله بعبد خيراً جعل لـه وزيراً صالحاً،

---

(٣٤٠) بحار الأنوار ٧٨: ١٠ ح٦٨.
(٣٤١) أمالي الشيخ الطوسي ٣٩: ٤٢.
(٣٤٢) المصدر السابق.
(٣٤٣) غرار الحكم: ١١٤٢.
(٣٤٤) غرار الحكم: ٨٧٧٥.
(٣٤٥) تحف العقول: ٣٦٨.

إن نسي ذكّره، وإن ذكر أعانه»[٣٤٦].

وفي قبال ذلك نجد الروايات تؤكد على ترك صحبة الفساق وأهل الذنوب والمعاصي، فإن هذا السلوك فيهم قد يحفز من يصادقهم إلى الفسق والعصيان وخلع زي العبودية لله، وكم لاحظنا ذلك في مجتمعاتنا، فإن هناك بعض المؤمنين ممن رافق أهل المعاصي فقللوا مصيبة المعصية في نظره حتى أصبح يقترفها دونما رادع أو صون حجاب، وفي هذا المجال يخبر القرآن الكريم عن ندم أقوام لأنهم اتبعوا من أضلهم عن السبيل والصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ۝ يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً ۝ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي وَكانَ الشَّيْطانُ لِلإِنْسانِ خَذُولاً﴾[٣٤٧]، وعن الإمام علي عليه السلام: «احذر مصاحبة الفسّاق والفجّار والمجاهرين بمعاصي الله»[٣٤٨]، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إيّاك ومخالطة السفلة فإن مخالطة السفلة لا تؤدي إلى خير»[٣٤٩]، وسئل علي عليه السلام أيّ صاحبٍ شرّ؟ قال: «المزيّن لك معصية الله»[٣٥٠].

وهناك الكثير من الروايات التي تؤكد أن أفضل الأصدقاء والإخوان من أعانك على مرضاة الله، وشرهم من أعانك على معصيته، وفيما يلي جملة منها.

---

(٣٤٦) بحار الأنوار ٧٧: ١٦٤ ح٢.

(٣٤٧) الفرقان: ٢٧-٢٩.

(٣٤٨) غرر الحكم: ٢٦٠١.

(٣٤٩) بحار الأنوار ٧٤: ٣٦.

(٣٥٠) معاني الأخبار: ١٩٨.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «خير إخوانك من أعانك على طاعة الله، وصدّك عن معاصيه، وأمرك برضاه»[٣٥١].

عن الإمام علي عليه السلام: «خير اخوانك من دلّك على هدى، وأكسبك تقى، وصدّك عن اتباع هوى»[٣٥٢].

ومن هناك قال الأئمة عليهم السلام: «أحب إخواني إليّ من أهداني عيوبي»[٣٥٣]، وطبعاً ليس المقصود أن يظهر لـه معائبه بقصد الانتقاص أو التشهير فإن هذا حرام وغير جائز قطعاً، بل بمعنى أن يذكره بالعيب ليقلع عنه وليربي نفسه على تركه، ومن هنا كان ذكر المؤمن لعيب أخيه بنظر الإمام هدية مقدمة.

ج) أن يكون ذا خلق حسن: كما ينبغي أن يكون الصديق مؤمناً تقياً، وينفع للآخرة، لابد وأن يتحلى بخلق رفيع، وسجية كريمة، ونفس طرية، وروح هنيئة، فإن صاحب الخُلُق الحسن تميل النفس إليه ويطمئن إليه العقل، وترتاح إليه النفس، مع ماله من سمعة طيبة في المجتمع تنعكس على سمعة من يصاحبه، وما أحوج المجتمع، وخصوصاً الشباب إلى الأصدقاء الخلوقين لتنتشر الأخلاق الحسنة بين جميع طاقم الحياة البشرية، وقد ورد الكثير من الأخبار والأحاديث التي تؤكد على خلق الصديق وحسنه، فعن الإمام علي عليه السلام: «صحبة الأشرار تكسب الشر، كالريح إذا مرت بالنتن حملت

---

(٣٥١) تنبيه الخواطر ٢: ١٢٣.

(٣٥٢) غرر الحكم: ٥٠٢٩.

(٣٥٣) بحار الأنوار ٧٤: ١٨٨.

نتناً»[٣٥٤]، وعن الإمام الجواد عليه السلام: «إيّاك ومصاحبة الشرّير، فإنه كالسيف المسلول يحسن منظره، ويقبح أثره»[٣٥٥]،ويكون دائماً سيئ الخلق كما نلاحظه في المجتمع فخيره قليل، وشره كثير، لأن خلقه السيئ يمنعه من عمل الخير، إذ لا تناغم ولا ارتباط بين هذا الخلق والخير، بل يتناغم الخلق السيئ مع الشر والعمل به ولذلك يدعو إليه.

هذه أهم خصائص وصفات الصديق، وهناك صفات أخرى مبثوثة في الأخبار، تركنا ذكرها اختصاراً.

اختبار الصديق

لا يمكن لأي أحد أن يدرك صدق الصديق وإخلاصه، إلا بعد أن يمتحنه ويختبره، فكم من الإخوان كانوا مغرورين بأصدقائهم، ولكن سرعان ما خذلوهم وتركوهم بمجرد أن احتاجوهم، أو طلب منه المعونة على مصائبه، ولهذا فالأولى قبل أن تتخذه صديقاً أن تدخله في اختبار وامتحان، ومن هنا نهت جملة من الروايات عن اتخاذ الصديق قبل اختباره، فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لا تثق بصديق قبل الخبرة»[٣٥٦]، وقد ورد جملة من الطرق لاختبار الصديق أهمها ما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «يمتحن الصديق بثلاث خصال، فإن كان مؤاتياً فيها فهو الصديق المصافي، وإلاّ كان صديق رخاء لا صديق شدّة: تبتغي منه مالاً، أو تأمنه على مال، أو تشاركه في

---

(٣٥٤) غرر الحكم: ٥٨٣٩.
(٣٥٥) بحار الأنوار ٧٤: ١٩٩ ح٣٦.
(٣٥٦) غرر الحكم: ١٠٢٥٧.

مكروه»[٣٥٧]، وعن الصادق عليه السلام: لا تكون الصداقة إلاّ بحدودها، فمن كانت فيه هذه الحدود أو شيء منها، وإلا فلا تنبها إلى شيء من الصداقة، فأولها: أن تكون سريرته وعلانيته لك واحدة، والثانية: أن يرى زينك زينه وشينك شينه، والثالثة: أن لا تغيّره عليك ولاية ولا مال، والرابعة: لا يمنعك شيئاً تناله مقدرته، والخامسة: وهي تجمع هذه الخصال: أن لا يسلمك عند النكبات.[٣٥٨]

وهناك طرق أخرى ذكرتها الروايات، وليس المقصود هذا الاختبار الذي تذكره هذه الروايات، لأنها في مقام بيان التمثيل للاختبار، وإلاّ فقد يجد الإنسان طريقة تتناسب مع صديقه يمكن أن يقوم باختباره بها وتنجح في بيان حاله، ولذلك اكتفينا بذكر هذه الرواية على سبيل المثال.

حق الصديق

عن الإمام زين العابدين عليه السلام في رسالة الحقوق: «أما حق الصاحب، فأن تصحبه بالتفضّل والإنصاف، وتكرمه كما يكرمك، ولا تدعه يسبق إلى مكرمة، فإن سبق كافأته، وتودّه كما يودك، وتزجره عما به من معصية، وكن عليه رحمة، ولا تكن عليه عذاباً»[٣٥٩].

وعنه أيضاً قال: «حق الخليط أن لا تغره ولا تغشّه ولا تخدعه، وتتّقي الله تبارك

---

(٣٥٧) تحف العقول: ٣٢١.

(٣٥٨) بحار الأنوار ٧٨: ٢٤٧ ح١٠٨.

(٣٥٩) بحار الأنوار ٧٧: ١٦٤ ح٢.

وتعالى في أمره»[٣٦٠]، وبهذا نعرف أن الصداقة ليست قضية أهوائية، ولا جعلت للتلهي والتسلي، وإنما هي صداقة هادفة يطالب من خلالها الأصدقاء أن يلاقحوا أفكارهم ليصلوا إلى الفكرة الصحيحة والسليمة، ويمازجوا في أخلاقهم ليكون المجتمع متجلبباً بها، ويتكاملوا في سلوكهم العبادي والجهادي والعملي، ومن هنا كان مفهوم الصداقة والأخوة مقدساً في الإسلام، بل لعله من أعظم الروابط قداسةً بعد الارتباط بالله ورسوله وأهل بيته عليهم السلام والوالدين والأرحام والأعلام.

آثار الصداقة في الدنيا والآخرة

لا شك في أنّ كل عمل يقوم به الإنسان لـه آثار تنعكس وتظهر في حياته الفردية والاجتماعية، فالصدق والتعقل والتدين إذا قام بها الإنسان تظهر آثارها الخيّرة والحسنة على حياته، والكذب والحمق والفسوق كذلك تظهر آثارها السيئة والوخيمة على حياة الإنسان إذا ما قام بها، والصداقة هي واحدة من تلك العناوين التي تظهر آثارها على حياة الفرد والمجتمع، وفيما يلي بعض الآثار المترتبة على صداقة المؤمنين بعضهم لبعض:

١ـ الصداقة تلاحم وتعاضد: إنّ من المبادئ التي ينادي بها الإسلام، ويدعو إليها العقل، الوحدة والتلاحم بين أفراد المسلمين والمجتمعات الإسلامية، فكم من الآيات والروايات التي أعلنت هذا المبدأ، وطلبت من المسلمين جميعاً تحقيقه، والالتفاف حوله، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾[٣٦١]، وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ

(٣٦٠) من لا يحضره الفقيه ٢: ٦٢٣.

(٣٦١) آل عمران: ١٠٣.

وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾[٣٦٢] وقال: ﴿وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[٣٦٣] وقال:

﴿وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى﴾[٣٦٤] إلى غير ذلك من الآيات المؤكدة على الاجتماع والتعاضد والتحابب والتعاطف والتلاحم بين أفراد المسلمين، ومجتمعاتهم، وكذلك كم أكد النبي ﷺ على هذا المبدأ، فقال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى بعضه تداعى سائره بالسهر والحمى»[٣٦٥].

ولعلّ أهم منهج يحقق هذا المبدأ المهم هو الصداقة، فإنّ بالصداقة تحصل المحبة والألفة، ولذلك قال علي عليه السلام: «الأصدقاء نفس واحدة في جسوم متفرقة»[٣٦٦]، فالصداقة تعطي هذا الأثر العظيم.

٢ـ الصداقة صلاح وصواب: لقد جاء الإسلام ليصلح المجتمع بأفراده، نسائه ورجاله وصغاره وكباره، فالاسلام هو منهاج الصلاح والفلاح لجميع أفراد البشر، ويتحقق الصلاح في أن يوطّن الإنسان عقله لقبول عقائد الإسلام ونظرياته، عبر الأدلة والبراهين الصحيحة والصادقة، وأن يوطّن روحه ونفسه فيقبل على العبادة، والعمل وفق الدستور الإلهي المعد لإصلاحه، والصداقة إذا كانت بين المؤمنين المتدينين، والأخيار والصادقين

---

(٣٦٢) التوبة: ٧١.

(٣٦٣) الأنفال: ٤٦.

(٣٦٤) المائدة: ٢.

(٣٦٥) بحار الأنوار ٦١: ١٥٠ ح٢٩.

(٣٦٦) غرر الحكم: ١٦٦٩.

توجب انتشار الصلاح في المجتمع، ويكثر الصواب والصحة في أفكارهم وأعمالهم وأقوالهم، لأن الصداقة بين هذا النمط من الناس توجب تلاقح الأفكار، وغالباً الصديق يستشير بما يقدم عليه من أعماله ومشاريعه أصدقاءه، فيصل إلى صلاح أمره، وصواب رأيه، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «أكثر الصلاح والصواب في صحبة أولي النهى والألباب»[٣٦٧].

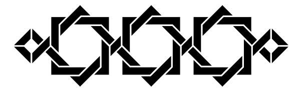
٣ـ الصداقة توحيد لأوصاف الأصدقاء: الإنسان بطبعه وفطرته يميل إلى من يوافقه بالأفكار والأعمال، فقلّ ما نرى مؤمناً يصادق كافراً، أو متديناً يصادف فاسقاً، والإنسان كما قلنا يميل إلى من يخدنه ويقارنه في أعماله وأفكاره، ومن هنا نجد أن الأصدقاء في مجموعة واحدة كثيراً ما يتوافقون في ميولهم، وطبعهم ونفسياتهم، ذلك لتأثير الصديق بشكل مباشر على أخلاق صديقه وسجاياه، لأنّه بالمحبة المنتشرة بين الأصدقاء تتسلل الأخلاق والأفكار من أحدهم إلى الآخر، لأنه من أحب قوماً أشرك في عملهم، ومن هنا فللصداقة أثر عميق على كيان المجتمع، ونشوء بذوره وأجياله، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[٣٦٨].

٤ـ الصديق يشفع لصديقه: من أهم عوالم الآخرة الشفاعة، فلقد أعطى الله تعالى الحق لبعض البشر ليشفع في عباده، فأعطاها للأنبياء والأئمة عليهم السلام وللشهداء وللمؤمنين، وأيضاً أعطى الصديق والخليل، ومن هنا فإن أهل النار يندمون أنه ليس لهم صديق حميم

(٣٦٧) غرر الحكم: ٤٢٩.
(٣٦٨) مستدرك الوسائل ٨: ٣٢٧.

يشفع لهم، حيث قالوا كما أخبر عنهم الله تعالى بقوله: ﴿فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ ۞ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[٣٦٩].

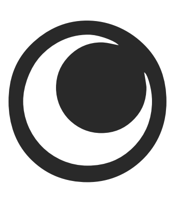
ومن أعظم مصاديق الصداقة، أصحاب أهل البيت عليهم السلام وخصوصاً أصحاب الإمام الحسين الذين وقفوا معه في عرصات كربلاء، حيث يروى أنّ زينباً عليها السلام خشيت خذلان الأصحاب عند ساعة العسرة، فقالت لأخيها الحسين عليه السلام: هل اختبرت أصحابك، فقال عليه السلام لقد اختبرتهم فما وجدت فيهم إلاّ الأسد الأشعث يرغبون في المنية دوني كما حُكي، وحقّاً سطّروا بدمائهم وقرابين نفوسهم أروع وأعظم روابط الحب والصداقة والولاء للامام الحسين عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام.



---

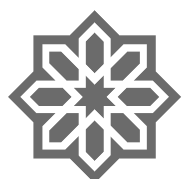
(٣٦٩) الشعراء: ١٠٠-١٠١.

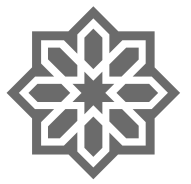


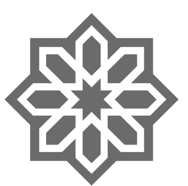


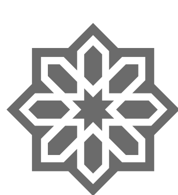
الليلة الثالثة عشر

أبو طالب عم النبي ﷺ ووالد علي عليه السلام









- **أبو طالب كافل الرَّسول ﷺ وناصره**
- **إيمان أبي طالب في كلام النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام**
- **إيمان أبي طالب في كلام الصحابة**

الليلة الثالثة عشر

أبو طالب عم النبي صلى الله عليه وآله ووالد علي عليه السلام[(٣٧٠)]

وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ

غافر: ٢٨

قال رسول الله صلى الله عليه وآله عند وفاة عمه أبي طالب عليه السلام: «يا عم جزيت خيراً، فلقد ربيّت وكفلت صغيراً، ونصرت وآزرت كبيراً، أما والله لاستغفرن لك

---

(٣٧٠) قال اليعقوبي توفيت خديجة في العاشر من شهر رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين، ولها من العمر ٦٥ سنة، وتوفي أبو طالب بعد خديجة بثلاثة أيام وله من العمر ٨٦ سنة، وقيل: تسعون سنة، فسمّى رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك العام بعام الحزن. وقال الراوندي في قصص الأنبياء (٢: ١٢١) عكس ذلك، لقد توفى أبو طالب في السابع من شهر رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين، وتوفيت خديجة بعد أبي طالب بثلاثة أيام، كما أن هناك رواية تعتبر وفاة أبي طالب في شهر رجب، ولكن المشهور ما ذكرناه من وفاته في شهر رمضان، كما جاء ذلك في بحار الأنوار: ٤٢.

ولأشفعن فيك شفاعة يعجب لها الثقلان»(٣٧١).

شرح نهج البلاغة ١٤: ٧٦



أبو طالب كافل الرسول صلى الله عليه وآله وناصره

أبو طالب هو عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي لقّب بأبي طالب، وسيد البطحاء وشيخ قريش، رئيس مكة، و«أبو طالب» لقب غلب عليه، حتى لم يعد أحد يناديه باسمه الأصلي «عبد مناف».

كان أبو طالب يتمتع بشخصية قوية مهابة في نفوس قومه وكانت رئاسة قريش وبني هاشم بعد عبد المطلب له، ولم يكن هو الإبن الأكبر لعبد المطلب، ولم يكن غنياً ولذا قيل: لم يكن أحد يسود قريشاً بلا مال سوى أبا طالب، وكانت لعبد المطلب علاقة خاصة بولده أبي طالب، لما كان يعرفه من علوّ منزلته، ولذا طلب عبد المطلب منه أن يتولى كفالة النبي صلى الله عليه وآله من بعده، فكان أبو طالب عند حسن ظنّ أبيه، فرعاه وعطف عليه، وكان يقدمه على أبنائه أجمعين[٣٧٢]، وكان يحبّه حباً شديداً، وكان لا ينام إلاّ إلى جنبه، ويخرج فيخرج معه، وكان يخصّه بالطعام، فإذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول اللّه صلى الله عليه وآله شبعوا، فيقول أبو طالب: إنّك لمبارك.

وهكذا فاطمة بنت أسد، زوجة أبي طالب فإنّها كانت تفضّل الرّسول صلى الله عليه وآله على

---

(٣٧١) من كتاب لـه إلى معاوية ذكر فيه إيمان أبى طالب، وتاريخ اليعقوبي ١: ٣٥٥ باب وفاة خديجة وأبي طالب.

(٣٧٢) سيرة ابن هشام ١٧٩: ١ وتاريخ اليعقوبي ٣٣٥: ١.

أولادها، وكانت لـه بمنزلة الأم الحنونة، فتربى في حجرها، فكان رسول اللّه ﷺ دائماً يذكرها بخير وكان شاكراً لبِّرها، وكان يُسميها «أمي»، ولما توفيت كفنّها رسول اللّه ﷺ بقميصه، وأمر أن يحفر قبرها في البقيع، فلما بلغوا لحدها حفره بيده واضطجع فيه وقال: «اللهم اغفر لأُمي فاطمة بنت أسد ولقنّها حجّتها ووسّع عليها مدخلها». فقيل يا رسول اللّه! رأيناك صنعت شيئاً لم تكن تصنعه بأحد قبلها فقال ﷺ: «ألبستها قميصي لتلبس من ثياب الجنة، واضطجعت في قبرها ليوسّعه الله عليها، وتأمن من ضغطة القبر، إنّها كانت من أحسن خلق اللّه صنعاً إليّ بعد أبي طالب»[٣٧٣]، وقال ابن عباس: «هي أوّل امرأة هاجرت من مكة إلى المدينة ماشية حافية»[٣٧٤].

واستمر أبو طالب في رعايته المخلصة للنبي ﷺ، وكان يتطلع فيه المستقبل العظيم، ولم يمض أكثر من إثني عشر ربيعاً من عمر النبي ﷺ، فأراد أبو طالب السفر إلى الشام مع قافلة قريش التجارية، وقرر أن يصطحب إبن أخيه معه في هذه الرحلة، وقد شهد من النبي ﷺ أثناء الطريق كرامات وخوارق حتى أنشأ في ذلك قصيدة:

إن ابن آمنة النبي محمداً   عندي يفوق منازل الأولاد[٣٧٥]

وهكذا واصل أبو طالب رعايته ونصرته لرسول الله ﷺ طيلة الإثنين والأربعين عاماً التي قضاها معه، وأخذ يبلّغ النبي ﷺ دعوته كما أمره اللّه تعالى، ولم تشدّد قريش من مواجهتها للنبي ﷺ حتى بدأ رسول اللّه يهاجم آلهتهم، ولعلمها بأن وراء النبي محمد ﷺ

(٣٧٣) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٠٨ ذكر فضيلة أم علي بن أبي طالب عليها السلام

(٣٧٤) تذكرة الخواص: ١٣ ومقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصفهاني: ٢٧.

(٣٧٥) ديوان أبي طالب: ٣٣، وتاريخ ابن عساكر ١: ٢٦٩.

قوة لا يمكن تجاوزها قد تمثلت في أبي طالب وبني هاشم الذين أعلنوا بلسان أبي طالب أنهم حماة النبي ﷺ، ولذا اجتمعت قريش عدة اجتماعات وقرّروا عدة قرارات، علّها تثني الرسول وعمّه، أو تساهم في عزل النبي محمد ﷺ عن بني هاشم وعبد المطلب، ومن بين هذه القررات، المحاصرة والمقاطعة الاقتصادية ثلاث سنوات في شعب أبي طالب.

إيمان أبي طالب في كلام النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام

إنّ أبا طالب لم يتخلى عن حماية ونصرة الرّسول ﷺ حتى آخر لحظات عمره الشريف، بحيث أوصى أقاربه وأصحابه بأن يدافعوا عنه وينصروه، ولذا كان رسول اللّه ﷺ يحب أبا طالب ويثني عليه طيلة حياته، ولمّا سمع بموته حزن عليه حزناً شديداً، ثم قال لعلي عليه السلام: امضِ فتول غسله، فإذا رفعته على سريره فاعلمني، ففعل فاعترضه رسول اللّه ﷺ وهومحمول على رؤوس الرجال، فقال ﷺ: «يا عم جزيت خيراً، فلقد ربّيت وكفلت صغيراً ونصرت وآزرت كبيراً، أما واللّه لأستغفرنّ لك ولأشفعنّ فيك شفاعة يعجب لها الثقلان»[٣٧٦] ثم دفن في مقبرة الحجون.

وقد أجاد الشيخ المفيد بما علّقه على هذا الحديث بقوله: في هذا الحديث دليلان على إيمان أبي طالب عليه السلام.

الأول: أمر رسول اللّه ﷺ علياً بغسله وتكفينه دون الحاضرين من أولاده، لأنَّ جعفر الطيار كان يومئذ ببلاد الحبشة. وطالب وعقيل كانا حاضرين ولكنهما يومئذٍ لم

(٣٧٦) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٤: ٧٦ من كتاب لـه إلى معاوية، ذكر في إيمان أبى طالب وتاريخ ابن كثير ٣: ١٢٥ وتاريخ اليعقوبي ١: ٣٥٥ باب وفاة خديجة وأبو طالب.

يُسلما بعد، وأمير المؤمنين عليه السلام كان مؤمناً باللّه ورسوله، فخصّ المؤمن منهم بولاية أمره، ولو كان أبو طالب عليه السلام قد مات على ما يزعمه النواصب من الكفر، كان طالب وعقيل أحق بتولي أمره من علي عليه السلام ولما جاز للمسلم من ولده القيام بأمره لانقطاع العصمة بينهما. ففي حكم النبي ﷺ لعلي عليه السلام بتغسيل وتكفين أبي طالب، شاهد صدق على إيمانه بالإسلام.

الثاني: دعاء النبي ﷺ لـه بالخيرات وطلب الشفاعة لـه خير دليل على إيمانه، ولو كان أبو طالب قد مات كافراً، لما جاز لرسول اللّه ﷺ الدعاء والصلاة عليه، حيث يقول تعالى ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾[٣٧٧]، وإذا كان الأمر على ما وصفناه، ثبت أنَّ أبا طالب عليه السلام مات مؤمناً[٣٧٨].

ولما مات أبو طالب نالت قريش من النبي ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب، وكان رسول اللّه ﷺ يقول: «ما نالت منّي قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»[٣٧٩].

نعم هكذا كانت مواقف النبي ﷺ مع أبي طالب الدالة على إيمانه وإسلامه وأما موقف الأئمة عليهم السلام تجاه حملة تكفير أبي طالب، فلقد تصدى لها الأئمة عليهم السلام فكان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «كان واللّه أبو طالب؛ عبد مناف ابن عبد المطلب مؤمناً مسلماً

---

(٣٧٧) التوبة: ٨٤.

(٣٧٨) مجموعة مصنفات الشيخ المفيد ١: ٢٦.

(٣٧٩) تاريخ الطبري ٢: ٨٠ تاريخ ابن عساكر ١: ٢٨٤.

يكتم إيمانه مخافة على بني هاشم أن تنبذها قريش».[٣٨٠]

ودافع الإمام علي بن الحسين السجّاد عليه السلام عن جدّه أبي طالب، حيث يستهدف منها النيل من علي وولده، فأجاب الإمام عندما سئل عن أبي طالب أكان مؤمناً؟ فقال عليه السلام: «وا عجبا كل العجب! أيطعنون على أبي طالب أو على رسول اللّه صلى الله عليه وآله، وقد نهاه اللّه تعالى أن يقرن مؤمنة مع كافر في غير آية من القرآن، ولا يشك أحد أن فاطمة بنت أسد «رضي اللّه تعالى عنها» من المؤمنات السابقات، فإنها لم تزل تحت أبي طالب حتى مات أبو طالب»[٣٨١].

وروي عن الإمام الباقر عليه السلام عن أبي بصير، قال قلت لأبي جعفر عليه السلام، سيّدي! إنّ الناس يقولون: إن أبا طالب في ضحضاح من النار يغلي منه دماغه، فقال عليه السلام: كذبوا، واللّه إنّ إيمان أبي طالب لو وضع في كّفة ميزان وإيمان هذا الخلق في كفّة ميزان لرجح إيمان أبي طالب على إيمانهم ثم قال: «ألم تعلموا أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام كان يأمر أن يحجّ عن عبد اللّه وابنه وأبي طالب في حياته ثم أوصى في وصيته بالحج عنهم»[٣٨٢].

إيمان أبي طالب في كلام الصحابة

لقد شهد الكثير من الصحابة بإسلام وإيمان أبي طالب عليه السلام قال ابن أبي الحديد: قالوا: وقد روي بأسانيد كثيرة بعضها عن العباس بن عبد المطلب، وبعضها عن أبي بكر،

---

(٣٨٠) الغدير ٧: ٣٨٧ ح ٧.

(٣٨١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٤: ٦٩.

(٣٨٢) الغدير ٣٨٠: ٧ وشرح النهج لابن أبي الحديد ١٤: ٦٨.

أن أبا طالب ما مات حتى قال: لا إله إلاّ اللّه محمد رسول اللّه.

وفي شعر لابن أبي الحديد وهو في صدد ذكر إسلام أبي طالب قال:

ولولا أبو طالبٍ وإبنُهُ   لما مَثُل الّدين شخصاً فقاما
فذاك بمكّة آوى وحامى   و هذا بيثرب حبّس الحِماما[٣٨٣]

وخير دليل على إيمان أبي طالب بدين النبي ﷺ؛ أشعاره ووصيته، ومن تلك الأشعار:

ولقد عَلمت بأنَّ دينَ محمَّدٍ   من خير أديان البرية دينا
يا شاهد اللّه عليّ فاشهَدِ   إنّي على دين النبي أحْمَدِ
من ضلَّ في الدِّين فإِني مُهتدي[٣٨٤]

وفي وصيته عند مماته يقول: «يا معشر بني هاشم! أطيعوا محمّداً وصدّقوه تفلحوا وترشدوا، يا معشر قريش كونوا لـه ولاة ولحزبه حُماة، واللّه لا يسلك أحدٌ منكم سبيله إلاّ رشد ولا يأخذ أحدٌ بهديه إلاّ سَعِد»[٣٨٥].

هذه الأدلة التي ذكرناها، كلها تدل على أنَّ أبا طالب كان مؤمناً باللّه طوال حياته على دين آبائه وأجداده على ملة إبراهيم، وقد أسرَّ الإيمان وأظهر الشرك حفظاً للرِّسالة والرَّسول وأصحاب الرّسول، وقد دخل الإسلام وآمن برسوله قبل وفاته.

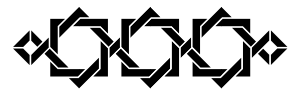
وأما ما قاله بعض أهل السنة بأنَّ أبا طالب كان مشركاً، ومات على غير الإسلام،

(٣٨٣) شرح نهج البلاغة لإبن أبي الحديد ١٤: ٧١ - بحار الأنوار ٣٥: ١٤٠ ح٨٤-٨٥.

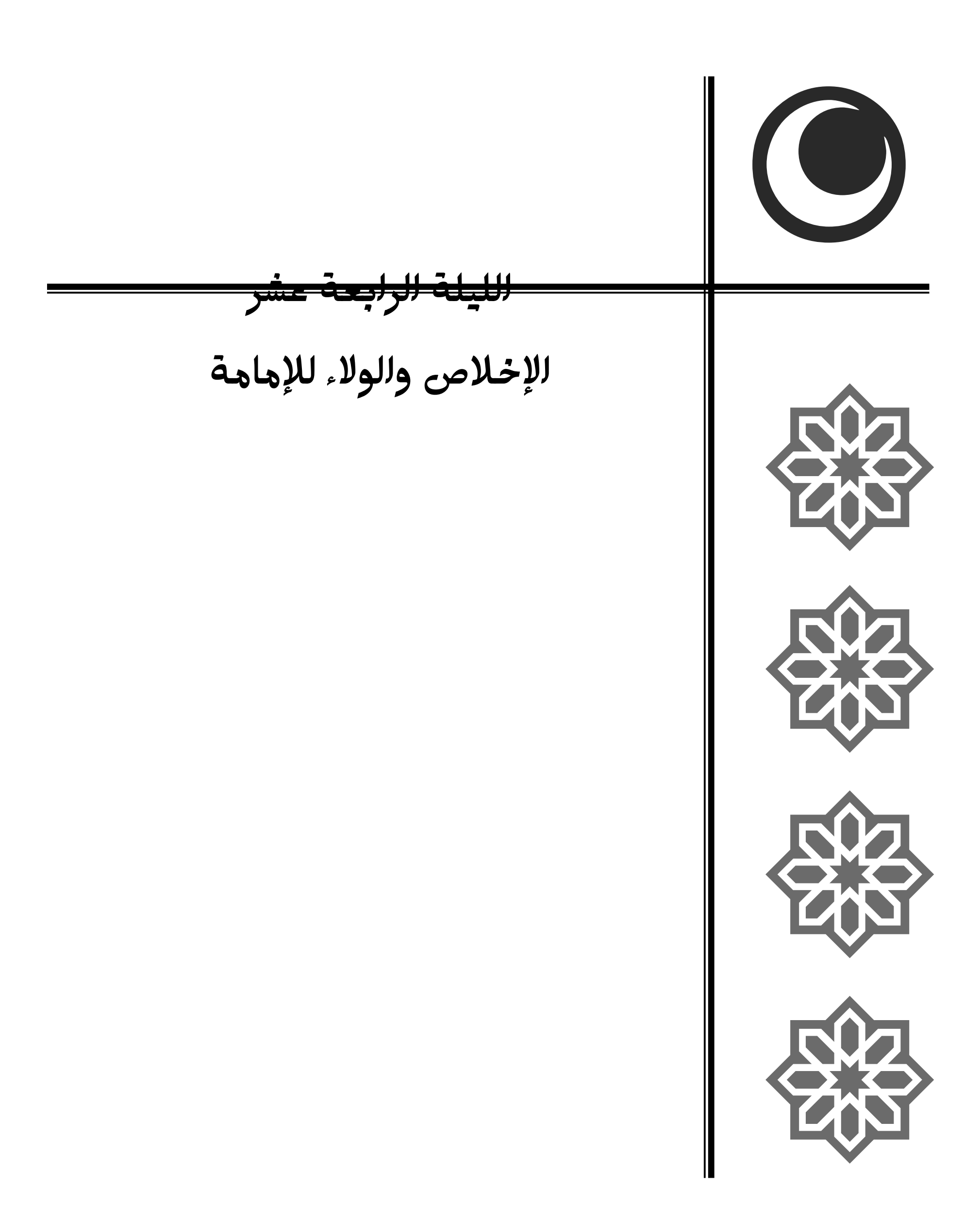
(٣٨٤) نفس المصدر.

(٣٨٥) تاريخ الخميس ١: ٣٠٠ والسيرة الحلبية ١: ٢٩٢.

واستدلوا بحديث الضحضاح فمردودٌ لما ذُكر من الأدلة المثبتة لإيمانه أولاً، وعدم موافقته للسنة القطعية ثانياً، لأنَّ حديث الضحضاح ضعيف السند، ثالثاً، لأنه إنّما يرويه الناس كلهم عن رجل واحد غير عادل، وفسقه غير خافٍ على الجميع، وهو المغيرة بن شعبة، وبغض هذا الرجل لبني هاشم على العموم ولعلي عليه السلام على الخصوص مشهور ومعلوم، والظاهر أن الغرض من هذه التهمة هو الإمام علي بن أبي طالب، والنيل من شخصيته كي يُساووه مع الذين كانوا هُم وآباؤهم من المشركين، وهذه الأباطيل التي حاكوها لم تكن لتقف عند أبي طالب بل استمرت حتى وصلت إلى درجة أن يشيعوا في البلاد أن الحسين عليه السلام الذي خرج لنصرة الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنما كان خارجياً وبناته وعائلته سبايا يطاف بهم من بلد إلى بلد[٣٨٦].



(٣٨٦) ينبغي بعد تمام الكلام عن أبي طالب التوجه في هذه الليلة لزيارته بالزيارة التالية:.
السلام عليك يا سيد البطحاء وابن رئيسها، السلام عليك يا وارث الكعبة بعد تأسيسها، السّلام عليك يا كافل الرَّسول وناصره، السلام عليك يا عمَّ المصطفى وأبا المرتضى، السلام عليك يا بيضة البلد، السلام عليك أيّها الذّابُ عن الدّين، الباذِلُ نفسه في نصرة سيد المرسلين، السلام عليك وعلى ولَدِك أمير المؤمنين ورحمَة اللّه وبركاتُهُ.



الليلة الرابعة عشر

الإخلاص والولاء للإمامة

- معنى الولاء للامامة
- ولاء العباس عليه السلام للإمامة
- ولاء مسلم بن عقيل للإمامة

الليلة الرابعة عشر

الإخلاص والولاء للإمامة

يا أيّها الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ

النساء: ٥٩

قال: بني الإسلام على خمس: «على الصلاة والصيام والزكاة والحج والولاية لنا أهل البيت ، وما نودي بشيء مثل ما نودي بالولاية».

وسائل الشيعة ١: ١١/ ٢



في اليوم الرابع عشر من شهر رمضان سنة ستين للهجرة، أرسل الإمام الحسين عليه السلام ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ليختبرهم ويعرف صدقهم وإخلاصهم للإمام، وقد خرج مسلم حتى بلغ الكوفة، وواصل في تذليل الصعاب أمام قدوم الإمام عليه السلام مخلصاً في ولائه ووفائه وحبه لإمامه الحسين، وهذا يدعونا إلى الحديث عن مسألة الإخلاص للإمامة، وموقع مسلم منها.

إنّ من أهمّ شعب الإيمان مسألة التولي للإمام والتبري من أعدائه، ولذا فقد ورد الحثّ المؤكد من النبي صلى الله عليه وآله والأئمة على هذه المسألة المهمة، حتى انعكس هذا الأمر على

زيارتنا لهم، فلقد جاء في الزيارات عموماً القول: «إني سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم، ووليّ لمن والاكم، وعدوّ لمن عاداكم إلى يوم القيامة»، فأصبحت مسألة التولي للإمام والتبري من أعدائهم من فروع الدين.

معنى الولاء للإمامة

إن الولاء للإمامة تحمل معاني ثلاثة، وهي كما يلي:

أولاً: الولاء العاطفي: من أهم أنحاء الولاء لأهل البيت عليهم السلام أن تكون عواطف الإنسان المؤمن منساقة إليهم، فيمتلئ قلبه حباً لهم، ذلك أن أساس العمل والطاعة الحب، والود، وقد أمر الله تعالى عباده بمودتهم في قصة حصلت في زمن النبي صلى الله عليه وآله، إذ يروى أن أصحاب النبي صلى الله عليه وآله المهاجرين منهم والأنصار، كانوا يتذاكرون ما نزل بالنبي من أذى وتعب في سبيل تبليغ الإسلام وإيصال الهداية لهم، فقرروا أن يجمعوا لـه قسطاً من أموالهم ويقدموها لـه مقابل ما بذله لأجلهم، وفعلاً جمعوا المال وطرحوه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله، وعند ذلك نزل جبرئيل عليه السلام وقال للنبي صلى الله عليه وآله: ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾[٣٨٧]، فجعل المولى تبارك وتعالى حب أهل البيت وودهم أجراً للرسالة، وأجراً لما بلّغه النبي صلى الله عليه وآله، وفي هذا الصدد يقول النبي صلى الله عليه وآله: «لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه، وتكون عترتي أعز إليه من عترته، ويكون أهلي أحبّ إليه من أهله، وتكون ذاتي أحب إليه من ذاته»[٣٨٨].

---

(٣٨٧) الشورى: ٢٣.

(٣٨٨) علل الشرائع: ١٤٠ ح٣.

ثانياً: الولاء العقائدي: من الواضح أن الإسلام على قسمين: عقائد وأحكام، فالأصول العقائدية هي الّتي يعقد عليها المؤمن قلبه وعقله، وهي التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد الجسماني، وأما الأحكام الفرعية، فهو ما يصطلح عليه بـ (فروع الدين)، وهي كالصلاة والصيام والزكاة والحج...، وقد نهى الإسلام أن يأخذ الإنسان المسلم عقائده من أي أحد وكيف اتفق، بل عليه أن يركن إلى ركن ركين ونبع حصيف، ونهر صاف، وليس ذلك إلاّ أهل البيت عليهم السلام، ومن هنا جاء الأمر باتباعهم وأن من يتركهم ويبتعد عنهم سيغرق في ظلمات الجهل والضلال، فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق»[٣٨٩]، فالنجاة مقرونة بأهل البيت عليهم السلام، كما أن الغرق والضياع بتركهم وعدم الأخذ من علومهم ومعارفهم.

وفي دعاء شعبان: «اللهم صل على محمد وآل محمد الفلك الجارية في اللجج الغامرة يأمن من ركبها ويغرق من تركها، المتقدم لهم مارق والمتأخر عنهم زاهق، واللازم لهم لاحق»[٣٩٠].

وفي الزيارة الجامعة الكبيرة: «من أراد الله بدأ بكم ومن وحّده قبل عنكم، ومن قصده توجه بكم»[٣٩١].

فإذاً، من يوالي الأئمة عليهم السلام عليه أن يأخذ عقائده منهم، ويسلّم قلبه وفكره وعقله

(٣٨٩) بحار الأنوار ٤٨: ٢٥١/ ٤.

(٣٩٠) مفاتيح الجنان.

(٣٩١) مفاتيح الجنان.

إليهم، وهذا النحو من الولاء هو ما يطلق عليه الولاء العقائدي، وهو من أهم أنواع الولاء، لأنه بواسطته يعرف العبد ربه، وبه يعرف النبي والمعاد، بل باتباع الإمام نعرف حقيقة الإمام، إذ الإمام هو الّذي يعرفنا على تفصيلات ذاته، بعدما أمرنا الله باتباعه والأخذ منه، ومن هنا جاء عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «إن الإمامة زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعز المؤمنين»[٣٩٢].

ثالثاً: الولاء العملي: ونعني به أن يتابع المؤمن أهل البيت في سلوكهم وأفعالهم، ذلك أن الله تعالى قد عصمهم وطهرهم من كل خطأ وذنب ونسيان، فكل ما يصدر عنهم حق لا لبس فيه، قال تعالى: ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[٣٩٣]، وبعد هذا فنحن نقطع بأنّ أفعال أهل البيت عليهم السلام وأقوالهم، وكل ما يصدر عنهم موافق لإرادة الله تعالى، ومحقق لمرضاته، وحيث كانوا كذلك أمر النبي باتباعهم والتمسك بهم في نصوص كثيرة ومتواترة عند المسلمين جميعاً، منها ما اشتهر بحديث الثقلين، حيث قال صلى الله عليه وآله بعد عودته من حجة الوداع: «إنّي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله وعترتي اهل بيتي وانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[٣٩٤]، فقد وصفهما بعدم الافتراق، وهذا يعني أنه من المستحيل أن يكون أقوال أهل البيت في جادة، والقرآن في جادة أخرى، بل هما في خط واحد، دائماً إلى يوم القيامة، ومن هنا فإن الإمامية لا تناقش في أقوال أهل البيت عليهم السلام، ولا تجتهد عليها، بل

---

(٣٩٢) الكافي ١: ٢٠٠/ ١.

(٣٩٣) الأحزاب: ٣٣.

(٣٩٤) وسائل الشيعة ٢٧: ٣٣.

تنقاد وتسلم إليهم تسليماً، تطبيقاً لأمر النبي ﷺ في الأحاديث الكثيرة الآمرة بالاقتداء بهم.

وبعد هذا العرض نستطيع تلخيص ما مضى من معنى الولاء بأنه عبارة عن إتباع أهل البيت عليهم السلام عاطفياً وعقائدياً وسلوكياً، فلا يكفي في ولايتهم التوجه العاطفي، وإن كان مهمّاً ويثاب عليه المرء، فإنّه وكما عن الصادق عليه السلام: «شيعتنا يفرحون لفرحنا ويحزنون لحزننا» ولكن ما أراده أهل البيت من اتباعهم علاوة على الارتباط والولاء العاطفي، أن يرتبط المسلمون بهم عقائدياً وسلوكياً، ذلك لأن هدف وجود الأئمة في دنيا البشرية، هو سوق عباد الله إليه، والأخذ بيدهم إلى مرضاته وطاعته، وهذا لا يمكن تحقيقه إلاّ بالاتباع عقائدياً وعملياً، ولذا ورد في الكثير من الأحاديث عن الأئمة عليهم السلام هذا المعنى.

فقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن شيعتنا من شيّعنا واتّبع آثارنا واقتدى بأعمالنا»[٣٩٥].

وبعد هذا فيوجد في التاريخ شخصيات عرفت أهل البيت هذه المعرفة، وأتبعتهم بهذا النوع العميق من الاتباع ونحن نسلّط الأضواء على بعضهم.

ولاء العباس عليه السلام للإمامة

لقد عرف العباس بن أمير المؤمنين عليه السلام قدر الأئمة، واتبعهم وأفرغ ولاءه العاطفي والعقائدي والعملي لهم، فلا تجد في حياة العباس ما يخالف خط الإمامة ونهجها القويم،

(٣٩٥) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري: ٣٠٧ ح١٤٩.

فكل أقواله تعكس أقوال الأئمة (عليهم السلام)، وكل اعتقاداته هي من علوم أهل البيت (عليهم السلام)، وكل افعاله وسلوكه نابع عن سلوكهم وأفعالهم، ونحن سنقتبس بعض اللقطات الّتي تعكس هذا الولاء العظيم.

١ـ الولاء العاطفي للعباس (عليه السلام): لقد أفرغ العباس (عليه السلام) عاطفته بكاملها للإمام الحسين (عليه السلام) فمنذ خروج الحسين من المدينة، صمم (عليه السلام) على الالتحاق به، تاركاً عياله وأهله ووطنه، وكان على طول الطريق من المدينة إلى مكة ومنها إلى كربلاء في خدمة سيده، وكان من حبه الكبير للإمام أنه لا يناديه يا أخي، بل دائماً يناديه (يا سيدي)، حتى أن الحسين عاتبه بقوله: نادني يا أخي، غير أن العباس اعتذر إليه بقوله: كيف أناديك يا أخي، وأين أمي من أمك فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله)؛ وختم هذه العاطفة، والتي سجلها التاريخ تعظيماً وتقديراً لما في صدره من حب وعشق للإمام، حيث أنه لما ورد ماء الفرات اغترف ليشرب وكان كما عن الصادق (عليه السلام) قلبه أشد من الحديدة المحماة من شدة العطش، فتذكر عطش الحسين فرمى الماء، ولم يرض أن يشرب، وكبد الحسين (عليه السلام) لم يبلله الماء، وأخذ يعاتب نفسه على أنه اغترف هذه الغرفة، وكأن العباس في هذا الموقف يشير إلى ارتباط عاطفي عميق بين الموالي والإمام، وهو: أنه ليس معنى حب الإمام مجرد الود والعشق لأئمة أهل البيت (عليهم السلام)، بل لابد أن تختلط المشاعر والاحاسيس بمشاعرهم وأحاسيسهم، فإذا كان الإمام عطشاناً فعلى المولى أن يمتنع عن شرب الماء تأسياً ومواساةً له، وبهذا يترجم الموالي ما في قلبه من الحب على جوارحه.

٢ـ الولاء العقائدي للعباس (عليه السلام): ومن زاوية أخرى في حياة أبي الفضل (عليه السلام) نجده يبني أن قتاله وجهاده بين يدي أخيه الحسين (عليه السلام) لم يكن جهاداً عصبياً وعشائرياً،

فليس الدافع للقتال هو الاخوة والعلاقة النسبية، وإنما هو الاعتقاد بأن الحسين ﴿عليه السلام﴾ مفترض الطاعة، وإمام إن قام وإن قعد، وأن القتال بين يديه دفاع عن الدين والعقيدة، فهذه العقيدة الّتي يتابع بها أهل البيت ﴿عليهم السلام﴾ هي الدافع الأول والأخير للجهاد بين يدي الحسين ﴿عليه السلام﴾، وهذا ما أوضحه العباس ﴿عليه السلام﴾ في شعره الّذي أنشده بعدما قطعوا يمينه، حيث قال:

والله إن قطعتم يميني إني أحامي أبداً عن ديني

وعن إمام صادق اليقين شبه النبي الصادق الأمين

٣- الولاء العملي للعباس: لقد كان العباس عالماً عابداً زاهداً، اغترف هذه الفضائل من معين علم أمير المؤمنين وأخويه الحسنين.

وجاء في الزيارة المروية: «السلام عليك أيّها العبد الصالح المطيع لله ولرسوله..».

ولاء مسلم بن عقيل للإمامة

الشخصية الثانية التي عرفت بولائها وحبها لأهل البيت ﴿عليهم السلام﴾ سفير الحسين إلى أهل الكوفة مسلم بن عقيل بن أبي طالب، فلقد عرف بحبه وولائه لأهل البيت ﴿عليهم السلام﴾ فلقد خرج مع الحسين من المدينة ولم يكتف بخروجه، بل أخرج معه أولاده وزوجته وبناته في خدمة سيده الحسين ﴿عليه السلام﴾، وقد برز ولائه بأنواعه في مواطن كثيرة وهي:

١- الولاء العاطفي لمسلم بن عقيل: لقد امتلأ قلب مسلم حباً وعشقاً وودّاً لأهل بيت النبي ﴿عليهم السلام﴾، ولإمام زمانه الحسين ﴿عليه السلام﴾، وعندما خانته الكوفة وأمر به ابن زياد أن يلقى من أعلى القصر، فصعدوا به الى أعلاه، كان يتوجه بوجهه الى جهة مكة ويبكي،

فقيل له: أتبكي خوفاً من الموت، فقال: لا والله، ولكن أبكي لأهلي المقبلين إليّ، أبكي لحسين وآل حسين[٣٩٦].

٢- الولاء العقائدي لمسلم بن عقيل: كان مسلم صلباً في دينه وعقيدته، فهم الإمامة كما أنزلها الله، ووطن فكره وعقله للنيل من معين فكر الإمامة، وعقيدة الأئمة عليهم السلام، وعلى سبيل المثال فإن الغدر ممقوت عند أهل البيت عليهم السلام حتى في حق الفاسق الفاجر، فأمير المؤمنين عليه السلام كان يقول: «لولا كراهية الغدر لكنت أدهى العرب»[٣٩٧]، ولم يعهد من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله غدر حتى في حق أعدائهم، وقد اتخذ مسلم من هذا النبل عقيدة اتبع فيها خطا أهل البيت عليهم السلام حيث يروى أن شريك بن الأعور نزل في دار هاني بن عروة لمواصلة ما بينهما من العمل لتهيئة المناخ للحسين عليه السلام فمرض ذات يوم فأرسل ابن زياد أني عائد لك، واغتنمها شريك فرصة فأخذ يحرض مسلم بن عقيل على الفتك بابن زياد، وقال له: إن غايتك وغاية شيعتك هلاكه، فأقم في الخزانة حتى إذا اطمأن عندي أخرج إليه واقتله، وأنا أكفيك أمره بالكوفة مع العافية.[٣٩٨]

وبينما هم على هذا إذ قيل: الأمير بالباب، فدخل مسلم الخزانة، ودخل عبيد الله وأخذا يتحدثان، فلما استبطأ شريك خروج مسلم أخذ عمامته من على رأسه ووضعها على الأرض، ثم وضعها على رأسه، ففعل ذلك مراراً، ونادى بصوت عال يسمع مسلماً:

---

(٣٩٦) وقعة الطف لأبي مخنف.

(٣٩٧) الوسائل ٢: ٢٤٥.

(٣٩٨) مثير الاحزان: ١٤.

ما لانتظار بسلمى لا تحيوها حيوا سليمى وحيوا من يحيّها

وأخذ يكرّره، وعينه رامقة على الخزانة، ثم صاح بصوت رفيع، اسقونيها، ولو كان فيها حتفي! فالتفت ابن زياد الى هاني وقال له: إن ابن عمك يخلط في علته.

فخرج ابن زياد من عنده، ولما خرج مسلم من الخزانة، قال لـه شريك: ما منعك عنه؟

فقال: منعني خلتان: الأولى، حديث علي عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله إن الإيمان قيد الفتك فلا يفتك مؤمن...»[٣٩٩].

فهذا الموقف يدل بوضوح على تقييد مسلم بالخط الذي نهجه لـه أئمة أهل البيت عليهم السلام، وهذا يكشف عن شدة ارتباطه عقائدياً بأئمة أهل البيت عليهم السلام.

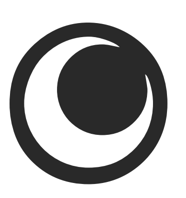
٣- الولاء العملي لمسلم بن عقيل: كان عمل مسلم متوافقاً مع خط أهل البيت عليهم السلام، فهو يقبل في الليلة التي بات فيها عند طوعة على العبادة والصلاة وقراءة القرآن تأسياً بالنبي وبأهل بيته عليهم السلام على الرغم من صعوبة الموقف وخطورته، ولكن كان يرى ما كان يراه أهل البيت عليهم السلام من أن شدة الموقف وخطورته لا توجب قطع الروابط مع الله تبارك وتعالى.

أيضاً كان خط أهل البيت عليهم السلام الشهادة، ومسلم ابن عقيل كان قد وطن نفسه على ذلك فالسلام عليه ورحمة الله وبركاته.

---

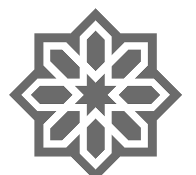
(٣٩٩) مثير الأحزان: ١٤، ووقعة الطف لأبي مخنف.

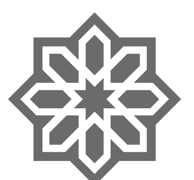


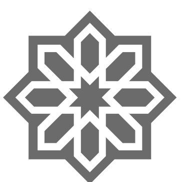


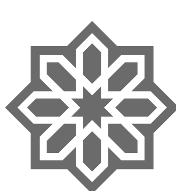
الليلة الخامسة عشر

لمحات من سيرة الإمام الحسن عليه السلام









الليلة الخامسة عشر

لمحات من سيرة الإمام الحسن ﷺ

وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ وَكانُوا لَنا عابِدِينَ

الأنبياء: ٧٣

وقال ﷺ: «الحسن والحسين إماما قاما أو قعدا».

الإرشاد للمفيد: ٢٢٠



شخصية الإمام الحسن ﷺ

ولد الإمام الحسن ﷺ بالمدينة المنورة في ليلة النصف من شهر رمضان سنة ثلاث للهجرة على المشهور.

ولما أذيع نبأ ولادته المباركة، ووصل الخبر إلى الرّسول ﷺ فرح فرحاً شديداً،

وسارع إلى بيت ابنته الزهراء البتول عليها السلام ليهنئها بوليدها الجديد ويبارك لأخيه أمير المؤمنين عليه السلام، فلما وصل صلى الله عليه وآله إلى البيت نادى: «يا أسماء هاتيني ابني... » قامت أسماء ودفعته إليه في خرقة صفراء فرمى بها وقال صلى الله عليه وآله: «ألم أعهد إليكم أن لا تلفوا المولود في خرقة صفراء؟»، وأمر أن يلف في خرقة بيضاء، وقام صلى الله عليه وآله بإجراء مراسم الولادة على مولوده المبارك، فأذّن في أُذنه اليُمنى، وأقام في اليسرى وفي الخبر: «أن ذلك عصمة للمولود من الشيطان الرجيم».

ثم التفت إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: «هل سميت الوليد المبارك؟».

فأجاب الإمام عليه السلام: «ما كنت لأسبقك يا رسول اللّه».

فقال صلى الله عليه وآله: «و ما كنت لأسبق ربي... ».

وما هي إلاّ لحظات وإذا بالوحي يناجي الرّسول صلى الله عليه وآله، ويحمل لـه «التسمية» من الحق تعالى يقول لـه جبرائيل سمه: «حسناً»[(٤٠٠)].

حقاً إنه اسم من أحسن الأسماء، وكفى به جمالاً وحسناً أن الخالق الحكيم هو الذي اختاره ليدلّ جمال لفظه على جمال معناه وحسنه.

وبعد سبعة أيام على ولادته عليه السلام عقَّ عنه كبشاً، وقال صلى الله عليه وآله: حين ذبحها: «عقيقة عن الحسن، اللّهّم عظمها بعظمه، لحمها بلحمه، اللهم اجعلها وقاءً لمحمد وآله». وأعطى القابلة منها الفخذ، وصار فعله هذا سنة لأمته من بعده، وأصبحت العقيقة من المستحبات الأكيدة، بل ذهب بعض الفقهاء إلى وجوبها.

ثم بعد ذلك حلق صلى الله عليه وآله رأس سبطه بيده المباركة، وتصدق بزنته فضه على المساكين

(٤٠٠) تاريخ الخميس ١: ٤٧٠.

وطلى رأسه بالخلوق، وهو طيب مركب من زعفران وغيره، على خلاف العادة في الجاهلية حيث كانوا يطلون رأس الصبي بالدم، وفي اليوم السابع أيضاً أجرى ﷺ عليه الختان،

وكنّاه النبي ﷺ أبا محمد ولا كنية لـه غيرها، وبهذا انتهت جميع مراسم الولادة التي أجراها النبي ﷺ على سبطه الأكبر الإمام الحسن الزكي المجتبى.

وأما ملامحه وصفاته: كانت ملامح الحسن عليه السلام وصفاته تحاكي ملامح جده رسول الله ﷺ وصفاته، فعن الغزالي في إحياء العلوم أن رسول اللّه ﷺ قال للحسن: «أشبهت خلقي وخُلُقي»، فكان عليه السلام كجده في الأخلاق والصفات الحسنة من العبادة وحسن معاشرة الناس والسخاء والكرم والعفو، والتجاوز عن الآخرين وغيرها من الفضائل الأخلاقية والصفات الحميدة.

وكيف لا يكون كذلك، وهو من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، قد نشأ في بيت الوحي، وتربّى في مدرسة التوحيد،فالرسول ﷺ تولّى تربيته وأفاض عليه بمكرمات نفسه، والإمام أمير المؤمنين عليه السلام غذّاه بحكمه، والزهراء القدسية غرست في نفسه الفضيلة والكمال، وبذلك سمت طفولته فكانت مثلاً لخلق النبي ﷺ، والتكامل الإنساني، فهو من أهل بيت أذهب اللّه عنهم الرجس وطهرهم تطهير، وأمر المسلمين بمودتهم واطاعتهم، ونزلت الآيات العديدة في فضلهم وتحدث الرّسول ﷺ الكثير في فضلهم، وحبهم، منه قوله ﷺ: «أحبّ أهل بيتي الحسن والحسين عليهما السلام»[٤٠١]، بل بلغ من حبه ﷺ لهما عليهما السلام: أنه يقطع خطبته في المسجد وينزل عن المنبر ليحتضنهما.

(٤٠١) تاريخ ابن عساكر ٤: ٢٠٥ والغدير ٧: ١٢٤.

وهكذا قطع الإمام الحسن عليه السلام شوطاً من طفولته مع جده صلى الله عليه وآله، يرى منه الحنان والعطف، ويشعر بالسعادة والعزة، لكن لم تدم لـه هذه الحالة الهانئة، فقد آن للرسول صلى الله عليه وآله أن ينتقل إلى حظيرة القدس، ونزل عليه القرآن بقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[٤٠٢]، فمات جده الرسول صلى الله عليه وآله وله من العمر سبع سنين وستة أشهر.

وحينما مضى النبي صلى الله عليه وآله إلى جنة المأوى، وسمت روحه إلى الرفيق الأعلى، انثالت الفتن على المسلمين تترا كقطع الليل المظلم، وحدث بعده ما حدث، من اقصاء أمير المؤمنين عليه السلام عن حقه ومنصبه الإلهي، والمعاناة التي عصفت به خلال فترة ما قبل خلافته وكل ذلك يجري، والإمام الحسن عليه السلام يشارك أباه أمير المؤمنين الصبر، وفي العين قذا، وفي الحلق شجا، إلى أن تولى الأمر أبوه علي ابن أبي طالب عليه السلام فلازمه طيلة حياته، وشهد معه حروبه الثلاث، الجمل، وصفين، والنهروان، وقام بالأمر بعد شهادة أبيه وله سبعة وثلاثون سنة، فحكم ستة أشهر وخمسة أيام، ثم اضطره معاوية لمصالحته سنة إحدى وأربعين، وخرج إلى المدينة وأقام بها عشر سنين، واستشهد عليه السلام في السابع والعشرين من صفر سنة (٥٠هـ..ق)، إثر السّم الذي دسته زوجته جعدة بنت الأشعث، بأمرٍ ومؤامرة من معاوية وبتخطيط من الأشعث بن قيس.

بعد هذه الجولة القصيرة في حياة الإمام الحسن عليه السلام، نركّز الحديث حول مسألة صلحه مع معاوية، ثم نختم المقال بذكربعض وصايا الإمام ومواعظة.

---

(٤٠٢) الزمر: ٣٠.

صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية

الحرب والجهاد والصلح والهدنة ليست من الثوابت في الإسلام، بل تتبع الشرائط والأزمان، والهدف من الحرب والصلح، هو حفظ الإسلام وعزة المسلمين، والقتال مع أهل البغي الذي أشارت الآية إليه هو أيضاً للدفاع عن الإسلام وحقوق المسلمين، ولا شك أن معاوية ويزيد كانا من أهل البغي فيجب محاربتهم، إلاّ أنه إذا كان بالصلح تتحقق المصلحة الإسلامية، فلاشك أن الصلح يقدم على الحرب، والقرآن الكريم أشار إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾(٤٠٣)، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾(٤٠٤)

وهناك نماذج في صدر الإسلام من صلح الرسول صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام تؤكد ذلك، فقد كان الرسول صلى الله عليه وآله في مكة ثلاث عشرة سنة ولم يحارب إلى أن هاجر إلى المدينة، ونزلت الآية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾(٤٠٥). وفي السنة السادسة من الهجرة كان صلح الحديبية بين الرّسول صلى الله عليه وآله والمشركين،كما كان الإمام علي عليه السلام جليس بيته لمدة خمس وعشرين سنة لم يحارب فيها، لحفظ كيان الإسلام ووحدة المسلمين، وأما في الوقت الذي يرى المصلحة في الحرب فهو عليه السلام يخوض الحروب والمعارك الثلاثة، ضد الناكثين والمارقين والخوارج.

وهكذا فقد صالح ابنه الإمام الحسن معاوية.

وقد كان صلح الإمام الحسن مورد سؤال في الماضي القديم والحاضر الحديث، وقياساً

(٤٠٣) النساء: ١٢٨.

(٤٠٤) الأنفال: ٦١.

(٤٠٥) الحج: ٣٩.

مع ثورة أخيه الإمام الحسين عليه السلام، ويتصور البعض أنَّ الإمام الحسن عليه السلام كان سلمياً والإمام الحسين عليه السلام كان حربياً، ولكن في الحقيقة إن شرائط الزمان الذي كان يعيش فيه الإمام الحسن عليه السلام غير شرائط زمان الإمام الحسين عليه السلام، فلو كان الإمام الحسين عليه السلام مكان الإمام الحسن لصالح معاوية، بل كان الحسين عليه السلام مع الحسن عليه السلام عندما أبرم الصلح ولم يعترض على أخيه، ولم يرض من أصحابه الاعتراض عليه، بل كان يصوب فعل أخيه ويقنع قاصري العقول به وبمصلحته كما أنه لو كان الإمام الحسن عليه السلام مكان الحسين عليه السلام لحارب يزيد بن معاوية، وقد أشار جدهما المصطفى إلى هذه الحقيقه بقوله صلى الله عليه وآله: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»[٤٠٦]

ففي زمن الإمام الحسن عليه السلام المصلحة الإسلامية كانت تقتضي الصلح مع معاوية، وفي زمن الإمام الحسين عليه السلام كانت المصلحة تقتضى الحرب والجهاد ضد يزيد بن معاوية، وهذا التفاوت في الزمان والشرائط كانت من وجوه ثلاث:

١ - كان الإمام الحسن عليه السلام في مسند الخلافة ومعاوية حاكماً، ولم يطلب معاوية من الإمام الحسن البيعة بعد الصلح. أمّا في زمن الإمام الحسين عليه السلام كان يزيد خليفة، وطلب من الإمام الحسين عليه السلام أن يبايعه، ومثل الإمام الحسين عليه السلام كيف يبايع يزيد، وإن أدّى ذلك إلى الحرب والشهادة.

٢ - إن عدد جيش الإمام الحسن عليه السلام، كان يقارب عدد جيش معاوية إلاّ أن الكوفة في زمانه عليه السلام كانت متفرقة وممزقة، وقد قام الإمام عليه السلام للحرب، ولكن خذله

(٤٠٦) الإرشاد للمفيد ٢٢٠.

معظم القادة والجنود من الجيش، واستسلموا لجيش معاوية، واضطر الإمام عليه السلام للصلح، أمّا بالنسبة للإمام الحسين عليه السلام فإنَّ أهل الكوفة هم الذين دعوه لينصروه فوجب عليه أن يجيبهم لكي لا يلوموه ويلومه التاريخ بعد ذلك.

٣ - كان يزيد بعكس معاوية يتجاهر بالفسق والفجور، فعلى مثل الإمام الحسين أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وإن لم يكن لـه ناصرٌ ومعين، ولم يكن معاوية كذلك، بل كان متظاهراً بالتديّن، وقد خفي أمره على الناس، فالنهوض في وجهه لا يعد عند الكثيرين جهاداً أو أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر.

هذه الوجوه الثلاثة التي ذكرناها، هي من أهم أسباب صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية، والإمام الحسن عليه السلام مع هذه الظروف، ولأجل المصلحة الإسلامية العامة، وحفظ دماء المسلمين وبالأخص شيعته، صالح معاوية ضمن شروط لوعمل بها معاوية لأطاحت بحكمه، ولكن كما قال هو بنفسه بعد معاهدة الصلح «إني كنت شرطت لقوم شروطاً، ووعدتهم عدات فان كل ما هنالك تحت قدمي هاتين». فنقض معاوية العهد والشروط التي كانت بينه وبين الإمام الحسن عليه السلام التي كان من أهم بنودها:

١- تنازل الإمام عليه السلام عن الأمر إلى معاوية بشرط العمل بكتاب اللّه وسنة رسول اللّه، صلى الله عليه وآله وسيرة الخلفاء الراشدين.

٢- يرجع الحكم بعد معاوية إلى الحسن، وإذا لم يكن فيرجع إلى أخيه الحسين عليه السلام، وليس لمعاوية أن يعهد به إلى أحد.

٣- لا يحق لمعاوية أن يلعن علياً عقيب الصلاة وعلى المنابر وفي المحافل، وعليه أن يذكره بخير.

٤- بيت المال الذي في الكوفة يستثنى من التسليم لمعاوية، ويجب على معاوية إعطاء مليونين درهم في السنة إلى الحسن عليه السلام، مليون لبني هاشم ومليون لعوائل شهداء الجمل وصفين.

٥- وكان فيما اشترطه الإمام الحسن عليه السلام أن لا يسمى معاوية بأمير المؤمنين، وأن لا يتعقب على شيعته شيئاً، ويؤمنهم ولا يتعرض لأحدهم بسوء، ويوصل لكل ذي حق حقه.

وكانت المعاهدة في النصف من جمادى الأولىٰ سنة ٤١ للهجرة على أصح الروايات، وما كان هدف معاوية في صلحه مع الحسن عليه السلام، إلاّ الاستيلاء على الملك كما صرح بذلك بعد الصلح بقوله: «رضينا بها ملكاً»[٤٠٧]، ولم يرض الحسن عليه السلام بتسليم الملك لمعاوية إلاّ ليصون ويحفظ الإسلام والمسلمين، وبالأخص يحفظ شيعته من الإبادة، وليتأكد السبيل إلى استرجاع الحق المغصوب يوم موت معاوية.

ويكفينا من تصريحات الحسن عليه السلام، ما قاله أكثر من مرة لأجل إفهام شيعته سبب صلحه مع معاوية: «ما تدرون ما فعلت واللّه، للذي فعلت خير لشيعتي مما طلعت عليه الشمس»، وما قاله عليه السلام مرة أخرى لبشير الهمداني ـ وهو أحد رؤساء شيعته في الكوفة ـ : «ما أردت بمصالحتي إلاّ أن أدفع عنكم القتل».[٤٠٨]

(٤٠٧) شرح نهج البلاغة لابن ابن الحديد ٤: ١٣.
(٤٠٨) تاريخ اليعقوبي ٢: ١٩٢.

وصايا الإمام الحسن عليه السلام ومواعظه

دخل على الإمام الحسن عليه السلام جنادة بن أبي أمية، في مرضه الذي توفي فيه فقال له: عظني يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله.

فقال عليه السلام: يا جنادة استعد لسفرك، وحصّل زادك قبل حلول أجلك، واعلم أنّك تطلب الدنيا والموت يطلبك، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنّك تموت غداً، واعلم بأن الدنيا في حلالها حساباً، وفي حرامها عقاباً، وفي الشبهات عتاباً، وإذا أردت عزاً بلا عشيرة، وهيبة بلا سلطان، فاخرج من ذلّ معصية اللّه إلى عزّ طاعة اللّه عز وجل[٤٠٩].

مدائح لأهل البيت عليهم السلام وللإمام الحسن عليه السلام

بما أن الليلة الخامسة عشر من شهر رمضان المبارك ليلة ولادة ابن بنت الرسول صلى الله عليه وآله الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام، فهي ليلة فرح وسرور، فالأفضل أن نختم حديثنا هذا بمدائح لأهل البيت وللإمام الحسن (سلام اللّه عليهم جميعاً).

بلغ العلى بكماله كشف الدُجى بجماله
حسنت جميع خصاله صلوا عليه وآلهِ

* * * * *

بآلِ محمدٍ عرف الصواب و في أبياتهم نزل الكتاب
فهم حجج الإله على البرايا بهم وبجدِّهم لا يستراب

(٤٠٩) أعيان الشيعة ٤: ق ١: ١٠٧.

* * * * *

لو فتشوا قلبي رأوا وسطه سطرين، قد خُطّا بلا كاتبِ
العدل والتوحيد في جانب وحب أهل البيت في جانب

* * * * *

قلبي يروم نجاة من ولائكم و بالشفاعة ربُّ البيت خصّكُم
فلنسأل الشمس هل ردّت لغيركم يا آل بيت رسول اللّه حبكم
فرض من اللّه في القرآن أنزله كفاكم من عظيم الفخر أنكم
من لم يصلِ عليكم لا صلاة له

* * * * *

قلبي بكم يا آل طه مغرم و بحبكم أنا ذائب ومتيّمٌ
ولأجلكم بين الأنام مكرّم فإذا وقفت بذكر كم أترنَّم
صلَّى الجميع على النبي وسلّموا

* * * * *

فو اللّه لا أخشى من النار في غد وأنتم ولاة الأمر يا آل أحمد
وها أنا ذا أدعوكم رافعاً يدي خذوا بيدي يا آل بيت محمدٍ
أنا تابعٌ لأولي العُلى والسؤدد فهم مُرادي في الحياة ومسندي
يا من أتاني سائلاً عن مذهبي أهوى لمذهب أهل بيت محمّد

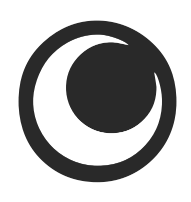
* * * * *

نفحة الطهر والقداسة فاحت بشذاها شمائلُ الأنبياء
ولد المجتبى الزكيّ فأهلاً بوليد الزكيّة الحوراء

هو ريحانة الرّسول وروحٌ   من سجاياه عاطرُ الأشذاء
قد نما فوق صدره وتغذّا   من هُداه فكان خير نماء
وهو سبط الهادى وفرعٌ عليٌّ   من عليٍّ ونبعة الزهراء

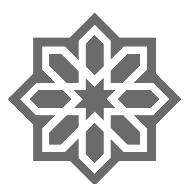


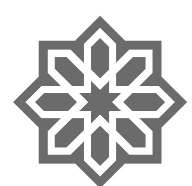


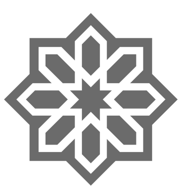


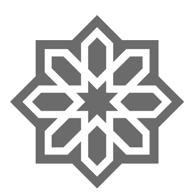
الليلة السادسة عشر

عنصر الإصلاح في نهضة الإمام الحسين عليه السلام









- أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- معنى المعروف والمنكر

- شرائط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- حبيب النجار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- مؤمن آل فرعون والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الليلة السادسة عشر

عنصر الإصلاح في نهضة الإمام الحسين عليه السلام

إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ

الانفال: ٥٣

وعن الإمام الحسين عليه السلام قال: إني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا مفسدا ولا ظالما وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي رسول الله صلى الله عليه وآله ، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي رسول الله وأبي أمير المؤمنين عليه السلام.

بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩



كان الإمام الحسين عليه السلام يريد الإصلاح بثورته وقيامه، ولم يكن طاغيا ولا طالبا لملك، وقد أعلن منذ اليوم الأول لخروجه من المدينة عن المبادىء التي خرج لأجلها على حكومة بني أمية وتلك المبادىء التي خرج من أجلها تنطوي تحت شعار كبير وهو

الإصلاح.

فشعار الحسين عليه السلام يطرح مفهومين عامين، أحدهما هو الإصلاح إزاء المفهوم الآخر وهو الافساد الّذي أشاعه الأمويون والحسين عليه السلام أعلن هذا الإصلاح انطلاقا من القرآن لأنه رجل القرآن وصاحب القرآن وإمام أمة تدين بالقرآن، وعلى هذا فالإمام انطلق بثورته من مفهوم القرآن.

ونحن حينما نتكلم عن ثورة الحسين وعن أهدافه الإصلاحية لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار القاعدة التي انطلق منها، والأساس الذي اعتمد عليه فقد انطلق من القرآن الكريم الذي قال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾(٤١٠) . ونهى عن الفساد في الأرض بقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(٤١١).

فإذن مفهوم الإصلاح ومفهوم الإفساد من الأساليب القرآنية، والإمام الحسين عليه السلام في هذا المقطع الذي كتبه في وصيته إلى أخيه محمد بن الحنفية، قد عبر بأسلوب قرآني ليدلل على عمق ارتباط ثورته بالقرآن، وليكشف عن بواعث ثورته ومنطلقها وهو القرآن الكريم.

إذاً فيمكننا القول، أن عنصر الإصلاح في الأرض في أمة رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي حرك الحسين ليثور على الطاغية يزيد بن معاوية، لما وجده من انحراف خطير وفساد كبير وتردّي في المجتمع الإسلامي.

وقد أوضح الحسين عليه السلام؛ أن عنصر الإصلاح الذي دعاه إلى التحرك هو ذلك المبدأ

(٤١٠) الأعراف: ٥٦.

(٤١١) البقرة: ٦٠.

القرآني «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» فقد قال عليه السلام: «أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي»، ولكي يتضح أهمية هذا العنصر لا بد أن نتعرف عليه بشكله الواقعي.

أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إن كثيراً من الآيات تعكس الأهمية القصوى الّتي حظي بها مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففي بعضها تصف الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر بالمفلحين قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٤١٢]

وفي بعضها تصف المسلمين بخير أمة لمكان أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾[٤١٣] . وفي بعضها تجعل للمؤمنين والمؤمنات ولاية لبعضهم على بعض وتعتبر هذه الولاية هي ولاية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[٤١٤].

هذا وقد بينت الروايات الصادرة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، أهمية هذا المبدأ في

---

(٤١٢) آل عمران: ١٠٤.

(٤١٣) آل عمران: ١١٠.

(٤١٤) التوبة: ٧١.

الإسلام ففي بعضها تصفه بأنه قوام الشريعة فعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «قوام الشريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود»[٤١٥].

وفي بعضها أنه أفضل أعمال الخلائق[٤١٦]، فعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء، ومنهاج الصلحاء، فريضة عظيمة، بها تقام الفرائض وتأمَن المذاهب وتحل المكاسب وترد المظالم وتعمّر الأرض وينتصف من الأعداء ويستقيم الأمر»[٤١٧].

خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

بعد أن بين القرآن والعترة الطاهرة أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بينوا للمجتمع خطورة تركه، وما يؤدي بالمجتمع إلى الانحطاط والفساد.

فقد جاء في وصية أمير المؤمنين عليه السلام للحسنين عليهما السلام قال: «لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيولى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم»[٤١٨].

هذا النص وغيره يبرز خطورة ترك هذا المبدأ، إذ إن نتيجة ترك هذا المبدأ؛ أن يتسلط الأشرار على المسلمين، وواضح أن تسلطهم يوجب الفساد في الأرض وانحطاط المجتمع، وابتعاده عن الإسلام ومبادئه، وهذا ما حصل في المجتمع الإسلامي بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله فإن الأمة قد تركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى أدى ذلك في نهاية

(٤١٥) غرر الحكم ٦٨١٧.
(٤١٦) غرر الحكم: ١٩٧٧.
(٤١٧) الكافي ٥: ٥٧ ح٦.
(٤١٨) نهج البلاغة: كتاب ٤٧.

المطاف إلى تسلط معاوية بن أبي سفيان، ومن بعده ولده يزيد اللذين عاثا في الأرض فسادا، وأهلكا الحرث والنسل ومن هنا كان يروي الإمام الحسين عليه السلام في مقام بيان سبب قيامه وتحركه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله: «من رأى سلطانا جائرا، مستحلا لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفا لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم ينكر عليه بفعل، ولا قول كان حقا على الله أن يدخله مدخله»[٤١٩] فكان عليه السلام يستند إلى سنة جده النبي صلى الله عليه وآله في تحركه المناهض ليزيد، وقول جده واضح لا لبس فيه.

فكل من يعلم ويفهم ويشعر ويدرك، عليه أن يقوم وينهض ضد حكم الطاغية آنذاك وليس هذا الحديث هو الوحيد في نوعه، بل هناك أحاديث كثيرة يمكن الاستناد إليها في هذا المجال، فقد جاء عن الإمام الرضا عليه السلام عن جده النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إذا تواكلت الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فليأذنوا بوقاع من الله»[٤٢٠].

فأي عذاب ينتظر هؤلاء الناس الذين يتركون هذا الواجب الإلهي؟؟؟

معنى المعروف والمنكر

وهنا يطرح سؤال مهم وهو: ما معنى المعروف الذي يجب أن يؤمر به؟ وما معنى المنكر الذي يجب أن ينهى عنه؟.

إن كلمة «المعروف» تشمل في الواقع كل ما أمر به الشرع المقدس وارتضاه.

---

(٤١٩) تاريخ الطبري ٤: ٣٤.

(٤٢٠) فروع الكافي ٥: ٥٩.

وبالمقابل فإنّ كلمة «المنكر» تشمل كل ما نهى عنه الشرع المقدس ورفضه، فالصلاة والصيام والزكاة والخمس والحج، وصلة الرحم والصدق والتوبة من الذنوب... وغيرها كل ذلك يشمل الجانب الايجابي من مفاهيم الإسلام، كما أن ترك هذه الواجبات وقطيعة الرحم والكذب والعقوق والاستمرار في اقتراف الذنوب كل ذلك يمثل الجانب السلبي، والذي أمر الإسلام بتركه، ونهى عنه.

شرائط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

من الواضح جداً أنه ليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجباً بشكل مطلق، بل لا يثبت هذا الوجوب إلا إذا تحققت شرائطه وقد ذكر الفقهاء شرائط عدة لتحققه:

الشرط الأول: علم المكلف بأن ما ترك واجب، وأن ما ارتكب منكرٌ وإلاّ إذ لم يكن يعلم بذلك فلا يجب الأمر والنهي، وطبعا هذا لا يعني أن الجهل مبرر لسقوط التكليف بهما، فيكون الجاهل بموارد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معذوراً، بل يجب عليه أن يتعلم موارده ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

الشرط الثاني: أن يُحتمل تأثير الأمر أو النهي في المكلفين بمعنى أنه لو دعاهم إلى المعروف يحتمل قبولهم، وإذا نهاهم عن المنكر يحتمل ارتداعهم.

الشرط الثالث: إصرار العاصي على الاستمرار في عصيانه وتمرده وتجرئه على ربه، أما لو رجع عن عصيانه وتاب، فيسقط.

الشرط الرابع: أن لا يترتب على إنكاره مفسدة راجعة عليه أو على مجتمعه، فلو

أحرز أنه لا يترتب عليهما أي مفسدة فيجبان.[٤٢١]

ولمّا استجمعت الشرائط عند أبي عبد الله الحسين عليه السلام، ورأى الإمام الظلم والفساد وتدهور الأمة الإسلامية، وابتعادها السحيق عن مبادئها وكمالها قام بثورته الإصلاحية ضد الطاغية يزيد بن معاوية.

مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

هناك مراتب للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يجوز التخطي من مرتبة إلى أخرى إذا علم بحصول المطلوب وأن المكلف اتعظ بها وارتدع.

المرتبة الأولى: أن يقوم الآمر بالمعروف أو الناهي عن المنكر بعمل يظهر من خلاله انزعاجه القلبي وأنه لا يرضى من هذا العمل، وهذا ما يسمى بالإنكار القلبي قال الإمام الصادق عليه السلام: «حسب المؤمن عزاً إذا رأى منكرا أن يعلم الله من قلبه إنكاره»[٤٢٢].

وعن علي عليه السلام قال: «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله أن نلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهرة»[٤٢٣].

المرتبة الثانية: أن يأمر باللسان وينهى به، فإذا علم أنه لا ينفع العاصي القيام بعمل يظهر من خلاله الإنكار القلبي ينتقل إلى التصريح باللسان فيعرِّف العاصي من خلال القول أن ما يقوم به منكر، أو ترك معروف ولكن ينبغي متابعة الحكمة في ذلك

---

(٤٢١) تحرير الوسيلة للإمام الخميني قدس سره ١: ٤٢٠-٤٢٩.

(٤٢٢) الكافي ٥: ٥٩/ ١٠.

(٤٢٣) الكافي ٥: ٦٠/ ١.

والأساليب المثيرة والمؤثّرة على قلوب العصاة حتى لا يؤدي إلى إصراره أكثر على المنكر، وكم رأينا إصرار المتمردين، لسوء أسلوب الآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر.

المرتبة الثالثة: الإنكار باليد، فإذا لم يفلح الإنكار القلبي واللساني يتحول بعد ذلك الوجوب إلى الإنكار باليد، فيأمر وينهى ولو استلزم ذلك الضرب والقتال، وقيام الحروب.[٤٢٤]

وإذا ترك المكلف هذه المراتب فلا خير فيه أبداً، قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «من ترك إنكار المنكر بقلبه ويده ولسانه؛ فهو ميت بين الأحياء»[٤٢٥].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[٤٢٦].

---

(٤٢٤) تحرير الوسيلة ١: ٤٢٩-٤٣٤.

(٤٢٥) تهذيب الأحكام ٦: ١٨١/ ٣٧٤.

(٤٢٦) الترغيب والترهيب ٣: ٢٢٣/ ١.

وقد استعمل الحسين عليه السلام مع حكومة الطاغية يزيد بن معاوية وجلاوزته هذه المراتب، فكان منكرا لأعمالهم وتصرفاتهم وظلمهم بقلبه، ثم أخذ ينهاهم عن المنكر بلسانه، وكم خطب من الخطب هو وآله وأصحابه في جيش عمر بن سعد ليرتدعوا عن منكرهم وعن إقدامهم على سفك دماء العترة الطاهرة، ولما لم يجد إلى ذلك سبيلاً، سلّ سيفه وأخذ يقاتلهم.

حبيب النجار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

يروى أنه أرسل الله تعالى إلى أنطاكية ثلاثة رسل يدعون الناس لعبادة الواحد الأحد وخلع عبادة الأصنام إلا أن القوم أبوا واستكبروا بحجة أن الله لا يبعث بشرا كسائر الناس نبيا، وقد بالغ الرسل في دعوة قومهم إلى الله، غير أن أصحاب أنطاكية هددوهم بالقتل إن استمروا في دعوتهم، وكان رجلا يدعى حبيب النجار يعيش في أطراف أنطاكية كان قد آمن وثبت عظم إيمانه، فسمع عن اضطرابات وقعت في المدينة فجاءها مسرعا يدعو قومه إلى الإيمان بالله وينهاهم عن عبادة الأصنام ويحذرهم من العقاب الوخيم الذي ينتظرهم لو استمروا في عنادهم وتعنتهم وإصرارهم على الكفر، ولما كانت دعوته ذات طابع مؤثر ومنسجم مع فطرة الله تعالى، خاف قومه من تأثيره فهجموا عليه حتى وطؤه بأرجلهم، فقضى نحبه شهيدا في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد أنبأنا الله تعالى عن حاله بقوله: ﴿وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۞ اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ ۞ وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ ۞ إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ۞ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ

فَاسْمَعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[٤٢٧].

مؤمن آل فرعون والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

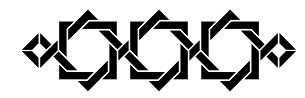
يروى أن رجلا من آل فرعون، ابن عمه أو ابن خاله، ويسمى حزقيل، كان قد آمن بموسى عليه السلام وكتم إيمانه، واستمر يكتم إيمانه إلى أن وجد القوم مصممين على قتل موسى، فأظهر إيمانه وأخذ يدعو قومه إلى عبادة الله تعالى وخلع عبادة الفراعنة، وأمر قومه بالمعروف ونهاهم عن المنكر، ووصل أمر دعوته إلى أن يجادل فرعون نفسه ويستطيع بحكمته وذكائه أن يدحض جميع دعوات فرعون حتى لان لكلامه جمع من حاشية فرعون ويقول الله في عرض هذه القصة ﴿وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جاءَنا قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلاَّ ما أَرى وَما أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشادِ * وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ * وَيا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ﴾[٤٢٨].

---

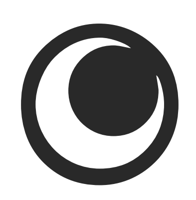
(٤٢٧) يس: ١٩-٢٧.

(٤٢٨) غافر: ٢٨-٣٣.

وهكذا كان دور الحسين، فلقد كان يخاف على قومه يوم التناد، ولذلك خرج على حكومة يزيد لأجل هداية الأمة وإيقاظها من سباتها، غير أن الطواغيت وفراعنة العصر حاربوه إلى أن قتلوه هو وأهل بيته وأصحابه.

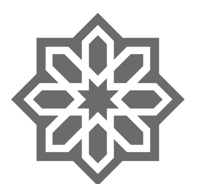


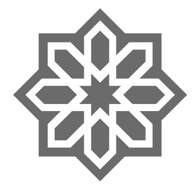


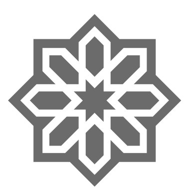


الليلة السابعة عشر

غزوة بدر الكبرى









- المعركة المصيرية في خضمها
- نتائج غزوة بدر
- دروس وعبر من غزوة بدر
- بين بدر وكربلاء



الليلة السابعة عشر

غزوة بدر الكبرى

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ ۞ بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۞ وَما جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ

آل عمران: ١٢٣-١٢٦

۞ ۞ ۞

في شهر رمضان المبارك، في السنة الثانية من الهجرة كانت واقعة بدر الكبرى، وكان النبي ﷺ قد أرسل قبلها عدّة سرايا، إلاّ أنه لم يقع فيها قتال، وكان سببها أن النبي ﷺ قد أطلعه الغيب على خروج قافلة تجارية لقريش بقيادة أبي سفيان، فيها أموال كثيرة، قدرت بخمسين ألف دينار، فخرج النبي ﷺ ومن معه لأخذها عوض أموالهم التي سلبت

في مكة، غير أن هذه القافلة سرعان ما أفلتت منهم إلى الشام، فأخذ النبي ﷺ يترقب رجوعها حتى إذا علم بها انتدب الناس للخروج إليها وسلبها، ولكن تثاقل الكثير منهم، ودار بينهم نقاش وجدال، وكلام واختلاف، وكانت حجة البعض خوف الكرة عليهم من قريش حيث لا تتركهم إلاّ وتحاول الانتقام من المسلمين لهذا الإجراء الذي يضرب بمصالحهم، وقد حكى الله تعالى ما جرى من تخوفهم فقال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۞ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾[٤٢٩]، نعم لقد كرهوا ذلك لعلمهم بأن قريشاً لن تسكت على أمر خطير كهذا.

وعلى كل حال خرج المسلمون يريدون العير، وقد علم أبو سفيان بالأمر فأرسل رجلاً إلى قريش يستنفرهم لنجاة العير.[٤٣٠] فوصل بعد ثلاثة أيام وهو يناديهم: يا آل غالب... يا آل غالب.. اللطيمة اللطيمة[٤٣١]، فلما أخبرهم الخبر تجهزت قريش لحرب النبي ﷺ وما بقي أحد من عظمائها إلاّ أخرج مالاً لتجهيز الجيش، كما أنهم أمروا بهدم دار من لم يخرج، فلم يتخلّف رجل إلاّ أخرج مكانه رجلاً[٤٣٢]، فخرجت قريش بألف فارس أو يزيدون، وأخرجوا معهم المغنيات والدفوف والطبول والخمر[٤٣٣]، فلما وصل خبرهم إلى النبي ﷺ استشار أصحابه بأمر حربهم، وكان قد قرب بدر، فقام أبو بكر،

---

(٤٢٩) الأنفال: ٥-٦.

(٤٣٠) الكامل في التاريخ ٢: ١١٦، عن الطبري عن ابن هشام عن ابن إسحاق بسنده.

(٤٣١) السيرة الحلبية ٢: ١٤٣-١٤٤.

(٤٣٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٢٦١، عن ابن إسحاق بسنده.

(٤٣٣) المصادر السابقة.

فقال: يا رسول الله، إنها قريش وخيلاؤها، ما آمنت منذ كفرت، وما ذلت منذ عزت، ولم تخرج على هيئة الحرب، فقال لـه رسول الله ﷺ إجلس، فجلس، فقال ﷺ: أشيروا عليّ، فقام عمر وتكلم بكلام أبي بكر، فقال له: إجلس، فجلس. ثم قام المقداد، فقال يا رسول الله، إنها قريش وخيلاؤها، وقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به حق من عند الله، والله لو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا وشوك الهراس لخضناه معك، ولا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ها هنا قاعدون، ولكنا نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون، والله لنقاتلن عن يمينك وشمالك، ومن بين يديك، ولو خضت بحراً لخضناه معك، ولو ذهبت بنا برك الغماد لتبعناك.

فأشرق وجه النبي ﷺ ودعا لـه وسر لذلك وضحك.

ثم قال أشيروا عليّ ـ وإنما يريد الأنصار لأنهم أكثر الناس ـ فقام سعد بن معاذ فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، كأنك أردتنا، قال: نعم، فقال: فلعلك قد خرجت على أمر قد أمرت بغيره؟ قال: نعم، قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إنّا قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به حق من عند الله، فمرنا بما شئت... والله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضناه معك، ولعل الله يريك ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله.[٤٣٤]

فسرّ النبي ﷺ، وأمرهم بالمسير وأخبرهم بأن الله تعالى قد وعده إحدى الطائفتين، النفير أو العير، وفي ذلك قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ

(٤٣٤) تاريخ الخميس ١: ٣٧٣، السيرة الحلبية ٢: ١٥٠.

وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ﴾(٤٣٥) وأن الله لن يخلف وعده.

ثم قال: والله لكأني أنظر إلى مصرع أبي جهل ابن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة و... فساروا حتى نزلوا بدراً إلاّ أن المشركين سبقوهم إلى بدر فنزلوا في العدوة القصوى؛ في جانب الوادي مما يلي مكة، حيث الماء، وكانت العير خلف المشركين ـ وقد سلمت، لأن أبا سفيان قد سلك بها طريق البحر وابتعد عن المدينة وعن سير المسلمين، وكان محل نزولهم صلباً، ونزل المسلمون في العدوة الدنيا، أي جانب الوادي مما يلي المدينة، حيث لا ماء، وحيث الأرض رخوة، لا تستقر عليها قدم، فباتوا إلى الليل، واشتد العطش بالمسلمين، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «مَن منكم يمض في هذه الليلة إلى البئر فيستسقي لنا؟» فصمتوا ولم يتقدم منهم أحدٌ على ذلك، فأخذ أمير المؤمنين ؑ قربةً وانطلق، وكانت ليلة باردة ظلماء، ذات رياح وهواء حتى ورد البئر، فلم يجد دلواً يستسقي به فنزل بنفسه في البئر وملأ القربة، وأخذ في الرجوع، فعصفت عاصفة، فجلس حتى سكنت، ثم قام يسير وإذا بعاصفة ثانية فجلس حتى هدأت، ثم قام يسير، وإذا بعاصفة ثالثة فجلس حتى زالت، ثم قام وسلك طريقه حتى أتى النبي ﷺ: فسأله النبي ﷺ عن بُطئه فأخبره بالعواصف الثلاث، فقال النبي ﷺ: وهل علمت ما هي تلك العواصف يا عليّ فقال: لا: فقال العاصفة الأولى جبرائيل ؑ، ومعه ألفٌ من الملائكة سلم عليك وسلموا، والثانية كانت ميكائيل ومعه ألف ملك سلم عليك وسلموا، والثالثة كانت إسرافيل ومعه ألف ملك سلم عليك وسلموا وكلهم هبطوا مدداً لنا.(٤٣٦)

---

(٤٣٥) الأنفال: ٧.

(٤٣٦) بحار الأنوار ١٩: ٣٠٥ ح٤٨.

وإلى هذا المعنى يشير مَن قال: كانت لعليٍ ثلاثة آلاف منقبة في ليلة واحدة.

وفي هذا نزلت الآية الكريمة: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾[٤٣٧].

ولما أصبح يوم الواقعة رأى المسلمون كثرة المشركين، فخافوا وتضرعوا إلى الله، ولمّا نظر النبي صلى الله عليه وآله إلى كثرة المشركين، وقلة المسلمين استقبل القبلة وقال: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض.[٤٣٨] فنزل قوله تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۞ وَما جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾[٤٣٩].

ثم ألقى الله النعاس على المسلمين فناموا ليهدئ من روعهم وخوفهم، وليتمكنوا في الصباح من مواجهة المشركين بقوة وثبات، وحتى لا تتضخم الأمور في الليل البهيم فيأخذهم الاضطراب ويعصف بهم التخمين ويتملكهم الخوف. قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ وَلِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدامَ﴾[٤٤٠].

وفي مقابل ذلك فقد ألقى الله سبحانه في قلوب المشركين الرعب والخوف، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ

---

(٤٣٧) آل عمران: ١٢٤.

(٤٣٨) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٢٢١-٢٧٢، عن ابن اسحاق بسنده.

(٤٣٩) الأنفال: ٩-١٠.

(٤٤٠) الأنفال: ١١.

كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[٤٤١].

ولما أصبح رسول الله ﷺ عبأ أصحابه، وكانت رايته مع أمير المؤمنين ﵇، ثم قال لأصحابه: غضوا أبصاركم ولا تبدؤوهم بالقتال، ولا يتكلمن أحد، فسكت المسلمون، وغضوا أبصارهم امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ، فأثّر هذا الموقف في قريش بشكل واضح حتى أن أحدهم حين جال بفرسه حول المسلمين؛ ليعرف إن كان لهم مدد أو كمين، رجع للمشركين، وقال: «ما لهم كمين ولا مدد، ولكن نواضح يثرب حملت الموت الناقع، أما ترونهم خرساً لا يتكلمون؟! يتلمظون تلمظ الأفاعي، ما لهم ملجأ إلاّ سيوفهم؟! وما أراهم يولون حتى يقتلوا، ولا يقتلوا حتى يقتل بعددهم»، فشتمه أبو جهل، لأنه يجبن أصحابه، ثم نادى أبو جهل بأصحابه: «ما هم إلاّ أكلة رأس، لو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم أخذاً باليد».

ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى المشركين يقول لهم: «معاشر قريش إني أكره أن أبدأكم بقتال، فخلوني والعرب وارجعوا، فإن أك صادقاً فأنتم أعلى بي عيناً، وإن أك كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمري.

إلاّ أن أبا جهل لم يرض ذلك منه، وأبى أن يرجع إلاّ بقتال.[٤٤٢]

المعركة المصيرية في خضمها

كان أول من برز للقتال عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد، فبرز إليهم ثلاثة من الأنصار،

---

(٤٤١) الأنفال: ١٢.

(٤٤٢) السيرة النبوية لابن هشام.

فنادى عتبة أو شيبة: يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فندب إليهم عبيدة بن الحارث وحمزة وعلياً قائلاً: «قم يا عبيدة، قم يا عم، قم يا علي، فاطلبوا بحقكم الذي جعله الله لكم... »[٤٤٣]

فتبارز الثلاثة، وقتل علي الوليد، وجاء فوجد حمزة معتنقاً شيبة بعد أن تثلمت في أيديهما السيوف، فقال: يا عم طأطئ رأسك، وكان حمزة طويلاً، فأدخل رأسه في صدر شيبة، فاعترضه علي بالسيف فطيّر نصف رأس شيبة، وكان عتبة قد قطع رجل عبيدة، وفلق عبيدة هامته، فجاء علي فأجهز على عتبة، وعلى هذا فيكون علي عليه السلام قد شرك في قتل الاثنين الآخرين أيضاً.

وهذا ما أكدته المصادر الكثيرة، ومما يدل على ذلك أبيات قالتها هند في مصيبتها بأبيها وأخيها وعمها:

ما كان لي عن عتبة من صبر ... أبي وعمي وشقيق صدري

أخي الذي كان كضوء بدر ... بهم كسرت يا علي ظهري[٤٤٤]

وقد كتب الإمام عليه السلام في أيام خلافته إلى معاوية: «فأنا أبو الحسن حقاً، قاتل جدك عتبة، وعمك شيبة، وخالك الوليد، وأخيك حنظلة الذين سفك الله دماءهم على يدي في يوم بدر، وذلك السيف معي وبذلك القلب ألقى عدوي»[٤٤٥].

وبدأت المعركة بعد المبارزة الفردية، فأخذ النبي صلى الله عليه وآله كفاً من الحصباء فرماها في وجوه

---

(٤٤٣) المناقب لابن شهر آشوب ٣: ١١٩.

(٤٤٤) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٣: ٢٨٣.

(٤٤٥) الغدير ١٠: ١٥١.

المشركين فما بقي فرد منهم إلاّ امتلأت عينه منه، ثم أخذ المسلمون يقتّلون ويأسرون، وقد قُتل زعماؤهم وقُتل أبو جهل وأمية وأضرابهما... فانهزم الجمع وولّوا الدبر، والحمد لله رب العالمين.

نتائج غزوة البدر

قتل المسلمون في بدر سبعين، وأسروا مثلهم، ولكن بعد ذلك أطلقوا أغلبهم بالفدية، واستشهد من المسلمين تسعة، وقيل أحد عشر وقيل أربعة عشر؛ ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، كما أنه لم يؤسر من المسلمين أحد، كما أنهم قد غنموا من المشركين مئة وخمسين بعيراً، وعشرة أفراس، وقيل ثلاثين، ومتاعاً وسلاحاً وأنطاعاً وثياباً وأدماً كثيراً.[٤٤٦]

وكان لعلي عليه السلام الدور الأساس في هذه المعركة، حيث كان نصف القتلى تقريباً بسيفه، وقد ذكر الواقدي أسماء تسعة وأربعين رجلاً ممن قتل في بدر من المشركين، ونصّ على أنّ من قتله منهم أمير المؤمنين علي عليه السلام وشرك في قتله اثنان وعشرون رجلاً.[٤٤٧]

وقال بعضهم إنّ أهل الغزوات أجمعوا على أنّ جملة من قتل يوم بدر سبعون رجلاً قتل علي منهم إحدى وعشرين نسمة باتفاق الناقلين، وأربعة شاركه فيهم غيره، وثمانية مختلف فيهم.[٤٤٨]

---

(٤٤٦) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢: ١١٨، عن الطبري عن ابن هشام عن ابن إسحاق.

(٤٤٧) مغازي الواقدي ١: ١٥٢، أنساب الأشراف ١: ٢٩٦.

(٤٤٨) نور الأبصار: ٨٦.

وبسبب ذلك صار علي عليه السلام هدفاً لشعراء قريش يحرّضون على قتله.[٤٤٩]

دروس وعبر من غزوة بدر

لقد حملت واقعة بدر الكثير من الدروس والعبر للمسلمين جميعاً على مرّ التاريخ، فكل من يقرأ صفحات بدر، وما بذله المسلمون، في سبيل الله تعالى، والقيادة الحكيمة للنبي صلى الله عليه وآله يستحصل حصيلة كبيرة من الفوائد والدروس، ونحن بدورنا سننقل واحداً منها:

نتائج الاعتماد على الله تعالى: من الواضح جداً أن المسلمين كانوا يشكلون في عددهم وعتادهم من الناحية العسكرية الجانب الضعيف في هذه المعركة، إذ القليل منهم كان يمتلك دابة، من ناقة أو فرس أو غير ذلك، بل هناك من لا يملك حتى سيفاً أو رمحاً ليقاتل به، فخرج مع النبي بعصاه أو جذع نخل، ومن الجانب الاستراتيجي أيضاً جانبهم يمثّل تمام الضعف، إذ كان المشركون في العدوة العليا، أي في المكان المرتفع الذي يطل على جميع المنخفضات حول بدر، وكان موقع المسلمين العدوة الدنيا، أي في الأسفل، بحيث كان موقع المسلمين تحت مرمى نبال المشركين وكان المشركون قد سيطروا على ماء الآبار، بينما هو خارج عن اختيار المسلمين، كل ذلك ينبئ عن فشل المسلمين في حربهم، وخسارتهم المحققة، ولهذا كان يقول أبو جهل: ما هي إلاّ أكلة رأس، وكذا لما طلب أمية أن يرجعوا دون حرب وقتال، رفض معظمهم لما يرونه من انتصار محقق.

غير أن المسلمين وبسبب الاعتماد المطلق على الله، والعزم على إعلاء كلمته، صغر

(٤٤٩) حلية الأولياء ٩: ١٤٥.

كل ذلك في عيونهم، إذ الله كبير في قلوبهم، وفعلاً ما طلع الفجر إلاّ وتغيرت كل الموازين، فلقد أنزل الله المطر فصلّب أرض المسلمين فثبتت به أقدامهم، وأوحلت أرض المشركين فأصبحت غير مستقرة، لا تستقر عليها الأقدام، وقلّل الله المشركين في أعين المسلمين، كما أدخل الرعب في قلوب المشركين، وهذه الفيوضات هي ما عكسته الآيات التالية:

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾[٤٥٠].

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾[٤٥١].

وهذا درس للمسلمين جميعاً، فإن من يتوكل على الله، ويعتمد في عزائم الأمور عليه تعالى لابد أن ينتصر، ولذا نجد أن ما حدث في بدر حدث في إيران، فمع قلة عتاد المؤمنين، واستضعافهم في الأرض، نصرهم الله على الشاه والقوى العظمى الّتي تدعمه، كل ذلك اعتماداً منهم ومن قائدهم الإمام الخميني قدس سره على الله، كما أن ما حدث في جنوب لبنان تجسيداً واقعياً لمعركة بدر، فمع قلة عدد المؤمنين وبساطة عتادهم نصرهم الله على أعتى قوة في هذا العصر بسبب اعتمادهم وإخلاصهم، وتوكلهم على الله تعالى.

٢ـ خرج للعير فابتلاهم الله بالنفير: من الثابت تاريخياً أن المسلمين لم يتحركوا من المدينة للقتال، بل خرجوا ليسلبوا العير التي تحمل أموال قريش، عوضاً عما سلب منهم

---

(٤٥٠) الأنفال: ٤٢.

(٤٥١) الأنفال: ١١.

في مكة، ولذلك علّل بعضهم عندما استشارهم النبي في الحرب، بعدما علموا بخروج قريش لحربهم: «ولم تخرج على هيئة حرب» فعجباً أن يخرجوا للمال والمتاع، ولكن يحصل خلاف ذلك، فبدل العير يتوجهون إلى النفير، وبدل المال والمغنم القتل وسفك الدماء، وفعلاً هذا محك مهم ليعرف الإنسان نفسه والى أي حدٍ وصل في إيمانه وارتباطه بالله، ومدى انصياعه لإرادة الله ومشيئته، وهذا درس واضح للمسلمين جميعاً، بأن الإنسان دائماً في محور الابتلاء والامتحان فعليه أن يعد الجهوزية بشكل كامل لئلا يفشل ويسقط.

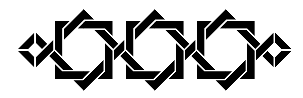
بين بدر وكربلاء

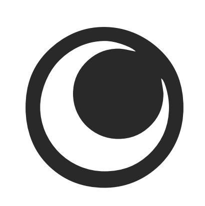
لا شك في أن معركة كربلاء استمرار واضح لمعركة بدر بنظر الحسين عليه السلام وبنظر يزيد، فأراد يزيد من هذه المعركة أن ينتقم من النبي والإسلام، ويثأر لأجداده من بني أمية، ولذا فبعد قتل الحسين عليه السلام اعتبر نفسه منتصراً فقال:

ليت أشياخي ببدر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلوا واستهلوا فرحاً	ثم قالوا يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القوم من ساداتهم	وعدلناه ببدر فاعتدل

كما أن معركة كربلاء كانت بنظر الحسين عليه السلام كذلك، أي استمراراً لمعركة بدر، ولكن باتجاه آخر، فإذا كان منظار يزيد الانتقام والأخذ بالثأر، فكان منظار الحسين عليه السلام الوقوف بوجه الظلم والفساد والانحراف الذي بعث جده المصطفى لمحوه واستئصال شوكته، ومن هنا كان الحسين عليه السلام استمراراً لرسول الله، ومن هنا قال النبي صلى الله عليه وآله:

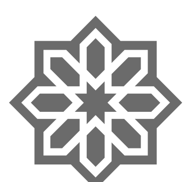
«حسين مني وأنا من حسين»، فلئن حارب النبي ﷺ قريشاً في بدر لأجل كسر فرعنة صناديدها، فقد قاتل الحسين عليه السلام في كربلاء لكسر كبرياء آل أمية وفرعنتهم وتسلطهم على رقاب المسلمين، ولئن حارب النبي ﷺ قريشاً في بدر لقمع الجاهلية الموروثة فقد حارب الحسين عليه السلام في كربلاء ليقمع الجاهلية الموروثة ما بعد الإسلام، وهكذا قدم الحسين عليه السلام كل ما يملك، وكل غالٍ ونفيس في سبيل هذا المبدأ العظيم، حتى توّج تضحياته بتقديم نفسه، والجود بالنفس أقصى غاية الجود، هذه بالثورة الّتي بقيت حية على الدهور تحيي ما مات من الإسلام وتوقظ النفوس بمنهج رباني رصين وحصين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.





الليلة الثامنة عشر

حقوق النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام)

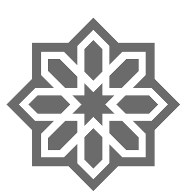




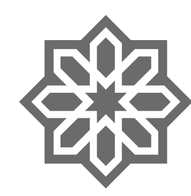
- **معرفة النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام)**
- **مودة النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام)**
- **إطاعة النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام)**



- **الصلاة على النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام)**
- **أداء حق النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته من الخمس**



- **زيارة قبور النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام)**
- **نشر فضائل وعلوم النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام)**



- **ذكر مصائب النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام)**



الليلة الثامنة عشر

حقوق النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام

أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً

النساء: ٥٩

وكان من دعاء الإمام الصادق عليه السلام في زمن الغيبة: «اللهم عرفني نفسك فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف نبيك ، اللهم عرفني نبيك فإنك إن لم تعرفني نبيك لم أعرف حجتك ، اللهم عرفني حجتك فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللتُ عن ديني ، اللّهمّ لا تمتني ميتة جاهلية ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني».

بحار الأنوار ٥٣: ١٨٧، عن أصول الكافي ١: ٣٣٧



يعتبر الإمام الصادق عليه السلام فقيه أهل البيت عليهم السلام، وهو يدعو اللّه بهذا الدعاء الشريف، ويطلب من اللّه أن يوفقه لمعرفته ومعرفة نبيه وحجته، فكيف بنا ونحن أحوج لهذه

المعرفة، وأجدر أن نطلب من الله أن يوفقنا لمعرفته وهي أم المعارف، وبها تحصل كل معرفة وهي حق من حقوق اللّه علينا، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في فضل معرفة الله: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي فَضْلِ مَعْرِفَةِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ مَا مَدُّوا أَعْيُنَهُمْ إِلَى مَا مَتَّعَ اللَّهُ بِهِ الْأَعْدَاءَ مِنْ زَهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ونَعِيمِهَا وكَانَتْ دُنْيَاهُمْ أَقَلَّ عِنْدَهُمْ مِمَّا يَطَئُونَهُ بِأَرْجُلِهِمْ ولَنُعِّمُوا بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ جَلَّ وعَزَّ وتَلَذَّذُوا بِهَا تَلَذُّذَ مَنْ لَمْ يَزَلْ فِي رَوْضَاتِ الْجِنَانِ مَعَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ إِنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ آنِسٌ مِنْ كُلِّ وَحْشَةٍ وصَاحِبٌ مِنْ كُلِّ وَحْدَةٍ ونُورٌ مِنْ كُلِّ ظُلْمَةٍ وقُوَّةٌ مِنْ كُلِّ ضَعْفٍ وشِفَاءٌ مِنْ كُلِّ سُقْمٍ»(٤٥٢).

ومن ثم يجب على كل مسلم أن يسعى بقدر الامكان لتحصيل معرفة النبي والحجج من بعده، فإذا حصل على هذه المعرفة وسار على ضوئها، يصبح على بصيرة من دينه وشريعته ويصلح دنياه وآخرته، وإذا غفل عن هذه المعرفة، ولم يهتدِ ضلّ عن دينه، ويموت ميتة جاهلية، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»(٤٥٣)

وقد أشعر الحديث بضرورة وجود الإمام ووجوب معرفته مدى الحياة، لأنَّ إضافة الإمام إلى الزمان تستلزم استمرارية الإمامة وتجديدها عبر الأزمنة والعصور إلى يوم القيامة.

ولا شك أن من المحال أن نحصل على المعرفة الحقيقية الكاملة للّه وللنبي صلى الله عليه وآله وأهل

(٤٥٢) الكافي ٨: ٢٤٧/ ٣٤٧.

(٤٥٣) أصول الكافي ٣٣٧: ١ ح ٥ دعاء الإمام الصادق عليه السلام علّمه لزرارة، وهو دعاء زمن الغيبة يستحب قراءته على الدوام بعد فريضة العصر يوم الجمعة.

بيته عليه السلام، بحسب ما روي عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله قوله لأمير المؤمنين عليه السلام: «يا علي لا يعرف اللّه إلاّ أنا وأنت، ولا يعرفني إلاّ اللّه وأنت، ولا يعرفك إلاّ اللّه وأنا»، فالرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليه السلام الذين خلقهم اللّه من نور واحد، وأمرهم صعب مستصعب لا يستطع أحد أن يعرفهم بالمعرفة الحقيقية الكاملة إلا اللّه ورسوله، ونحن من باب ما لا يدرك كله لا يترك كله، نتعرف عليهم من خلال مراجعة القرآن الكريم وأحاديث الرّسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، فإنَّ ذلك أحسن الطريق وأسلمه لمعرفتهم عليهم السلام، فنرى كيف يعرّف القرآن الرّسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام. وكيف يعرّف الرّسول وأهل بيته، بعضهم البعض، وهذه المعرفة بهذا المقدار هي من أهم حقوق النبي وأهل بيته على المسلمين.

معرفة النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام

نزلت آيات كثيرة تُعرِّف بالنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته، وتبين فضلهم ومقامهم، ومنزلتهم، وتثني عليهم وتوّجه المسلمين نحوهم، وتدعوهم بالإقتداء بهم والمودة لهم، ويجب على جميع المسلمين مراجعة تلك الآيات لكي يتعرفوا على النبي وأهل بيته عليهم السلام ويؤدّوا حقوقهم التي فرض اللّه لهم، وها نحن للاختصار نكتفي بذكر آية التطهير والأحاديث المرتبطة بها في هذا الباب.

قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[٤٥٤].

(٤٥٤) الأحزاب: ٣٣.

لقد تظافر في كتب التفاسير والرواية أنَّ المقصود بأهل البيت عليهم السلام في هذه الآية: علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، ومن خلال حديث الكساء وبمقتضى التأمل في الأحاديث الأخرى التي وردت في شأن نزول آية التطهير، نعلم أنَّ الآية نزلت على النبي صلى الله عليه وآله في بيت أم سلمة، حيث أنه لمّا نزلت جمع رسول اللّه صلى الله عليه وآله علياً وفاطمة والحسن الحسين عليهم السلام، ثم أدار عليهم الكساء، وقال: «هؤلاء أهل بيتي، اللهم اذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً»، وهمت أم سلمة أن تدخل معهم تحت الكساء، فمنعها النبي صلى الله عليه وآله، وقال لها مرتين أو ثلاث مرات إنّك على خير، واستأذن بعد ذلك جبرائيل عليه السلام ليدخل معهم تحت الكساء، فأذن لـه الرّسول صلى الله عليه وآله فدخل.

وقد أقرّت عائشة وسائر نساء النبي صلى الله عليه وآله كما اعترف الكثير من الصحابة بهذه الحقيقة، ونقلها الكثير من الرواة والمحدثين المفسرين.

وجاء في روايات متعددة أنَّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله بعد نزول آية التطهير والآية الكريمة: ﴿وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوة وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[٤٥٥]، كان يمرّ على بيت فاطمة عليها السلام ستة أشهر ـ على بعض الروايات ـ كلما خرج إلى صلاة الفجر، ويقول: «الصلاة يا أهل البيت.... إنما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهير».

وما حديث الكساء ومواظبة الرسول صلى الله عليه وآله على الوقوف على باب علي وفاطمة عليهم السلام شهوراً عديدة ومناداته صلى الله عليه وآله لهم عند الفجر، يدعوهم إلى الصلاة، ويسمّيهم أهل البيت، إلاّ ليعّرف شخصيات أهل البيت عليهم السلام ويفسّر للمسلمين آية التطهير، لكي لا

(٤٥٥) طه: ١٣٢.

يشتبه عليهم أن الآية تشمل الآخرين، أو تشمل نساء النبي ﷺ بحسب السياق الموجود فيها، كما استدل بذلك إخواننا أهل السنة، وإن كانت الآية واضحة الدلالة معنى ولفظاً على أن المراد بأهل البيت هم فقط فاطمة وأبيها وبعلها وأبنيها الحسن والحسين عليهم السلام، لأنَّ الآية إنّما تدلّ على الطهارة المطلقة والعصمة من الذنوب، وليس في المسلمين من يشهد لـه القرآن أو التاريخ بالطهارة المطلقة والعصمة من الذنوب والآثام بعد الأنبياء والمرسلين سوى أهل البيت عليهم السلام بهذا المعنى والمصاديق.

ثم إنه وإن كان شأن نزول آية التطهير أصحاب الكساء الخمس إلاّ أنَّ الآية تشمل سائر الأئمة الاثني عشر عليهم السلام أيضاً وذلك لتطبيق الأئمة لها على ذواتهم المقدسة، وأيضاً لأنهم من أهل البيت، مطهرون من الرجس، معصومون من الذنب وقد وردت أحاديث عديدة عن النبي ﷺ تبين منزلتهم عليهم السلام، وكونهم الأئمة الأثنى عشر من أهل البيت، فعن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام: قال رسول اللّه ﷺ: إنّي مخلّف فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي: كتاب اللّه، وعترتي أهل بيتي، فإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض. فقام إليه جابر بن عبد اللّه الأنصاري وقال: يا رسول اللّه من عترتك؟ قال: علي والحسن والحسين والأئمة من ولد الحسين إلى يوم القيامة.[٤٥٦]

هكذا يتحدث القرآن والنبي ﷺ عن أهل البيت عليهم السلام بحيث يحددان شخصياتهم، الطاهرة المعصومة، ليتضح للمسلمين مقامهم ومكانتهم في الإسلام، ليُتخذوا قدوة وقادة للأمة، بعد رسول اللّه ﷺ في جميع المجالات.

(٤٥٦) كمال الدين: ٢٤٤.

مودة النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام

اجتمع في النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام كل ما يفرض المحبة، ويدعوا إلى الإعجاب، من الصفات والفضائل والخصال الحميدة والكمالات الإنسانية، ولا أظن أنَّ أحداً من المسلمين يجهل ذلك أو يشك فيه، وقد وردت آيات عديدة وأخبار كثيرة تصف النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته، وتدعوا إلى مودتهم وتعتبر ذلك أساس الإيمان والإسلام، وقد فرض اللّه تلك المودة في كتابه، وجعلها أجراً لرسالة النبي صلى الله عليه وآله على أمته، فقال: ﴿قُل لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيهِ أَجْراً إلاّ الْمَوَدَّة في الْقُرْبَى﴾(٤٥٧) وقد أجمع علماء الإمامية ووافقهم الكثير من المفسرين والمحدثين من علماء أهل السنة(٤٥٨)، أن المراد بالقربى في الآية الكريمة، أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وهم فاطمة عليها السلام وعلي أولادهما الأئمة الإثنا عشر عليهم السلام، فمحبتهم ومودتهم والإحسان إليهم هو فرض وحق من حقوقهم على جميع المسلمين، وقد أكدت روايات الفريقين على ذلك، ومنها:

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «أساس الإسلام حبي وحبّ أهل بيتي»(٤٥٩).

وقال صلى الله عليه وآله: «لا يتم الإيمان إلاّ بمحبتنا أهل البيت عليهم السلام»(٤٦٠).

وقال صلى الله عليه وآله: «أول ما يسأل عنه العبد حبنّا أهل البيت عليهم السلام»(٤٦١).

---

(٤٥٧) الشورى: ٢٣.

(٤٥٨) كالزمخشري والرازي وأحمد بن حنبل وغيرهم.

(٤٥٩) كنزل العمال ١٠٥: ١٢ ح ٣٤٢٠٦.

(٤٦٠) كفاية الأثر: ١١٠.

(٤٦١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٦٢.

وقال صلى الله عليه وآله: «أدّبوا أولادكم على حبي وحبّ أهل بيتي والقرآن»[٤٦٢].

وقال صلى الله عليه وآله: «من رزقه الله حب الأئمة من أهل بيتي فقد أصاب خير الدنيا والآخرة»[٤٦٣].

وقال صلى الله عليه وآله: «من مات على حب آل محمد مات شهيداً»[٤٦٤].

وكل ما ورد من آيات وأحاديث في لزوم مودة أهل البيت ومحبتهم، لا يعني الارتباط العاطفي والحب القلبي فقط، وإن كان هذا حسناً ويؤجر ويثاب عليه الإنسان إلاّ أن الهدف والغاية الأصلية من الدعوة إلى مودة القربى، والتأكيد على محبة أهل البيت عليهم السلام من قبل الرّسول صلى الله عليه وآله هو معرفة قدرهم ومنزلتهم ثم الإقتداء بهم، والسير على منهجهم، والالتزام بمدرستهم ومذهبهم وإتباعهم والإقتداء بهم في كل الأمور، كما قال تبارك وتعالى: «قل إن كنتم تحبون اللّه فاتبعوني يحببكم اللّه»[٤٦٥].

إطاعة النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام

فرض اللّه طاعته وطاعة النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام في آيات عديدة منها قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِى الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٤٦٦]، فلقد قرن اللّه طاعة أولي الأمر، وهم الأئمة من أهل البيت عليهم السلام بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وآله، وهذا ما يشعر

(٤٦٢) احقاق الحق: ١٨: ٤٩٨.

(٤٦٣) الخصال: ١: ٥١٥.

(٤٦٤) الكشاف ٣: ٤٠٣.

(٤٦٥) آل عمران: ٣١.

(٤٦٦) النساء: ٥٩.

بخلافتهم الحقة عن رسول اللّه ﷺ، وعصمتهم المطلقة فمن الخطأ الكبير تأويل أولي الأمر وحملها على سائر أمراء المسلمين، لمخالفة الكثيرين منهم للّه تعالى ورسوله وانحرافهم عن الحق، قال الإمام الصادق عليه السلام: «وصل اللّه طاعة ولي أمره بطاعة رسوله، وطاعة رسوله بطاعته، فمن ترك طاعة ولاة الأمر لم يطع اللّه ولا رسوله»(٤٦٧).

الصلاة على النبي ﷺ وعلى أهل بيته عليهم السلام

درج الناس على إجلال العظماء وتوقيرهم، تكريماً لهم وتقديراً لجهودهم ومساعيهم في سبيل أممهم، ومن هنا كان السلام الجمهوري والتحية العسكرية فرضاً على الجنود.

فلا غرابة أن تكون حقوق النبي ﷺ على أمته – وهو سيد الخلق وأشرفهم جميعاً– تعظيمه والصلاة عليه، عند ذكر اسمه المبارك أو سماعه، وقد أفتى علماء الإمامية والمذاهب الأخرى بوجوب الصلاة على محمد وآل محمد في تشهد الصلاة.

وقد صرحت الآية الكريمة عن بالغ تكريم اللّه تعالى وملائكته للنبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وملايكته ويُصَلُّونَ عَلَى النبى﴾، ثم وجهت الآية الخطاب إلى المؤمنين بضرورة تعظيمه والصلاة عليه: ﴿يأَيُّهَا الَّذِينَ امنوا صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾(٤٦٨)، فالصلاة من اللّه عز وجل رحمة، ومن الملائكة تزكية، ومن الناس دعاء وأما قوله تعالى: ﴿وسلموا تسليماً﴾، يعنى أطيعوه في كل الأمور وسلموها إليه.

---

(٤٦٧) سفينة البحار ٢: ٦٩١.

(٤٦٨) الأحزاب: ٥٦.

وجاءت نصوص النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام توضح كيفية الصلاة عليه، والأجر والثواب المترتب على ذلك، فمن تلك النصوص قوله ﷺ: لا تصلوا عليّ الصلاة البتراء فقالوا: وما الصلاة البتراء؟ قال: تقولون «(اللهم صل على محمد) وتمسكون، بل قولوا: (اللهم صل على محمد وآل محمد)»، وفي روية أخرى قال ﷺ: «قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنّك حميد مجيد»[(٤٦٩)].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «من صلى على محمد وآل محمد عشراً صلى اللّه عليه وملائكته مئة مرة، ومن صلى على محمد وآل محمد مئة صلى اللّه عليه وملائكة ألفاً»[(٤٧٠)].

وقال عليه السلام: «كل دعاء يُدعى الله تعالى به، محجوب عن السماء حتى يصلي على محمد وآل محمد عليهم السلام»[(٤٧١)].

وقال الشافعي:

يا آل بيت رسول اللّه حبكم فرض من اللّه في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم القدر أنكم من لم يُصلِّ عليكم لا صلاة له[(٤٧٢)]

---

(٤٦٩) فضائل الخمسة من الصحاح الستة، والصواعق المحرقة: ٨٧.
(٤٧٠) الوافي ٢٢٨: ٥.
(٤٧١) بحار الأنوار ٢٧: ٢٦ ح١٥.
(٤٧٢) الصواعق المحرقة: ١٤٨.

أداء حق النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام من الخمس

قال تعالى: ﴿وَا عْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شيءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وولِلرَّسُولِ ولذى الْقُرْبَى واليتامى وَالْمَسَكِين ِوَابْنِ السَّبِيل﴾[٤٧٣].

مفهوم الغنيمة عند أهل السنة مختص بغنائم الحرب، وعند الشيعة الإمامية عام يطلق على جميع الفوائد والأرباح، والبحث عن أدلة الطرفين يخرج هذا المقال عن موضوعه الأخلاقي، فلتراجع المصادر الفقهية.

والغنيمة سواء كانت من الحرب فقط، أو من جميع المكاسب، فإن خمسها يقسّم إلى ستة أقسام، لله «عز وجل» ولرسوله ولذي القربى، وهم قرابة الرسول صلى الله عليه وآله، وما كان لله وللنبي فهو للإمام القائم مقامه، فنصف الخمس في هذه العصور لإمام العصر عجل الله فرجه الشريف سهمان لـه بالإمامة، وسهم مقسوم لـه من اللّه وهو سهم ذي القربى، والسهام الثلاثة الأخرى التي يعبر عنها: بسهم السادة، سهم لأيتامهم وسهم لمساكينهم وسهم لابناء سبيلهم، وهم بنو هاشم، وقد فرض اللّه الخمس لآل محمد وذراريهم، تكريماً للنبي صلى الله عليه وآله، وتقديراً لجهاده وجهده وتضحياته في سبيل الإسلام والأمة الإسلامية، وتنزيهاً لـه ولهم عن الصدقة والزكاة، التي هي من أوساخ أيدى الناس، كما جاء هذا المعنى في كثير من الروايات.

والخمس، حق طبيعي يحكم العقل بحسنه، ويدرك الوجدان أثره، كما يفرضه الشرع. ومما يقربه إلى الاذهان ما درجت عليه الدول من تكريم موظفيها فتمنحهم راتباً تقاعدياً

---

(٤٧٣) الأنفال: ٤١.

يتقاضوه عند كبر سنهم، أو جائزة جزيلة لما أسدوه تقديراً لجهودهم في صالح أممهم وشعوبهم. وبعد هذا كان لهم الحق في جعلها لذويهم، من أبنائهم وأقربائهم.

زيارة قبور النبيﷺ وأهل بيته عليهم السلام

من حقوق النبي ﷺ وأهل بيته على المسلمين زيارة قبورهم ومشاهدهم المشرفة، والتسليم عليهم، فهم سيّان أحياءاً وأمواتاً، يسمعون كلامنا ويردون جوابنا، كما جاءت به الروايات والأدعية، وهذا مذهب الإمامية، وهذه الزيارة تعبّر عن مظاهر الحب والولاء ومصاديق الإخلاص والوفاء، قال ﷺ: «من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني»[٤٧٤].

وقد تواترت نصوص أهل البيت عليهم السلام، في فضل زيارة مشاهدهم، وما تشتمل عليه من الخصائص والفوائد، والأجر والثواب العظيم، فعن الإمام الرضا عليه السلام: «إنَّ لكل إمام عهداً في عنق أوليائه وشيعته، وإنَّ من تمام الوفاء بالعهد وحسن الأداء زيارة قبورهم، فمن زارهم رغبة في زيارتهم وتصديقاً بما رغبوا فيه، كان أئمتهم شفعاؤهم يوم القيامة»[٤٧٥]، وعن زيد الشحّام قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام: «ما لمن زار واحداً منكم؟ قال: كمن زار رسول اللّه ﷺ»[٤٧٦].

---

(٤٧٤) وفاء الوفاء ٤: ١٣٤٠.

(٤٧٥) بحار الأنوار ١٠٠: ١١٦ ح١.

(٤٧٦) بحار الأنوار ١٠٠: ١١٧ ح٥.

نشر فضائل وعلوم النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام

جرت سيرة الناس على تقدير العظماء وتكريمهم، بذكر فضائلهم وكراماتهم، والمدح والثناء عليهم ونشر علومهم وآثارهم، وحيث كان النبي ﷺ وأهل بيته الطاهرين أرفع الناس حسباً ونسباً، وأسبقهم وأجمعهم للفضائل والكمالات الإنسانية استحقوا من محبيهم ومواليهم أن يبرزوا هذا الحب والولاء، وذلك بمدحهم، ونشر فضائلهم وعلومهم، تكريماً لهم،وتقديراً لجهادهم وتضحياتهم الغالية في خدمة الإسلام والمسلمين.

وكان النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام يستقبلون الذاكرين لمصائبهم بكل رحابة صدر، شاكرين عواطفهم، ويكافئونهم بما جادت به أيديهم من البرّ والدّعاء بالغفران، وجزيل الأجر والثواب.

فهذا حسان بن ثابت شاعر رسول اللّه ﷺ، كان يمدح النبي ﷺ وابن عمه علي بن أبي طالب عليه السلام في مواقف عديدة، ومنها في واقعة غدير خم المعروفة. وهذا الكميت الاسدي والفرزدق، وابن السكيت، ودعبل الخزاعى وغيرهم من الشعراء والعلماء كانوا يمدحون ويرثون أئمة أهل البيت عليهم السلام، ويذكرون فضائلهم ومناقبهم وما جرى عليهم من الظلم والمحن والمصائب، ولا يخافون من حكّام زمانهم فكانت لهم مواقف مشرفة وأشعار مدهشة، وما ذلك إلاّ لأداء القليل من واجبهم الشرعي تجاه أئمتهم وسادتهم في بيان الحقائق، وأداء الحقوق المفروضة عليهم.

ذكر مصائب النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام

تعرض الرّسول ﷺ لأنواع الأذى في سبيل تبليغ الرّسالة والدعوة إلى اللّه، حتى

قال ﷺ: ما أوذي نبي مثل ما أوذيت..»[٤٧٧]كما روي عنه ﷺ.

وهكذا تعرض أهل بيت النبي ﷺ لأنواع الأذى والظلم والاضطهاد في سبيل حفظ الإسلام من الانحراف، ووقوفهم ضد الظلم والظالمين، من الحكّام الأمويين والعباسيين، ولو أنَّ النبي ﷺ قد أمرهم بإيذاء أهل بيته لأمكننا القول بأنّه لم يمكن أن يلاقوا أكثر ممّا لاقوه بالفعل من الأذى والظلم والمحن والمصائب، بحيث يعجز عن بيانها القلم، ويكلّ عن ذكرها اللسان، وجدير بتلك المآسي أن تبكيها العيون دماً.

وقد أخبر الرّسول ﷺ بتلك المظالم التي سوف تقع على أهل بيته عليهم السلام، وأوصاهم بالصبر. قال النبي ﷺ: «إنَّ أهل بيتي سيلقون من بعدي من أمتي قتلاً وتشريداً، وإنَّ أشدّ قومنا لنا بغضاً بنو أميّة وبنو المغيرة وبنو مخزوم»[٤٧٨].

وقال الإمام الحسن العسكري عليه السلام: قد وضع بنو أمية وبنو العباس سيوفهم علينا لعلتين: أحداهُما أنّهم كانوا يعلمون أنه ليس لهم في الخلافة حقّ فيخافون من ادعائنا إيّاها وأن تستقّر في مركزها. وثانيها أنّهم قد وقفوا من الأخبار المتواترة على أن زوال ملك الجبابرة والظلمة على يد القائم منّا، وكانوا لا يشكون أنّهم من الجبابرة والظلمة، فسعوا في قتل أهل بيت رسول اللّه ﷺ وإبادة نسله، طمعاً منهم في الوصول إلى منع تولّد القائم عجل الله فرجه أو قتله، فأبى الله أن يكشف أمره لواحد منهم، إلاّ أن يتم نوره ولو كره الكافرون[٤٧٩].

---

(٤٧٧) بحار الأنوار ٣٩: ٥٦ ح١٥.

(٤٧٨) المستدرك على الصحيحين ٤: ٥٣٤.

(٤٧٩) إثبات الهداية ٣: ٥٧٠، عن التفسير المنسوب إلى الحسن العسكري عليه السلام.

وقد حدّثنا التاريخ وروايات أهل البيت عليهم السلام عن بعض ما وقع عليهم من الظلم والاضطهاد، بحيث يقول الإمام الحسن عليه السلام في حديثه بعد قتل أبيه أمير المؤمنين عليه السلام: حدثني جدي رسول اللّه صلى الله عليه وآله «إنّ الأمر يملكه إثنا عشر إماماً من أهل بيته وصفوته ما منّا إلاّ مقتول أو مسموم»(٤٨٠).

وهكذا نرى أن الشعراء الرساليين أيضاً قد تحدّثوا عن المصائب والمحن التي جرت على أهل البيت عليهم السلام، ونظموا الشعر الحزين في رثائهم، وها نحن نختم هذا المقال بقصيدة من تلك القصائد الرائعة المحزنة من أحد هؤلاء الشعراء الأبطال الذي يرثي بها أهل البيت عليهم السلام:

لا تأمن الدَّهر إنّ الدَّهر ذو غيرٍ ... وذو لسانين في الدنيا ووجهين

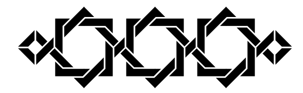
أخنى على عترة الهادي فشتّتهم ... فما ترى جامعاً منهم بشخصين

بعض بطيبة مدفون وبعضُهُمُ ... بكربلاء وبعض بالغريين

وأرض طوس وسامرا وقد ضمنت ... بغداد بدرين حلاّ وسط سطرين

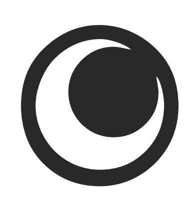
يا سادتي ألمن أنعى أسى ولمن ... أبكي بجفنينِ من عينيين قريحين

أبكي على الحسن المسموم مُضطهداً ... أم الحسين قضى بين الخميسين



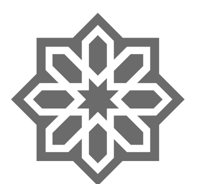
(٤٨٠) كفاية الأثر: ١٦٠.



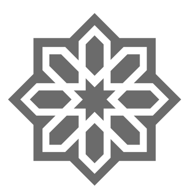


الليلة التاسعة عشر

فزت وربّ الكعبة









- النبي ﷺ يخبر بشهادة الإمام علي عليه السلام
- حب الإمام علي عليه السلام للشهادة
- الليلة التي وعدني بها رسول الله ﷺ
- تهدمت والله أركان الهدى



الليلة التاسعة عشر

فزت ورب الكعبة

عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً ۞ إِلاَّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ

الجن: ٢٦-٢٧

ومما جاء في خطبته ﷺ.... يا علي أبكي لما يستحل منك في هذا الشهر ، كأني بك وأنت تصلى لربك ، وقد أنبعث أشقى الأولين والآخرين ، شقيق عاقر ناقة ثمود ، فضربك ضربة على قرنك خضّب منها لحيتك.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: فقلت: يا رسول الله وذلك في سلامة من ديني ؟ فقال ﷺ: في سلامة من دينك.



النبيﷺ يخبر بشهادة الإمام علي عليه السلام

العقل الإنساني بطبيعته لا يستطيع أن يدرك كل شيء، فهو قاصر عن معرفة أمور كثيرة، لأنها خارجة عن إطار علمه ومعرفته، وعلم الغيب مختص بالله تبارك وتعالى، وهو القائل في محكم كتابه الكريم: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِى السَّماواتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ

اللهُ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[٤٨١]، فالماورائيات أو ما يسمى «بالميتافيزيقيا» من اختصاص العلم الرباني، فهو العالم بما يجري من دقائق الأمور في عالم المادة منذ النشأة الأولى وإلى اليوم، وحتى تقوم الساعة: ﴿وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ ما فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ فِى ظُلُماتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلاَّ فِى كِتابٍ مُبِينٍ﴾[٤٨٢]، فمفاتح الغيب من خصوصيات الله عز وجل، يقول سبحانه: ﴿قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾[٤٨٣]، وقال أيضاً: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ للهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾[٤٨٤]، وفي سورة الأعراف: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾[٤٨٥].

فهنالك خصوصيات للخالق الكريم عقولنا قاصرة عن الوصول لمعرفتها، فكما أننا لا ندرك كنه الله عز وجل وماهيته، وحقيقته، وإنما نؤمن به من خلال آثاره العظيمة، كذلك لا تستطيع العقول أن تدرك ماهية الروح التي هي أساس حياتنا: ﴿ويسألونك عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[٤٨٦]، فالروح هي القدرة الباعثة على الحياة فهي سبب تشغيل أجهزتنا الجسمية الداخلية والخارجية، وحينما

---

(٤٨١) النمل: ٦٥.

(٤٨٢) الأنعام: ٥٩.

(٤٨٣) الأنعام: ٥٠.

(٤٨٤) يونس: ٢٠.

(٤٨٥) الأعراف: ١٨٨.

(٤٨٦) الإسراء: ٨٥.

يموت الإنسان نقول ـ طلعت روحه ـ فيبقى جسداً من دون روح، هذه الروح لا يستطيع الإنسان معرفتها فيعرّفها، بأنها أجسام لطيفة شفافة تسير في الأبدان، وأمثال هذه التعاريف يراد منها تقريب الفكرة إلى الأذهان لا غير، فالروح والجن والملائكة والنفس و... نحن لا نمتلك لها تعاريف علمية دقيقة، وإنما نقرّبها بالوصف والخيال أحياناً، وحتى الدراسات المختصة بظواهر النفس والعلوم السيكولوجية، إنما تدرس ظواهر النفس والسلوك النفسي من دون تعريف للنفس، ومنطقة النفس التي يقسمها العلماء إلى الشعور واللاشعور لا يعرف أين هي النفس والروح، وكيف تخرج الروح حين الموت؟ ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى﴾[٤٨٧].

والنتيجة أن هنالك نوعاً من العناوين والأفكار ليست من اختصاص الإنسان، بل هي من الخواص الإلهية لا يطّلع عليها أحد.

والسؤال المطروح كيف يستطيع النبي الأكرم ﷺ أن يكشف عن أسرار مستقبلية غيبيّة كما في هذا المقطع المبارك، حيث يتنبأ عن مقتل الإمام علي عليه السلام، بل ويبكي ﷺ عليه، فهو أول من بكى على الإمام علي عليه السلام.

المهم كيف يستطيع النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام أن يحصلوا على هذا التنبؤ؟

نقول في البداية ـ لا يعلم الغيب إلاّ الله عز وجل ـ والغيب هذا بالمعنى المطلق، ومتى يريد الله عز وجل أن يطلع بعض الأسرار الغيبية لنبيّه وأوليائه يلهمهم ذلك فينبئون بما

(٤٨٧) الزمر: ٤٢.

يلهمهم الله به.

يقول القرآن العظيم: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً ۞ إِلاَّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ﴾[٤٨٨].

وعن الإمام الرضا عليه السلام: «إن رسول الله هو المرتضى عند الله، ونحن ورثة ذلك الرسول الذي أطلعه الله على غيبه فعلمنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة»[٤٨٩].

وعن الإمام الصادق: إن رسول الله صلى الله عليه وآله ضلت ناقته فقال الناس كيف يخبرنا عن السماء ولا يخبرنا عن ناقته، فهبط عليه جبرائيل فقال يا محمد ناقتك في وادي كذا وكذا ملفوف خطامها بشجرة كذا وكذا... وفي رواية أخرى قال صلى الله عليه وآله إني وإن كنت أخبركم بلطائف الأسرار، لكني لا أعلم من ذلك إلاّ ما علمني الله، فلما وسوس لهم الشيطان دلهم على مكانها.

وفي نهج البلاغة قال بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام لـه عندما أخبر عن فتنة المغول: لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب؟ فضحك عليه السلام وقال للرجل وكان كلبياً:

يا أخا كلب، ليس هو بعلم غيب، وإنما هو تعلم من ذي علم، وإنما علم الغيب علم الساعة وما عدده الله سبحانه بقوله ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِى الأَرْحامِ﴾ فيعلم الله سبحانه ما في الأرحام من ذكر أو أنثى، وقبيح أو جميل، وسخي أو بخيل، وشقي أو سعيد، ومن يكون في النار حطباً أو في الجنان للنبيين مرافقاً. فهذا

---

(٤٨٨) سورة الجن: ٢٦-٢٧.

(٤٨٩) بحار الأنوار ٣٥: ٢٢٦ ح٢٩.

علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلاّ الله، وما سوى ذلك فعلم علّمه الله نبيه فعلمنيه، ودعا لي بأن يعيه صدري وتضم «أي تنضم» عليه جوانحي.

وعن عمار الساباطي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الإمام يعلم الغيب؟ فقال: لا ولكن إذا أراد أن يعلم الشيء أعلمه الله ذلك.(٤٩٠)

وهكذا نستوعب فكرة العلم بعواقب الأمور، حيث يتنبأ بهذا العلم النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار، فنقرأ في الآية الكريمة ﴿وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ﴾(٤٩١).

وربما يفهم من هذا الإيحاء الإلهام كما نطالع في سورة طه حول قصة موسى عليه السلام ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى ۞ إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى ۞ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾(٤٩٢).

صاحب الميزان العلامة الطباطبائي يذهب إلى أن الوحي هنا بمعنى الإلهام، والمعنى: فألهمت أم موسى بخيارين الاحتفاظ به بكتمان والله يحميه من الأعداء، وإما أن ترميه في الماء. وهكذا الأنبياء والأئمة عليهم السلام فأهل البيت لهم حالة الإلهام الرباني في معرفة عواقب الأمور، وفي كتب الأحاديث والروايات كثير من هذه الحالات المسجلة وللأمثلة نذكر منها:

عن هرثمة بن سليم قال: غزونا مع علي عليه السلام صفين فلما نزل بكربلاء صلّى بنا فلما

(٤٩٠) ميزان الحكمة ٧: ٣٢٧-٣٢٩.

(٤٩١) الأنبياء ٧٣.

(٤٩٢) سورة طه ٣٧-٣٩.

سلّم رفع إليه من تربتها فشمها ثم قال: واهاً لك يا تربة!

ليحشرن منك قوم يدخلون الجنة بغير حساب.

وكذا وقف عليه السلام بالكوفة في الموضع الذي صلب فيه زيد بن علي، وبكى حتى أخضلت لحيته، وبكى الناس لبكائه، فقيل لـه يا أمير المؤمنين ممَّ بكاؤك فقد أبكيت أصحابك؟ فقال: إن رجلاً من ولدي يصلب في هذا الموضع..

وعن علي عليه السلام: «أخبرني الصادق المصدَّق أني لا أموت حتى أضرب على هذه ـ وأشار إلى مقدم رأسه الأيسر ـ فتخضب هذه ـ وأشار بيده إلى كريمته ـ منها بدم...».

وللنبي صلى الله عليه وآله كثير من هذه الأحاديث التي تحققت بعد وفاته صلى الله عليه وآله مثال ذلك أنه لما خرجت عائشة وطلحة والزبير من مكة إلى البصرة طرقت ماء الحوأب وهو ماء لبني عامر بن صعصعة، فنبحتهم الكلاب، فنفرت صعاب إبلهم، فقال قائل منهم: لعن الله الحوأب فما أكثر كلابها!

فلما سمعت عائشة ذكر الحوأب قالت: أهذا ماء الحوأب؛ قالوا: نعم، فقالت ردوني، فسألوها ما شأنها؟ ما بدا لها؟ فقالت إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: كأني بكلاب ماء يدعى الحوأب قد نبحت بعض نسائي، إياك يا حميراء أن تكونيها!

فقال الزبير: مهلاً يرحمك الله، فإنّا قد جزنا ماء الحوأب بفراسخ كثيرة، فقالت أ عندك من يشهد بأن هذه الكلاب النابحة ليست على ماء الحوأب؟ فلفق لها طلحة والزبير خمسين إعرابياً جعلا لهم جُعلاً فحلفوا لها، وشهدوا أن هذا الماء ليس بماء الحوأب!

فكانت هذه أول شهادة زور في الإسلام فسارت عائشة لوجهها[٤٩٣].

من خلال هذه المقدمة نفهم أن علم الغيب من خصوصيات الله عز وجل، ولكن إذا أراد أن يلهم بعض الأسرار والوقائع المستقبلية لمصلحة معينة، فإن الله يلهم النبي والأئمة عليهم السلام بذلك، وهم النقاء الطاهر والصفاء الكامل في هذا الوجود، وهم خلفاء الله في أرضه ودينه، ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[٤٩٤]، والآن لنعود إلى مفردات المقطع السابق.

فبعد أن قال صلى الله عليه وآله يا أبا الحسن أفضل الأعمال في الشهر الورع عن محارم الله ـ في صدد الإجابة عن سؤال أمير المؤمنين عليه السلام ـ تقول الرواية: ثم بكى صلى الله عليه وآله.

رسول الله يبكي أثناء الخطبة المباركة وأمام المسلمين يا لعظمة المصيبة، ويا للكارثة الكبرى التي ستحل بالمسلمين، فالنبي صلى الله عليه وآله بكى للتعبير عما يجري في ذاته الكريمة من الألم والحزن لهذه المصيبة، وأيضاً بكى صلى الله عليه وآله ليبيّن عن استنكاره لهذه الظاهرة الخطيرة التي ستؤدي بالمسلمين إلى التفرقة، والصراع وستخرج فئة من بين المسلمين تؤدي أدوار أعداء الدين بمكر أكبر، وحقد متراكم، وهذا ما حدث للإمام علي عليه السلام، وللإمام الحسين عليه السلام وبقية الأئمة عليهم السلام، فأراد النبي صلى الله عليه وآله أن ينبه الناس من الغفلة، ومن عملية غسيل الدماغ التي تمارسها الأجهزة الحاكمة، فتدفع البعض لقتل أولياء الله كما حدث للحر الرياحي في كربلاء، حيث كان أول من جعجع الطريق على أهل بيت الرسالة، لكنه

---

(٤٩٣) شرح النهج للمعتزلي ٦: ٣١١ وما بعدها عن أبي مخنف.

(٤٩٤) الأحزاب: ٣٣.

انتبه من غفلته وانضم إلى موكب الحق ليكون شهيداً مؤمناً.

وهذه إشارة واضحة وشهادة بينه من النبي ﷺ: ﴿وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى ۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى﴾[٤٩٥]، بأن الإمام علي عليه السلام مع الحق، وأنه يستشهد في سبيل الدين والمبدأ، فلا مجال للخروج عليه ومحاربته، وبهذا استطاع النبي ﷺ أن يعرّي المنطق التبريري للحكّام الظالمين، ومن هنا نحن لا نقبل أن نتعامل مع أحداث التاريخ الإسلامي بسذاجة عمياء، أو بمرور سريع جبان، كما يقال عن حجر بن عدي الكندي شهيد الإسلام الذي قتله معاوية ـ فيقولون هذا قبر سيدنا حجر قتله سيدنا معاوية! لأنه رفض أن يشتم ويتبرّأ من سيدنا علي...، وهذا المنطق يعكس آثاره على الناس بالخذلان واللامبالاة، وبالنتيجة ضياع الحق، وفقدان التشخيص الدقيق الّذي يسلك بالناس إلى الجنة أو النار.

ثم يشير النبي ﷺ إلى القاتل وصفات القاتل بقوله ﷺ ـ يا علي أبكي لما يستحل منك في هذا الشهر، كأني بك وأنت تصلي لربك، وقد انبعث أشقى الأولين والآخرين، شقيق عاقر ناقة ثمود.

الإمام علي عليه السلام في شهر رمضان، شهر الله، شهر الطاعة «زماناً»، وفي مدخل مسجد الكوفة «مكاناً»، هذا من جانب إمام المتقين، أما من جانب القاتل، فهو أشقى الأشقياء ـ أشقى الأولين والآخرين شقيق عاقر ناقة ثمود ـ فالشقي عكس السعيد، وهو المخدوع بالدنيا، وغرورها، يقول الإمام علي عليه السلام: الشقي من انخدع لهواه وغروره،

(٤٩٥) النجم: ٣-٤.

وقال: «إن الشقي من حرم نفع ما أوتي من العقل والتجربة، لا يجترئ على الله إلاّ جاهل شقي» وحينما سئل: أي الخلق أشقى؟ قال: «من باع دينه بدنيا غيره»، والرسول الأعظم يقول أشقى الأشقياء من اجتمع عليه فقر الدنيا، وعذاب الآخرة، ويقول الإمام علي عليه السلام: أشقى الناس من غلبه هواه فملكته دنياه وأفسد أُخراه[٤٩٦]، لذلك وصف النبي صلى الله عليه وآله قاتل الإمام علي عليه السلام بأنه أشقى الأولين والآخرين شقيق الشقي الجاهل الذي أطاع هواه وعقر ناقة ثمود كما تقول الآيات المباركة ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۞ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ۞ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا ۞ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۞ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾[٤٩٧]، يقول العلامة الطبرسي في تفسيره ـ كذبت ثمود بطغواها ـ أي بطغيانها ومعصيتها... إذ انبعث أشقاها، أي كان تكذيبها حين انبعث أشقى ثمود للعقر، ومعنى انبعث انتدب وقام، والأشقى عاقر الناقة، وهو أشقى الأولين على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله واسمه قدار ابن سالف...، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي بن أبي طالب: من أشقى الأولين؟ قال: عاقر الناقة، قال: صدقت، فمن أشقى الآخرين؟ قال: قلت لا أعلم يا رسول الله، قال: الذي يضربك على هذه، وأشار إلى يافوخه.[٤٩٨]

فإذن قاتل علي عليه السلام هو أشقى الأولين والآخرين شقيق عاقر الناقة، وفي هذا بيان تام وشهادة ثابتة لعلي بن أبي طالب عليه السلام بأنه للحق قائم وعلى الحق سائر، والحقيقة أن

---

(٤٩٦) نفس المصدر ٥: ١٢٨-١٣٤.

(٤٩٧) الشمس: ١١-١٥.

(٤٩٨) مجمع البيان للطبرسي المجلد السادس، الجزء الثلاثون: ١٥٣.

هنالك قدرات داخلية في الإنسان، ولدى بعض الناس بالتحديد تدفعهم ليصبحوا بالفعل عناصر في خدمة رجال الباطل، وابن ملجم واحد من أبرز هؤلاء الذين أصبحوا جسراً للمتآمرين على الإسلام والمسلمين.

بينما الإمام علي عليه السلام الذي ما قام الإسلام إلاّ بسيفه، هذا الإمام الذي ما عرف المداهنات السياسية، ومنذ الوهلة الأولى يجمع شهادات تلو شهادات من الله في قرآنه الكريم، ومن رسول الله صلى الله عليه وآله ـ علي مع الحق والحق مع علي، علي مع القرآن والقرآن مع علي، عنوان صحيفة المؤمن حب علي بن أبي طالب، ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين... وهو الذي كان يبحث عن الشهادة، وحينما قيل لـه بعد معركة أحد، وعندما أحصيت طعنات وجراحات الإمام كانت أكثر من ثمانين، قيل له: صبراً يا ابن أبي طالب قال: أصبر في موضع الشكر لقد فاتتني الشهادة وهو القائل: «لألف ضربة بالسيف على رأسي أهون عليّ من ميتة على الفراش».

ويقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في حقه عليه السلام: علي إمام البررة وقاتل الفجرة، منصور من نصره، مخذول من خذله. وقال لعلي مرحباً بسيد المسلمين وإمام المتقين، وقال صلى الله عليه وآله: إن أخي ووزيري وخليفتي في أهلي وخير من أترك بعدي يقضي ديني وينجز بوعدي علي بن أبي طالب. وقال صلى الله عليه وآله: علي مع الحق والحق مع علي يدور حيثما دار، وقال صلى الله عليه وآله: علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، وقال صلى الله عليه وآله من أذى عليّاً فقد أذاني.[٤٩٩]

(٤٩٩) ميزان الحكمة، ري شهري، ١: ٢٠٢ وما بعدها.

هذه شخصية الإمام كما وصفها النبي ﷺ، وبالفعل إنه عرف الدنيا وتعامل معها، وعرف المبدأ وتعامل معه، فصار في هذا الموقع المقدس من قلوب المؤمنين، وحينما استلم الخلافة لم تسجل لنا أحداث تلك الحقبة، أن الإمام فرح بالسلطة ليشبع طموحاته الدنيوية، بل على العكس كان يبحث عن طموحه الأسمى وهو رضا الله عز وجل، وإلى أن استشهد في محرابه بالكوفة قال كلمته الذهبية «فزت ورب الكعبة»، هذه مقاييس الإمام علي عليه السلام، فالقتل في سبيل الله فوز ونجاح، لذلك حينما أخبره النبي ﷺ بمقتله على يد أشقى الأولين والآخرين، سأله عن دينه قال: يا رسول الله، وذلك في سلامة من ديني؟ هذا هو الطموح المبدئي فيأتيه الجواب: في سلامة من دينك ـ فيبدأ الإمام يرقب تلك الليلة، وتلك الساعة، لينال الشهادة وبها يتحقق طموحه المبارك، وبالفعل تحقق لـه ذلك.

حب الإمام علي عليه السلام للشهادة

قلنا إن رسول الله ﷺ أخبر علياً، بأنه يفوز بالشهادة في سبيل الله، ففي يوم أحد تأسف الإمام أمير المؤمنين على حرمانه الشهادة في ذلك اليوم، فقال لـه النبي: إنها من ورائك.

وخطب رسول الله ﷺ في آخر جمعة من شهر شعبان، وذكر ما يتعلق بشهر رمضان، فقام علي عليه السلام وقال: ما أفضل الأعمال في هذا الشهر؟

فقال: «يا أبا الحسن أفضل الأعمال في هذا الشهر الورع عن محارم الله عز وجل، ثم بكى النبي فقال علي عليه السلام ما يبكيك؟ فقال: يا علي أبكي لما يستحيل منك في هذا

الشهر! كأني بك وأنت تصلي لربك وقد انبعث أشقى الأولين والآخرين شقيق عاقر ناقة ثمود، فضربك ضربة على قرنك فخضب منها لحيتك قال الإمام: وذلك في سلامة من ديني؟ فقال: في سلامة من دينك...».

وكان الإمام عليه السلام كثيراً ما يخبر الناس بشهادته، واختضاب لحيته الكريمة بدم رأسه، وحينما رأى ابن ملجم، فقال: أريد حباءه ويريد قتلي. وفي تلك السنة الأخيرة من حياته، والشهر الأخير من حياته كان يخبر الناس بشهادته فيقول: ألا وإنكم حاجوا العام صفاً واحداً وآية «علامة» ذلك أني لست فيكم، فعلم الناس أنه ينعى نفسه، ولم يكتف عليه السلام بذلك بل كان يرفع يديه للدعاء قائلا: اللهم إني قد سئمتهم وسئموني ومللتهم وملوني أما آن أن تخضب هذه من هذه ـ ويشير إلى هامته ولحيته ـ .

وقبل الواقعة أخبر عليه السلام ابنته زينباً بأنه رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يمسح الغبار عن وجهه ويقول: يا علي لا عليك قضيت ما عليك، وكان الإمام قد بلغ من العمر ثلاثاً وستين سنة، وفي شهر رمضان من تلك السنة كان الإمام يفطر ليلة عند ولده الحسن، وليلة عند ولده الحسين، وليلة عند ابنته زينب الكبرى، زوجة عبد الله بن جعفر، وليلة عند ابنته زينب الصغرى المكناة بأم كلثوم.

الليلة التي وعدني بها رسول الله صلى الله عليه وآله

الليلة التاسعة عشر من شهر رمضان كان الإمام عليه السلام في دار ابنته أم كلثوم، فقدمت لـه فطوره في طبق فيه قرصان من خبز الشعير، وقصعة فيها لبن فاتر، وملح، فأمر الإمام ابنته أن ترفع اللبن وقال لها: يا بنية أتريدين أن يطول وقوف أبوك بين يدي الله فتلونين

لـه الطعام، وأفطر بالخبز والملح ولم يشرب من اللبن شيئاً، لأن في الملح كفاية، وأكل قرصاً واحداً، ثم حمد الله وقام إلى الصلاة، ولم يزل راكعاً وساجداً ومبتهلاً ومتضرعاً إلى الله تعالى، وكان يكثر الدخول والخروج، وينظر إلى السماء، ويقول هي والله الليلة التي وعدني بها حبيبي رسول الله، ثم رقد هنيهة وانتبه مرعوباً، وجعل يمسح وجهه بثوبه، ونهض قائماً على قدميه، وهو يقول: اللهم بارك لنا في لقاءك، ويكثر من قول «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» .

ثم صلى حتى ذهب بعض الليل، ثم جلس للتعقيب، ثم نامت عيناه وهو جالس، فانتبه من نومته مرعوباً فقال لأولاده: إني رأيت في هذه الليلة رؤيا هالتني، وأريد أن أقصها عليكم قالوا: ما هي؟ قال إني رأيت الساعة رسول الله ﷺ في منامي، وهو يقول لي: يا أبا الحسن إنك قادم إلينا عن قريب يجيء إليك أشقاها، فيخضب شيبتك من دم رأسك، وأنا والله مشتاق إليك، وإنك عندنا في العشر الآخر من رمضان فهلم إلينا فما عندنا خير لك وأبقى.

قال: فلما سمعوا كلامه ضجوا بالبكاء والنحيب، وأبدوا العويل، فأقسم عليهم بالسكوت فسكتوا، ثم أقبل عليهم يوصيهم ويأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر، قالت أم كلثوم: لم يزل أبي تلك الليلة قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً ثم يخرج ساعة بعد ساعة، يقلب طرفه في السماء، وينظر في الكواكب وهو يقول: والله ما كذبت ولا كذبت وإنها الليلة التي وعدني بها حبيبي رسول الله، ثم يعود إلى مصلاه ويقول: اللهم بارك لي في الموت، ويكثر من قول: «إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ»، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ويصلي على النبي ﷺ، ويستغفر الله كثيراً.

قالت أم كلثوم فلما رأيته في تلك الليلة قلقا متململا كثير الذكر والاستغفار أرقت معه ليلتي وقلت: يا أبتاه مالي أراك في هذه الليلة لا تذوق طعم الرقاد؟ قال: يا بنية إن أباك قتل الأبطال وخاض الأهوال وما دخل الخوف لـه جوفاً، وما دخل في قلبي رعب أكثر مما دخل في هذه الليلة ثم قال: «إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ».

فقلت: يا أبتاه، ما لك تنعى نفسك منذ الليلة؟ قال: بنية قد قرب الأجل وانقطع الأمل، قالت أم كلثوم: فبكيت فقال لي يا بنية لا تبكي فإني لم أقل ذلك إلا بما عهد إليّ النبي ﷺ، ثم إنه نعس وطوى ساعة، ثم استيقظ من نومه وقال: يا بنية إذا قرب الأذان فأعلميني، ثم رجع إلى ما كان عليه أول الليل من الصلاة والدعاء والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى، قالت أم كلثوم: فجعلت أرقب الأذان فلما لاح الوقت أتيته ومعي إناء فيه ماء، فأسبغ الوضوء وقام ولبس ثيابه وفتح الباب ثم نزل إلى الدار وفيها إوز قد أهدي إلى أخي الحسين عليه السلام فلما نزل خرجن وراءه ورفرفن وصحن في وجهه، وكن قبل تلك الليلة لم يصحن، فقال عليه السلام لا إله إلا الله صوائح تتبعها نوائح، وفي غداة غد يظهر القضاء، فقلت يا أبتاه هكذا تتطير، فقال بنية ما منا أهل البيت من يتطير ولا يتطير به، ولكن قولي جرى على لساني، ثم قال يا بنية حبست ما ليس لـه لسان ولا يقدر على الكلام فإذا جاع أو عطش فأطعميه واسقيه وإلا خلي سبيله يأكل من حشائش الأرض فلما وصل إلى الباب فعالجه ليفتحه فتعلق الباب بمئزره حتى سقط فأخذه وشده وهو يقول:

أشدد حيازيمك للموت فإن الموت لاقيكا

ولا تجزع من الموت إذا حل بواديكا

كما أضحكك الدهر كذلك الدهر يبكيكا

ثم قال عليه السلام: «اللهم بارك لنا في الموت، اللهم بارك لي في لقاءك. قالت أم كلثوم: وكنت أمشي خلفه فلما سمعته يقول ذلك قلت: واغوثاه يا أبتاه أراك تنعى نفسك منذ الليلة، قال يا بنية ما هو بنعاء، ولكنها دلالات وعلامات للموت يتبع بعضها بعضا، ثم فتح الباب وخرج، قالت أم كلثوم: فجئت إلى أخي الحسن عليه السلام فقلت: يا أخي قد كان من أمر أبيك الليلة كذا وكذا وهو قد خرج في هذا الليل الغلس فالحقه، فقام الحسن بن علي عليهما السلام وتبعه فلحق به قبل أن يدخل الجامع فأمره الإمام بالرجوع فرجع».

أما عدو الله عبد الرحمن بن ملجم فكان على رأي الخوارج، وكانت بينه وبين قطام حب وغرام، وقطام قد قتل أبوها وأخوها وزوجها، في النهروان، وقد امتلأ قلبها غيظاً وعداء لأمير المؤمنين، وأراد ابن ملجم أن يتزوجها فاشترطت عليه أن يقتل أمير المؤمنين عليه السلام فاستعظم هذا الأمر، وطلبت منه ثلاثة آلاف ديناراً وعبداً وقينة «جارية» وينسب إليه هذه الأبيات:

فلم أر مهراً ساقه ذو سماحة كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلف وعبد وقينة وضرب علي بالحسام المصمصم

ثفقد جاء عبد الرحمن بن ملجم تلك الليلة،ث وبات في المسجد ينتظر طلوع الفجر، ومجيء الإمام للصلاة، وهو يفكر بالجريمة العظمى التي قصد ارتكابها، ومعه رجلان شبيب بن بجرة ووردان بن مجالد يساعدانه على قتل الإمام.

وسار الإمام إلى المسجد واتجه إلى المحراب وقام يصلي، وكان عليه السلام يطيل الركوع والسجود في صلاته، فقام المجرم الشقي لإنجاز أكبر جريمة في تاريخ الكون؟ وأقبل يمشي

حتى وقف بإزاء الاسطوانة التي كان الإمام يصلي عندها فأمهله حتى صلى الركعة الأولى، وسجد السجدة الأولى ورفع رأسه منها فتقدم اللعين، وأخذ السيف وهزه، ثم ضربه على رأسه الشريف، وهو يقول الحكم لله لا لك يا علي، فوقعت الضربة على مكان الضربة التي ضربها عمرو بن عبد ود العامري.

فوقع الإمام عليه السلام على وجهه قائلاً: «بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله، ثم صاح: فزت ورب الكعبة، قتلني ابن ملجم، قتلني ابن اليهودية، أيّها الناس لا يفوتكم ابن ملجم».

أخبر الإمام عن قاتله كيلا يشتبه الناس بغيره فيقتلون البريء.

حتى في تلك اللحظة يحافظ الإمام على النظام، وعلى حياة الناس، نبع الدم العبيط من هامة الإمام عليه السلام، وسال على وجهه المنير وخضب لحيته الكريمة، وصدق كلام الرسول صلى الله عليه وآله ووقع ما أخبر به، لم يفقد الإمام وعيه، وما انهارت أعصابه بالرغم من وصول الضربة إلى جبهته وبين حاجبيه فجعل يشد الضربة بمئزره وفي تلك اللحظة هتف جبرائيل بذلك الهتاف السماوي.

تهدمت والله أركان الهدى

لم نسمع في تاريخ الأنبياء أن جبرائيل هتف يوم وفاة نبي من الأنبياء أو وصي من الأوصياء ولكنه هتف ذلك الهتاف لما وصل السيف إلى هامة الإمام وهو بعد حي، هتف بشهادته ـ كما هتف يوم أحد بفتوّته وشهامته يوم قال: «لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار» ـ بصوت يسمعه كل مستيقظ: «تهدمت والله أركان الهدى، وانطمست والله

أعلام التقى، وانفصمت والله العروة الوثقى، قتل ابن عم المصطفى ﷺ قتل الوصي المجتبى، قتل علي المرتضى، قتل والله سيد الأوصياء، قتله أشقى الأشقياء»، وضجت الملائكة في السماء، وهبت ريح عاصفة سوداء مظلمة.

فلما سمعت أم كلثوم نعي جبرائيل صاحت: «وا أبتاه وا علياه وا محمداه وا سيداه».

وخرج الحسن فإذا الناس ينوحون وينادون وا إماماه وا أمير المؤمنيناه.

فلما سمع الحسن صرخات الناس نادى: «وا أبتاه وا علياه ليت الموت أعدمنا الحياة».

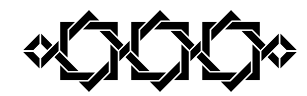
وتقدم الحسن عليه السلام فصلى بالناس وأمير المؤمنين عليه السلام صلى إيماءاً من جلوس، وهو يمسح الدم عن وجهه وكريمته، يميل تارة ويسكن أخرى، والحسن عليه السلام ينادي وا انقطاع ظهراه؟ يعز والله عليّ أن أراك هكذا. ففتح الإمام عليه السلام عينه وقال: «يا بني لا جزع على أبيك بعد اليوم، هذا جدك محمد المصطفى، وجدتك خديجة الكبرى وأمك فاطمة الزهراء، والحور العين ينتظرون قدوم أبيك فطب نفساً وقرّ عيناً، وكفّ عن البكاء فإن الملائكة قد ارتفعت أصواتها من السماء».

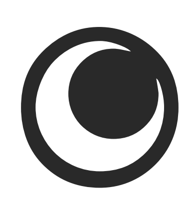
ثم إن الخبر شاع في جوانب الكوفة، وحشر الناس حتى المخدرات خرجن من خدورهن إلى الجامع ينظرون إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فدخل الناس الجامع فوجدوا الحسن عليه السلام ورأس أبيه في حجره، وقد شدّ الضربة وهي بعدها تشخب دماً ووجهه قد زاد بياضاً بصفرة وهو يرمق السماء بطرفه ولسانه يسبح الله ويوحده والحسن يبكي.

فقال لـه الإمام: يا بني ما هذا البكاء، يا بني لا روع على أبيك بعد اليوم؟ يا بني أتجزع على أبيك، وغداً تقتل بعدي مسموماً مظلوماً ويقتل أخوك بالسيف هكذا؟

وتلحقان بجدكما وأبيكما وأمكما؟

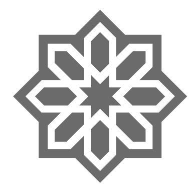
ثم أمر أن يحملوه إلى منزله فلما اقتربوا من منزل الإمام عليه السلام خرجت زينب فنظرت إلى أبيها أمير المؤمنين عليه السلام محمول على الأكتاف فنادت: «وا أبتاه وا علياه».

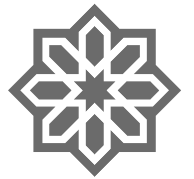


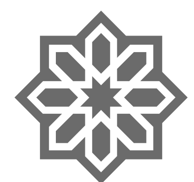


الليلة العشرون

دور علي عليه السلام في الإسلام









- دور الإمام علي عليه السلام في الحفاظ على حياة النبي صلى الله عليه وآله
- دور الإمام علي عليه السلام في عزة الإسلام وهيبته
- دور الإمام علي عليه السلام في فتح مكة



الليلة العشرون

دور علي عليه السلام في الإسلام

وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ۞ هارُونَ أَخِي ۞ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۞ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۞ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ۞ وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ۞ إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً

طه: ٢٩-٣٥

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي»

صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي



إن من يتابع حركات التاريخ يجد بشكل واضح أن لعلي عليه السلام دوراً واضحاً في نشر الإسلام وانتصاراته العظيمة، وقول النبي صلى الله عليه وآله في تشبيهه بهارون، وتنزيله منه منزلة هارون من موسى يعكس بوضوح أن لعلي عليه السلام دوراً هاماً في نشر الإسلام، حيث أن موسى عليه السلام طلب هارون لغايات ثلاثة:

١ـ أن يكون لـه وزيراً.

٢ـ أن يكون لـه مؤازراً وناصراً.

٣ـ أن يكون شريكاً لـه في تبليغ رسالة السماء إلى بني اسرائيل.

وهذه الغايات قد عرضتها الآيات السابقة على لسان النبي موسى عليه السلام، وحيث أن النبي صلى الله عليه وآله قد نزّل عليّاً من نفسه منزلة هارون من موسى، بالحديث الذي نقلناه، ـ وهو حديث متواتر وصحيح، ولم يشكك فيه أحد، بل لم يختلف عليه اثنان ـ فيكون النبي قد نظر في هذا الحديث إلى إعطاء علي عليه السلام تمام ما لهارون من المنازل عدا النبوة، فعلي عليه السلام وزيراً ومؤازراً وناصراً للنبي صلى الله عليه وآله، وشريكه في الدعوة إلى الله، وتبليغ الرسالة إلى الناس كافة، وهذا يكشف عن أن لعلي عليه السلام دوراً هاماً في بناء صرح الإسلام، ونحن سنشير إلى عدة أدوار قام بها علي عليه السلام في هذا السبيل.

دور الإمام علي عليه السلام في الحفاظ على حياة النبي صلى الله عليه وآله

الكلّ من قرّاء التاريخ يعرف أن حياة النبي صلى الله عليه وآله كانت مستهدفة بشكل مباشر لمشركي قريش، ولقد قاموا بكل حيلة ووسيلة للنيل منه وقتله، لو لا حفاظ أبي طالب عليه السلام ومشاركة علي عليه السلام، فلقد كان علي عليه السلام متابعاً للنبي في كل حركاته، فما من زمان أو مكان يتواجد فيه النبي صلى الله عليه وآله إلاّ وكان علي عليه السلام معه وفي إثره، ففي مكة عندما أعلن النبي صلى الله عليه وآله دعوته، وهجمت قريش على النبي صلى الله عليه وآله ومن أسلم معه، كان علي عليه السلام إلى جنبه يدافع عنه[٥٠٠]، وعندما دعا عشيرته لينذرهم كان علي هو من

(٥٠٠) السيرة النبوية لابن هشام ١: ٢٢١.

دعاهم إليه، وجهز لهم الطعام والشراب، وكان إلى جانب النبي صلى الله عليه وآله حاضراً للدفاع عن شخصه إذا ما استلزم الأمر[٥٠١]، وعندما خرج إلى الطائف ليدعو الناس إلى عبادة الله، سلط أهل الطائف على النبي صلى الله عليه وآله صبيانهم وغلمانهم يرشقونه بالنار والحجارة وغير ذلك ليقتلوه فكان علي عليه السلام يتلقى ذلك بظهره تارة وبطنه أخرى، ويهجم على الصبيان والغلمان ليدفع الأذى عن النبي صلى الله عليه وآله[٥٠٢]، ولما أراد النبي الهجرة إلى المدينة، كانت قريش قد انتخبت من كل قبيلة فارساً ليقتحموا دار النبي صلى الله عليه وآله ويضربوه بالسيف ضربة رجل واحد فيتفرق دمه بين العرب، وينتهوا منه ومن دينه إلى الأبد، وكان قد أخبر الله تعالى نبيه بحيلتهم ومكرهم، وأمره بالخروج ليلاً إلى الغار، وأن يبيت علياً عليه السلام في فراشه ليوهم الفرسان بأن محمداً صلى الله عليه وآله لا يزال راقداً في فراشه، فأخبر النبي علياً بالأمر، فما كان من علي إلاّ أن فدى بنفسه النبي صلى الله عليه وآله، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ﴾[٥٠٣]، واستمر الإمام عليه السلام في الدفاع عن شخص النبي صلى الله عليه وآله في المعارك التي خاضها النبي صلى الله عليه وآله بنفسه، ففي أحد بعد أن فرّ أكثر المسلمين كان علي عليه السلام يدافع عن النبي صلى الله عليه وآله ويدفع الكتيبة تلو الكتيبة، حتى بلغت جراحاته مبلغاً عظيماً[٥٠٤]، وكذا في حنين، وسائر المعارك الأخرى، ومن هنا يصح لنا القول أن علياً عليه السلام كان الحارس الفدائي الذي جنّد نفسه لحماية شخص النبي عبر

---

(٥٠١) تاريخ الطبري ١٩: ١٢١-١٢٢.

(٥٠٢) السيرة النبوية لابن هشام ١: ٣١٢.

(٥٠٣) البقرة: ٢٠٧.

(٥٠٤) الكامل في التاريخ ٢: ١٥٤.

حياته صلى الله عليه وآله.

دور الإمام علي عليه السلام في عزة الإسلام وهيبته

ومن الواضح لكل أحد أن القانون لا يمكن أن يحكم مساحة من الأرض إلاّ إذا كانت لـه عزة وهيبة في نفوس الناس، فالقانون الفاقد للهيبة لا يطاع، ولا يطبق حتى على العبيد والصغار، ومن هنا نجد أن من يقنن قانوناً أو يشرّع منهجاً ليقوّم به جماعة من الناس، وينظم حياتهم، يفرض الأحكام الجزائية على من يخالفه صيانة لـه وهيبة لقانونه، ولإيجاد عزة لـه في نفوسهم.

والإسلام ذلك النظام المتكامل الذي يضمن للبشرية السعادة المطلقة في الدنيا والآخرة، بأمسّ الحاجة إلى فرض الهيبة والعزة له، وكان ذلك بعلي عليه السلام، ففي موقفه الصلب في غزوة بدر انهزم المشركون وانتصر المسلمون وفي غزوة الخندق، عندما اخترقه عمرو بن ود العامري، وأخذ يستهزئ بالإسلام والمسلمين، وينادي في جموعهم من يخرج لمبارزته، وكان يتغنى بشجاعته، وهو يقول: من يرغب في الذهاب إلى الجنة فيخرج إليّ لأقتله، والمسلمون دون حراك، حتى خرج إليه علي عليه السلام فصرعه فأرعب بقتله الأحزاب فهزموا عن بكرتهم[٥٠٥]، وأخذ بعد هذا يحسب للمسلمين ولهذا الدين حساباً، وكذلك عندما خرج إلى مكة ليبلغ المشركين براءة الله ورسوله من المشركين، على مرأى ومسمع من المشركين، لم يقف في وجهه أحد هيبة لدينه ولشخصه[٥٠٦]، وفي حروب

(٥٠٥) المغازي للواقدي ٢: ٦٥١.

(٥٠٦) إمتاع الأسماع ١: ٢٩١.

المسلمين مع اليهود، حيث دكدك علي عليه السلام حصونهم في خيبر، رجعوا وخافوا حتى أن يهود فدك خافوهم فصالحوا النبي صلى الله عليه وآله دون الحرب والقتال(٥٠٧)، وهكذا فقد صنع علي عليه السلام للإسلام والمسلمين العزة والهيبة والوقار، وكم أوسمه النبي صلى الله عليه وآله تجليلاً لجهوده أوسمة تدل على دوره العظيم في إرساء هذه الخصوصية المهمة لانتشار الإسلام، فقال لـه في خيبر: «لأعطين الراية إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، كرار غير فرار، لا يرجع حتى يفتح الله على يديه»(٥٠٨)، وقال لـه في أحد: «علي مني وأنا منه»، وفي الخندق: «برز الإيمان كله إلى الشرك كلّه»، «لضربة علي يوم الخندق تعادل عبادة الثقلين إلى يوم القيامة»(٥٠٩).

وأدوار علي في الإسلام كثيرة جداً، ولكن حيث كانت الليلة العشرون من شهر رمضان المبارك مجمعاً لمناسبتين مهمتين في الإسلام، أولهما: فتح مكة، وثانيهما: اليوم الثاني لضربة ابن ملجم لعلي عليه السلام، فمن المناسب جداً الحديث عن دور علي عليه السلام في فتح مكة:

دور الإمام علي عليه السلام في فتح مكة

ففي العشرين من شهر رمضان المبارك سنة فتح الله تعالى على رسوله مكة، وكان فتحاً مبيناً ومؤزراً على طواغيت قريش وعلى شركهم، ويمكننا القول أن فتح مكة كان

---

(٥٠٧) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٣٣٠.

(٥٠٨) صحيح البخاري ٢: ١٢٦٨.

(٥٠٩) المستدرك على الصحيحين ٣: ٣٢.

مرحلة متطورة جداً من الصراع بين الحق والباطل، إذ بسقوط مكة تحت حكم الله الواحد، بدأت المدن الأخرى والقرى تدخل في الإسلام، من دون سفك دماء، أما إذا كان ولابد فقليلة جداً، وقد أشار القرآن إلى آثار ونتائج هذا الفتح العظيم بقوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً﴾[٥١٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾[٥١١].

وقد كان للإمام علي عليه السلام الدور الضخم والبارز في تحقيق هذا الفتح والنصر المؤزر، وبطبيعة الحال، ليس علي عليه السلام بارزا في فتح مكة فحسب ولا أن دوره الضخم تجسد في ذلك دون سواه، بل كل الحروب التي خاضها مع النبي صلى الله عليه وآله كان لـه الدور الأكبر في صناعة النصر، بل في بعضها كان لـه تمام الدور في صناعته، كما ذكرنا ذلك في الخندق وخيبر وحنين...، ولكننا نقول ذلك في فتح مكة لمكان المناسبة فحسب.

وفيما يلي نستعرض جملة من هذه الأدوار، وهناك غيرها تركناها لغاية الاختصار.

الدور الأول: **انتزاع كتاب خيانة من امرأةٍ**

لما بدأ النبي صلى الله عليه وآله يخطط لفتح مكة أمر المسلمين بشحذ سيوفهم، وتهيئة خيولهم ودوابهم وأمتعة غزوهم، كما أرسل إلى القبائل المحيطة بالمدينة ممن أسلم أن يتأهبوا ويأتوا إلى المدينة، فكانت الوفود تأتي وهي لا تعرف جهة المسير حتى اكتظت المدينة بالرجال على أهيب حال لهم، ولقد داخل المنافقين الخوف لهول كثرتهم وقوة سواعدهم،

(٥١٠) النصر: ٢.

(٥١١) الفتح: ١.

فأخذ النبي صلى الله عليه وآله يوضح لقواد جيشه وجهة مسيره، وأنه ينوي من كل هذه الاستعدادات فتح مكة، وحذر من تسرب الخبر إلى أبي سفيان وصناديد قريش، فيجيشون الجيوش ويتهيؤن لقتال عنيف قد يطول خوفاً من سلبهم ديارهم وتهديم أركان ملكهم وسلطانهم وقد دبر هذا الأمر بوضع العيون والحراس يراقبون كل خارج من المدينة وداخل ويفتشون من يمر أو يقرب من المدينة ليلاً نهاراً.

وبينما يتهيؤن للمسير نحو مكة تسرب الخبر مع حاطب بن بلتعة الذي عز عليه نهاية قريش وتبديدها، وقد كان لـه فيها أرحام وأقارب، فكتب كتاباً بجميع هذه المعلومات، ثم طلب من امرأة قينة مغنية أغراها بالمال، وكان هواها في قريش، واتفقا على وضع الكتاب في ضفائرها لقاء أجر باهظ، فخرجت المرأة وقد عقدت الكتاب في ضفائرها بحيث لا يمكن لأحد حتى لو فتشها أن يهتدي إلى الكتاب، وسلكت طريقاً بعيداً عن عيون الحراس وأخذت توهمهم بالحشمة والحياء والتستر، لتخفي أمرها.

وما أن غادرت المدينة حتى نزل الوحي وأخبر النبي بأمرها، وأمر حاطب، وقد دهش النبي صلى الله عليه وآله من هذا التصرف الذي صدر من حاطب، وهو أحد أصحاب بدر، ولكن كان من النفوس الضعيفة الذين يفكرون في علاقاتهم الذاتية حتى في أحرج الأوقات ويتخذون لأنفسهم حصنا يأوي إليه عند تقلبات الأحوال، وعلى كل حال فقد أرسل النبي صلى الله عليه وآله على علي عليه السلام يستدعيه على الفور، فقال له: إن أحد أصحابي كتب إلى أهل مكة يطلعهم على أخبارنا، وقد سألت ربي أن يعمي أخبارنا عنهم، وقد حملت الكتاب امرأة سوداء فهيا أدركها وانتزع الكتاب، ثم استدعى الزبير، وقال لـه: اذهب مع ابن خالك، فخرج علي عليه السلام ومعه الزبير وأدركها في ذي الحليفة، فتقدم منها الزبير فسألها

عن الكتاب، فانكرت عليه التعرض لها من جهة، والسؤال عما لا يعنيه من جهة أخرى، وأنكرت عليه، اتهامه لها بهذه التهمة، فتردد الزبير في أمر الكتاب وأنه معها أم لا، فجاء إلى علي عليه السلام وطلب منه أن يرجعا إلى المدينة بحجة أن الكتاب ليس معها، ثم أخذت المرأة تبكي لهذا التعرض والهانة، وبدأت دموع التماسيح تنحدر على خديها فرقّ قلب الزبير لذلك، وقال لعلي عليه السلام لم أر معها كتاباً يا أبا الحسن، ولم يلتفت إلى أن هذا التصديق لها والتعاطف معها يعني تكذيب الوحي والنبي صلى الله عليه وآله فما كاد علي عليه السلام يسمع كلام الزبير هذا حتى غضب وصاح: ويحك يا زبير! يخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله بأنها تحمل كتاباً ويأمرني بأخذه منها ونأتي لذلك ثم تقول أنت: إنه لا يوجد معها كتاب!!!

وهنا يظهر إيمان علي عليه السلام وتصديقه المطلق لرسول الله صلى الله عليه وآله بحيث لا يداخله فيه شائبة شك فتقدم علي عليه السلام نحوها، وقد اخترط سيفه، وقال لها وعيناه تقدحان شرراً: أما والله لتخرجنّ الكتاب أو لأضربن عنقك بسيفي هذا. فأخذت المرأة تحاول مع علي عليه السلام لعله يلين ويصدق مقالتها كما كان شأن صاحبه، فأخذت تراوغ وتتعاطف ولكنها رأت عناداً وإصراراً مما جعلها تتأكد من أن عليا عليه السلام متأكد من وجود الكتاب الذي تحمله، فدفعته إلى علي عليه السلام فجاء به علي عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله.

إن هذا التيقن والثبات في قلب علي عليه السلام بصدق النبي صلى الله عليه وآله وأنه غير مستعد لسماع كلامها. هو الذي حفظ لجيش المسلمين هيبته، وهو الذي أسرع في تحقيق النصر فلو صدّق علي المرأة كما فعل الزبير، ووصلت الاخبار إلى صناديد قريش، لتهيئوا وأعدوا العتاد والعدة وخرجوا من مكة للقاء النبي في طريقه إليهم، ومعه لا ضمان للنصر، ولو كان فبعد سفك دماء الكثير من المسلمين.

الدور الثاني: أخذ الراية من سعد

كان هدف النبي صلى الله عليه وآله من تجميع المسلمين والخروج بكلهم إلى مكة، كما أن الحذر من وصول الخبر إلى قريش، أن يباغتهم فلا يكون أمامهم أي وسيلة للدفاع عن أنفسهم سوى الدخول في الإسلام أو الفرار من الجبهة.

وكان هذا الهدف هو ما ينشده النبي صلى الله عليه وآله في مجمل تحركاته نحو مكة حذرا من أن تسفك الدماء في حرم الله الآمن، وفعلا لما علم أبو سفيان بخروجهم كانوا قد وصلوا إلى مقربة من مكة فخرج إلى النبي صلى الله عليه وآله ليساومه إلا أنه دون جدوى فالنبي صلى الله عليه وآله قد عزم على فتحها،فلم يجد بداً من أن يحمي نفسه باعتناقه الإسلام، فلما وصل النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه أبواب مكة أخذت الحمية سعد بن عبادة الأنصاري وهو يمر أمام أبي سفيان فقال له: اليوم يوم الملحمة اليوم تسبى أو تستحل الحرمة.

فأخذ الكثير من المسلمين يردد ما قاله سعد وكان هذا الشعار من شأنه تهيج المشركين للقتال حتى لو أدى ذلك إلى قتلهم، إذ العرب لا تتحمل دخول دارها فضلا عن ذلها بذلك، كما من شأنه تشجيع المسلمين للنيل من المشركين خصوصا مسلمي مكة الذين ذاقوا ألوان العذاب والبلاء على أيدي قريش، وكل ذلك يتنافى مع غرض النبي صلى الله عليه وآله من عدم سفك الدماء في حرم الله الأمن، فوصل شعار سعد إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال لأمير المؤمنين: يا علي أدرك سعداً وخذ الراية منه وأدخل أنت بها مكة، فأدركه أمير المؤمنين، فأخذ الراية منه ودخل بها مكة، ولم يمتنع عليه سعد، بل دفعها إليه.

ولم ير رسول الله صلى الله عليه وآله أحداً من المهاجرين والأنصار يصلح لأخذ الراية من سيد

الأنصار سوى علي أمير المؤمنين عليه السلام.

قال الشيخ المفيد: وأعلم أنه لو رام[٥١٢] ذلك غير علي، لامتنع عليه سعد، وكان في امتناعه فساد التدبير، واختلاف الكلمة بين الأنصار والمهاجرين.

وهذا الدور لعلي عليه السلام لا يحتاج إلى تعليق، لأنه من الواضح جداً أن أخذ الراية من سعد لا يتم إلاّ برسول الله صلى الله عليه وآله حيث لا يتنازل سعد وهو زعيم الأنصار إلاّ للنبي صلى الله عليه وآله، ولما كان سعد يعرف أن علياً عليه السلام هو الرجل الثاني في الإسلام، وأنه سيصبح الرجل الأول سلّم الراية إليه بلا تنازع، فأخذ الإمام علي عليه السلام الراية ونادى «اليوم يوم المرحمة، اليوم تحمى الحرمة».

الدور الثالث: تحطيم الأصنام

بعدما لوت مكة جيدها، وأذعنت لبيرق النبوة، وتحولت إلى سلطة الرسول صلى الله عليه وآله، ودخل الناس في دين الله أفواجاً حيث خرجت الرجال من مخابئها وأسلمت، وخرجت النساء من خدورهن وأسلمن، وانضوى الناس في ظل الرسالة الإسلامية، وعادت مكة إلى دورتها الأولى يوم خلق الله السماوات والأرض، وعاد البلد الحرام حيث يحرم فهيا سفك الدماء، وأصبحت واحة الأمان والراحة والاطمئنان، دخل النبي صلى الله عليه وآله فاتحاً لا كما يدخل الفاتحون عنوةً بل كما يدخل الرسل المتواضعون ذاكراً ربّه، ناظراً إلى قربوس فرسه، لم يدخل مستعلياً ولا مستكبراً وإنّما دخل ذاكراً شاكراً مسبحاً مستغفراً.

---

(٥١٢) الإرشاد ١: ٩٠.

وبما أن مكة المكرمة كانت مجمع عبادة العرب، ومركز التجمع الصنمي أيضاً، وكان الغرض الأساس من الحرب الفكرية والنفسية والمادية إزالة دولة الصنمية، وتأسيس دولة الإله الواحد الحقّ مكانها، كان لابد من تركيز الألوهية في أذهان الناس، وتحطيم المظاهر الصنمية وقلعها من الأذهان، وتحطيم كل المظاهر الصنمية الموجودة في الكعبة وفي جوارها. قال الإمام الرضا عليه السلام وكانت ثلاثمائة وستين صنماً حول الكعبة عندما فتح النبي صلى الله عليه وآله مكة فمر بها وجعل يطعنها بمخصرة في يده ويقول: جاء الحقّ وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً، فجعلت تكب لوجهها.[٥١٣] وفي رواية ابن شهر آشوب: إن الإمام علياً عليه السلام صعد على أكتاف النبي وكسر الأصنام الموجودة على ظهر الكعبة.[٥١٤]

وفي ذلك قال الشاعر:

قيل لي قل في علي مدحاً	ذكرها يطفئ ناراً مؤصدة
قلت هل أمدح من في فضله	حار ذو اللب إلى أن عبده
والنبي المصطفى قال لنا	ليلة المعراج لما صعّده
وضع الله على ظهري يداً	فأحس القلب أن قد برده

كان هدف الإسلام محو الصنمية من الوجود الخارجي، بل الوجود الذهني أيضاً، والعقيدة الصنمية حالة مستعصية، مركوزة في الذهن والوجدان، وبعضهم رضع عقيدة الصنمية وعبادة الصنم مع الحليب فأنّى لـه أن يترك هذه العبادة، ولو كانت خرافة فوقها

(٥١٣) بحار الأنوار ٣٩: ٦٧ ح٢٠.

(٥١٤) بحار الأنوار ٣٩: ٦١ ح١٥.

خرافة؟ والذي عشق الخرافة ورضع الخرافة، لا يراها خرافةً، وإنّما يراها صحيحة، وهذا هو الجهل بعد الجهل. ومشكلة الرسالة كانت مع هذا النوع من الجهل، ومع التعقيد النفسي والذهني. فهل كان الرسول بإمكانه غرس العقيدة الإلهية دون إزالة العقيدة الصنمية من الأذهان؟ وهل يمكن محوها من الذهن قبل محوها من الواقع؟ ومن الذي يساعده على هذه المهمة الصعبة إلاّ رجل الصعاب، رجل المواقف، إلاّ عليّ عليه السلام الذي صعد على كتف النبيّ صلى الله عليه وآله، وحمل فأس النبوة بيده القوية وزنده المتين، حتى كسّرها تكسيراً؟ وبذلك تم الانتصار الحقيقي للإسلام بإزالة كل آثار الصنمية ومحوها من الوجود.

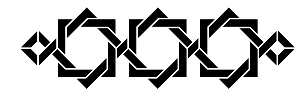
هذه أدوار علي عليه السلام ـ وهناك الكثير المزيد ـ في فتح مكة وإرساء الإسلام فيها وما حولها وهكذا فقد أوقف حياته عليه السلام في أعظم خدمة للإسلام وللنبي صلى الله عليه وآله، واستمر من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله يعقب المجرمين، ويقطع أدبار المرتدين حتى ضربه ابن ملجم على أم رأسه في الليلة التاسعة عشر من شهر رمضان. وفي هذه الليلة كان أمير المؤمنين عليه السلام في داره بين أولاده وأهل بيته إلا أن الدماء كانت تنزف من رأسه الشريف.

يقول الأصبغ بن نباته: «دخلت على الإمام فإذا هو مستند ومعصوب الرأس بعمامة صفراء قد نزف دمه واصفر وجهه فما أدري وجهه أشد اصفراراً أم العمامة؟ فأنكببت عليه فقبلته وبكيت فقال لي: لا تبك يا أصبغ فإنها الجنة فقلت: جعلت فداك إني أعلم والله أنك تصير إلى الجنة، إنما أبكي لفقدي إياك يا أمير المؤمنين ثم نظر الإمام إلى أولاده فرآهم تكاد أنفسهم تزحف من النوح والبكاء، فجرت دموعه على خديه ممزوجة

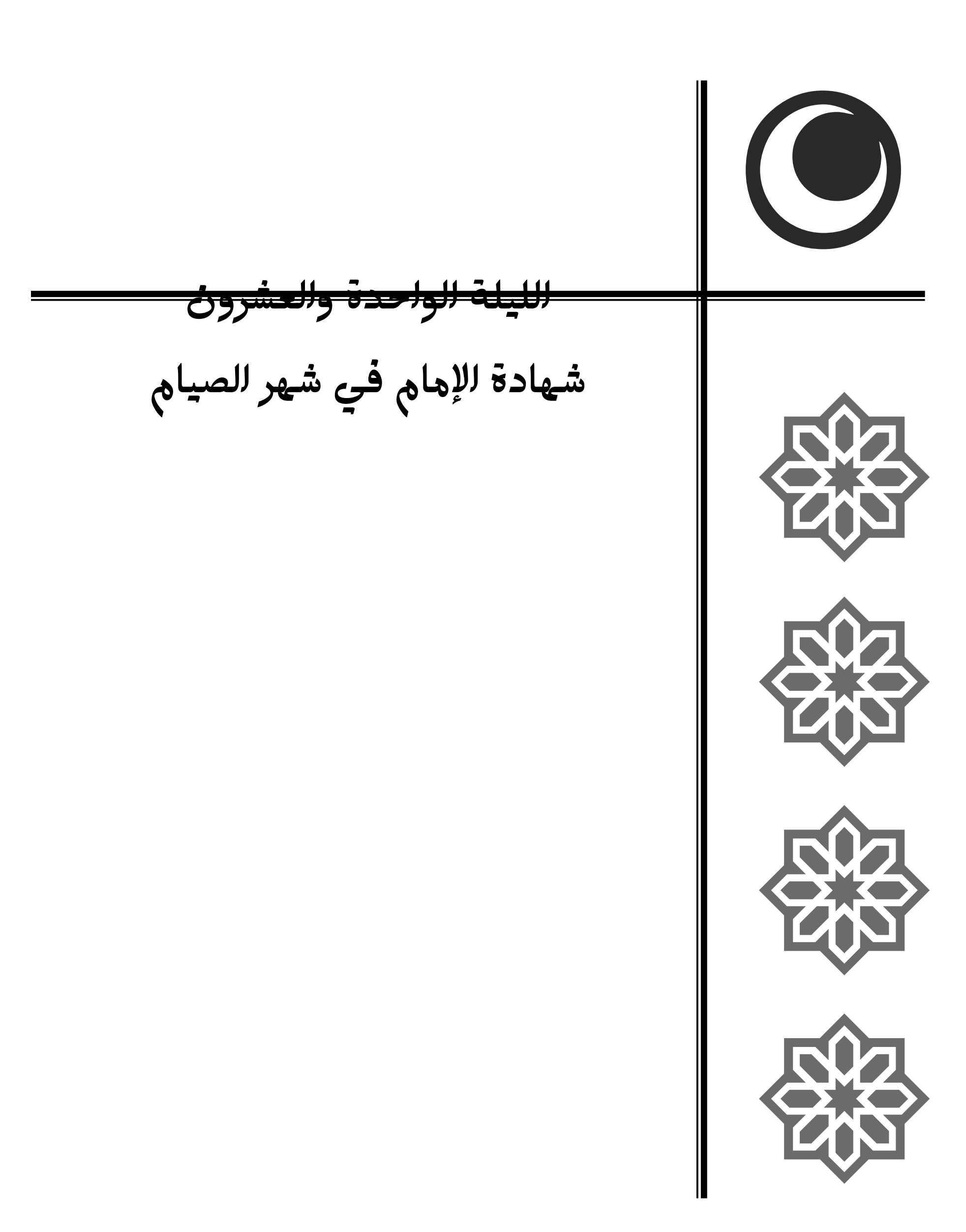
بدمه فقال عليه السلام: أتبكيان عليّ؟ ابكيا كثيرا وأضحكا قليلاً أما أنت يا أبا محمد ستقتل مسموماً مظلوماً مضطهداً، وأما أنت يا أبا عبد الله الحسين فشهيد هذه الأمة وسوف تذبح ذبح الشاة من قفاك وترض أعضاؤك بحوافر الخيل ويطاف برأسك في مماليك بني أمية وحريم رسول الله صلى الله عليه وآله تسبى وإن لي ولهم موقفاً يوم القيامة.

وفي هذه الليلة أحضر عنده عروة السكون وكان أعرف أهل زمانه بالطب فذبح شاة وأخرج منها عرقا فأدخله في جراح الإمام ثم أخرجه وإذا عليه بياض الدماغ فقال الطبيب بعد أن استعبر وبكى: اعهد عهدك يا أمير المؤمنين فإن الضربة وصلت إلى الدماغ.

قال محمد بن الحنفية: فبينما نحن ليلة عشرين من شهر رمضان عند أبي وقد سرى السم في جميع بدنه الشريف وكان تلك الليلة يصلي من جلوس وهو يعزينا على نفسه ويوصينا بما هو أهله من فعل الخيرات واجتناب الشرور ويكثر من ذكر الله تعالى وقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فلما أصبحنا أقبل الناس يودعونه ويسلمون عليه.







الليلة الواحدة والعشرون

شهادة الإمام في شهر الصيام

الليلة الواحدة والعشرون

شهادة الإمام في شهر الصيام

وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ

آل عمران: ١٦٩

ومما جاء في خطبته ﷺ: «يا علي! من قتلك فقد قتلني، ومن أبغضك فقد أبغضني ومن سبك فقد سبني لأنك مني كنفسي، روحك من روحي وطينتك من طينتي، إن الله تبارك وتعالى خلقني وإياك، واصطفاني وإياك، واختارني للنبوة واختارك للإمامة فمن أنكر إمامتك فقد أنكر نبوتي».



الإمام علي عليه السلام وصي النبي ﷺ

في مثل هذه الليلة من سنة ٤٠هـ كانت شهادة الإمام علي (عليه السلام)، والتي

ذكرها النبي ﷺ لعلي في خطبته، وبكى على هذه الفاجعة أمام مرأى المسلمين، ثم عاد بعدها ليبين موقع الإمام علي منه ومن الشريعة الإسلامية، وهذا الحديث من الأحاديث التي تنص على خلافة علي عليه السلام بعد النبي ﷺ فجعله كنفسه وروحه وبدنه، وما يصيب الإمام يصيب النبي، فالقاتل لعلي هو قاتل النبي، والمبغض لعلي مبغض للنبي، والسابّ لعلي ساب للنبي، لأن علياً نفسه من نفس النبي، وروحه من روح النبي، وطينته من طينة النبي، وهذا موقعه بالنسبة من النبي وعلى لسان النبي الأعظم ﷺ.

أما بيانه لموقع علي من الشريعة فيقول: «إنّ الله تبارك وتعالى خلقني وإيّاك، واصطفاني وإيّاك، واختارني للنبوة واختارك للإمامة، فمن أنكر إمامتك فقد أنكر نبوتي».

فبيّن الخلافة بأنّها نص إلهي مقدس وقد اختار الله لـه ﷺ النبوة، ولعلي عليه السلام الإمامة، وجعل حلقة الإمامة امتداداً لسلسلة النبوة، فالذي ينكر الإمامة ينكر النبوة حتماً.

وقد قال رسول الله ﷺ: «يا علي! الناس من شجر شتى، وأنا وأنت من شجرة واحدة، إن لكل نبي وصياً ووارثاً وإن علياً وصيي ووارثي، وقال ﷺ: إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا لـه وأطيعوا، وقال ﷺ: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي، وقال ﷺ: علي سيد المؤمنين، علي عمود الدين، من آذى علياً فقد آذاني»[٥١٥].

إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة والمتواترة تواتراً معنوياً في بيان عظمة علي عليه السلام وارتباط إمامته بنبوة النبي ﷺ، وقد استوعب علماء المذاهب هذه الأحاديث وأثبتوها في كتبهم.

---

(٥١٥) ميزان الحكمة، ج١، ص١٥٨ وما بعدها.

ثم يقول ﷺ:

«يا علي! أنت وصيي وأبو ولدي وزوج ابنتي وخليفتي من بعدي في حياتي وبعد موتي، أمرك أمري ونهيك نهيي».

فعلي عليه السلام لم يكن تنصيبه للإمامة من قبل النبي ﷺ إلاّ بأمر من الله تعالى، وتطبيقاً لإرادته، ومن هنا كان النبي ﷺ لا يترك أي مناسبة للتصريح بإمامة علي عليه السلام أمام المسلمين إما قولاً أو عملاً وسلوكاً، وفعلاً. فقد كانت تصريحات النبي ﷺ بإمامته تعكس وتكشف عن عمق المؤهلات التي كان يمتلكها أمير المؤمنين عليه السلام فقد كانت فترة حكمه وخلافته إشعاعاً يضيء الدرب للناس، وقد نعم المسلمون في هذه الفترة بالعدل ونظام الحقوق بأعلى مصاديقها، إلى أن انبعث أشقى الآخرين وضربه على أم رأسه، وبقي أمير المؤمنين عليه السلام طريح الفراش إلى ثلاثة أيّام، وفي مثل هذه الليلة جاء الطبيب ليرى حال جرح الإمام عليه السلام وبعد أن فحصه، قال يا أمير المؤمنين اعهد عهدك فإنك لا تشفى من هذه الضربة.

وصايا الإمام عليه السلام

بقي الإمام عليه السلام في فراشه وقد اصفر لونه من أثر الضربة فقال لأولاده وأصحابه: «بالأمس أنا صاحبكم، واليوم أنا عبرة لكم، وغداً مفارقكم»، كما أنه عليه السلام مثل هذه الليلة أوصى ولديه الحسن والحسين عليهما السلام، وأهل بيته بجملة وصايا، وهي وصايا خالدة لكل أتباع علي عليه السلام منها:

«بسم الله الرحمن الرحيم؛ هذا ما أوصى به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: أوصى

بأنه، يشهد أن لا اله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك لـه وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين».

أوصيك يا حسن ويا حسين وجميع ولدي وأهل بيتي ومن بلغهم كتابي هذا؛ بتقوى الله ربكم ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ـ إلى أن يقول ـ الله الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه عماد دينكم... الله الله في الأيتام فلا يظلمنّ في حضرتكم... الله الله في القرآن فلا يسبقكم إلى العمل به غيركم، الله الله في جيرانكم فإن رسول الله صلى الله عليه وآله أوصى بهم، الله الله في الصلاة فإنها خير العمل وعمود الدين، الله الله في الزكاة فإنها تطفئ غضب ربكم، الله الله في الصيام في شهر رمضان فإن صيامه جنة من النار، الله الله في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم، الله الله في ذرية نبيكم فلا يظلمن بين أظهركم[٥١٦].

ثم التفت إلى بني عبد المطلب قائلاً لهم: ارفقوا بأسيركم وأطعموه من طعامي، واسقوه من شرابي، ثم إذا أنا مت ـ يا حسن ـ فاضربه ضربة واحدة، ولا تحرقه بالنار، ولا تمثل بالرجل، فإني سمعت جدك رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور، وإن أنا عشت، فأنا أولى به»[٥١٧] ثم عرق جبينه وسكن أنينه، فقالت زينب: يا أبه أراك عرق جبينك، وسكن أنينك، قال عليه السلام: يا بنية سمعت جدك رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إن المؤمن إذا نزل به الموت، ودنت وفاته عرق جبينه، وسكن أنينه، فقامت زينب وألقت بنفسها

---

(٥١٦) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٧: ٥/ ٤٧.
(٥١٧) المصدر السابق.

على صدر أبيها، وقالت: يا أبه حدثتني أم أيمن بحديث كربلاء وقد أحببت أن أسمعه منك، فقال ﷺ: يا بنية الحديث كما حدثتك أم أيمن، وكأني بك ونساء أهلك سبايا بهذا البلد فصبراً صبراً.

ثم نظر إلى أولاده فرآهم تكاد تزهق أرواحهم من شدة البكاء والنحيب فقال لهم: أحسن الله لكم العزاء، ألا وإني منصرف عنكم، وراحل في ليلتي هذه، ولاحق بحبيبي محمد ﷺ كما وعدني فإذا أنا مت يا أبا محمد، فغسلني وكفني وحنطني ببقية حنوط جدك رسول الله ﷺ، فإنه من كافور الجنة جاء به جبرائيل إليه، ثم ضعني على سريري، ولا يتقدم أحد منكم على مقدم السرير، واحملوا مؤخره، واتبعوا مقدمه، وصلي عليّ يا بني حسن وكبّر عليّ سبعاً واعلم أنه لا يحل ذلك على أحد غيري إلا على رجل يخرج في آخر الزمان اسمه القائم المهدي من ولد أخيك الحسين، يقيم اعوجاج الحق، فإذا أنت صليت عليّ فنح السرير عن موضعه، ثم اكشف التراب عنه فترى قبراً محفوراً، ولحداً منقوباً، وساحة منقوبة، فضعني فيها ثم اشرج اللحد باللبن، وأهِلِ التراب عليّ، ثم غيّب قبري.

فلما سمعت زينب وصية أبيها لطمت وجهها، ثم هوت عليه تشمه وتقبل يديه ثم دفع كتبه وسلاحه إلى الحسن، وأمره أن يدفعها إلى الحسين ﷺ إذا حضرته الوفاة، وأمر الحسين أن يدفعها إلى ولده عليّ بن الحسين، وأقبل على علي بن الحسين فقال له: وأمرك رسول الله ﷺ أن تدفع وصيتك إلى ولدك محمد بن علي، فأقرأه من رسول الله ومني السلام، ثم قال للحسن أنت ولي الأمر بعدي، ثم أخذ الإمام يودع أولاده الواحد بعد الآخر، ثم أغمي عليه ساعة وأفاق، وقال هذا رسول الله ﷺ وعمي حمزة وأخي

جعفر، وأصحاب رسول الله كلهم يقولون عجل قدومك علينا فإنا إليك مشتاقون، ولما دنت وفاته قال يا أبا محمد ويا أبا عبد الله كأنكما وقد خرجت عليكما من بعدي الفتن من هاهنا، وهاهنا فاصبرا حتى يحكم الله، وهو خير الحاكمين، ثم قال يا أبا عبد الله أنت شهيد هذه الأمة فعليك بتقوى الله والصبر على بلائه، ثم أدار عينيه في أولاده وأهل بيته وقال استودعكم الله جميعاً، وحفظكم الله جميعاً، الله خليفتي عليكم وكفى بالله خليفة.

شهادة الإمام وتجهيزه ودفنه

ولم يزل وهو بتلك الحال يسبح الله ويذكر الله تعالى كثيراً، ثم استقبل القبلة وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله رفقا بي ملائكة ربي، ثم عرق جبينه وسكن أنينه، وغمض عينيه، ومد رجليه ويديه، وقضى نحبه شهيداً، أي وا إماماه.. أي وا علياه.. وا سيداه.. ثم أقبل الناس رجالاً ونساء نحو بيت الإمام، وهم ينادون وا إمامنا.. فارتجت الكوفة بأهلها وكثر البكاء والنحيب، فكان ذلك كيوم مات فيه رسول الله ﷺ قال محمد بن الحنيفة: ثم أخذنا بجهازه ليلاً، وكان الحسن عليه السلام يغسله، والحسين عليه السلام يصب الماء عليه، وكان لا يحتاج إلى من يقلبه، بل كان ينقلب كما يريد الغاسل يميناً وشمالاً، وكانت رائحته أطيب من رائحة المسك والعنبر، ثم نادى الإمام الحسن أخته زينب وقال يا أختاه هلمي بحنوط جدي رسول الله ﷺ، ثم لفوه بخمسة أثواب ووضعوه على السرير والحسين عليه السلام يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون، وا أبتاه وانقطاع ظهراه.

ثم أخذ الحسن عليه السلام يصلي على أبيه أمير المؤمنين عليه السلام بالناس، وحمل السرير هو

والحسين عليهما السلام وسائر بني هاشم، وتوجه به حسب وصية أمير المؤمنين حتى وصلوا إلى النجف، فوضع مقدم السرير، فوضع الحسنان مؤخره، ثم وجدوا حجراً كتب عليه: «هذا ما ادخره آدم ونوح للعبد الصالح علي بن أبي طالب»(٥١٨) فلما كشفوا عن القبر وأرادوا إنزاله سمعوا هاتفاً يقول: أنزلوه إلى التربة الطاهرة فقد اشتاق الحبيب إلى الحبيب. وانتهى الدفن قبل الفجر وأخفوا قبره كما أوصى به، لأنه عليه السلام كان يعلم عداوة الخوارج والأعداء له، وكان القبر مخفياً عن الناس لا يعرف به إلا أولاد الإمام وأخصاء الشيعة إلى أيام هارون الرشيد.

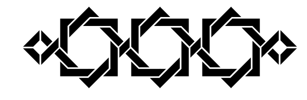
مصائب وأحزان أولاد الإمام عليه السلام

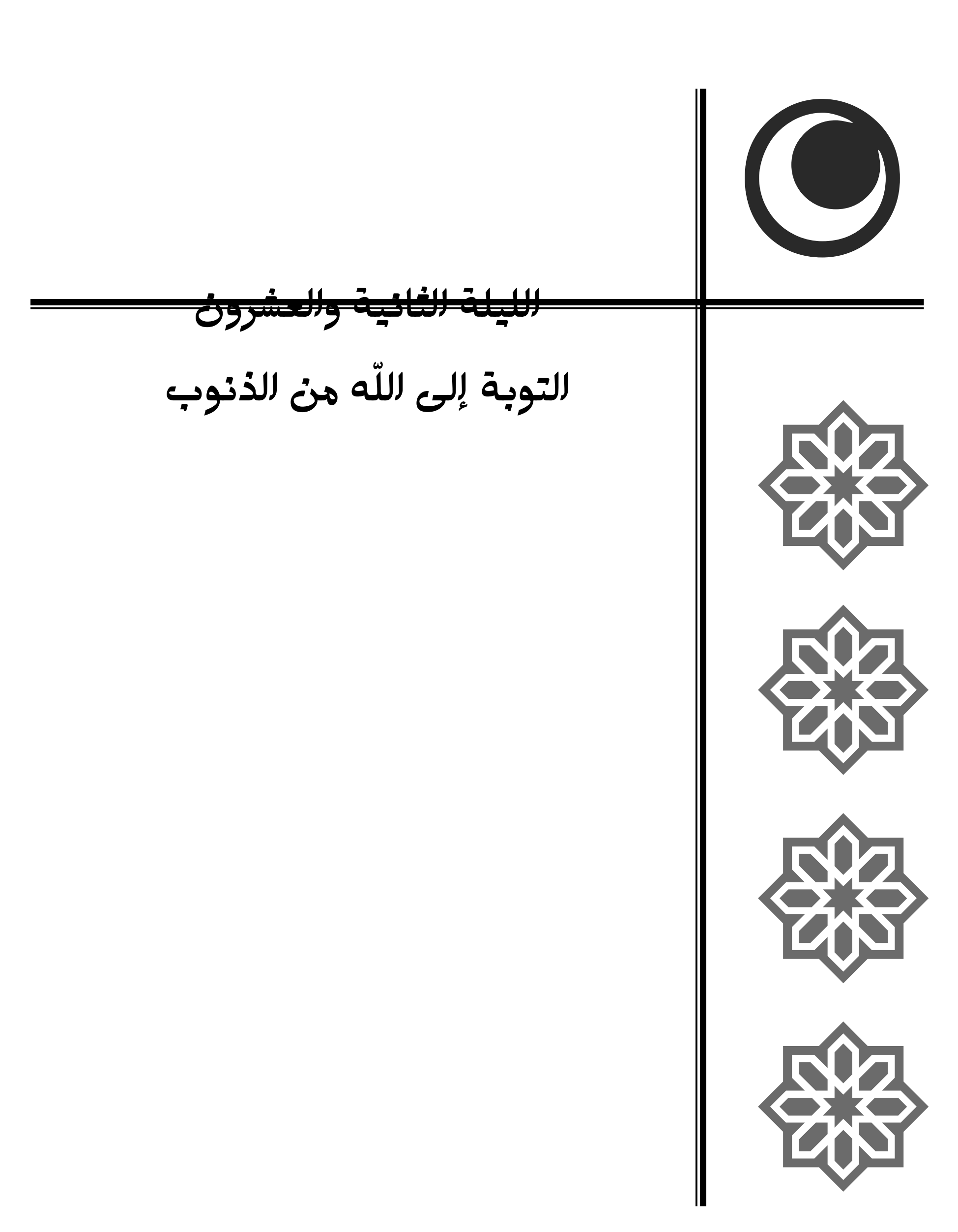
لما فرغ أولاد الإمام من دفن أبيهم أمير المؤمنين عليه السلام هاج بهم الحزن وسالت دموعهم على خدهم. ورجعوا إلى الكوفة، وفي الطريق سمع الحسنان بكاءً ونحيباً من كوخ صغير على جادة الطريق فدخلا فيه، فإذا بشيخ كبير ضرير يبكي، فدنا منه الحسنان، وقالا له: ما بالك تبكي بكاء من ثُكلت بوحيدها، فقال الشيخ بصوت ضعيف: كان يتعهدني رجل كريم في كل ليلة، يأتيني بطعامي ويؤنس وحدتي، ومنذ ثلاث لم يأت إليّ، فبكى الحسنان، وقال له: عظم الله لك الأجر يا شيخ في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فبكى الشيخ وأبكى من حوله(٥١٩)، ويحق لجميع المسلمين بالأخص الموالين لعلي عليه السلام أن يبكوا عليه في مثل هذه الليلة، لأنه كان إماماً عادلاً وأباً حنوناً لجميع

(٥١٨) بحار الأنوار ٤٢: ٢٩٥ ح٥٨.
(٥١٩) المصدر السابق.

المسلمين حيث يقول الرسول ﷺ: «يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة»، وقد تيتمت هذه الأمة في مثل هذه الليلة، وفجعت بمقتله وشهادته فلابد من أن نواسي بالبكاء الحسنين والحوراء زينب عليها السلام، هذا وهم مقبلون على العيد، وقد تبدل عيدهم بعزاء علي والدهم الحنون.

ألا يا عين ويحكي فاسعدينا ألا فأبكي أمير المؤمنينا
أ في شهر الصيام فجعتمونا بخير الناس كلا اجمعينا
وكنا قبل مقتله بخير نرى المولى رسول الله فينا
فلا والله لا أنسى عليا وحسن صلاته في الراكعينا
إمام صادق بر تقي فقيه قد جرى علما ودينا
وتبكي أم كلثوم عليه بعبرتها وقد علت الحنينا





الليلة الثانية والعشرون

التوبة إلى اللّه من الذنوب

- الذنوب وآثارها السلبية
- موقف الإسلام والمسلمين من المذنبين
- التوبة أو الرجوع إلى اللّه تعالى
- من قصص التائبين

الليلة الثانية والعشرون

التوبة إلى اللّه من الذنوب

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُواْ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ

التحريم: ٨

ومما جاء في خطبته ﷺ: «وتوبوا إلى اللّه من ذنوبكم...».

من خطبة الرسول ﷺ الشعبانية



الذنوب وآثارها السلبية

الذنب في اللغة هُو الإثم والجرم والمعصية، وفي اصطلاح الشريعة الإسلامية، ارتكاب فعل منهي عنه، أو ترك فعل مأمور به.

والذنوب تنقسم إلى ما يكون بين العبد وربه وتسمّى حقوق اللّه، كترك العبادات، وإلى

ما بين العباد أنفسهم وتسمّى حقوق الناس، كقتل النفس والسرقة وغيرها، وبعض هذه الذنوب كبير وبعضها صغير، والمشهور عند العلماء أن الكبائر من الذنوب هي التي توعد اللّه مرتكبيها بالنار، فعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[٥٢٠] قال: «الكبائر التي أوجب اللّه عليها النار»[٥٢١]، وعنه عليه السلام: «أنه سئل عن الكبائر فقال: هي في كتاب علي عليه السلام سبع: الكفر باللّه، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وأكل الربا بعد البينة، وأكل مال اليتيم ظلماً، والفرار من الزّحف، والتعرب بعد الهجرة، قيل له: فأكل درهم من مال اليتيم ظلماً اكبر أم ترك الصلاة؟ قال: ترك الصلاة قيل: فما عددت ترك الصلاة في الكبائر،فقال: أي شيء أول ما قلت لك؟ قال الكفر، قال عليه السلام: «فانّ تارك الصلاة كافر»[٥٢٢].

والذنوب الصغيرة تكبر بالإصرار والاستهانة، ومعنى الإصرار أن يذنب العبد فلا يستغفر ولا يحدّث نفسه بتوبة، ومن نيته أن يقيم عليه، ومعنى الاستهانة: أن يقلل من أهمية الذنب فإن ذلك يوجب لانقلابه كبيراً.

ومهما كانت الذنوب وبأي شكل من الأشكال، فهي في الواقع مخالفة للّه، وخروج عن طاعته، وهي من الأمور التي يدرك العقل، وينطق الشرع بذمّها وقبحها لما تحمله من آثار وخيمة وتبعات جسيمة على الفرد والمجتمع، في الدنيا والآخرة ومن جميع الجهات.

---

(٥٢٠) النساء: ٣١.

(٥٢١) أصول الكافي ٢: ٢٧٦.

(٥٢٢) أصول الكافي ٢: ٢٧٨.

الأول: تأثير الذنوب على روح الإنسان وقلبه:

عن رسول اللّه ﷺ: «ما من عبدٍ مؤمن إلاّ وفي قلبه نكتة بيضاء، فإن أذنب، خرج من تلك النكتة نكتة سواد، فإن تاب انمحت، وإن تمادى في الذنوب اتسع ذلك السواد حتَّى يغطي البياض، فإذا غطّى البياض لم يرجع صاحبه إلى خيرٍ أبداً»[٥٢٣]، وهو قول اللّه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٥٢٤]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما جفَّت الدموع إلاّ لقسوة القلوب، وما قست القلوب إلاّ لكثرة الذنوب»[٥٢٥]، وعنه قال عليه السلام: «لا وجع أوجع للقلوب من الذنوب»[٥٢٦].

الثاني: تأثير الذنوب على عبادة الإنسان:

إنَّ كثرة الذنوب تسلب التوفيق للطاعة، والعبادة والتلذذ بالدعاء، والمناجاة مع قاضي الحاجات، كما أنها تمنع الإجابة. فعن الإمام الصادق عليه السلام قال اللّه تعالى: «إنّ أدنى ما اصنع بالعبد، إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي»[٥٢٧]، وروي عنه عليه السلام «أن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل، وإن العمل السيء أسرع في صاحبه من السكين في اللحم»[٥٢٨]، وروي عنه عليه السلام: «إن الرجل ليكذب فيحرم بها صلاة الليل، فإذا حرم صلاة الليل حرم الرزق»[٥٢٩].

(٥٢٣) أصول الكافي٢: ٢٧٣، بحار الأنوار ٧٣: ٣٣٢.
(٥٢٤) المطففين: ١٤.
(٥٢٥) علل الشرايع: ٨١، وسائل الشيعة ١١: ٣٣٧، بحار الأنوار ٧: ٥٥.
(٥٢٦) أصول الكافي ٢: ٢٧٥، بحار الأنوار ٧٣: ٢٤٢.
(٥٢٧) إحياء الفكر الديني ٤: ٥٢.
(٥٢٨) أصول الكافي ٢: ٢٧٢، بحار الأنوار ٧٣: ٢٧٣.
(٥٢٩) التهذيب ٢: ١٢٢ ح ٤٦٣.

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «إن العبد يسأل الله الحاجة فيكون من شأنه قضاؤها إلى أجل قريب أو إلى وقت بطيء، فيذنب العبد ذنباً فيقول الله للملك: لا تقضي حاجته واحرمه إياها، فإنه تعرض لسخطي واستوجب الحرمان منها»[٥٣٠].

ولذا ورد في دعاء كميل لأمير المؤمنين عليه السلام: «اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء،... فأسألك بعزتك أن لا يحجب عنك دعائي سوء عملي وفعالي».

الثالث: تأثير الذنوب في جلب المكاره والمصائب وسلب النعم:

يقول اللّه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمنوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السماء وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَهُم بما كانوا يَكْسِبُونَ﴾[٥٣١].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «ما من بلية ولا نقص رزقٍ ولا عرقٍ يضرب ولا نكبة ولا صداعٍ ولا مرضٍ حتى الخدش والكبوة والمصيبة إلاّ بذنب»، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَصَبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾[٥٣٢]، ثم قال: «وما يعفو اللّه عنه أكثر مما يؤاخذ به»[٥٣٣]، وروي: أن من يموت بالذنوب أكثر ممن يموت بالآجال»[٥٣٤].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «إنَّ الله قضى حتماً أن لا ينعم على العبد بنعمه فيسلبها إياه

(٥٣٠) أصول الكافي ٢: ٢٧١، بحار الأنوار ٧٣: ٣٢٩.

(٥٣١) الأعراف: ٩٦.

(٥٣٢) الشورى: ٣٠.

(٥٣٣) أصول الكافي ٢: ٢٦٩، بحار الأنوار ٧٣: ٣١٤ و٣٥٠.

(٥٣٤) بحار الأنوار ٥: ١٤٠.

حتى يحدث العبد ذنباً يستحق بذلك النقمة»[٥٣٥].

وروي أنه: «إذا غضب اللّه على أمة، ولم ينزل بها العذاب، غلت أسعارها، وقصرت أعمارها، ولم تربح تجّارها، ولم تزك ثمارها، ولم تغزر أنهارها، وحبس عنها أمطارها، وسلط عليها أشرارها»[٥٣٦].

الرابع: **تأثير الذنوب في عذاب الآخرة وعقابها**:

يقول اللّه تعالى: ﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٥٣٧]، ويقول تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ له نَارَ جَهَنَّمَ﴾[٥٣٨]، وروي: «من أذنب وهو ضاحك، دخل النار وهو باكٍ»[٥٣٩].

موقف الإسلام والمسلمين من المذنبين

يتجه الإسلام إلى معالجة المذنبين، والمنع من سراية هذا المرض إلى الآخرين، ومن أجل توفير الجو الاجتماعي اللازم للمعالجة يحذّر الإسلام تحذيراً شديداً من تعيير المذنب وملامته، بحيث يقول الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «كان آخر ما أوصى به الخضر موسى بن عمران عليه السلام أن قال له: «لا تعيرنَّ أحداً بالذنب»[٥٤٠]، وحذّر الإسلام من ردود الفعل الناتجة عن التعيير، فقد جاء في قول الإمام علي عليه السلام: «الإفراط في

---

(٥٣٥) أصول الكافي ٢: ٢٧٣.

(٥٣٦) أصول الكافي ٥: ٣١٧، بحار الأنوار ٥٨: ٣٣٤.

(٥٣٧) البقرة: ٨١.

(٥٣٨) الجن: ٢٣.

(٥٣٩) ثواب الأعمال: ٢٤٦، وسائل الشيعة ١١: ٢٤٠.

(٥٤٠) بحار الأنوار ٧٣: ٣٨٦.

الملامة يشبُّ نيران اللجاج»[٥٤١].

لكن عدم تعيير المذنبين لا يعني زوال سدود المناعة بين المذنب وأفراد المجتمع فلا بُدَّ من إيجاد الموانع، ومن تلك الموانع والحواجز النفسية التحذير عن مصاحبة المذنبين يقول الإمام علي عليه السلام: «إيّاك ومصاحبة الفاسق فإنه بايُعك بأكلة أو أقلّ من ذلك»[٥٤٢]، ويقول عليه السلام: «لا تصحب الشرير فإنَّ طبعك يسرق من طبعه شراً وأنت لا تعلم»[٥٤٣]، وعن رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «المرء على دين خليله وقرينه»[٥٤٤].

ومن أجل خلق المناعة النفسية في ذات المسلم من التلوث بأمراض المذنبين، يأمر الإسلام أن تشمئز نفوسنا من الذنب ومرتكبه. فعن علي عليه السلام قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله أن نلقى المذنبين بوجوه مكفهرة وعن الصادق عليه السلام: «أدنى الإنكار أن يلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهرة»[٥٤٥]، وروي أن عيسى عليه السلام قال: تحببوا إلى اللّه ببغض أهل المعاصي، وتقربوا إلى اللّه بالتباعد عنهم، والتمسوا رضا اللّه بسخطهم»[٥٤٦].

وفي ختام البحث عن موقف الإسلام والمسلمين من المذنبين؛ نذكّر موقفين لرسول اللّه صلى الله عليه وآله والمسلمين إزاء هؤلاء وكيفية توبتهم، ثم نتطرق لحقيقة التوبة وفضلها وآثارها.

الموقف الأول: مقاطعة المتخلفين عن الجهاد

في السنة التاسعة للهجرة بلغ نبأ انعقاد معاهدة بين قبائل شمال الجزيرة العربية

---

(٥٤١) تحف العقول: ٨.

(٥٤٢) أصول الكافي (المترجم) ٤: ٨٦.

(٥٤٣) شرح ابن أبي الحديد ٢: ٥٣٨.

(٥٤٤) أصول الكافي (المترجم) ٤: ٨٣.

(٥٤٥) التهذيب ٦: ١٧٦.

(٥٤٦) جامع السعادات ٣: ١٨٧.

وامبراطور الروم للهجوم على المدينة، فجهّز رسول اللّه ﷺ جيشاً واتجه إلى تبوك، فتخلف عن تلك الحملة مجموعة من المنافقين وآخرون من المسلمين لأسباب مختلفة، وكان ممن تخلف كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، فلم يخرجوا معه، لا عن نفاق ولكن عن تهاون وتساهل، ثم ندموا.

ولما قدم النبي ﷺ إلى المدينة عائداً من الغزوة جاؤوا اليه واعتذروا فلم يكلمهم النبي ﷺ، وأمر المسلمين أن لا يكلموهم.

فهجرهم الناس حتى الصبيان، وجاءت نساؤهم إلى رسول اللَّه ﷺ فقلن له: يا رسول اللَّه نعتزلهم؟ فقال لا،ولكن لا يقربوكن. فضاقت عليهم الدنيا، فخرجوا إلى رؤوس الجبال، وكان أهاليهم يجيئون لهم بالطعام ولا يكلمونهم.

قال بعضهم لبعض قد هجرنا الناس ولا يكلمنا أحد منهم، فهلاّ نتهاجر نحن أيضا؟! فتفرقوا، ولم يجتمع منهم اثنان، وبقوا على ذلك خمسين يوماً يتضرعون إلى اللّه تعالى ويتوبون إليه، فقبل اللَّه تعالى توبتهم ونزلت الآية فيها إشارة إلى قبول توبتهم: ﴿وَعَلَى الثَّلَثَة الَّذِينَ خُلِّفواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لا ملجأ مِنَ اللَّهِ إِلاّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٥٤٧].

الموقف الثاني: أخاف أن أحترق بنارك!

روى الشيخ الصدوق: أنه دخل معاذ بن جبل على رسول اللّه ﷺ باكياً، فسلم عليه فردَّ ﷺ ثم قال ﷺ: ما يبكيك يا معاذ؟! فقال: يا رسول اللَّه إن بالباب شاباً طريّ

---

(٥٤٧) التوبة: ١١٨.

الجسد نقي اللون حسن الصورة يبكي كبكاء الثكلى، يريد الدخول عليك، فقال النبي ﷺ أدخله عليّ، فأدخله عليه، فسلّم على الرسول، ثم قال له: «ما يبكيك يا شاب؟» قال الشاب: كيف لا أبكي وقد ارتكبت ذنوباً لو أخذني اللَّه عز وجل ببعضها أدخلني نار جهنم، ولا أراني إلا سيأخذني بها ولا يغفر لي أبداً.

قال رسول اللَّه ﷺ: هل أشركت باللَّه شيئاً؟

قال الشاب: أعوذ باللَّه أن أشرك بربي شيئاً.

قال النبي ﷺ: أقتلت النفس التي حرّم اللَّه؟

قال الشاب: لا.

قال النبي: يغفر اللَّه لك ذنوبك وإن كانت مثل الجبال الرواسي.

قال الشاب: فإنها أعظم من الجبال الرواسي.

قال النبي: يغفر اللَّه لك ذنوبك وإن كانت مثل الأرضيين السبع وبحارها، ورمالها وأشجارها، وما فيها من الخلق.

قال الشاب: فإنها أعظم من ذلك.

قال النبي: يغفر اللَّه لك ذنوبك وإن كانت مثل السماوات ونجومها ومثل العرش والكرسي.

قال الشاب: فإنها أعظم من ذلك.

قال الراوي: فظهر النبي ﷺ كهيئة الغضبان، ثم قال: ويحك يا شاب ذنوبك أعظم أم ربك؟!

فخرّ الشاب لوجهه وهو يقول: سبحان اللَّه ربي ما شيء أعظم من ربي، فقال النبي ﷺ: ويحك يا شاب ألا تخبرني بذنب واحد من ذنوبك.

قال الشاب: بلى أخبرك، إني كنت أنبش القبور سبع سنين أخرج الأموات، وأنزع الأكفان، فماتت جارية من بعض بنات الأنصار، فلما حملت إلى قبرها ودفنت وانصرف عنها أهلها، وجن عليها الليل، أتيت قبرها، فنبشته، ثم استخرجتها، ونزعت ما كان عليها من أكفانها، وتركتها متجردة على شفير قبرها ومضيت منصرفاً، فأتاني الشيطان، وأقبل يزينها لي، ولم يزل يوسوس حتى رجعت إليها، ولم أملك نفسي حتى جامعتها وتركتها مكانها، فإذا أنا بصوت من ورائي يقول: يا شاب ويل لك من ديان يوم الدين، يوم يوقفني وإياك كما تركتني عارية في عساكر الموتى، ونزعتني من حفرتي، وسلبتني أكفاني وتركتني أقوم جنبة إلى حسابي، فويل لشبابك من النار.. ثم قال: فما أظن أني أشم ريح الجنة أبداً، فما ترى لي يا رسول اللَّه؟!

فقال النبي ﷺ: تنح عني يا فاسق إني أخاف أن أحترق بنارك، فما أقربك من النار!! ثم لم يزل ﷺ يقول ويشير إليه بالخروج حتى خرج من بين يديه. فأتى المدينة فتزود منها، ثم أتى إلى بعض جبالها، فتعبد فيها ولبس مسحا وغلَّ يديه جميعاً إلى عنقه، وأخذ يبكي ويدعو ويتضرع حتى بكى الوحش لبكائه وحن الطير عليه فمضى عليه أربعون ليلة وهو بهذه الحالة. ثم رفع يديه بعدها إلى السماء وقال: اللّهم ما فعلت في حاجتي؟ إن كنت استجبت دعائي وغفرت خطيئتي فأوح إلى نبيك، وإن لم تستجب لي دعائي ولم تغفر لي خطيئتي وأردت عقوبتي فعجل بنار تحرقني أو عقوبة في الدنيا تهلكني، وخلصني من فضيحة يوم القيامة، فانزل اللَّه تبارك وتعالى على نبيه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا

الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَٰمِلِينَ﴾(٥٤٨)، فلما نزلت هذه الآية على رسول اللّه ﷺ خرج وهو يتلوها ويبتسم، فطلب من أصحابه أن يدلوه على مكان ذلك الشاب التائب، فذهب إليه مع أصحابه فإذا بالشاب قائم بين صخرتين مغلولة يداه إلى عنقه، وقد اسود وجهه وتساقطت أشفار عينيه من البكاء، فدنا منه رسول اللّه ﷺ فأطلق يديه من عنقه ونفض التراب عن رأسه، وقال له: أبشرك فانك عتيق اللّه من النار، ثم قال ﷺ لأصحابه: هكذا تداركوا الذنوب كما تداركها بهلول الشاب، ثم تلا عليه ما أنزل اللّه عز وجل فيه وبشره بالجنة.(٥٤٩)

التوبة والرجوع إلى اللّه تعالى

بما أن الإنسان العادي عنده الغرائز والشهوات والطموحات، ويريد أن يحصل على الكثير من الملّذات الدنيوية، فهو معرض لمخالفة أوامر اللّه ونواهيه، عن عمدٍ أو سهوٍ أو قصور أو تقصير، فيرتكب أحياناً الذنوب والمعاصي من الصغائر أم من الكبائر، فلابد لمرتكب هذه الذنوب من طريق الرجوع والتخلص منها ليمحوا آثارها وينجوا من عقابها، والطريق الوحيد هو الاستغفار والتوبة، وهو الباب الذي فتحه اللّه لجميع عباده لطفاً ورحمة منه سبحانه وتعالى، ولو لا ذلك لم ينج أحد من العذاب،فهي فرصة جديدة للإنسان التائب أن يبدأ بحياة جديدة، خالية من الذنوب.

والتوبة من العبد هي الندم من الذنوب، والرجوع إلى الصراط المستقيم بعد الانحراف عنه، وتتحقق ضمن دعائم وشروط حتى تصبح توبة صادقة نصوحاً، ودعائم التوبة كما

(٥٤٨) آل عمران: ١٣٥ و١٣٦.
(٥٤٩) بحار الأنوار ٢٦: ٢٣.

جاء عن الإمام علي عليه السلام أربعة: «ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وعمل بالجوارح، وعزم على أن لا يعود»،[٥٥٠]، وروي عنه عليه السلام، أنه سمع رجلاً يقول: أستغفر اللّه فقال له: «ثكلتك أمك أو تدري ما الاستغفار؟! الاستغفار درجة العليين، وهُو اسم واقع على ست معان: الندم على ما مضى، والعزم على ترك العود إليه أبداً، وأن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى اللّه أملس[٥٥١] ليس عليك تبعة، وأن تعمد إلى كل فريضة ضيعتها فتؤدي حقها، وأن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت[٥٥٢] والمعاصي فتذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحم جديد، وأن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، عند ذلك تقول: أستغفر اللّه»[٥٥٣]

ونستنتج من هذا الحديث طريق التوبة، وكيفية التخلص من تبعات الذنوب، فإن للذنوب صوراً وجوانب مختلفة: منها ما يكون بين العبد وخالقه، وتسمى حقوق الله، وهي قسمان ترك الواجبات وفعل المحرمات، وطريق التوبة من ترك الواجبات بعد الندم والاستغفار هو الاجتهاد في قضائها وتلافيها، وأما فعل المحرمات فسبيل التوبة منها الندم على ارتكابها، والعزم الصادق على تركها.

ومن الذنوب: ما تكون بين العبد وأفراد المجتمع، وتسمى حقوق الناس، وهي أشدّها مسؤولية، وأعسرها تلافياً، كغصب الأموال، وقتل النفوس البريئة المحرمة، وغيرها،

---

(٥٥٠) إرشاد القلوب ١: ٤٧.

(٥٥١) شيء أملس أي: لا خشونة فيه، نزّل حقوق الناس، منزلة الخشونة، فمن أداها بتمامها فكأنما أزالها فصار أملس ولم يبق عليه خشونة.

(٥٥٢) هو الحرام، ويسمى الحرام سحتاً لأنه يسحت مروؤة الإنسان أي: بتأصله.

(٥٥٣) نهج البلاغة ٥: ٤٤٤ ح٣٩٢.

والتوبة منها بإرضاء الخصوم وأداء حقوقهم، فإن عجز عن ذلك فعليه بالاستغفار، والتضرع إلى اللّه عز وجل، بأن يرضيهم عنه بأعمال صالحة يهبها لهم تنفعهم في يوم الحساب، وبهذا تكون التوبة، صادقة ومقبولة، وينال بها التائب شرف الرضوان والمحبة من اللّه سبحانه حيث يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾(٥٥٤).

ومن شروط التوبة: التعجيل في محو السيئة بالتوبة ولا يؤخرها، لأنَّ من ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف(٥٥٥) كان بين خطرين، أحدهما: أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير ريناً وطبعاً، فلا يقبل المحو والتوبة أبداً والثاني: أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو بالتوبة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَة عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَلَة ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عليماً حكيماً ۞ وَلَيْسَتِ التَّوْبَة لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الآن وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كفار أولئك أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾(٥٥٦).

والتوبة إلى اللّه والرجوع إليه واجب على جميع الناس، بحكم العقل والشرع، أما العقل فيحكم بوجوب الاحتراز عن الذنوب والأمراض المهلكة، والمفوتة للحياة السعيدة في الدارين، وأمّا حكم الشرع، فهناك آيات وروايات عديدة تأمر وتحث على لزوم التوبة، وتصرّح بأنَّ اللّه يقبل التوبة من عباده التائبين، ويحبهم ويسكنهم جناته، ومن

(٥٥٤) البقرة: ٢٢٢.

(٥٥٥) بأن يقول: سوف أتوب في المستقبل.

(٥٥٦) النساء: ١٧–١٨.

تلك الآيات قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ امنوا تُوبُواْ إِلى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أن يُكَفِّرَ عَنكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّتٍ تجرى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ﴾[٥٥٧]. والتوبة النصوح أن يتوب العاصي والمذنب، ويستقيم إلى آخر عمره. وقوله تعالى: ﴿وَتُوبُواْ إِلى اللَّهِ جَمِيعاً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٥٥٨]، يستفاد من كلمة جميعاً في الآية، أن المخاطبين هم جميع الناس، ومنهم الأنبياء والأولياء والصالحين، فكل البشر يحتاجون إلى التوبة بمعناها العام، وهُو الرجوع إلى اللّه سبحانه، ولكن كل إنسان حسب درجته ومنزلته، ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن رسول اللّه صلى الله عليه وآله كان يتوب إلى اللّه ويستغفر اللّه، ويستغفر في كل يوم وليلة مئة مرة من غير ذنب، إنَّ اللَّه يخص أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب، فإن ذنب كل أحدٍ إنّما هو بحسب قدره ومنزلته عند اللّه»[٥٥٩]، ولهذا ورد في الحديث: «إن حسنات الأبرار سيئات المقربين».

وفي الأخبار والروايات الكثيرة ما يؤكد على لزومها وفضلها وفوائدها وآثارها، تركناها للاختصار واكتفينا بحديثين الأول: عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «التائب حبيب اللّه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له»،[٥٦٠] والثاني: عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه اللّه فستر عليه في الدنيا والآخرة»[٥٦١].

---

(٥٥٧) التحريم: ٨.

(٥٥٨) النور: ٣١.

(٥٥٩) أصول الكافي ٢: ٤٥٠.

(٥٦٠) إحياء الدين ٤: ٦.

(٥٦١) أصول الكافي ٢: ٤٣٠.

من قصص التائبين

١ - توبة قوم يونس على يد العالم

عن ابن أبي عمير، عن جميل قال: قال لي أبو عبد اللّه عليه السلام: ما ردَّ اللّه العذاب إلاّ عن قوم يونس، وكان يونس يدعوهم إلى الإيمان فيأبون ذلك، فهمَّ أن يدعو عليهم وكان فيهم رجلان: عابد وعالم، وكان إسم أحدهما مليحا، والآخر روبييل، فكان العابد يشير على يونس بالدعاء عليهم، وكان العالم ينهاه ويقول: لا تدع عليهم، فإن اللّه يستجيب لك، ولا يحب هلاك عباده، فقبل قول العابد ولم يقبل من العالم فدعا عليهم، فأوحى اللّه إليه: يأتيهم العذاب في سنة كذا، في شهر كذا، في يوم كذا، فلما قرب الوقت خرج يونس من بينهم مع العابد، وبقي العالم فيهم، فلما كان في ذلك اليوم الموعود نزل العذاب، فقال العالم لهم: يا قوم افزعوا إلى اللّه فلعله يرحمكم ويرد العذاب عنكم، فقالوا: كيف نصنع؟ قال: اجتمعوا واخرجوا إلى المفازة وفرّقوا بين النساء والأولاد، وبين الإبل ورضعانها، وبين البقر وفصيلها، وبين الغنم وسخالها، ثم ابكوا وادعوا، فذهبوا وفعلوا ذلك وضجوا وبكوا، فرحمهم اللّه وصرف عنهم العذاب، وفرق العذاب على الجبال، وقد كان نزل وقرب منهم، فأقبل يونس ينظر كيف أهلكهم اللّه فرأى الزارعون يزرعون في أرضهم، فقال لهم: ما فعل قوم يونس؟

فقالوا لـه ـ ولم يعرفوه ـ: إن يونس دعا عليهم فاستجاب اللّه له، ونزل العذاب عليهم، فاجتمعوا وبكوا ودعوا فرحمهم اللّه وصرف ذلك عنهم، وفرّق العذاب على

الجبال، فهم إذن يطلبون يونس ليؤمنوا به.[٥٦٢]

٢ - توبة الجارية على يد الإمام الكاظم عليه السلام

لما كان الإمام الكاظم عليه السلام في سجن السندي بن شاهك، في بغداد أرسل هارون الرشيد جارية حسناء لتخدمه في السجن. فرفض الإمام عليه السلام في الوهلة الأولى، وقال للرسول: قل لهارون الرشيد: «بل أنتم بهديتكم تفرحون لا حاجة لي في هذه ولا في أمثالها»، فرجع العامري وحكى قول الإمام عليه السلام لهارون الرشيد فاستطار هارون غضباً وقال: «إرجع إليه وقل لـه ليس برضاك حبسناك، ولا برضاك أخدمناك، واترك الجارية عنده وانصرف».

وبهذه الصورة أقامت الجارية مع الإمام موسى الكاظم عليه السلام في السجن. وأنفذ هارون الرشيد جواسيسه ليتفحصوا عن أخبار الجارية، ولكن الجارية عندما لمست عظمة الإمام الكاظم عليه السلام المعنوية تأثرت به فأخذت تقضي أوقاتها في الصلاة، ولما رآها جاسوس هارون ساجدة لربها لا ترفع رأسها تقول: «قدوس، سبحانك، سبحانك»، رفع حكايتها إلى هارون الرشيد، فقال هارون: سحرها واللّه موسى بن جعفر بسحره، عليّ بها، فأتي بها وهي ترتعد شاخصة ببصرها نحو السماء، فقال لها هارون ما شأنك؟ قالت الجارية: شأني الشأن البديع، إني كنت عنده واقفة وهو قائم يصلي ليله ونهاره، فلما انصرف من صلاته بوجهه وهو يسبح اللّه ويقدسه، قلت: يا سيدي هل لك حاجة أعطيكها؟

---

(٥٦٢) بحار الأنوار.

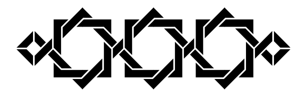
قال عليه السلام: ما حاجتي إليك؟ قلت: إني أدخلت عليك لحوائجك. قال عليه السلام: فما بال هؤلاء؟ فالتفت فإذا روضة مزهرة لا أبلغ آخرها عن أولها بنظري، ولا أولها من آخرها، فيها مجالس مغروسة بالوشي والديباج وعليها وصايف لم أر مثل وجوههم حسناً ولا مثل لباسهم لباساً، عليهم الحرير الأخضر والأكاليل والدر والياقوت، وفي أيديهم الأباريق والمناديل، ومن كل طعم، فخررت ساجدة حتى أقامني هذا الخادم. فقال لها هارون يا خبيثة لعلك سجدت فنمت فرأيت هذا في منامك؟ قالت: لا واللّه يا سيدي إلا قبل سجودي رأيت فسجدت، فأمر بها هارون الرشيد أن يدعوها تحت مراقبة شديدة فلا يسمع هذا منها أحد، فأقبلت إلى العبادة والصلاة حتى ماتت(٥٦٣).

٣ - توبة الحرّ الرياحي على يد الإمام الحسين عليه السلام

لما وقف الحر في صف عمر بن سعد كانت ترتعد فرائصه، فقال لـه قرة: يا حر مالي أراك ترتعد خوفاً، ولو قيل لي من أشجع أهل الكوفة؟ لما عدوتك، فقال له: والله إني أخير نفسي بين الجنة والنار والله لا أختار على الجنة شيئاً ثم ضرب لجام فرسه وأقبل نحو الحسين، منكّساً رمحه، قالباً ترسه، وقد طأطأ برأسه حياءً من آل الرسول، رافعاً صوته: قائلاً: اللهم إليك أنبت فتب عليّ فقد أرعبت قلوب أوليائك وأولاد نبيك ثم قال للحسين عليه السلام: السلام عليك يا أبا عبد اللّه جعلت فداك أنا الذي حبستك عن الرجوع وجعجعت بك في هذا المكان وما ظننت أن القوم يردّون عليك ما عرضته عليهم، وأنا تائب إلى اللّه مما صنعت فهل ترى لي من توبة؟ فقال لـه الحسين عليه السلام: نعم يتوب اللّه

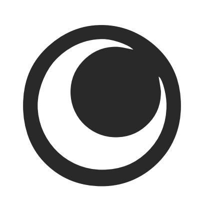
(٥٦٣) مناقب آل أبي طالب عليه السلام

عليك، ولم يكتف بذلك حتى استأذن الحسين عليه السلام في أن يكلّم القوم، فأذن له، فنادى بعسكر عبيد اللّه يعظهم ويبيّن لهم الحقّ، إلاّ أنّ القوم حملوا عليه بالنبل، حتّى نزل إلى ساحة المعركة يدافع عن الإمام الحقّ أبي عبد اللّه الحسين عليه السلام، فقتل من أعداء اللّه نيّفاً وأربعين، ثمّ شدّت عليه الرجّالة غدراً فصرعوه، فأبّنه الحسينُ عليه السلام، وحزن عليه؛ وقال: قتلة مثل قتلة النَّبيين وآل النَّبيين، ثمّ التفت إلى الحرّ - وكان به رمق فقال عليه السلام لـه - وهو يمسح الدم عنه: أنت الحرُّ كما سمَّتك أُمُّك، وأنت الحرُّ في الدنيا وسعيد الآخرة[٥٦٤].



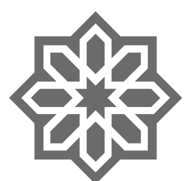
(٥٦٤) نقلت قصة الحرّ وتوبته الكثير من كتب التاريخ والمقاتل منها تاريخ الطبري ومناقب شهر آشوب وغيرها من الكتب.

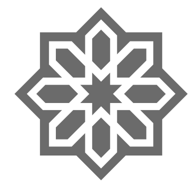


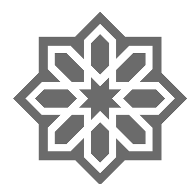


الليلة الثالثة والعشرون

في رحاب ليلة القدر المباركة







- معنى القدر لغةً واصطلاحاً
- فضل ليلة القدر
- تعيين ليلة القدر
- أعمال ليالي القدر





الليلة الثالثة والعشرون

في رحاب ليلة القدر المباركة

إنّا أنزلناه في ليلة القدر ۞ وما أدراك ما ليلة القدر ۞ ليلة القدر خيرٌ من ألف شهرٍ ۞ تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربّهم من كلّ أمرٍ ۞ سلامٌ هي حتّى مطلع الفجر

سورة القدر

وقال رسول الله ﷺ: «إنّ الله اختار من الأيّام الجمعة ومن الشُهُر شهر رمضان ومن الليالي ليلة القدر».

بحار الأنوار ٢٥: ٣٦٣/ ٢٢



معنى القدر لغة واصطلاحاً

القدر في اللغة كون الشيء مساوياً لغيره من غير زيادة ونقصان. ومعنى قدّر الله هذا الأمر، إذا جعله على مقدار ما تدعو إليه الحكمة، وقيل: إن القدر بمعنى الشرف والحظ، وعظيم الشأن والمنزلة من قولهم: رجل لـه قدر عند الناس، أي: منزلة.

وكلا هذين المعنيين للقدر، يصدق ويطلق على ليلة القدر المباركة، فإنها الليلة التي

يقدّر الله فيها ما يكون في السنة القادمة بأجمعها، وهي الليلة التي شرّفها الله، وعظّم شأنها لنزول القرآن الكريم فيها على رسول ذي قدرٍ وشأن عظيم ولنزول الملائكة والروح فيها.

فضل ليلة القدر

حسبك في فضلها أن الله تعالى أنزل في حقها سورة تتلى وآيات تقرأ وأنزل فيها القرآن الكريم إلى البيت المعمور دفعة واحدة. قال تعالى: ﴿انَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٥٦٥]، وهي ليلة لا يضاهيها في الفضل سواها من الليالي والعمل فيها خير من عمل ألف شهر، وفيها يُقدّر شؤون السنة لكل أحد.

وهي الليلة المباركة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾[٥٦٦] لأن الله عز وجل ينزّل الخير والبركة والمغفرة فيها، فإذا كانت ليلة القدر، أمر الله تعالى جبرئيل فهبط في كتيبة من الملائكة إلى الأرض...، فيسلمون على كل قائم وقاعد ومصلٍّ وذاكر، ويصافحونهم ويؤمّنون على دعائهم حتى يطلع الفجر، فإذا طلع الفجر نادى جبرئيل: يا معشر الملائكة، الرحيل الرحيل. فيقولون: يا جبرئيل، فماذا صنع الله تعالى في حوائج المؤمنين من أمة محمد ﷺ فيقول: إن الله تعالى نظر إليهم في هذه الليلة وعفا عنهم وغفر لهم إلاّ أربعة: مدمن الخمر، والعاق لوالديه، والقاطع الرحم، والمشاجن.[٥٦٧]

---

(٥٦٥) القدر: ١.

(٥٦٦) الدخان: ٣.

(٥٦٧) بحار الأنوار ٩٦: ٣٣٨.

وقد ورد في فضلها عن الباقر عليه السلام: «من أحيا ليلة القدر غفرت ذنوبه ولو كانت عدد نجوم السماء ومثاقيل الجبال ومكاييل البحار»(٥٦٨).

ـ وهي الليلة التي ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾(٥٦٩) يقدر الله عز وجل فيها ما يكون من حياة أو موت أو خير أو شر أو رزق، وكل أمر من الحق ومن الباطل، وله فيها البداء والمشيئة، يقدم ما يشاء ويؤخّر ما يشاء!

واعلم أن للإنسان أجلان؛ الأجل غير مسمى فهو أجل موقوف يقدم فيه ما يشاء ويؤخر ما يشاء، وأما الأجل المسمى فهو الأجل المحتوم.

ـ وهي رأس السنة، يكتب فيها ما يكون من السنة إلى السنة، عن أبي عبد الله: «غرة الشهور، شهر رمضان، وقلب شهر رمضان ليلة القدر»(٥٧٠). وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الله اختار من الأيام الجمعة، ومن الشهور شهر رمضان، ومن الليالي ليلة القدر»(٥٧١).

وسئل الصادق عليه السلام: كيف تكون ليلة القدر خيراً من ألف شهر؟ قال: «العمل الصالح فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر»(٥٧٢).

ـ ومما ورد في فضل هذه الليلة المباركة أن الدعاء فيها لا يرد. وورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إن الشيطان لا يخرج في هذه الليلة حتى يضيء فجرها ولا يستطيع أن يصيب

(٥٦٨) بحار الأنوار ٩١: ٧٣.
(٥٦٩) الدخان: ٤.
(٥٧٠) بحار الأنوار ٥٨: ٣٧٦.
(٥٧١) بحار الأنوار ٢٥: ٣٦٣.
(٥٧٢) المصدر السابق.

فيها أحدا بختل أو داء أو ضرب من ضروب الفساد ولا ينفذ فيها سحر ساحر»[٥٧٣].

قد اتفق علماؤنا على أن ليلة القدر باقية لم ترفع وسئل الصادق عليه السلام عن ليلة القدر كانت وتكون في كل عام؟ فقال: «لو رفعت ليلة القدر لرفع القرآن». وقال بعض علماء السنّة: إن ليلة القدر كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ثم رفعت، واتفق أكثرهم على أنها باقية إلى يوم القيامة.

تعيين ليلة القدر

لا شك ولا ريب أن ليلة القدر هي في شهر رمضان بصريح آيات القرآن واتفق أصحابنا تبعاً لروايات أهل البيت عليهم السلام أنها في شهر رمضان في كل سنة، وتدل بعض الأخبار على أن عدم تعيينها لأجل المحافظة على الشهر كله.

واتفق أصحابنا على أنها لا تخرج عن إحدى ثلاث ليال، ليلة تسع عشرة وإحدى وعشرين وثلاث وعشرين، وقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن ليلة القدر فقال: «اطلبها في تسع عشرة وإحدى وعشرين وثلاث وعشرين»[٥٧٤] وقال: «التمسها في ليلة إحدى وعشرين أو ليلة ثلاث وعشرين»[٥٧٥].

وقد سئل المعصوم عليه السلام في عدة أحاديث عن ليلة القدر، فأجاب ما أيسر ليلتين فيهما تطلب، أو قال: ما عليك أن تفعل خيراً في ليلتي[٥٧٦] وقال الشيخ الصدوق: ومن أحيا

(٥٧٣) المصدر السابق.

(٥٧٤) بحار الأنوار ٩٧: ١٤٩.

(٥٧٥) بحار الأنوار ٩٧: ٢.

(٥٧٦) المصدر السابق.

هاتين الليلتين بمذاكرة العلم فهو أفضل.

وعن النبي محمد ﷺ: «من كان منكم يريد أن يقوم من الشهر شيئاً فليقيم ليلة ثلاث وعشرين»[٥٧٧].

أعمال ليالي القدر

بعدما عرفت من فضل ليلة القدر، وعظم شأنها، وشرفها، لابد أن نعرف واجبنا تجاهها وما ينبغي أن نعمله في ليلة القدر، حتى لا يضيع الثواب الجزيل الذي أعده الله عز وجل لمن عرف حق هذه الليلة المباركة وعمل فيها. وقد ورد عن رسول الإسلام وآل بيته الطاهرين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ما ينير لنا الدرب، ومما كان يوصى القيام به في ليلة القدر عدة أمور:

١ـ الغسل

فقد ورد استحباب الغسل استحباباً مؤكداً عن أبي عبد الله عليه السلام: «غسل ليلة إحدى وعشرين سُنَّة وغسل ليلة ثلاث وعشرين سُنَّة لا تتركها لأنه يرجى في إحداهما ليلة القدر».

وعن موسى بن جعفر عليهما السلام: «من اغتسل ليلة القدر وأحياها إلى طلوع الفجر خرج من ذنوبه»[٥٧٨].

وقال المجلسي رحمه الله: «الأفضل أن يغتسل عند غروب الشمس ليكون على غسل

---

(٥٧٧) المصدر السابق.

(٥٧٨) بحار الأنوار ٨٣: ١٢٢.

لصلاة العشاءين»[٥٧٩].

٢ـ إحياؤها بالعبادة

أ) الصلاة: يستحب في ليلة القدر أن يكون المؤمن في صلاة ودعاء وتضرع فإنه يرجى أن تكون تلك الليلة هي ليلة القدر فيقدر الله لـه أفضل ما يقدر لعباده الصالحين.

عن النبي صلى الله عليه وآله: «من صلى ركعتين في ليلة القدر فقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد سبع مرات فإذا فرغ يستغفر سبعين مرة فما زاد لا يقوم من مقامه حتى يغفر الله لـه ولأبويه وبعث الله ملائكة يكتبون لـه الحسنات إلى سنة أخرى... »[٥٨٠].

ب) قراءة القرآن: عن أبي عبد الله عليه السلام: «إذا كانت ليلة ثلاث وعشرين فاقرأ إنا أنزلناه في ليلة القدر ألف مرة واقرأ سورة العنكبوت والروم مرة واحدة»[٥٨١].

ج) الاجتهاد في الدعاء والاستغفار والصدقة: عن النبي صلى الله عليه وآله: «قال موسى: إلهي، أريد قربك، قال: قربي لمن استيقظ ليلة القدر، قال: إلهي، أريد رحمتك، قال: رحمتي لمن رحم المساكين ليلة القدر، قال: إلهي، أريد الجواز على الصراط، قال: ذلك لمن تصدق بصدقة في ليلة القدر، قال إلهي أريد أشجاراً من الجنة وثمارها، قال: ذلك لمن سبّح تسبيحة في ليلة القدر، قال: إلهي أريد النجاة من النار، قال: ذلك لمن استغفر في ليلة القدر، قال: إلهي، أريد رضاك، قال رضاي لمن صلّى ركعتين في ليلة القدر»[٥٨٢].

---

(٥٧٩) بحار الأنوار ٨٣: ١٢٨.

(٥٨٠) المصدر السابق.

(٥٨١) مفاتيح الجنان، أعمال شهر رمضان.

(٥٨٢) بحار الأنوار ٨٣: ١٢٨.

وقال العلامة المجلسي ﵀: إن أفضل الأعمال في هذه الليالي هو الاستغفار والدعاء لمطالب الدنيا والآخرة للنفس وللوالدين والأقارب وللإخوان المؤمنين، الأحياء منهم والأموات، والذّكر والصلاة على محمّد وآل محمّد ما تيسّر.

ومما يستحب الإتيان به في ليلة القدر هو طلب العلم كما أنه يستحب طلب العافية في هذه الليلة كما أشار إلى ذلك الشيخ الصدوق:

«ولما كانت عافية الدنيا والآخرة هي خير ما يحصل عليه الإنسان فيجب عليه أن لا ينسى طلبها في هذه الليلة المباركة، ليلة قضاء الحاجات، وليلة الرحمة، والمغفرة، فعندما سئل النبي ﷺ: إذا أدركت ليلة القدر فما أسأل ربي؟ قال: العافية».

وطبعاً طلب العافية هي أهم رصيد للإنسان، فيها يقوم بواجباته تجاه ربه وبها يصون وجهه من الناس ولهذا ورد الحث على طلبها في الكثير من الأدعية، كما في دعاء الإمام زين العابدين حيث قال: «وألبسني العافية إلى منتهى أجلي».

د) زيارة قبر الحسين ﵇: عن أبي عبد الله ﵇: «إذا كان ليلة القدر وفيها يفرق كل أمر حكيم، نادى منادٍ تلك الليلة من بطنان العرش إن الله تعالى قد غفر لمن أتى قبر الحسين ﵇ في هذه الليلة»[(٥٨٣)].

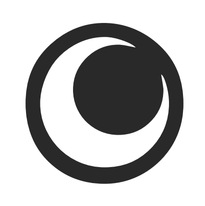
وهنا يطرح السؤال نفسه: لماذا هذا التأكيد على زيارة الإمام الحسين ﵇ في أكثر المناسبات والمقامات بحيث أصبح من أهم التوسلات والقربات التي يتقرب المؤمن بها إلى الله تعالى.

وليس هذا فحسب، بل هناك تأكيدات أخرى، منها التأكيد على استحباب اتخاذ

(٥٨٣) مفاتيح الجنان، أعمال شهر رمضان، ليالي القدر.

سمحة من تربة الحسين، والتأكيد على استحباب السجود على تربة الحسين، وأن يكتب القرآن على الكفن بتربة الحسين، فما هي الغاية من ذلك؟

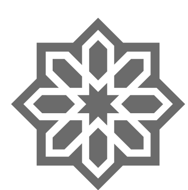
الذي نفهمه من هذه التأكيدات أن الإسلام يريد أن يبقى الحسين عليه السلام في ذاكرة الأمة، لأن بقاءه في ذاكرتها بقاء للإسلام، إذ الحسين عليه السلام ما خرج إلاّ ليصلح الأمة، وخرج حاملاً لواء النبي صلى الله عليه وآله وهو الرجوع إلى القرآن وإلى تعاليم الإسلام، وإلى الدين المحمدي الأصيل، وهو القائل: «وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي رسول الله صلى الله عليه وآله أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسرية جدي وأبي، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد علي أصبر حتى يحكم الله، والله خير الحاكمين»، وكذلك ليكون قدوة للثائرين، وكل من يهتم بإعلاء راية الإسلام عالية خفّاقة، ونحن بزيارتنا للحسين نقول إننا قبلنا بالحسين عليه السلام، وقبلنا بمبادئه الّتي خرج من أجلها، وإننا بهذه الزيارة نعاهد الحسين على مواصلة درب الإصلاح في الأمة، الّذي عبّده وخطّه بدمائه الزكية.

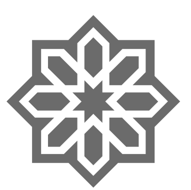


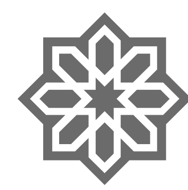
الليلة الرابعة والعشرون

المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف... ذلك المصلح المنتظر









- المهدوية في الكتب والشرايع السماوية
- المهدي الموعود في روايات أهل السنّة
- الإمامة المبكرة للإمام المهدي عليه السلام
- الغيبة الصغرى والكبرى للإمام المهدي عليه السلام
- أسباب غيبة الإمام المنتظر عليه السلام وفوائدها
- المقدّس الأردبيلي يتشرّف بلقاء الإمام عليه السلام
- كيف عمّر الإمام المهدي وعاش إلى هذا اليوم؟
- حقيقة انتظار الظهور، وأهميته في عصر الغيبة
- علائم ظهور الإمام المهدي المنتظر عليه السلام
- ظهور الإمام المهدي عليه السلام وقيام الدولة الكريمة



الليلة الرابعة والعشرون

المهدي... ذلك المصلح المنتظر(٥٨٤)

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُون

الأنبياء: ١٠٥

وقال رسول اللّه ﷺ: «يخرج في آخر الزمان رجل من ولدي ، اسمه كاسمي وكنيته ككنيتي ، يملأ الارض عدلاً كما مُلئت جوراً فذلك هو المهدي»

تذكرة الخواص: ٣٦٣، منهاج السنّة لابن تيمية ٤: ٨٦



المهدوية في الكتب والشرايع السماوية

لا أعتقد أنّ بحثاً من البحوث الإسلامية قد نال اهتمام علماء الإسلام كموضوع الإمام المنتظر المهدي الموعود عليه السلام، فقد بُحث من جميع جوانبه على ضوء الكتاب

---

(٥٨٤) باعتبار أن أحد علائم ظهور المهدي عجل الله فرجه الشريف الصيحة في السماء، وفي بعض الأخبار تحديدها في اليوم (٢٣) من شهر رمضان، فالمناسب تخصيص الكلام في هذا اليوم عن المهدي عجل الله فرجه الشريف.

والسنّة، كما تطرق لبحثه غير واحد من رجالات العلم والمعرفة في الأديان، والمذاهب السماوية لأنَّ الإيمان والاعتقاد بظهور المنقذ، والمصلح العالمي المنتظر الذي يشكل ويمثّل جوهرة الفكرة المهدوية في الإسلام، كما هو موجود عندنا موجود في تلك الأديان والمذاهب أيضاً،والإيمان بفكرة حتمية ظهور المنقذ العالمي تعبّر عن حاجة فطرية عامة للإنسان، وتقوم هذه الحاجة على تطلّع الإنسان إلى الكمال فهي فكرة قديمة، وليست مقصورة على الإسلام، وقد تعرّض القرآن لهذه الفكرة، والوعد الإلهي بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[٥٨٥]. فالزبور كتاب داوود، والذّكر هو التوراة كما جاء في التفاسير، ولابدَّ أن يتحقق هذا الوعد الإلهي يوماً ما، وإن كان هذا اليوم هو آخر يومٍ من عمر الدنيا كما ورد عن رسول اللَّه صلى الله عليه وآله: «لو لم يبقَ من الدهر إلاّ يوم واحدلبعث اللَّه رجلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً»[٥٨٦].

والآية الأخرى التي تشير إلى هذا الوعد الإلهي، قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[٥٨٧].

وهذه الآية وإن وردت في شأن بني إسرائيل، واستيلائهم على زمام الأمور بعد تخلّصهم من قبضة الفراعنة، ولكن هذا التعبير «ونريد» يشير إلى إرادة إلهية مستمرة،

(٥٨٥) الأنبياء: ١٠٥.

(٥٨٦) صحيح الترمذي ٢: ٤٦ ومسند ابن حنبل ١: ٣٧٨.

(٥٨٧) القصص: ٥.

ولذلك طبقت الآية في الكثير من الروايات على ظهور المهدي عليه السلام[٥٨٨].

إنّ أمثال هذه الآيات التي لم نذكر إلاّ نماذج منها، وغيرها من الآيات[٥٨٩] شواهد على أنَّ قيادة العالم ستنتهي لعباد اللّه الصالحين،وهذا الأمر لا خلاف فيه بين الأديان والمذاهب، وهذه الحقيقة من شأنها أن تساعد على إسقاط أربع شبهات في المسألة المهدوية في آن واحد.

فهي توضّح:

أوّلاً: بطلان الشبهة القائلة بتفرّد الشيعة بالقول بالمهدوية.

وثانياً: بطلان الشبهة القائلة بأن المهدوية أسطورة، إذ ليست هناك اسطورة تحظى باجماع الأديان السماوية، وغير السماوية ويتبناها العلماء والمفكرون والفلاسفة.

وثالثاً: بطلان الشبهة القائلة بدور اليهود في ايجاد العقيدة بالمهدوية، بحجة أن الفكرة موجودة عند اليهود وغيرهم.

كما توضّح رابعاً: بطلان الشبهة القائلة بأنَّ فكرة المهدوية وليدة الظروف السياسية الحرجة التي عاشها أتباع أهل البيت عليهم السلام،فما أكثر المظلومين والمضطهدين على مَرِّ التاريخ وعبر الزمن وفي شتى بقاع الأرض ومع ذلك لم يعرف عنهم هذا الاعتقاد، وما أكثر الأفراد والجماعات التي آمنت بهذه الفكرة بدون معاناة لظلم واضطهاد.

نعم لا ريب بحصول عوامل ضغطٍ واضطهادٍ دفعت باتجاه التمسّك بالفكرة المهدوية

(٥٨٨) الغيبة للطوسي: ١٨٤.

(٥٨٩) النور: ٥٥ وسورة التوبة: ٣٣، قوله تعالى: ﴿ليظهره على الدين كلّه﴾.

أكثَرْ لا أنها تنشيء هذه الفكرة وهذا الاعتقاد وأوجدتها من حيث الأساس.

إذن الإيمان بحتمية ظهور المصلح الديني العالمي، وإقامة الدولة الإلهية العادلة في كل الأرض من نقاط الاشتراك البارزة بين جميع الأديان والمذاهب، والاختلاف بينهم إنما هو في تحديد هوية ومصداق هذا المصلح العالمي الذي يحقق جميع أهداف الأنبياء والأوصياء. وسنبحث حول هوية هذا المنقذ والمصلح العالمي، وسوف نبرهن على أنّه قد وجد ولا زال موجوداً، ولكن غاب عن الأنظار لمصلحة علمها عند اللَّه سبحانه وتعالى، ويتطلب منّا بحثٌ كهذا الرجوع لمرويات الفريقين عن النبي صلى الله عليه وآله، والمصادر التاريخية ليتضح للجميع أنَّ ذلك المصلح العالمي العظيم قد ولد في منتصف شعبان سنة «٢٥٥» من الهجرة في سامراء وهو المهدي محمد بن الحسن العسكري، الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت عليهم السلام الذي يملأ اللَّه به الدنيا عدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً.

وبهذا المعنى وردت روايات كثيرة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، وهي تدل على تعيين نسب المهدي، وكونه من أهل البيت عليهم السلام ومن ولد فاطمة عليها السلام، ومن ذرية الحسين عليه السلام، وهو الإمام والخليفة الثاني عشر بعد الرسول صلى الله عليه وآله[٥٩٠].

والمتتبع للأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي، في كتب أهل السنّة سيجدها تنسجم

(٥٩٠) إن دليل الروايات على المهدي يتمثل في مئات الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام راجع معجم أحاديث الإمام المهدي وكتاب منتخب الأثر للصافي الگلبايگاني والكتب الأخرى التي تتحدث عن المهدي.

مع روايات الشيعة، وتؤكد حقيقة واحدة وهي ما ذكرناه.

ولتوثيق ذلك نستعرض بعضاً من تلك الروايات التي تحدَّثت عن اسمه، ونسبه ولقبه، وخروجه في آخر الزمان.

المهدي عليه السلام الموعود في روايات أهل السنّة

عن ابن عمر قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وآله: «يخرج في آخر الزمان رجل من ولدي، اسمه كاسمي وكنيته ككنيتي، يملأ الأرض عدلاًكما مُلئت جوراً فذلك هو المهدي»[٥٩١].

وعن أمّ سلمة عن النبي صلى الله عليه وآله: «المهدي حقّ وهو من ولدفاطمة»[٥٩٢].

وعن علي عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله: «المهدي منّا أهل البيت، يصلحه اللَّه في ليلة»[٥٩٣].

وعن حذيفة اليماني رضى الله عنه قال: خطبنا رسول اللَّه صلى الله عليه وآله فذكّرنا بما هو كائن، ثم قال: «لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم واحد، لطوّل اللَّه عزّ وجلّ ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلاً من ولدي اسمه اسمي» فقال سلمان الفارسي «رض»: يا رسول اللَّه من أي ولدك؟ قال صلى الله عليه وآله: «من ولدي هذا» وضرب بيده على الحسين عليه السلام»[٥٩٤].

---

(٥٩١) تذكرة الخواص: ٣٦٣، منهاج السنّة لابن تيمية ٤: ٨٦.

(٥٩٢) تاريخ البخاري ٣: ٣٦٣، مستدرك الحاكم ٤: ٥٥٧.

(٥٩٣) سنن ابن ماجه ٢: ١٣٦٧ باب ٣٤ ح٤٠٨٥ وصواعق ابن حجر: ١٦٣.

(٥٩٤) مقتل الخوارزمي ١: ١٩٦، ينابيع المودة ٣: ٦٣ باب ٩٣، السيرة الحلبية ١: ١٩٣.

وعن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «أنا سيد النبيين، وعلي بن أبي طالب سيد الوصيين، وإن أوصيائي بعدي اثناعشر أولهم علي بن أبي طالب، وآخرهم المهدي»[٥٩٥].

وهكذا نرى بأنَّ الأحاديث والروايات الواردة في المهدي عليه السلام قد بلغت حدّ التواتر، كما صرّح بذلك الكثير من علماء مدرسة الخلفاء، منهم الشوكاني في كتاب عون المعبود، وابن كثير في البداية والنهاية، والحافظ الكتاني في كتاب نظم المتناثر في الحديث المتواتر.

الإمامة المبكرة للإمام المهدي عليه السلام

قبل وفاة الإمام العسكري عليه السلام بخمسة عشر يوماً، كتب الإمام رسائل عديدة لشيعته من أهالي المدائن وسلّم الرسائل إلى خادمه أبي الأديان، وقال له: «امضي بها ـ أي بالرسائل ـ إلى المدائن، فإنك ستغيب خمسة عشر يوماً، وتدخل إلى «سرّ من رأى» يوم الخامس عشر «أي من سفره»، وتسمع الواعية في داري[٥٩٦] وتجدني على المغتسل.

قال: أبو الأديان: فقلت يا سيدي فإذا كان ذلك فمن الإمام بعدك؟

قال: مَنْ طالبك بجوابات كتبي فهو القائم بعدي، ومن يُصلّى عليَّ فهو القائم بعدي، فقلت زدني؟ فقال عليه السلام: مَن أخبر بما في الهميان فهو القائم بعدي.

ثم منعتني هيبة الإمام أن أسأله عما في الهميان، وخرجت بالكتب «الرسائل» إلى

---

(٥٩٥) فرائد السمطين ٢: ٣١٣ ح٥٦٤، وراجع تفصيل ذلك، في الموسوعة (أعلام الهداية) الجزء ١٤ خاتم الأوصياء المهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف.

(٥٩٦) الواعية: الصراخ على الميّت.

المدائن، وأخذت جواباتها، ودخلت «سرّ مَن رأى» يوم الخامس عشر – كما ذكر لي عليه السلام – فإذا أنا بالواعية «الصراخ» في داره، وإذا به على المغتسل، وإذا بجعفر بن علي أخ الإمام العسكري بباب الدار، والشيعة من حوله يُعزّونه بوفاة الإمام عليه السلام ويهنئونه بالخلافة والإمامة، فقلت – في نفسي – إن يكن هذا الإمام فقد بطلت الإمامة. فتقدمت فعزّيت وهنأت، فلم يسألني عن شي ء، ثم خرج عقيد «خادم الإمام العسكري» فقال: يا سيدي قد كُفِّن أخوك، فقم وصلّ عليه، فتقدّم جعفر بن علي ليُصلّي على أخيه، فلّما همّ بالتكبير خرج صبّي بوجهه سُمُرة، بشعره قطط[٥٩٧] بأسنانه تفليج[٥٩٨] فجذب رداء جعفر بن علي وقال: «تأخّر يا عم، فأنا أحقّ بالصلاة على أبي»، فتأخر جعفر، وقد إربدّ وجهه واصفرّ، فتقدم الصبيُّ وصلّى عليه، ودفن إلى جانب قبر أبيه الهادي عليهما السلام ثم قال الصبي: يا بصري هات جوابات الكتب التي معك، فدفعتها إليه، وقلت هذه بيّنتان بقي الهميان!!

بينما نحن جلوس، إذ قدم نفر «جماعة» من قم، فسألوا عن الحسن بن علي عليه السلام فعرفوا موته: قالوا: فمَن الإمام بعده؟ فأشار الناس إلى جعفر[٥٩٩]، فسلّموا عليه، وعزّوه، وهنئوه، وقالوا: إنّ معنا كتباً ومالاً، فتقول ممّن الكتب؟ وكم المال؟ فقام جعفر ينفض أثوابه ويقول: وتُريدون منّا أن نعلم الغيب؟!

فخرج الخادم ـ أي: خادم الإمام المهدي عليه السلام ـ فقال: معكم كتب فلان وفلان، وهميان فيه ألف دينار، عشرة دنانير منها مطليّة «بالذهب». فدفعوا إليه الكتب والمال،

---

(٥٩٧) أي: مجعّد.

(٥٩٨) أسنانه متوالية غير متراكبة بينها فواصل دقيقة.

(٥٩٩) كمال الدين للشيخ الصدوق ٢: ٤٧٥ ط طهران سنة ١٣٩٥هـ.

وقالوا: الذي وجّه بك لأخذ ذلك هو الإمام..... إلى آخر الحديث»[٦٠٠].

وترى جعفراً يصرُّ على باطله ولا يتنازل عنه، وقد حمل إلى الخليفة المعتمد العباسي عشرين ألف دينار، لما توفي الحسن العسكري وقال له: يا أمير المؤمنين.... تجعل لي مرتبة أخي الحسن ومنزلته!!

فقال الخليفة: اعلم أن منزلة أخيك لم تكن بنا، إنّما كانت باللَّه عزّ وجلّ، ونحن كنّا نجتهد في حطّ منزلته والوضع منه، وكان اللَّه عزّوجلّ يأبى إلاّ أن يزيده رفعة، لما كان فيه من الصيانة والعلم والعبادة.

فإن كنت عند شيعة أخيك بمنزلته فلا حاجة بك إلينا، وإن لم تكن عندهم بمنزلته ولم يكن فيك ما كان في أخيك،لم نُغنِ عنك شيئاً[٦٠١].

نعم تولّى الإمام المهدي عليه السلام بعد وفاة أبيه عليه السلام إمامة المسلمين في صغر سنه، حيث كان عمره آنذاك خمس سنين، وهذه الإمامة المبكرة كانت ظاهرة لها واقعيتها في حياة أئمة أهل البيت عليهم السلام، فالإمام الجواد عليه السلام والإمام الهادي تولّيا الإمامة في الثامنة، أو التاسعة من عمرهما، وحينئذٍ لم يعد هناك اعتراض فيما يخص الإمامة المبكرة للإمام المهدي عليه السلام، ويكفي دليلاً ومثالاً لظاهرة الإمامة المبكرة، قوله تعالى: ﴿يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّة وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾[٦٠٢]، وقوله تعالى: ﴿فَأَشارَتْ إِلَيْهِ قالُوا كَيْفَ

(٦٠٠) المصدر السابق.

(٦٠١) المصدر نفسه.

(٦٠٢) مريم: ١٢.

نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾[٦٠٣]، فإنّ اللّه الذي أعطى يحيى الحكم وهو صبيّ، وأعطى النبوة لعيسى وهو في المهد صبياً، قادر على إعطاء الإمامة لعدد من أوليائه، ومنهم الإمام المهدي عليه السلام، وهو في سن الصبا، وقد تحقق ذلك فعلاً، ولا حاجة لمزيد من الأدلّة لإثبات ذلك بعد ما ذكرنا من الكتاب الكريم من المصاديق المشابهة.

الغيبة الصغرى والكبرى للإمام المهدي عليه السلام

لعل أهم بحث يرغب المسلم معرفته، ويتعطّش المؤمن لاستماعه وفهمه، هو البحث عن غيبة الإمام المنتظر عليه السلام، ومعرفة الأسباب التي دعت إلى هذه الغيبة، والعوامل الكامنة خلف احتجابه عن أنظار المسلمين، وعدم الحضور في المجتمع لممارسة مهامه كإمام وزعيم في الساحة الاجتماعية والسياسية وغيرها، كما يهم القرّاء والمستمعين معرفة معنى الغيبة وأسبابها وفوائدها، ومعرفة توابع الغيبة من امتداد عمره الشريف إلى يومنا هذا، وعدم خضوع الإمام لظاهرة الشيخوخة وغيرها من المسائل المتعلقة بالغيبة والظهور، التي سوف نتحدث عنها باختصار.

فمعنى غيبة الإمام المنتظر اختفاؤه عن عيون الناس حسب إرادة اللّه، فلا تراه العيون مع كونه موجوداً، أو يراه البعض ولكن لا يعرفه، كما دلت على ذلك بعض الروايات، ولذا عند ظهوره يقول الكثير من الناس إني قد رأيته من قبل.

---

(٦٠٣) مريم: ٢٩-٣٠.

وقد اختلف العلماء والمحدثون حول بداية الغيبة الصغرى، هل أنّها بدأت من أوائل عمر الإمام المهدي عليه السلام، وفي عهد والده الإمام العسكري عليه السلام؟ أم بدأت بعد وفاة الإمام العسكري؟ المشهور هو القول الثاني، وعليه فتكون الغيبة الصغرى للإمام في سامراء من عام «٢٦٠هـ. ق» يوم وفاة أبيه الإمام العسكري إلى عام «٣٢٩ هـ. ق» الذي توفي فيه النائب الرابع للإمام المهدي، أبو الحسن علي بن محمد السَّمري، وحينئذ تكون الغيبة الصغرى ٦٩ عاماً.

وفي زمن الغيبة الصغرى لمّا كان الإمام المهدي عليه السلام يرى ضرورة الارتباط بالأمّة، وحلّ مشاكلها بقدر المستطاع، وعلى الأخص في الجانب الفقهي والعقائدي رأى أن يعيّن نوّاباً عنه وأولى مهامهم ربط الأمّة به، ورفع كتبها التي من خلالها تسأل عمّا تريد، وعلى أيدي هؤلاء كانت ترد الأجوبة والحلول اللازمة في زمن الغيبة الصغرى، وهم أربعة أشخاص من كبار الشيعة كانوا يحظون بلقائه، وهكذا كانت الشيعة تأتي بالأموال الشرعية، ويسلمونها إلى النوّاب، ويأخذون توقيعات الإمام منهم.

وهؤلاء النوّاب الأربعة بحسب الترتيب الزمني كما يلي:

الأوّل: أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عمرو العمري الأسدي «وكيل الإمام الهادي والعسكري».

الثاني: ابنه أبو جعفر محمد بن عثمان بن سعيد العمري، المتوفى سنة «٣٠٤ هـ. ق».

الثالث: أبو القاسم الحسين بن روح النوبختي، المتوفى سنة «٣٢٦ هـ. ق».

الرابع: أبو الحسن علي بن محمد السَّمري، المتوفى سنة «٣٢٩ هـ. ق».

وقد كان من الواضح أن هناك وكلاء آخرون –غير هؤلاء الأربعة –في كثير من البلاد

الإسلامية يقومون بدور كبير بين الإمام والسفراء، أو بين الإمام والناس أي: كان الوكلاء تارة يراجعون السفراء في القضايا والأسئلة الموجهة إليهم، وتارة يراسلون الإمام المهدي مباشرة، ومن بين هؤلاء الوكلاء علي بن مهزيار الأهوازي، وأحمد بن إسحاق بن سعيد بن مالك الأشعري القمي، وكان واسطة بين القميّين والأئمة الجواد والهادي والعسكري عليهم السلام، وأدرك شطراً من غيبة الإمام المهدي عجل الله فرجه، وهُو الذي عرَّف عليه الإمام العسكري ولده المهدي حينما سأله عن خليفته، وأراه إيّاه، وحدّثه ببعض ما يكون من أمره خلال غيبته الصغرى والكبرى.

وغير هؤلاء ممن أوكل إليهم الإمام المهدي عليه السلام بعض ما يهمّه من أمور المسلمين، وقبض الأخماس، وقضاء حوائج المؤمنين،وكانوا كما ذكرنا يتصلون بالإمام أحياناً عن طريق سفرائه الذين اعتمدهم لقضاء الحوائج وحل المشاكل، وأخرى عن طريق المراسلة.

وهكذا استمرت النيابة الخاصة للإمام المهدي عليه السلام إلى عام «٣٢٩ هـ. ق» الذي توفي فيه النائب الرابع، وهو أبو الحسن علي بن محمد السَّمري.

وابتدأت الغيبة الكبرى، ولا تزال مستمرة إلى الآن وبذلك انقطعت طرق الاتصالات بالإمام المهدي عليه السلام، وقد أرشد الإمام عليه السلام الشيعة لحلّ مشاكلهم وأخذ معالم دينهم بإرجاعهم إلى رواة العلماء والأحاديث في التوقيع الذي كتبه إلى أحد وجهاء الشيعة، وهو إسحاق بن يعقوب، بواسطة النائب الثاني محمد بن عثمان والذي جاء فيه: «... وأمّا الحوادث الواقعة، فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنّهم حجّتي عليكم وأنا حجة اللَّه

عليكم... »[٦٠٤].

وينقل المرحوم الطبرسي في كتاب «الاحتجاج» عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال ضمن حديثٍ: «وأمّا من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلّدوه»[٦٠٥].

فقد فوض الإمام عليه السلام شؤون المسلمين في زمان الغيبة الكبرى إلى الولي الفقيه الجامع للشرائط، وصحيح أنَّ منصب الفتوى والقضاء كان قد جعل للفقهاء من قبل بواسطة الأئمة، وفي عهدهم عليهم السلام إلاّ أنَّ شرعية المرجعية، والزعامة والحكومة تبدأ من تاريخ الغيبة الكبرى، وهي مستمرة إلى ظهور الإمام صاحب الأمر والزمان، وعندما يظهر يكون هو المرجع والزعيم والحاكم إن شاء اللَّه.

وفي ضوء الغيبة الكبرى للإمام المهدي عليه السلام أثيرت بعض الشكوك، والأوهام وتبادرت إلى أذهان الناس بعض التساؤلات،عن جدوى وجود الإمام المهدي عليه السلام حال غيبته الكبرى، وما فائدة الناس به، وما ينتفعون منه وكيف عمّر إلى هذا اليوم؟ وغيرها من الشبهات والتساؤلات، نطرح بعضها ونجيب عنها باختصار.

أسباب غيبة الإمام المنتظر عليه السلام وفوائدها

لا شك أنَّ الغيبة هي من أسرار اللَّه، وهو أعرف بأسبابها وفوائدها الحقيقية، ولكن

(٦٠٤) هذا نصّه في كتاب (الغيبة) للشيخ الطوسي، أما في (كمال الدين) للشيخ الصدوق ٢: ٤٨٤ فقد ورد الشطر الأخير ـ من الحديث ـ هكذا: «وأنا حجة اللَّه عليهم» وفي كتاب (الاحتجاج) للطبرسي ٢: ٤٧٠ لا يوجد لفظ «عليهم» ولا «عليكم».

(٦٠٥) الاحتجاج، للطبرسي ٢: ٢٦٣، بحار الأنوار ٢: ٨٨..

هناك ثمة أسباب صرَّحت بها الأخبار والأحاديث، نذكر بعضها:

من تلك الأسباب أن حياة الإمام المهدي كانت مهددة بالقتل من قبل الحكّام العباسيين فكانوا يبحثون عنه في كل مكان حتى فتشوا دار الإمام العسكري، ولذا كان الإمام العسكري يحاول إخفاء ولادة الإمام عليه السلام عن عامّة الناس، تحفّظاً على حياة ولده من شر الحكّام العباسيين، وهكذا استمر الخطر عليه من قبل سائر الحكّام كالعثمانيين، وغيرهم ممّن حكموا بلاد الشرق، لأنهم علموا بأن المهدي هو الذي يزلزل كراسي الظالمين، ويدمِّر كيانهم، ولا زال الخطر محدقاً بالإمام، وهذا الأمر سبب طول غيبته، لذا شيعته دائماً يدعون لـه بالسلامة من الأعداء، والتعجيل في ظهوره وفرجه.

وثمة سبب آخر عُلّل به غيبة الإمام عليه السلام، وهو امتحان العبادواختبارهم، وتمحيصهم، ولذا كان انتظار الفرج والظهور من أفضل العبادات، كما صرحت بذلك الروايات.

وهنا يطرح سؤال وهو: ما الفائدة من وجود إمامٍ غائبٍ؟ وكيف ينتفع الناس به؟؟!

لقد وردت أحاديث متعددة تذكر فوائد وجود الإمام الغائب عليه السلام، ووجه الانتفاع به، وفيما يلي نذكر بعضها:

عن جابر بن عبد اللّه الأنصاري، أنه سأل النبي صلى الله عليه وآله: هل ينتفع الشيعة بالقائم عليه السلام في غيبته؟

فقال صلى الله عليه وآله: «إي والذي بعثني بالنبوة، إنهم لينتفعون به، ويستضيئون بنور ولايته في غيبته، كانتفاع الناس بالشمس وإن جلّلها السحاب»[٦٠٦].

(٦٠٦) كمال الدين ١: ٢٥٣ ط طهران سنة ١٣٩٥ ه.

فالشمس أمان للمجموعة الشمسيّة من الفناء والزوال، وفيها فائدة عظيمة للإنسان والحيوان والنبات، والهواء والماء والجماد.

ومن الواضح أن السحاب لا يغير شيئاً من تأثير الشمس،وفوائدها، وإنّما يحجب الشمس عن الرؤية – في المنطقة التي يخيم عليها السحاب – فقط.

فالإمام المهدي الذي شُبِّه بالشمس وراء السحاب هو الذي بوجوده يتنعم البشر وتنتظم حياتهم وهو أمان لأهل الأرض، لأنّ الأرض لا تخلو من الحجة، ولو خلت لساخت بأهلها. وورد هذا المعنى في رسالة الإمام المهدي عليه السلام إلى إسحاق بن يعقوب: «... وإني لأمان لأهل الأرض كما أنّ النجوم أمان لأهل السماء... »[٦٠٧].

وأيضاً قد أعلن الإمام عليه السلام عن فائدة وجوده وهو غائب عن الأنظار في إحدى رسائله للشيخ المفيد، حيث قال عليه السلام: «إنّا غير مهملين لمراعاتكم ولا ناسين لذكركم، ولولا ذلك لنزل بكم اللأواء[٦٠٨]، واصطلمكم[٦٠٩] الأعداء... »[٦١٠].

وبالإضافة إلى هذا فإنّ إمام العصر أرواحنا فداه يحضر في مواسم الحج كل عام، ويتردد على المجالس والمحافل، وما أكثرالمشاكل التي يحلّها، بالواسطة أو من دون واسطة لبعض المؤمنين،ولعل الناس لا يرونه ولا يعرفونه، ولكن الإمام عليه السلام يراهم ويعرفهم،وقد ظفر كثير من الناس بلقائه خلال الغيبة الصغرى، والكبرى ورأوا الكثير من معاجزه وكراماته، وحُلّت على يديه مشاكل عدد من المؤمنين.

---

(٦٠٧) كمال الدين ٢: ٤٨٥ وكتاب الغيبة للطوسي: ١٧٧.

(٦٠٨) اللأواء: الشدة ـ المصباح ٢: ٢٥٦.

(٦٠٩) إصطلمه: استأصله ـ القاموس ٤: ١٤٠.

(٦١٠) الاحتجاج للطبرسي ٢: ٥٩٨.

ويستفاد من الأحاديث والأخبار المتواترة بأن لقاءات الإمام المهدي لا تنحصر في عدد معين ومكانٍ معين، بل تشمل كل من لـه صلاحية هذا الالتقاء في كل عصرٍ، وفي أي مكان بالأخص الأماكن المقدسة والمشاهد المشرفة، فالأخبار الدالة على مشاهدته في الغيبة الكبرى كثيرة وعددها يفوق حد التواتر، بحيث نعلم لدى مراجعتها واستقرائها، عدم الكذب والخطأ فيها في الجملة[٦١١].

وتشمل هذه المقابلات قضاء حوائج المؤمنين بمختلف أقسامها المادية والمعنوية، كما تشتمل على توجيه الوصايا التربوية، وتوضيح غوامض المعارف الإلهية، أو التنبيه إلى الأحكام الشرعية الصحيحة، وغير ذلك من مهام الإمام في كل عصر.

وتحققت من هذه اللقاءات إضافة لذلك ثمار مهمة تتمحورحول ترسيخ الإيمان بوجوده عليه السلام، وإزالة التشكيكات الواردة حوله في كل عصر بما يعزز سيرة المؤمنين في التمهيد لظهوره عليه السلام.

وهذه الكتب المؤلفة في أزمنة مختلفة، وبلاد متفاوتة ألّفها ثقات لا يعرف بعضهم بعضاً، وفيها من الحكايات الشاهدة لما ذكرنا من مشاهدة الإمام المهدي عليه السلام، والتشرف بخدمته.

---

(٦١١) راجع بحار الأنوار للعلاّمة المجلسي، وكتاب النّجم الثاقب للميرزا النوري، وكتاب تاريخ الغيبة الكبرى للسيّد الصدر وقد ناقش هؤلاء العلماء في كتبهم قضية الإلتقاء بالإمام في الغيبة الكبرى، وعدم تعارضها مع أمر الإمام المهدي عليه السلام في توقيعه للشيخ السَّمري بتكذيب مَنْ ادعى المشاهدة في الغيبة الكبرى وأثبتوا جواز الإلتقاء بالإمام في الغيبة الكبرى وذكروا بعض الحكايات وقصص الذين تشرفوا بلقاء الإمام عليه السلام.

وبما أن للقصص أهمية كبرى في التثقيف والتوجيه والتعليم،نذكر حكايةً من الذين تشرفوا بلقاء الإمام عليه السلام، مع مُراعاة الاختصار، وهي: قصة المقدس الأردبيلي.

المقدّس الأردبيلي يتشرّف بلقاء الإمام عليه السلام

ذكر العلاّمة المجلسي -رحمه اللَّه- أنّه سمع من جماعة أخبروه عن السيد الفاضل أمير علاّم قال: كنت في صحن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في ساعة متأخّرة من الليل، فرأيت رجلاً مقبلاًنحو الروضة المقدّسة، فاقتربت منه فإذا هو العالم التقيّ مولاناالشيخ أحمد الأردبيلي ـ قدَّس اللَّه روحه ـ فاختفيت عنه، فجاء إلى باب الروضة ـ وكان مغلقاً ـ فانفتح لـه الباب، ودخل الروضة، فسمعته يتكلّم كأنّه يُناجي أحداً، ثم خرج وأغلق باب الروضة، فتوجه نحو مسجد الكوفة وأنا خلفه أتّبعه وهو لا يراني، فدخل المسجد وقصد نحو المحراب الذي إستُشهِدَ فيه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

ومكث هناك طويلاً، ثم رجع نحو النجف وكنت خلفه أيضاً، وفي أثناء الطريق غلبني السعال، فسعلت، فالتفت إليَّ وقال: أنت أمير علاّم؟

قلت: نعم.

قال: ما تصنع هاهنا؟!

قلت: كنت معك منذ دخولك الروضة المقدَّسة وإلى الآن،وأُقسم عليك بحقّ صاحب القبر أن تخبرني بما جرى عليك من البداية إلى النهاية؟

قال: أخبرك بشرط أن لا تخبر به أحداً ما دمت حياً، فوافقت على الشرط.

فقال: كنت أتفكّر في بعض المسائل الفقهية الغامضة، فقرّرت أن أحضر عند مرقد

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لأسأله عنها، فلمّا وصلت إلى باب الروضة إنفتح لي الباب بغير مفتاح، فدخلت الروضة، وسألت اللَّه تعالى أن يجيبني مولاي أمير المؤمنين عليه السلام عن تلك المسائل، فسمعت صوتاً من القبر: أن ائت مسجد الكوفة، وسل من القائم، فإنّه إمام زمانك.

فأتيت المسجد عند المحراب، وسألت الإمام المهدي عليه السلام عنها فأجابني عن ذلك، وها أنا راجع إلى بيتي[٦١٢].

كيف عمّر الإمام المهدي وعاش إلى هذا اليوم؟

إن الاعتقاد بغيبة الإمام المهدي عليه السلام عن الأنظار، واستمراره إلى حين يأذن اللَّه تعالى لـه بالظهور، يستلزم عمراً طويلاً ومفتوحاً مع انفتاح الزمن كيف نعالج ونجيب على هذه المشكلة؟

قد عولجت هذه المشكلة بإجابات عديدة نذكر الملخَّص منها، وهي أنَّ طول عمر الإنسان وبقاءه قروناً متعددة أمر ممكن منطقياً وممكن علمياً، ولكنه لا يزال غير ممكن عملياً، إلاّ أن اتجاه العلم سائر في طريق تحقيق هذا الإمكان، وعلى هذا الضوء نتناول عمر الإمام المهدي عليه السلام، وما أحيط به من استفهام أو استغراب، فإنّ عمر المهدي قد سبق العلم نفسه، وليس ذلك هو المجال الوحيدالذي سبق فيه الإسلام حركة العلم.

ولكن لنفترض أنَّ العمر الطويل غير ممكن علمياً، فماذايعني ذلك؟ يعني أنَّ إطالة عمر الإنسان كنوح والخضر ولقمان بقدرة اللَّه وإرادته، وبخلاف القوانين الطبيعية والعلم،

(٦١٢) بحار الأنوار ٥٢: ١٧٥.

وبذلك تصبح هذه الحالة معجزة عطلت قانوناً طبيعياً في حالة معينة، وليست هذه المعجزة فريدة من نوعها، وقد عطل هذا القانون للحفاظ على إبراهيم، فقيل للنار حين ألقي فيها إبراهيم، ﴿قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ﴾[٦١٣] فخرج منها كما دخل سليماً لم يصبه أذى إلى كثير من القوانين الطبيعية التي عطلت لحماية أشخاص من الأنبياء والأولياء، وهكذا يتضح أن العمر الطويل أمر ممكن علمياً، أو بنحو المعجزة، وقد تحقق ذلك بالنسبة إلى بعض الأنبياء والأولياء كما تحدَّث عنه القرآن الكريم.

وإذا نظرنا إلى موضوع العمر على ضوء القرآن، ومن الناحية العقائدية وجدناه أمراً عادياً جداً، لأنَّ كل مؤمن يعتقد أن الآجال بيد اللَّه تعالى، فإذا قدّر اللَّه تعالى لأحدٍ من عباده طول العمر فمن البديهي أن يهيّئ لـه الأسباب المادية، والطبيعية الموجبة لطول العمر، ومن الممكن أن يطوّل عمره بأمور ممّا وراء الطبيعة لا نعرفها، فهو قادر على كل شيء، فكما طوّل اللَّه عمر آدم ونوح ولقمان وغيرهم من المعمرين، وطوّل عمر النبي الخضر الذي بقى حياً من عهد النبي موسى عليه السلام إلى يومنا هذا، وطوّل عمر النبي عيسى الذي عرج به إلى السماء وبقى حيّاً إلى يومنا هذا، وسوف ينزل من السَّماء عند قيام الإمام المنتظر ويصلّي خلفه[٦١٤]، فهو قادرعلى أن يطوّل عمر الإمام المهدي إلى متى ما شاء.

وتتجلى القدرة الإلهية في تحقيق مشيئته وإرادته، وإخضاع الطبيعة، في قصّة النبي

(٦١٣) الأنبياء: ٦٩.

(٦١٤) عقد الدرر: ٢٢٠.

يونس عليه السلام الذي يحدث عنه القرآن بقوله: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٦١٥] فالظاهر من هذه الآية أن يونس لو لم يكن من المسبحين في بطن الحوت للبث حيّاً في بطنه إلى يوم القيامة.

أليس اللَّه بقادر على أن يحفظ وليّه من الموت، ويعمره الآف السنين ليظهره في الوقت المناسب، ليقوم بالإصلاح الشامل لجميع جوانب الحياة، فإنّه آخر مصلح عالمي إدّخره اللَّه للبشر.

حقيقة انتظار الظهور، وأهميته في عصر الغيبة

الانتظار عبارة عن: كيفية نفسانية وقلبية ينبعث منها التهيؤ لما ينتظر، وضده اليأس، فكلما كان الانتظار أشد كان التهيؤ آكد، فالمؤمن المنتظر مولاه كلما اشتد انتظاره ازداد جهده في التهيؤ لذلك، بالورع والاجتهاد وتهذيب النفس عن الرذائل، والتحلي بالأخلاق الحميدة حتى يفوز بزيارة مولاه، ومشاهدة جماله في زمان غيبته كما اتفق ذلك لجمع كثير من الصالحين، ورواية أبي بصير دالة على توقف فوز المشاهدة والصحبة على ذلك، حيث قال الإمام الصادق عليه السلام: «من سره أن يكون من أصحاب القائم فلينتظر وليعمل بالورع ومحاسن الأخلاق وهو منتظر، فإن مات وقام القائم بعده كان لـه من الأجر مثل مَن أدركه... »[٦١٦].

فالانتظار الحقيقي لفرج وظهور إمام العصر الذي يكون عبادة، بل أفضل الأعمال

(٦١٥) الصافات: ١٤٤ – ١٤٢.

(٦١٦) مكيال المكارم ٢: ١٥٢.

والعبادات، كما صرحت به الروايات[٦١٧] هو الانتظار البنّاء الباعث للتحرك والالتزام الديني، ولا يتحقق هذا الانتظار الحقيقي إلاّ ضمن الشروط التالية التي تعتبر من تكاليف المؤمنين الموالين للإمام المهدي المنتظر في زمن غيبته الكبرى.

هذا والإمام المهدي عليه السلام قد صرّح بحقيقة إنتظار فرج ظهوره في كتابه إلى الشيخ المفيد قدس سره، بقوله: «فليعمل كل امرء بما يقرب به من محبتنا، ويتجنب ما يُدنيه من كراهتنا وسخطنا، فإنّ أمرنا بغتة فجأة حين لا تنفعه توبة، ولا يُنجيه من عقابنا ندم على حوبة[٦١٨] واللَّه يلهمكم الرشد، ويلطف لكم في التوفيق برحمته»[٦١٩].

ومن أهم تكاليف المؤمنين في عصر الغيبة التي أكّدتها الأحاديث الشريفة، هو الدعاء للإمام المهدي عليه السلام بالحفظ والسلامة من الأعداء، والتصدق عنه وتعجيل فرجه وظهوره والنصر على أعدائه، والمواظبة على زيارته، وغير ذلك مما ذكرته الروايات.

ومن أفضل الأدعية التي يندب بها الإمام الحجة لتعجيل ظهوره، هو دعاء الندبة المعروف الذي يستحب قرائته في صباح كل جمعة، وقد اعتاد شيعة الإمام ومحبوه ومنتظروه أن يقرأوا هذا الدعاء كل جمعة، في الأماكن المقدسة والمشاهد المشرّفة، وفي البيوت.

ومن تلك الأدعية المهمة المعروفة التي ينبغي لكل مؤمن منتظر أن يدعو بها في زمن الغيبة، دعاء الإمام الصادق عليه السلام الذي علّمه لزرارة، وقال له: إذا أدركت زمن غيبة

---

(٦١٧) كمال الدين: ٦٤٥، بحار الأنوار ٥٢: ٨٢٣.

(٦١٨) الحوبة: الخطيئة والحوب: الإثم ـ مجمع البحرين.

(٦١٩) الإحتجاج للطبرسي ٢: ٥٩٩ ط إيران، انتشارات أسوه.

القائم ادع بهذا الدعاء: «اللهمّ عرفني نفسك فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف نبيك،اللهمّ عرفني نبيك فإنك إن لم تعرفني نبيك لم أعرف حجتك، اللهم عرفني حجتك فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني، اللهم لا تمِتني ميتة جاهلية... »[٦٢٠].

ومن أفضل الزيارات التي يُزار بها الإمام الحجة زيارة آل ياسين، التي وردت من ناحيته المقدسة، وسنختم البحث بهذه الزيارة الشريفة إن شاء اللّه.

علائم ظهور الإمام المهدي المنتظر عليه السلام

يمكننا أن نقسم علائم ظهور الإمام المنتظر عليه السلام حسب ما نستلخصه من الأحاديث، إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: العلائم العامة التي تحدث قبل الظهور بعشرات السنين، وهي التي تتحدث عن الانحرافات التي تنتشر في المجتمعات الإسلامية، وغيرها من الظلم والجور والفسق والفجور، وارتكاب الذنوب والمحرمات، فتتلوث بها المجتمعات البشرية، وقد تحقق الكثير من تلك العلامات.

القسم الثاني: العلائم التي تحدث قبل ظهور الإمام المهدي عليه السلام بسنوات قليلة، وهذه العلائم كثيرة نذكر بعضها:

منها: كسوف الشمس في النصف من شهر رمضان المبارك، وخسوف القمر في آخره على خلاف العادات.

---

(٦٢٠) أصول الكافي ١: ٣٣٧، الغيبة للنعماني ٧: ١٦٦، كمال الدين ٢: ٣٤٢.

أي: خلاف العادة والقاعدة الطبيعية الفلكية التي يكون كسوف الشمس يحدث في أواخر الشهر، وخسوف القمر يحدث في أواسط الشهر القمري.

ومنها: ذهاب ثلث الناس، بسبب الجوع أو المرض أو القتل.

ومن الممكن أن يحدث ذلك بوقوع الحرب العالمية الثالثة،أو ثورات ونزاعات داخلية في كثير من البلاد، أو كوارث طبيعية، كالزلزال والسيول، وغيرها من العوامل والأسباب.

ومنها: خروج الدجال الأعور من قرية بين الشام والعراق ويفتك بالمؤمنين، ويتبعه اليهود وينصبونه قائداً أعلى لهم،ونهاية هذا المجرم تكون على يدي الإمام المنتظر كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام[٦٢١].

ومنها: ظهور الرايات السُّود من خراسان، قال رسول اللَّه صلى الله عليه وآله: «إذا رأيتم الرايات السُّود قد جاء ت من قبل خراسان فأتوها فإن فيها خليفة اللَّه المهدي»[٦٢٢]، وأظنّ أنَّ الذي يرفع تلك الرايات هوذلك الهاشمي الحسني الذي يخرج هو واليماني بجيشهما لملاحقة جيش السفياني، وأخيراً ينتصران على جيش السفياني.

القسم الثالث: العلائم المحتومة لظهور الإمام المهدي عليه السلام، وهي التي تحدث قطعاً، وتكون مقارنة لظهور الإمام، وهذه العلائم خمسة كما جاء في حديث الإمام الصادق عليه السلام: «قبل قيام القائم خمس علامات محتومات: اليماني والسفياني،

---

(٦٢١) منتخب الأثر: للشيخ الصافي الگلبايگاني الفصل السادس، الباب السابع: ٥٧٠ وفي الفصل السابع الباب التاسع: ٦٠٢ ط أخوان، قم.

(٦٢٢) كنز العمال ٧: ١٨٢.

والصيحة[٦٢٣]، وقتل النفس الزكية والخسف بالبيداء»[٦٢٤].

ظهور الإمام المهدي عليه السلام وقيام الدولة الكريمة

قد ورد في الأخبار أنّ بداية ظهور الإمام المهدي وخروجه عن الاستتار يكون في المدينة المنورة[٦٢٥]. وإعلان قيامه يكون في مكّة المكرمة في يوم الجمعة، أو السبت في عاشوراء من الأعوام الفردية.

وأوّل مَن يبايعه جبرئيل، ثم يبايعه صفوة أنصاره وأصحابه وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر بعدد أصحاب أهل بدر، وهؤلاء لم يسبقهم الأولون ولا يدركهم الآخرون، ثم يبايعه سائر الناس حتى يتم أنصاره عشرة آلاف، ثم يسير منها إلى المدينة، بعد أن ينصب في مكة والياً من قبله، وهناك في المدينة يقوم بأعمال وانجازات، ثم ينصب والياً من قبله ويتوجه من المدينة نحو العراق، ويستقر في الكوفة ويتخذها عاصمة لخلافته وحكومته، كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الطاهرون عليهم السلام[٦٢٦].

تلك الدولة التي كنا نترقبها وندعوا دائماً في شهر رمضان المبارك في دعاء الافتتاح لتحققها:

«اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة، تعزّ بها الإسلام وأهله، وتذل بها النفاق وأهله،

---

(٦٢٣) تكون الصيحة السماوية بواسطة جبرائيل عليه السلام في شهر رمضان المبارك ليلة الجمعة لثلاث وعشرين مضين من الشهر.

(٦٢٤) كمال الدين ٢: ٦٥٠.

(٦٢٥) البرهان، للمتقي الهندي: ١٤٤.

(٦٢٦) راجع كتاب منتخب الأثر للشيخ الصافي الگلبايگاني.

وتجعلنا فيها من الدُعاة إلى طاعتك، والقادة إلى سبيلك، وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة»[٦٢٧].

ويلاحظ أن المسير الذي اختاره الإمام هو المسير الذي اختاره جده الإمام الحسين في نهضته الاستشهادية من مكة إلى الكوفة، الذي منع جده عن الوصول إليها فيصل المهدي عليه السلام إليها ويحقق جميع الأهداف الإصلاحية التي سعى لها جدّه سيد الشهداء، ويطالب الإمام بدم جده المقتول بكربلاء، ويأخذ بثأره وينتقم من جميع أعدائه.

وهكذا تستمر حكومة المهدي عليه السلام حوالي عشرين سنة أو أكثر حسب ما جاء في بعض روايات أهل البيت عليهم السلام منها «يملك القائم عليه السلام تسع عشرة سنة وأشهراً»[٦٢٨] ثم يدركه الموت الذي لا بد منه إمّا بالسم أو بالقتل فإنّ الإمام المهدي يشمله هذا الحديث «ما منا إلاّ مسموم أو مقتول»[٦٢٩].

ثم إن من جملة معتقدات الإمامية استحباب زيارة الأئمة عليهم السلام، ويتأكد هذا الاستحباب في حق مولانا صاحب الزمان، لأنه إمام عصرنا وسيد زماننا، فنزوره بالزيارة الجامعة الكبيرة، ونتأمل في معانيها خصوصاً في: «مؤمن بإيابكم، مصدق برجعتكم، منتظر لأمركم، مرتقب لدولتكم»، لأنه يعكس الحالة النفسية للانتظار المشروع، وكذا ينبغي زيارته بالزيارات الأخرى الواردة في كتب الأدعية والزيارات خصوصاً زيارة آل ياسين، والتي أراد الإمام المهدي عليه السلام من شيعته أن يزوره بها، ثم يدعو لـه عقيبها بما يأتي من الدعاء بعدها، الذي فيه الدعاء لـه بالتعجيل في الظهور،

(٦٢٧) اقبال الأعمال للسيّد ابن طاووس ١: ١٢٧، مفاتيح الجنان، من دعاء الافتتاح الذي يستحب قرائته في كل ليلة من شهر رمضان المبارك.

(٦٢٨) الغيبة للنعماني باب ٢٦ ح ١.

(٦٢٩) بحار الأنوار٢٧: ٢١٧ ح١٩.

والنصر لـه على الأعداء[٦٣٠]، وممّا جاء في تلك الزيارة:

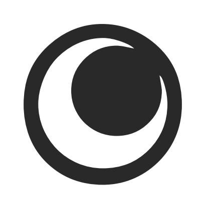
«سَلامٌ عَلى آلِ يس، السَّلامُ عَلَيْكَ يا داعِيَ اللَّه وَرَبَّانِيّ آياتِه، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا بابَ اللَّهِ وَدَيَّانَ دِينِه، السَّلامُ عَلَيْكَ يا خَلِيفَة اللَّهِ وَناصِرَ حَقِّه، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا حُجَّة اللَّهِ وَدَلِيلَ إِرادَتِه، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا تالِيَ كِتابِ اللَّه وَتَرْجُمانَهُ، السَّلامُ عَلَيْكَ فِي آناء لَيْلِكَ وَأَطْرافِ نَهارِكَ، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا بَقِيَّة اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا مِيثاقَ اللَّهِ الَّذِي أَخَذَهُ وَوَكَّدَهُ، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا وَعْدَ اللَّهِ الَّذِي ضَمِنَهُ، السَّلامُ عَلَيْكَ أَيّها الْعَلَمُ الْمَنْصُوبُ وَالْعِلْمُ الْمَصْبُوبُ السَّلامُ وَالْغَوْثُ وَالرَّحْمَة الْواسِعَة وَعْداً غَيْرَ مَكْذوبٍ، السَّلامُ عَلَيْكَ حِينَ تَقُومُ، السَّلامُ عَلَيْكَ حِينَ تَقْعُدُ، السَّلامُ عَلَيْكَ حِينَ تَقْرَأُ وَتُبَيِّنُ، السَّلامُ عَلَيْكَ حِينَ تُصَلِّي وَتَقْنُتُ، السَّلامُ عَلَيْكَ حِينَ تَرْكَعُ وَتَسْجُدُ، السَّلامُ عَلَيْكَ حِينَ تُهَلِّلُ وَتُكَبِّرُ، السَّلامُ عَلَيْكَ حِينَ تَحْمَدُ وَتَسْتَغْفِرُ، السَّلامُ عَلَيْكَ حِينَ تُصْبِحُ وَتُمْسِي...»[٦٣١].



(٦٣٠) وردت هذه الزيارة بكاملها مع الدعاء المبارك للمهدي في كتاب الاحتجاج للطبرسي ٢: ٥٩١، عن محمّد بن عبد اللَّه بن جعفر الحميري انّه قال: خرج التوقيع من الناحية المقدسة حرسها اللَّه تعالى.

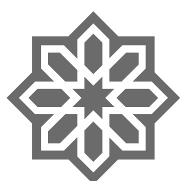
(٦٣١) وردت هذه الزيارة مع الدعاء من الناحية المقدسة للإمام المهدي عليه السلام، حيث قال عليه السلام: إذا أردتم التوجه بنا إلى اللَّه وإلينا، فقولوا كما قال اللَّه تعالى: «سلام على آل يس».

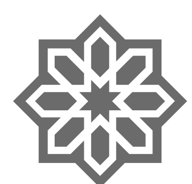


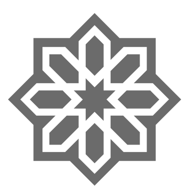


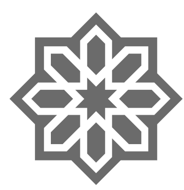
الليلة الخامسة والعشرون

اليوم الموعود لزوال اليهود









- اليهود وبني اسرائيل في القرآن
- التطبيقات المطروحة للوعد
- التفسير والتطبيق للوعد في عصرنا هذا
- يوم القدس العالمي



الليلة الخامسة والعشرون

اليوم الموعود لزوال اليهود

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً ۞ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً ۞ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ۞ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ۞ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً

الإسراء: ٤-٨



اليهود وبني اسرائيل في القرآن

هذه الآيات من جملة ما أخبر به القرآن الكريم عن مستقبل اليهود، وانتصار المسلمين عليهم، ومن المهم جداً قبل الكلام عن اليوم الموعود لزوال اليهود أن نتطرق لمعاني هذه

الآيات فنقول:

﴿وَقَضَيْنا إِلَى بَنِى إِسْرائِيلَ﴾، أي حكمنا حكماً قاطعاً مبرماً لبني إسرائيل، وأعلمناهم بوحينا، ﴿فِى الْكِتابِ﴾: أي التوراة، ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾، إنكم سوف تتمردون على شريعة الله بانحرافكم عن مبادئها، وبممارستكم الفساد والطغيان مرتين في تاريخكم، ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً﴾ وسوف يقودكم إنحرافكم وفسادكم للطغيان والاستكبار والاستعلاء والجبروت على الآخرين، ﴿فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، فإذا حان موعد الإفساد الأول سلطنا عليكم قوماً مقاتلين أقوياء أشداء عقوبة لكم، ﴿فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ﴾، في معركة خاطفة يطاردون فيها محاربيكم، ويلاحقون مقاتليكم، ويتتبعوهم فرداً فرداً، وهم يبحثون عن فلولكم المهزومة خلال دياركم، وفي داخل مدنكم على امتداد طرقكم، ﴿وَكانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾ تحقيقاً للوعد المبرم الذي قضاه الله، وقطعه على نفسه بمعاقبتكم على إفسادكم الأول.

﴿ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾، ثم مكناكم في الأرض مرة أخرى، فاستقويتم على أعدائكم، وأصبحتم أقوى منهم عدة وعدداً بما أمدكم الله من أموال وبنين، ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها﴾، فإذا أحسنتم في تعاملكم مع الآخرين بدلا من الإفساد والعلو والاستكبار عليهم، فإنما يعود نفع ذلك لكم، وإذا أسأتم للآخرين ولم تستفيدوا من تجربتكم حينئذٍ سوف تحصدون ما تجنون من جرائم زرعتها أيديكم.

﴿فَإِذا جاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً﴾، فإذا حان موعد الإفساد الثاني الذي تقومون به في الأرض فإن الله تعالى قضى عليكم وقد نبأكم به في التوراة وهو أنه يخرج عليكم نفس القوم الذين بعثهم لمعاقبتكم في إفسادكم الأول، لينزلوا بكم أشد العذاب حتى يرى الناظر آثاره الأليمة في وجوهكم ذلة ومسكنة صغاراً وحزناً وصراخاً، وهزيمة ورعباً وانسحاقاً، فيدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة، فيذيقوكم شتى أنواع المهالك من القتل الذريع، والموت الفجيع والدمار الشامل الفظيع ﴿عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾، لعل رحمة الله تعالى تنالكم من جديد فترجعون إلى ربكم بعدما تتعظون وتعتبرون بالعواقب الوخيمة التي جرتها عليكم ممارساتكم الإفسادية السابقة.

وإن عدتم عدنا ﴿وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً﴾، فإذا سولت لكم أنفسكم ـ بعد هذا كله ـ العودة إلى الإفساد مرة ثالثة، عاد الله تعالى عليكم بعقوبة ثالثة كاسحة، تجعلكم حطباً لنار المقاتلين من أعدائكم، وحصيراً جهنميا حارقا تحت أقدامهم.

التطبيقات المطروحة للوعد

لم يختلف العلماء في فهم وتفسير آيات الوعد القرآني الخاصة لبني إسرائيل، وإنما وقع الاختلاف بينهم في تطبيق هذا الوعد القرآني على تاريخ بني إسرائيل، وعلى المبعوثين لمعاقبتهم في الافسادين.

وفي تطبيقات الأحداث التاريخية للنص القرآني على الواقع، سنقتصر في تسليط الأضواء على التطبيق الأهم، والمنشور وهو للأكثرية من مفسري الشيعة والسنة،

وخلاصته: إن الإفسادين والعقوبة عليهما في هذا الوعد القرآني قد تحققتا في تاريخ بني إسرائيل قبل مجيء الإسلام، ومستند هذا الرأي ما جاء عن الصحابة والتابعين من روايات كثيرة في تطبيق هذا الوعد على تاريخ بني إسرائيل ونكتفي هنا بذكر البعض من تلك الروايات:

الرواية الأولى: أخرج ابن عساكر في تاريخه، عن علي بن أبي طالب «رضي الله عنه» قي قوله ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ قال: «الأولى: قتل زكريا عليه الصلاة والسلام والأخرى قتل يحيى عليه السلام».

الرواية الثانية: أخرج ابن أبي حاتم عن عطية العروفي في قوله تعالى: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ قال: «أفسدوا المرة الأولى فبعث عليهم جالوت فقتلهم، وأفسدوا المرة الثانية فقتلوا يحيى بن زكريا عليه السلام فبعث الله عليهم بخت نصّر»[٦٣٢].

الرواية الثالثة: اخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك في قوله: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾، قال: «كانت الرحمة التي وعدهم: بعث محمد صلى الله عليه وآله»[٦٣٣]

الرواية الرابعة: وأخرج عبد الرزاق، وابن حرير، وابن حاتم، عن قتادة في قوله: «وإن عدتم عدنا»، قال: فعادوا فبعث الله عليهم محمدا صلى الله عليه وآله فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون[٦٣٤].

(٦٣٢) الدر المنشور ٥: ٢٣٩.

(٦٣٣) الدر المنشور ٥: ٢٣٨.

(٦٣٤) الدر المنشور ٥: ٢٤٥.

التفسير والتطبيق للوعد في عصرنا هذا

بعد البحث في تفاصيل تفسير آيات الإفساد الإسرائيلي، وتطبيقاتها التاريخية يعترضنا هذا السؤال، ويفرض نفسه علينا بقوة وهو كما يلي:

إن تاريخ بني إسرائيل كله فساد في الأرض باستثناء بعض الفترات التاريخية التي اشرف الأنبياء فيها على قيادتهم، وهذا ما عكسه القرآن بوضوح حينما وصفهم «بالمفسدين» في العشرات من الآيات، فما هي إذاً الأسباب التاريخية التي جعلت لهذين الافسادين خصوصية النص، والتركيز عليهما في القرآن الكريم، دون غيرهما من إفساداتهم الأخرى الكثيرة والمتكررة؟

وفي إطار الإجابة على هذا السؤال الموضوعي، لا بد من الاعتقاد بوجود أسباب تاريخية خطيرة وراء ظاهرة التركيز القرآني على هذين الافسادين، وتسليط الضوء على عقوبتهما الحتميتين حينما تحلان باليهود، وتقضي على كيانهم البشري المفسد في الأرض، وتستأصله من الوجود في المرحلة الأخيرة من تاريخ صراع الحضارات التي ستشهد فيها البشرية إنتصار حضارة المصلحين المستضعفين على حضارة المستكبرين تحقيقاً للوعد الإلهي: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[٦٣٥]، فالمتأمل في سياق آيات الافسادين يقطع بحتمية وقوع معارك أربع بين بني إسرائيل وأعدائهم المبعوثين لمعاقبتهم على الافسادين.

المعركة الأولى: أشير إليها بقوله ﴿فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا

(٦٣٥) القصص: ٥.

أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَكانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾[٦٣٦].

والمعركة الثانية: ذكرت في قوله تعالى ﴿ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾[٦٣٧].

والمعركة الثالثة: أشير إليها في قوله تعالى ﴿فَإِذا جاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً﴾[٦٣٨].

والمعركة الرابعة: أشير إليها في قوله تعالى ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنا وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً﴾[٦٣٩].

وهذه المعركة الاخيرة التي يخوضها المسلمون، والمؤمنون ضد اليهود، لزوال فسادهم وكيانهم الغاصب تستمر حتى ظهور ذلك المصلح العالمي الذي سيطهّر الأرض من المفسدين بالأخص اليهود الصهاينة الغاصبين، كما نصت على ذلك بعض الروايات التي سنشير إليها، ولكن وحتى ذلك اليوم الموعود لا بد من التمهيد الفكري والعسكري، وهذا ما قام به الإمام الخميني قدس سره من قبل انتصار الثورة في إيران وبعدها بإعلان يوم القدس العالمي الذي حث فيه على أن تستيقظ الأمة الإسلامية، وتتوحد لتحرير القدس من أيدي الصهاينة، وقد أعطى الإمام الخميني رؤية فكرية، وأطروحة خاصة في أسلوب

(٦٣٦) الإسراء: ٥.

(٦٣٧) الإسراء: ٦.

(٦٣٨) الإسراء: ٧.

(٦٣٩) الإسراء: ٨.

الصراع مع إسرائيل، ولو عملت الأمة الإسلامية دولاً وشعوباً بأقوال الإمام لما كان لإسرائيل في عصرنا هذا كياناً، ولكن لعله شاء الله أن تكون إزالة إسرائيل من الوجود بيد المؤمنين المحبين والموالين لأهل البيت عليهم السلام، والممهدين لظهور قائم آل محمد صلى الله عليه وآله الإمام المهدي عجل الله فرجه، كما صرحت بذالك بعض الروايات، ففي حديث محمد بن الحنفية قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «تخرج راية سوداء لبني العباس، ثم تخرج من خراسان أخرى سوداء... ثيابهم بيض على مقدمتهم رجل يقال لـه شعيب بن صالح... حتى ينزل بيت المقدس يوطىء للمهدي سلطانه»(٦٤٠).

وعن الإمام علي عليه السلام قال: «يخرج رجل قبل المهدي من أهل بيته بالمشرق. يتوجه إلى بيت المقدس»(٦٤١).

وفي رواية عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «فإذا غيّرت سنتي يخرج ناصرهم من أرض يقال لها خراسان برايات سود فلا يلقاهم أحد إلا هزموه وغلبوا على ما في أيديهم حتى تقرب راياتهم بيت المقدس»(٦٤٢).

إن تسليط الأضواء من الروايات، وهكذا آيات الإسراء على بيت المقدس، والمسجد الأقصى يعتبر هدفاً مهماً، ومحوراً إستراتيجياً في معارك المجاهدين، وفيه دلالة على أن هذا المكان المقدس هو محور الصراع السياسي والعسكري بين اليهود والمسلمين، ومن أهم أهدافهم الجهادية هو محاولة الوصول إلى المسجد الأقصى أولى قبلتي المسلمين، وسوف

---

(٦٤٠) الحاوي للفتاوى ٢: ٦٧، الفتاوي الحديثة ٤٢. البرهان باب ٧: ١٧.

(٦٤١) كنز العمال ١٤: ٣٩٦٦٩.

(٦٤٢) إبراز الوهم المكنون ١٠١ وأيضا ١٤٠: ٥٩ رواه عن أبي الشيخ في كتاب الفن.

يتحقق ذلك بعون الله تعالى، وذلك بالإلتزام بخط الإسلام المحمدي الأصيل المتمثل بكتاب الله، وأهل بيت رسوله، وبنهج الإمام الخميني الراحل الذي أعلن بأن آخر جمعة من شهر رمضان المبارك هو يوم القدس العالمي، وأمر بتشكيل الجيش العشرين مليون لتحرير فلسطين، وبيت المقدس، وسماه جيش القدس.

يوم القدس العالمي

للإسلام في تربيته للفرد المسلم والمجتمع الإسلامي أساليب تربوية وأخلاقية متنوعة، هدفت إلى الوصول بالمسلم، وعموم المسلمين إلى درجة الكمال الأخلاقي، والروحي والمعنوي، وحتى المادي، على الصعيد الدنيوي والديني والأخروي.

ومن إحدى أساليب الإسلام، أن جعل للمسلمين مواسم معينة في أوقات محدّدة، مواسم عبادية تعمل على تذكيرهم وتنشيطهم، وشحذ هممهم الإيمانية، على مدار الأيام لأجل أن تبقى شعلة الإيمان متّقدة وحيّة، ولأجل التذكير الدائم بحقائق إيمانية عقائدية، وأيضاً بحقائق دنيوية في سبيل نهضة المجتمع الإسلامي، لأن الإسلام لم يأت بمعزلٍ عن الدنيا، والمجتمع الدنيوي، فجعل هذه المناسبات محطاً ليجدد الهمم ويشحذ الطاقات من جديد، قال تعالى ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ﴾[٦٤٣].

فجعل شهر رمضان مثلاً في كل عام موسماً عبادياً روحياً بالإضافة إلى أنه مذكر بفقراء المجتمع ومعوزيه.

فجعل إجتماع الجمعة لسماع خطبة الإمام وصلاة الجماعة، فرضاً من الفروض، ولعل هذا الفرض الأساسي من خلال اجتماع أسبوعي هو ما دعا إلى المحافظة على قوة

(٦٤٣) إبراهيم: ٥.

الإسلام في الصدور، وترسيخ قواعده الفكرية، والروحية بقوة في المجتمع الإنساني.

وقد جعل الإسلام للقدس مكانتها الروحية والمعنوية الكبرى، إذ ذكرت في آيات عظام من كتاب الله تعالى، وجعلت أرضا للمعراج النبوي، وكلام رسول الله محمد ﷺ عنها كثير، يؤكد حرص الإسلام عليها. وعلى التذكير بها، وجعلها علماً من أعلام المسلمين، وفي ذلك حكمة ربانية كبرى، فهذه القدس تعبر بشكل واقعي عن حيوية المسلمين، ومدى فاعليتهم التاريخية.

احتلت من قبل الصليبين من قبل، ولكن حيوية المسلمين حينها كانت متميزة وفاعليتهم كانت مؤكدة، فتحررت القدس على أيدي المجاهدين في ذلك الزمن، وبقيت تلك الأرض المباركة والمحررة حسرة في نفوس العنصريين في العالم المسيحي، وعند اليهود أصحاب العُقد والنفوس المنحرفة.

وكان احتلالها واغتصابها من قبل اليهود الصهاينة بمساندة الاستعمار الغربي عنوانا لمرحلة جديدة عالمية تاريخية، وتعبيراً جلياً عما وصل إليه المسلمون من ضعف وإنحطاط.

وقد سلك الإمام من خلال طرحه إعلان آخر جمعة من أيام شهر رمضان، في كل سنة يوماً عالميا للقدس، سلك من خلال هذا الطرح مسلك القرآن والإسلام في تربيته للمجتمع الإسلامي.

فإعلان الإمام «رضوان الله عليه» هذا اليوم يوماً لتذكير الأمة، وشعوبها بالقدس الجريحة، وبالأقصى المبارك المغتصبين من قبل اليهود والصهاينة مفسدي العالم.

إن الهدف من إعلان آخر جمعة من رمضان المبارك يوماً للقدس، ليس الوقوف عند حد الشعارات والهتافات، بل لأجل أن تتحد الشعوب والدول الإسلامية أكثر من أي

وقت مضى لتستعد للجهاد لأخذ حق الشعب الفلسطيني، وإلحاق الهزيمة بالعدو الصهيوني الإمبريالي.

إن يوم القدس هو يوم التعبئة المستمرة للجماهير وإزالة هذه البقعة السوداء من خارطة العالم الإسلامي وإحياء يوم القدس لا يتناسب إطلاقاً مع الاعتراف بالكيان الصهيوني والسكوت على جرائمه، ولا يستطيع أن يعلن هذه الدعوة أولئك الذين هادنوا الكيان الصهيوني الغاصب للقدس، وتركوا خط الجهاد الدامي، واتجهوا نحو استرضاء أمريكا ولا يستطيعون دون شك أن يرفعوا عقيدتهم باسم القدس وفلسطين عرباً كانوا أو غير عرب، حتى ولو كانوا فلسطينيين.

لقد أعلن الإمام الخميني «قده» آخر يوم جمعة من شهر رمضان المبارك «يوماً للقدس»، لأن قضية فلسطين، وقضايا المسلمين في كل أنحاء العالم الإسلامي تعيش في قلبه ووجدانه.

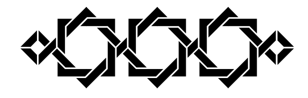
لقد عاشت فلسطين ومقدساتها في قلبه الكبير، وكانت معه في محطات حياته كلها، وكان «رضوان الله عليه» يؤكد بأقواله وأفعاله ومواقفه العلاقة الشرعية بين الجمهورية الإسلامية في إيران وفلسطين، كبلدين إسلاميين، وشعبين مسلمين، وكانت أمنيته أن ترجع فلسطين إلى مكانها في العالم الإسلامي وتأخذ موقعية قلب الأمة القدس، وكان أمله الصلاة في مسجدها الأقصى أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، لذلك سعى جاهداً لتحريض المسلمين في كل مكان وتوعيتهم للقضاء على الصهيونية لتحرير فلسطين، وتطهيرها من الأيدي النجسة، ولهذا فمن أولى واجباتنا كمسلمين أن نعمل ونخطط، ونتعاون ونتحد لإنقاذ القدس من براثن الصهيونية، كما ـ أوصانا الإمام الخميني

«قده» ـ الباقي فينا أبد الدهر حتى ظهور منجي البشرية الإمام المهدي ﻋﺠﻞ الله تعالى فرجه الشريف.

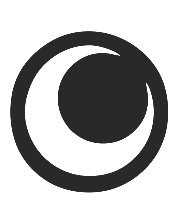
وحتى ذلك اليوم ولتمهيد ظهوره ﻋﺠﻞ الله تعالى فرجه الشريف ينبغي، بل يجب علينا جميعاً كمسلمين أن نسعى ونعمل لتحرير فلسطين والقدس من أيدي الصهاينة، ولتحقيق هذا الهدف لا بد من تلبية نداء الإمام الخميني «قده» لإحياء يوم القدس العالمي، ولا بد من الالتزام بدعوة الإمام لبناء جيش العشرين مليون الذي أطلق عليه «جيش القدس».

وفي هذا المعنى نختم مقولتنا هذه بقول الإمام رضوان الله عليه، «لتبقى القدس في ذاكرة المسلمين، لشحذ الهمم، والتعبئة والاستعداد، لتطهيرها من رجس الصهاينة، والمستوطنين»، وقوله «قده»: «الذين لا يشاركون في يوم القدس مخالفون للإسلام وموافقون لإسرائيل».

وقوله «قده»: «ينبغي إحياء يوم القدس بين المسلمين».

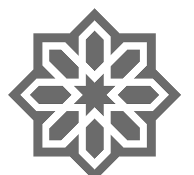


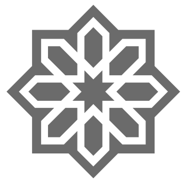


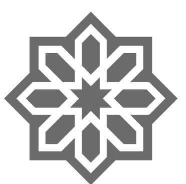


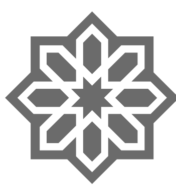
الليلة السادسة والعشرون

علاقة الإنسان بالرحمن (العرفان)









- علاقة الإنسان بربه (العرفان)
- علائق الارتباط الحر مع الله تعالىٰ
- الحب والعشق الإلهي
- طريق الوصول إلىٰ محبة الله

الليلة السادسة والعشرون

علاقة الإنسان بالرحمن (العرفان)

سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ

فصلت: ٥٣

عن الإمام الصادق عليه السلام: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي فَضْلِ مَعْرِفَةِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ مَا مَدُّوا أَعْيُنَهُمْ إِلَى مَا مَتَّعَ اللَّهُ بِهِ الْأَعْدَاءَ مِنْ زَهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ونَعِيمِهَا وكَانَتْ دُنْيَاهُمْ أَقَلَّ عِنْدَهُمْ مِمَّا يَطَئُونَهُ بِأَرْجُلِهِمْ ولَنُعِّمُوا بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ جَلَّ وعَزَّ وتَلَذَّذُوا بِهَا تَلَذُّذَ مَنْ لَمْ يَزَلْ فِي رَوْضَاتِ الْجِنَانِ مَعَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ إِنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ أُنسٌ مِنْ كُلِّ وَحْشَةٍ وصَاحِبٌ مِنْ كُلِّ وَحْدَةٍ ونُورٌ مِنْ كُلِّ ظُلْمَةٍ وقُوَّةٌ مِنْ كُلِّ ضَعْفٍ وشِفَاءٌ مِنْ كُلِّ سُقْمٍ».

الكافي ٨: ٢٤٧/ ٣٤٧



من الواضح أن نظام الإسلام هو نظام العلائق والارتباطات والحقوق، وهذه الروابط

على أنحاء ثلاثة، فهي تارة روابط مع الله، ويمكن أن نطلق عليها (علاقة الإنسان بربه) أو ما يصطلح عليها بـ(العرفان)، وثانيةً علاقة الإنسان بنفسه، ويمكن أن يصطلح عليها بـ(تزكية النفس)، أو (الجهاد الأكبر) على حد تعبير بعض الروايات،

وثالثةً علاقة الإنسان مع الآخرين، ويطلق عليها (علاقة الإنسان بمجتمعه).

ونظرا لأهمية هذه الأبحاث الثلاثة، من حيث أنها توقف الإنسان على حقيقة الحقوق الملقاة على عاتقه، والمسؤولية التي سيسأل عنها، كما قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾[٦٤٤]، فسوف نتكلم عنها تباعاً على مدى ليالٍ ثلاثة.

علاقة الإنسان بربه (العرفان)

لا شك أن الهدف الحقيقي والنهائي الذي من أجله خلق الله تعالى الإنسان هو الوصول إلى الكمال الذي أعده الله له، وذلك الكمال هو أن يصبح خليفة الله في أرضه، يتخلّق بأخلاقه ويحكم بحكمه، وينفذ أمره في أرضه، ولكي يتحقق هذا الهدف السامي، سن الله تعالى لـه سننا وقنن لـه قوانين وشرع لـه شرائع ومن خلالها يصل إلى هدف خلقه.

وأول طريق نصبه لـه لذلك هو أن يدعم ارتباطه بربه، ويوصله إلى درجة يصبح ارتباطه به أعلى وأعظم الروابط.

---

(٦٤٤) الصافات: ٢٤.

أنواع الارتباط مع الله تعالى: هناك طرق متعددة لارتباط العبد بربه، وفي بعضها يتحقق الهدف وفي بعضها قد لا يتحقق، ويمكن إيجازها بثلاثة طرق، وهي:

الطريق الأول: الارتباط بالله على أساس الخوف

من الواضح أن الله تعالى يخوف عباده من نفسه، ويحذّر من سخطه وغضبه، قال تعالى: ﴿وَخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(٦٤٥)

كما أنه مدح الخائفين منه، وقربهم منه، قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(٦٤٦)

فوصول العبد إلى مرحلة الخوف من الله يوجب ابتعاده عن الذنوب والآثام، ويخرطه في طريق الطاعة والثبات، نعم هناك مرحلة أدون من هذه المرحلة من الخوف، وهي الخوف من عقاب الله تعالى ومن ناره، فهذه وإن كانت صفة ممدوحة في العبد، إلا أن كماله وتطوره لا يتحقق إلا بعد الخروج عن خوف عقابه، وبلوغه الخوف منه تبارك وتعالى.

ولعلّ قائلاً يقول: لماذا الخوف من العقاب لا يحقق هدف التكامل، مع أن القرآن وفي كثير من آياته حذّر من عقابه وطلب من المؤمنين الخوف منه الجواب: أن العبد لما لم يكن عارفاً ما يترتب على الطاعة وترك المعصية من ثمرات تكاملية، لأنه لم يتذوق لذة العبادة والطاعة ولم يعش في نورانيتها، فلا يكون مبالياً بالطاعة وترك المعصية، فلو لم

(٦٤٥) آل عمران: ١٧٥.

(٦٤٦) الانعام: ٥١.

يكن عقاب لما اهتم بالدخول إلى هذا المستوى من العمل فكان ما يترتب على ترك المعصية من العقاب ضروري البيان لممارسة العبد أمر الطاعة، ولتركه المعصية، ولكن بعد ذلك ينبغي على العبد أن يطوّر إيمانه، ويصعّد من كمالاته إلى أن يتخلص إلى حد ما من خوف العقاب، ويقوم بالعمل بداعي الرغبة والميل إلى الله تبارك وتعالى، ومن هنا كان علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: «إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك»[٦٤٧]، ويقصد عليه السلام أن نارك يا الهي مخيفة، وحق على كل أحد أن يخافها ويهابها، ولكني وإن كنت أخاف منها إلاّ أن هدفي من عبادتك ليس اجتناب النار، ولا أن الداعي لها خوفها.

وهذا النوع من الارتباط بالله يسميه أمير المؤمنين بعبادة العبيد، يقول عليه السلام: «إن قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد»[٦٤٨]، وتعميقاً لهذه الفكرة نقول: إن العمل تابع دائماً للقصد والنية، فحقيقة العمل وقيمته مترتبة على القصد، ومن هنا جاء عن أهل البيت عليهم السلام: «إنما الأعمال بالنيات»، وورد الكثير في أنه: «لا تهتموا بكثرة العمل وقلته ولكن اهتموا بالقبول»، إذ القبول رهين ومرتبط بالنية التي أقدم العبد لأجلها وبداعيها وبتحريكها على العمل، ومن هذا المنطلق فإن العبد إذا تحرك وارتبط بالله تعالى بقصد الخوف من النار والعقاب بحيث كان هذا قصده وهذه نيته،فهذا في الواقع ارتباط بما يخاف منه، وليس ارتباط بالله وبذاته، ولهذا لو فرض أنه ألغى العقاب توقف العبد عن العمل، لأن ما يخاف منه زال، وهذا وإن كان لا يضره على مستوى أنه عبد مقبول عند الله، وعلى الرغم من أن أعماله بداعي الخوف من عقابه مقبولة، وبذلك حكم الفقهاء، ولكن

(٦٤٧) بحار الانوار: ١٨٦/٧٠/ح٤.

(٦٤٨) نهج البلاغة: ٥١٠.

نحن نتكلم على مستوى ترتب آثار العبادة والطاعة التي بها يحقق العبد غاية خلقه، ويحقق الاستخلاف في الأرض، فلا يكفي الانبعاث والتحرك نحو العمل على أساسه دون أن يطوره بأن يكون الداعي حقيقة ذات الله بغض النظر عن عقابه وعذابه،

الطريق الثاني: **الارتباط بالله على أساس الطمع وطلب الجنة**

لقد ذكر الله تعالى كثيراً ما أعده من ثواب دائم ونعيم مقيم لعباده المطيعين، ودعاهم للتوجه إلى هذه اللذائذ والطيبات، وذلك لأجل أن يرغبهم في طاعته، وأن ما يتركونه من لذائد الدنيا ونعيمها، إنما هو لأجل ما أعده لهم من نعيم مقيم، وأن ما في الأرض لا يعدو أن يكون لذة جزئية زائلة في قبال تلك اللذائذ الواقعية الدائمة.

قال الله تعالى: ﴿وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٦٤٩].

وقال: ﴿سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[٦٥٠]، ولهذا نجد الكثير من العباد يتعلقون بالطاعة والعبادة على أساس ما أعده الله لهم من الثواب والنعيم، فلا يتفاعل أو يتحرك نحو سلوك عبادي، وطاعة إلاّ بعد أن ينظر ما أعده الله لفاعله من الثواب، وهذا وإن كان ممدوحاً ومقبولاً عند الله تعالى ولكن ليست الغاية الحقيقية التي لأجلها خلق الإنسان أن يستحصل هذه اللذائذ الأخروية، وإنما

(٦٤٩) آل عمران: ١٣٣.

(٦٥٠) الحديد: ٢١.

هذا التحريض على الثواب والنعيم المقيم لتشويق العباد إلى الطاعة، وأنهم إنما يتركون لذائد الدنيا، في قبال تلك اللذائذ التي لا عين رأت مثلها، ولا أذن سمعت بمثلها، ولا خطرت على بال بشر، كذلك فهذا التشويق لكي يدخل الإنسان إلى حظيرة القدس الإلهي فيعبد الله، ويستحصل الكمالات التي تحقق لـه الاستخلاف، ويصل عبرها إلى أن يكون خليفة الله في الأرض يطبق أحكامه وقوانينه ويحافظ على أغراضه ومراداته، والإنسان لمكان جهله لا يدرك هذه الحقيقية، فكان بحاجة إلى دافع ومحرك نحوها، وذلك المحرك هو المثوبة والنعيم المقيم، ولكن لا يعني ذلك أن يبقى الهدف الوحيد ينصبه أمام عينيه، ويقوم بكل الطاعات لأجله فقط، بل ينبغي أن يبقيه محركاً ودافعاً، وأما العلة التي من أجلها عبد الله وإطاعه فهي الوصول إلى الرضا الإلهي، والى الكمال الّذي لا يحصل إلاّ بقصده والوصول إليه، وأما الثواب فهو جزاؤه عليه لا غير، ومن هنا كان يقول علي بن أبي طالب عليه السلام: «إلهي ما عبدتك طمعا في جنتك»[٦٥١].

ويقصد أن جنة الله، وما أعده للمطيعين ليست الغاية من عبادة الله، لأنه يرى عليه السلام أن هذا العمل ليس خالصاً ومصفى لله، بل هناك تحرك نفسي للمشتهيات والرغبات، ولهذا يطلق على من يعبد الله تعالى طمعاً في الجنة والمثوبة هم التجار، إذ التاجر يبادل بين سلعة وأخرى، وهذا النوع من العبيد يبادلون أعمالهم وطاعاتهم بالجنة بحيث لو لم يكن على العبادة جنة لما بقي عندهم داعي للطاعة والعبادة، يقول عليه السلام: «إن قوماً عبدوا الله طمعاً فتلك عبادة التجار»[٦٥٢].

(٦٥١) بحار الانوار: ٧٠: ١٨٦ ح١.

(٦٥٢) بحار الانوار: ٤١: ١٤ ح٤.

الطريق الثالث: الارتباط بالله لأجل الله

كما أن هناك في القرآن محركات للعبد نحو الطاعة، وهي الجنة ومنفرات عن المعصية وهي النار، كذلك توجد آيات كثيرة تجعل المحرك للطاعة أن الله تعالى مستحق لها، والمنفر عن المعصية أن الله بكماله المطلق لا ينبغي للعبد أن يعصيه، فحتى لو لم يكن هناك جنة ولا نار، ولا ثواب ولا عقاب، هناك دواعي للطاعة وترك المعصية، وهي أن الله بذاته مستحق لها، وأهل لها، وعلى سبيل المثال نذكر مجموعة من الآيات، قال تعالى: ﴿يا أيّها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٦٥٣].

فهنا الآية وما ماثلها، تجعل استحقاق الله للعبادة لا لأجل الخوف من النار، ولا الطمع بالجنة، ولكن لأجل أنه الخالق، ومن الواضح أن العقل يدرك استحقاق الخالق للعبادة، لأنه لا يوجد إله للناس غيره، كما أنه هو الخالق، والمنشئ والمستعمر في الأرض، فهذا كله محفز وداعي ليرغب العبد في عبادته.

ومن هنا نجد علياً عليه السلام كان يعبد الله، لأنه وجد الاستحقاق والأهلية للعبادة، لأنه الخالق البارئ المصور، وكل ذلك كان يحرك علياً عليه السلام على العبادة، ولذا كان يقول: «الهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك، ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»[٦٥٤].

وأيضاً أطلق على من يعبد الله تعالى لأنه وجد فيه الأهلية والاستحقاق، بأنه العابد الحر الّذي لا يقيده مصلحة، ولا الهروب من عقاب، وإنما يقيده أنه وجد الله أهلاً للعبادة

---

(٦٥٣) البقرة: ٢١.

(٦٥٤) بحار الأنوار ٧٠: ١٨٦ ح١.

فعبده.

وهذا النمط من العبادة وبهذا الهدف والغاية هو ما يحقق الكمال الّذي من أجله خلق الإنسان، وبه يصبح خليفة الله في الأرض، وعليه فينبغي لنا نحن العبيد أن نصعّد من إمكانياتنا العبادية ورقيها إلى درجة أن يصبح همنا الله، ومطلوبنا رضاه، وغايتنا الوصول إلى أخلاقه، وحتى نفهم كيف يمكننا أن نرتبط بالله تعالى بهذا النحو من الارتباط ينبغي علينا أن نتكلم عن العلائق الّتي تحققه، أو تساعد على تحقيقه.

علائق الارتباط الحر مع الله تعالى

لقد جعل الله لعباده رحمة بهم، ولطفاً منه في إيصال عبده إلى هدفه طرقاً وعلائقها تحقق لـه الارتباط الحر مع الله تبارك وتعالى، ولعله أهم الطرق، بل سيد الطرق ورأسها، هو الارتباط مع الله على أساس الحب.

الحب والعشق الإلهي

خلق الله تعالى الإنسان مركباً من جانبين، مادي ومعنوي، وجعل فيه النفس، وأودع فهيا الغرائز من الشهوة واللذة والهوى وغيرها، وجميع هذه الغرائز ترجع في الحقيقة إلى غريزتين أساسيتين هما «الحب والبغض»، فلا يلتذ إلاّ بما يحب ولا يشتهي إلاّ ما يحب، ولا يتحرك إلاّ نحو ما يحب، وكذلك العكس فإنه لا ينفر إلاّ مما يبغض، ولا يهرب إلاّ مما يبغض، بل جميع أعمال العباد لو خلّوا وشأنهم متأثرة تماماً بالحب والبغض.

وغريزة الحب، غريزة مهمّة على صعيد الميول البشرية، حتى يمكننا القول بأن الإنسان

ينفعل مع ما يحب إلى درجة أن مشاعره وأحاسيسه تتوجه بكاملها إليه تبسط ما يجب على تفكيره وحركة عقله، ذلك أن الشيء إذا وصل إلى درجة المحبة في الإنسان يصبح موافقاً لميوله ورغباته، فتنساق إليه النفس وتأنس به، ولا يجد الإنسان أي عناء في إقامة فروضه وشعائره، وهذا بخلاف ما لو لم يكن محبوباً إليه، فإن النفس لا تنساق إليه، بل لعلها تتثاقل منه، وتنفر عنه في كثيراً من الأحيان.

ومن هنا كان الطريق الأنجع للارتباط مع الله، أن يرتبط العبد به عبر الحب والعشق، فإن هذا سيؤدي إلى حب طاعته والرغبة في تقديم فروض الطاعة لـه من دون منافرة، ولا تعب ولا شعور به، ومن هنا كانت أعلى درجات العباد المحبين، فقد ورد في صحيفة إدريس: «طوبى لقوم عبدوني حباً، واتخذوني إلهاً ورباً، سهروا الليل ودأبوا النهار طلباً لوجهي من غير رهبة ولا رغبة ولا لنار ولا جنة، بل للمحبة الصحيحة والإرادة الصريحة والانقطاع عن الكل إلي»[٦٥٥].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله بكى شعيب عليه السلام من حب الله عز وجل، فرد الله عليه بصره ثم بكى حتى عمي فرد عليه بصره، ثم بكى حتى عمي فرد الله عليه بصره، فلما كانت الرابعة أوحى الله إليه يا شعيب إلى متى يكون هذا أبداً منك؟ إن يكن هذا خوفاً من النار فقد أجرتك، وإن يكن شوقاً إلى الجنة فقد أبحتك، قال إلهي وسيدي أنت تعلم أني ما بكيت خوفاً من نارك ولا شوقاً إلى جنتك، ولكن عقد حبك على قلبي فلست أصبر أو أراك، فأوحى الله «جل جلاله» إليه: أما إذا كانت هذا هكذا فمن أجل هذا،

(٦٥٥) بحار الأنوار ٩٥: ٤٦٧.

سأخدمك كليمي موسى بن عمران.[٦٥٦]

آثار محبة الله تعالى:

إن للسير في هذا الطريق آثاراً عميقة ومنازل كبيرة، وقد أوضحها الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «إن أولي الألباب الّذين عملوا بالفكرة حتى ورثوا منه حب الله... فإذا بلغ هذه المنزلة جعل شهوته ومحبته في خالقه، فإذا فعل ذلك نزل المنزلة الكبرى، فعاين ربه في قلبه، وورث الحكمة بغير ما ورثه الحكماء، وورث العلم بغير ما ورثه العلماء، وورث الصدق بغير ما ورثه الصديقون، إن الحكماء ورثوا الحكمة بالصمت، وإن العلماء ورثوا العلم بالطلب، وإن الصديقين ورثوا الصدق بالخشوع، وطول العبادة».

طريق الوصول إلى محبة الله

وطبعاً لقد وضع لنا الإسلام طريقاً للوصول إلى محبة الله تبارك وتعالى، ويمكننا حصرها بما يلي:

١ـ التفكير في خلق الله

من غير الخفي على أحد أن أساس الحب هو الجمال، لإن الإنسان مفطور على حب الجمال، وبمجرد أن يدركه ويعيه ينجذب إليه، ويميل إليه ويحبه ويعشقه، ولهذا فما يعشق الإنسان شيئاً إلاّ لأنه يجد فيه ولو من جهة من جهاته مسحة جمال، وحيث أن الله تعالى

(٦٥٦) علل الشرائع ٥٧ ح١.

جماله مطلق، بل هو الجمال، كما جاء في دعاء السحر: «اللهم إني أسألك من جمالك بأجمله وكل جمالك جميل، اللهم إني أسألك بجمالك كله».

فبمجرد أن يدرك العبد جماليته يحبه ويعشقه، وإدراك جماله عبر التفكير بأفعاله وخلقه، وآثار صنعه، لأن الجمال المطلق لا يصدر منه إلاّ ما هو جميل، ولهذا ورد التركيز البليغ على التفكير في آثار صنع الله تعالى، قال تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ﴾[٦٥٧].

٢ـ اجتناب حب الدنيا

لقد تواتر في الأخبار أن: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»، وأيضاً حب الدنيا مانع من دخول حب الله في القلب، لأنه بين الدنيا والله تباعد وتفارق، إذ الميل إلى الدنيا يوجب التسافل والتنازل، وسلب كل كمال، وأما الله والميل إليه يوجب الترافع والتعالي، ويوجب حصول كل كمال، وعليه فبمقدار ما يتعلق قلب المؤمن بالدنيا يبتعد عن الله، والعكس بالعكس فبمقدار ما يبتعد عن الدنيا يقترب من الله، وفي هذا الصدد، يقول النبي ﷺ: «حب الدنيا وحب الله لا يجتمعان في قلب أبداً»[٦٥٨].

وقال علي عليه السلام: «كيف يدّعي حب الله من سكن قلبه حب الدنيا»[٦٥٩]، وقال: «كما

---

(٦٥٧) آل عمران: ١٩١.

(٦٥٨) غرار الحكم: ٧٠٠٢ ح٧٢١٩.

(٦٥٩) غرار الحكم: ٧٠٠٢ ح٧٢١٩.

أن الشمس والليل لا يجتمعان كذلك حب الله وحب الدنيا لا يجتمعان»[٦٦٠].

ومن هنا كان من دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام: «سيدي أخرج حب الدنيا من قلبي»، فإن إخراج حب الدنيا كفيل في أن يتحقق حب الله تعالى، بمعنى أن ذلك يحقق الأرضية الصالحة لتعشيش حب الله تعالى فيه، وإقامته فيه.

٣ـ حب أهل البيت عليهم السلام

من موارد تحقق حب الله تعالى، حب أهل البيت، ذلك أن الله تعالى الكمال المطلق، ويستحيل لأي أحد أن يدرك كنه كماله، وحقيقة جماله، وعزته وجلاله، لأن المخلوق محدود بحدود خلقته، ولا يمكن للمحدود أن يدرك اللا محدود، كما هو واضح، وعلى هذا فمهما حاول العباد إدراك ربهم بالعلم وبالمعرفة فلا يمكن لهم إلاّ معرفة الأثر، ولكن جعل الله ممن خلق من تظهر عليه أعظم صفات الكمال البشري، بحيث يكونون مظهراً من مظاهر الحق ونوراً من نوره المقدس، فخلق أهل البيت عليهم السلام وجعلهم في هذا المقام العظيم بحيث يظهرون أخلاق الله وجماله وكماله، ولهذا فكل ما في أهل البيت عليهم السلام من علمهم وخلقهم وقداستهم تعكس صفات الباري جلّ وعلا، فيحملون جمالاً تاماً على المستوى البشري، وهذا الجمال يحبه من يدركه فيكون الارتباط بهم على أساس المحبة موجباً لمحبة الله جل وعلا. ومن هنا ورد التأكيد على محبة أهل البيت عليهم السلام، واتباعهم والولاء لهم، فقد جاء في الزيارة الجامعة: «من أراد الله بدأ بكم»، و«من أحبكم فقد أحب الله، ومن أبغضكم فقد أبغض الله»، ومما تواتر بين المسلمين قول النبي صلى الله عليه وآله: «أدبوا

(٦٦٠) بحار الأنوار ٢٨: ٧.

أولادكم على حب آل محمد صلى الله عليه وآله»[٦٦١].

وقد سلك أهل البيت عليهم السلام طريق الحب لله تعالى، فكانوا متفانين في حبه، وهمهم لقاؤه، فهذا علي بن الحسين يطلب من الله أن يسكن قلبه حبه، ويحبب إليه أحباؤه، قال عليه السلام: «اللهم اجعلني أحبك وأحب من يحبك وأحب كل عمل يوصلني إليك»، وفي دعاء كميل يدعو أمير المؤمنين عليه السلام ويقول: «واجعل قلبي بحبك متيماً»، وهكذا نرى كيف كان الإمام عليه السلام والحسنان وأمهما الزهراء عليهم السلام يطعمون الطعام على حبّ الله مسكيناً ويتيماً وأسيراً، ثلاثة أيام متوالية وهم صائمون وبأمس الحاجة إلى الطعام، حتى نزلت الآية تمدحهم بهذا العمل العبادي بقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ۞ إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً﴾[٦٦٢].

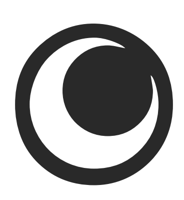
وهذا أبو عبد الله الحسين في عرصات كربلاء على الرغم من المصائب الّتي مرت عليه من قتل الأصحاب، والأهل والعطش، وحرارة الشمس، وتكالب الناس على قتاله، وعلى رغم الجراح الّتي تشخب من كل مكان يقع على الأرض وهو يقول (عن لسانه):

إلهي تركت الخلق طراً في هواك ... وأيتمت العيال لكي أراك
فلو قطعتني في الحب إرباً ... لما مال الفؤاد إلى سواك

(٦٦١) بحار الأنوار ٣٨: ٧.

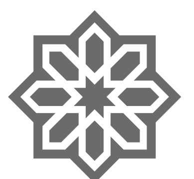
(٦٦٢) الإنسان، ٨-٩.

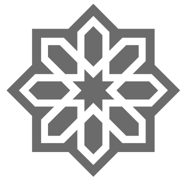


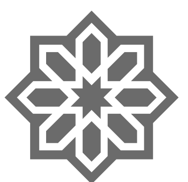


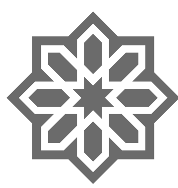
الليلة السابعة والعشرون

علاقة الإنسان بنفسه (جهاد النفس)









- حقيقة النفس
- مراتب النفس ودرجاتها
- جهاد النفس وإصلاحها
- كيفية جهاد النفس
- ترويض الجوارح على الطاعات

الليلة السابعة والعشرون

علاقة الإنسان بنفسه (جهاد النفس)

وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً

الإسراء: ٣٦

ومما جاء في خطبته ﷺ: «واحفظوا ألسنتكم وغضوا عما لا يحل النظر إليه أبصاركم ، وعما لا يحل الاستماع إليه أسماعكم».



إن من مبادئ الإسلام العظم أن جعل حقوقاً للإنسان على نفسه، وقد أولى لهذه النفس اهتماماً بليغاً.

وهذا يكشف عن أهمية النفس في الإسلام، فإن في صلاحها صلاح المجتمع، كما أن في فسادها فساده، ومن هنا كان علينا أن نتعرف على حقيقة النفس وخواصها وكيف نخضعها للحق تبارك وتعالى، وبما أنّه أجهزة صدور الأفعال في الانسان جوارحه، فيلزم الكلام عن الجوارح وتأديبها لتكون مطبعة للنفس المطمئنة، وقاهرة للنفس الإمارة بالسوء.

حقيقة النفس

اختلف أهل النظر في معنى النفس، على أقوال، فمنهم من قال هي الروح، ومنهم من قال هي الدم الّذي يجري في العروق والشرايين، ولكن حقيقة النفس من وجهة نظر علم النفس الإسلامي، أنها محلٌ للغرائز والمشتهيات، ولكي ندرك هذا المعنى لابد من بيان خصائص تركيب الإنسان، فنقول:

خلق الله الإنسان من بعدين، مادي متألف من المادة الحيوانية اللحم والعظم والعروق والأوردة والدماء وغير ذلك من الخصائص البدنية، وبعد معنوي، وهذا البعد على أنواع قد تعرض القرآن الكريم لذكرها، وهي:

١- **الروح:** وهي الّتي بها حياة الإنسان وقوامه، وهي النفخة الّتي جعلت الإنسان حياً، قال تعالى: ﴿فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا له ساجِدِينَ﴾[٦٦٣].

٢- **العقل:** وهي الجبلّة الّتي تميّز الإنسان عن العجماوات، فالعجماوات تشترك مع الإنسان في المادة الحيوانية، ولكن ينفصل عنها الإنسان بالعقل، ودور العقل في مملكة الإنسان المدرك لما ينبغي فعله وما لا ينبغي فعله، وللخير والشر، وبهذا الجانب صار الإنسان موضعاً للاحترام والتقدير والتكرم، ومن هنا ورد في الأخبار عن الباقر عليه السلام قال: «لما خلق الله العقل استنطقه، ثم قال لـه أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك، ولا أكملتك إلاّ فيمن أحب، أما إني

(٦٦٣) الحجر: ٢٩.

إياك أمر وإياك أنهى وإياك أعاقب وإياك أثيب[٦٦٤].

٣- الإرادة: وهي جهة الاختيار في الإنسان، فقد أذن الله تعالى للإنسان بأن جعله مريداً حراً مختاراً يتصرف كيفما بدا له، فلم يقهره على فعل، ولا أكرهه على ترك، وإنما أمره ونهاه فإذا أتمر فبمحض اختياره وإن انتهى فبكامل إرادته، ذلك أن الكمالات الّتي ينبغي أن يصل إليها قائمة على سلوكه طريق الحق باختياره، وهذا ما أكده القرآن بقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[٦٦٥] وقال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[٦٦٦].

٤- الضمير: وهو جهة الحكمة الّتي أودعها الله تعالى في الإنسان، ليحاكم بين تصرفاته، فيؤنبه على تقصيره ومعصيته، ويحمله على التدارك، ووجوده في الإنسان بديهي دلت التجربة عليه، وكل فرد منا يسمع نداءه - إذا كان حياً- عندما يزاول الإنسان المعاصي، وقد يطلق عليه في بعض الأخبار «الواعظ»، كقولهم عليهم السلام: من لم يكن لـه واعظاً من نفسه فلا تنفعه المواعظ[٦٦٧].

٥- القلب: وهو جهة التقلب والتغير والتلّون في الإنسان، فقد يكون شيء مستودعاً في القلب، ثم ينقلب إلى ضده، ولذلك يمكننا القول بأن القلب هو موقع التأثر في الإنسان،

(٦٦٤) الكافي: ١/١٠ح١.
(٦٦٥) الإنسان: ٣.
(٦٦٦) البلد: ١٠.
(٦٦٧) بحار الأنوار: ٧٠: ٧٠ ح١٧.

حيث أن جميع المشاعر والأحاسيس المرتبطة بالعقل تظهر آثارها على القلب، وقد يطلق في بعض الآيات ويراد به العقل، ولأجل هذا التقلب والتغير وصفه القرآن تارة بالسليم، كما في قوله: ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٦٦٨]. وبالقلب المريض، كما في قوله: ﴿فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللهُ مَرَضاً﴾[٦٦٩]، وثالثة بالقلب المقفل الفاقد للشعور والأحاسيس، كما في قوله: ﴿أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها﴾[٦٧٠]، إلى غير ذلك.

٦- النفس: وهي مصدر الأحاسيس والمشاعر، ومركز الرغبات والملذات والمشتهيات والأهواء، فإذا اشتهى الإنسان فبنفسه، وإذا أحب فأوله يبدأ بالنفس، وكذا إذا كره، أو نفر أو غير ذلك.

- العلاقة بين الجوانب المعنوية في الإنسان: بعدما عرفت من أن الجانب المعنوي في الإنسان يحتوي على قوى متعددة الكيفيات والوظائف وهي الروح والعقل والإرادة والضمير والقلب والنفس، فمن بين هذه القوى قوّتان تتنازعان دائماً على حكومة مملكة الإنسان وهما العقل والنفس، فالعقل يريد أن يحكم الإنسان، وغرضه إيصاله إلى الطاعة والقرب الإلهي، والنفس تريد حكومة الإنسان لغرض جعله حيواناً همه علفه وفرجه، وأما سائر القوى عدا الضمير، فهي تنتظر الغالب فإن غلب العقل فيوجه إرادة الإنسان نحو ما ينبغي عليه فعله وما ينبغي عليه تركه، وهذا الانبغاء هو ما يتوافق مع حكم الشريعة ونظامها وقوانينها، كما أنه يطهّر القلب ليجعله حرماً لله يسكن فيه محبته

---

(٦٦٨) الشعراء: ٨٩.

(٦٦٩) البقرة: ١٠.

(٦٧٠) محمد ﷺ ٢٤.

وتقديسه، ويؤثر على النفس ويخضعها لإرادة الله وأوامره، وأما الضمير فإذا كان على قيد الحياة، ولم تقتله النفس، إذ النفس في حربها مع العقل أول ما تقتل الضمير، لأنه يشكل خطراً على رغباتها المتفاقمة ويقلقها، إذ لو ارتدع الإنسان نتيجة تأنيب الضمير فسيؤول إلى حرمانها ومنعها من التمادي في المشتهيات فإذا بقي حياً، كان دور العقل تنميته وتقويته ليكون على استعداد للتأنيب والتوبيخ كلما حاولت النفس التمادي في المعصية، هذا لو غلب العقل على النفس، أما لو غلبت النفس، فهذا يعني أن العقل وكافة هذه الأجهزة تصبح أسيرة لدى النفس، فيصبح العقل مفكراً ومحققاً لما تلتذ به، ويموت الضمير، ويصبح القلب عاشقاً للدنيا وملذات الحياة، فتعثو النفس في الإنسان والأرض فساداً، فالقوتان المتصارعتان والمتحاربتان هما العقل والنفس، لكل منهما جند ذكرها الأئمة عليهم السلام، ويطول المقام بذكرها، ومن رام الاطلاع فليراجع الجزء الأول من أصول الكافي.

وقد أوضحت الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام هذه الحرب القائمة، ونتيجة انتصار العقل أو انتصار النفس، ولنذكر بعضها لبيان الحال.

فعن أمير المؤمنين عليه السلام الهوى عدو العقل[٦٧١]، وعنه قال عليه السلام حفظ العقل بمخالفة الهوى والعزوف عن الدنيا[٦٧٢]، وعنه قال عليه السلام: من جانب هواه صح عقله[٦٧٣]، وعنه عليه السلام قال: «كم من عقل أسير تحت هوى أمير[٦٧٤]، وعنه قال عليه السلام : قاتل هواك

(٦٧١) طالب السؤول: ٥٦.

(٦٧٢) الدرة الباهرة،: ٣٤.

(٦٧٣) كنز الفوائد: ١٩٩/١.

(٦٧٤) نهج البلاغة: الحكمة ٢١١.

بعقلك[٦٧٥]، وقال: ذهاب العقل بين الهوى والشهوة[٦٧٦]، إلى غير ذلك مما يدل على أصل الفكرة، وهي قيام الحرب بين العقل والنفس، وهذه الحرب تشتد وتقوى ويُحمى وطيسها عندما يقف الإنسان للعبادة، فإنه يقع بين تجاذبات العقل، وتمانعات النفس، فالعقل يبغي الإقبال، والنفس تنفر وتتململ منه.

ـ **مراتب النفس ودرجاتها:** اعتنى القرآن الكريم بأمر النفس كثيراً، وسلّط في الكثير من الآيات الأضواء عليها، في بيان حالها، وتغيراتها، وما بيّنه من مراتبها وحالات استعدادها، وبالنظر إلى مجموع الآيات نجد أن هناك أربعة مراتب لابد وأن تمر بها كل نفس أراد صاحبها إصلاحها، وقد تقف على مرتبة محددة عندما يهمل الإصلاح، وهذه المراتب كالتالي:

المرتبة الأولى: النفس الملهمة

أول ما خلق الله تعالى النفس، خلقها وجبلها على استعدادات وقابليات، فلا هي سائرة في طريق الهوى، ولا في طريق الهدى، غير أنها مستعدة لسلوك أحد الطريقين، وفقاً لما يسيّرها صاحبها، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها ۞ فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها ۞ وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها﴾.

المرتبة الثانية: النفس الأمارة بالسوء

لما كانت نشأة الإنسان في الأرض، والأرض تحمل المغريات والفتن والأهواء فالنفس تميل إلى الفجور أكثر مما تميل إلى الهداية والتقوى، وأيضاً يبدأ الشيطان تحركاته لتهيج

(٦٧٥) بحار الأنوار: ٥٣/٩٥/١.

(٦٧٦) غرر الحكم: ٥١٨٠.

النفس على العقل منذ فتوة الإنسان، ولعله لأجل ذلك قال تعالى: ﴿**فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها**﴾ حيث قدّم الفجور في الذكر على الهداية، إذ أن استعداداتها للفجور أميل من استعداداتها للتقوى، بسبب ما ذكرناه من نشأتها على الأرض، ولأجل ذلك فأول ما تكبر وتبدأ بالهيجان، تهيج نحو السوء وتأمر به، وتلحّ على الإنسان في الإقدام على فعله، قال تعالى: ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ ما رَحِمَ رَبِّي**﴾[٦٧٧]، وهنا دقّة بيان بالغ، إذ يؤكد المولى تبارك وتعالى على أن النفس من طبعها الميل إلى السوء وتحول بكل ما أوتيت من قوة أن تسيطر على الإنسان بمساوئها وذلك بالإتيان بمؤكدات ثلاثة، وهي (إن) والجملة الاسمية (النفس لأمارة...) ولام التأكيد «لأمارة»، وأيضاً صيغة (أمّارة) من صيغ المبالغة ولم يقل (تأمر) مما يكشف عن شدة إلحاحها طلب السوء.

المرتبة الثالثة: **النفس اللوامة**

وهي المرتبة الّتي تبدأ فيها النفس في الميل إلى الحق، وتبدأ تلوم الإنسان على تقصيره ومعاصيه، وهذه المرتبة لا تحصل إلاّ بالمجاهدة وبتحكيم العقل على النفس، وقد امتدح القرآن الكريم هذه المرتبة وأقسم بها، مما يكشف عن جلالة قدرها وعظمة مكانتها، قال تعالى: ﴿**لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ ۝ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾[٦٧٨]، ومعنى (لا أقسم) أي أقسم.

---

(٦٧٧) يوسف: ٥٣.

(٦٧٨) القيامة: ١-٢.

المرتبة الرابعة: النفس المطمئنة

وهي أعلى مراتب النفس وأشرفها وأنفسها، وبها يستكمل الإنسان مراحل المجاهدة، وبها تصبح النفس جوهرة ثمينة، تقبل الحق، وتتوجه إليه وتصبح خاضعة لأوامره وزواجره، ومعنى الاطمئنان: الهدوء والسكون، فبعد أن تكون النفس مضطربة في ميولها وتوجهاتها، وبعد أن ينتصر العقل عليها تهدأ وتسكن وتنقاد لأوامر العقل تمام الانقياد، ولا تبقى تشكل ذلك الخطر الكبير على الإنسان، لأنها أصبحت أسيرة العقل، ولمّا يأسر العقل قوة من قوى الإنسان يجريها في مرضاة الله وطاعته، وقد امتدح القرآن هذه النفس وأولاها ما لم يول غيرها، فقال: ﴿يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[٦٧٩].

جهاد النفس وإصلاحها

اهتم الإسلام كثيراً في جهاد النفس، ونقلها من مرتبة الأمر بالسوء إلى مرتبة الاطمئنان والانقياد للعقل والشرع، حتى أطلق على هذا الجهاد «الجهاد الأكبر» في قبال الجهاد مع أعداء الدين فإنه سمي «الجهاد الأصغر»، وسرُّ ذلك أن النفس أعدى الأعداء، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «أعدى أعداءك نفسك الّتي بين جنبيك»[٦٨٠]، ولهذا يروى أن النبي صلى الله عليه وآله أرسل بسرية فلما رجعت قال: «مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي

(٦٧٩) الفجر: ٢٧-٣٠.

(٦٨٠) غرار الحكم: ١٢٢٧.

الجهاد الأكبر، قيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس»[٦٨١]، وقال ﷺ: «أفضل الجهاد من جاهد نفسه الّتي بين جنبيه»[٦٨٢] وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «جاهد نفسك على طاعة الله مجاهدة العدو عدوّه، وغالبها مغالبة الضد ضده، فإن أقوى الناس من قوي على نفسه»[٦٨٣]، إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة الّتي تحث على مجاهدة النفس واصلاحها، وقد حدّدت أيضاً الغاية والثمرة الّتي لأجلها أمرنا بالمجاهدة، وهي قهر النفس وانصياعها واطاعتها للحق تعالى، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «ثمرة المجاهدة قهر النفس»[٦٨٤]، وعن رسول الله ﷺ: «بالمجاهدة صلاح النفس»[٦٨٥] وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «جاهد شهوتك وغالب غضبك، وخالف سوء عادتك تزكُ نفسك ويكمل عقلك وتستكمل ثواب ربك»[٦٨٦].

كيفية جهاد النفس: هناك عدة أمور لابد للمجاهد لنفسه أن يقوم بها لكي تصلح بها نفسه، ويستكمل جهاده وهي كالتالي:

أولاً: العزوف عن الدنيا

إن أهم ما ينبغي على المجاهد القيام به اجتناب الدنيا والعزوف عنها، والنظر إليها على واقعيتها، فإن واقع الدنيا هو الفتنة والإغواء، وما من بلاء في هذه الدنيا إلاّ سببه

(٦٨١) بحار الأنوار ١٩: ١٨٢.
(٦٨٢) مستدرك الوسائل ١١: ١٣٧.
(٦٨٣) غرر الحكم: ٤٧٦١.
(٦٨٤) غرار الحكم: ٤٧٦١.
(٦٨٥) تنبيه الخواطر ٢: ١٢٢.
(٦٨٦) غرر الحكم: ٤٧٦٠.

حب الدنيا والميل إليها، كما ورد عن النبي ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[٦٨٧]، فأوّل مراحل المجاهدة هو الابتعاد عن الدنيا وترك الحرص عليها، قال الإمام علي عليه السلام: «سبب صلاح النفس العزوف عن الدنيا»[٦٨٨].

ثانياً: التضييق على النفس

لا ينبغي في مقام المجاهدة أن يعطي الإنسان نفسه ما تريد وترغب، بل لابد وأن يضيّق عليها، ولا يطيعها ولا يعطيها سؤلها، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا صعبت عليك نفسك فأصعب لها تذلّ لك، وخادع نفسك عن نفس تنقاد لك»[٦٨٩]، وعنه عليه السلام: «أقبل على نفسك بالإدبار عنها»[٦٩٠].

ثالثاً: ترك مخالطة أبناء الدنيا

فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «ينبغي لمن أراد صلاح نفسه واحراز دينه أن يتجنب مخالطة أبناء الدنيا»[٦٩١].

رابعاً: الاقتصاد في العيش والقناعة

إن الإسراف في العيش والسعي للمزيد يخلق في النفس الميل إلى الملذات، وقد تنجر من مباحاتها إلى محرماتها، فكان حرمانها من الملذات يسهل عليها ترك المحرمات،

---

(٦٨٧) بحار الأنوار ٤٥: ٤٠.

(٦٨٨) غرر الحكم: ٥٥٢٨.

(٦٨٩) غرر الحكم: ٤١٠٧.

(٦٩٠) غرر الحكم: ٢٤٣٤.

(٦٩١) غرر الحكم: ٩١٠٣.

واقناعها بالقليل يهدّ من شهواتها، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا رغبت في إصلاح نفسك فعليك بالاقتصاد والقنوع والتقلل»[٦٩٢]، وعنه عليه السلام قال: «أعون شيء على صلاح النفس القناعة»[٦٩٣]، وقال عليه السلام: «كيف يستطيع صلاح نفسه من لا يقنع بالقليل»[٦٩٤].

خامساً: ترويض الجوارح

من الواضح جداً أن أجهزة صدور الأفعال في الإنسان جوارحه، فكل معصية لابد وأن تكون صادرة عن اليد أو القدم أو اللسان أو العين أو الأذن، وكذا كل طاعة تبرز وتظهر وتخرج من مدافن الإنسان إلى الخارج عبر أحد هذه الأعضاء، من هنا فيلزم في عملية تهذيب النفس تأديب هذه الجوارح وتربيتها على إقامة الفضائل، واجتناب الرذائل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولِئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[٦٩٥]، ومن هنا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الشهر أن نحافظ على هذه الجوارح، فقال: واحفظوا ألسنتكم، وغضوا عمّا لا يحلّ النظر إليه أبصاركم، وعمّا لا يحلّ الاستماع إليه أسماعكم.

ولنبحث هذه الجوارح حيث أكد عليها النبي صلى الله عليه وآله فنقول:

١- ترويض اللسان: إن أكثر ما يقع فيه ابن آدم من لسانه، ففي كل صباح تناديه الأعضاء فتقول له: «إتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت

(٦٩٢) غرر الحكم: ٤١٧٢.
(٦٩٣) غرر الحكم: ٣١٩٠.
(٦٩٤) غرر الحكم: ٣١٩٠.
(٦٩٥) سورة الإسراء: ٣٦.

اعوججنا»[٦٩٦]، وعن الإمام الباقر عليه السلام: «إن هذا اللسان مفتاح كل خير وشر، فينبغي للمؤمن أن يختم على لسانه كما يختم على ذهبه وفضته»[٦٩٧].

وما دام اللسان خطيراً إلى هذا الحد الكبير، فعلى المؤمن أن يختم عليه، ويكون قلبه حارساً على لسانه فلا ينطق ببنت شفة قبل أن يفكر بما سيقول، ولأجل ذلك كان لسان الأحمق يسبق قلبه، كما قال الإمام علي عليه السلام: «لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه»[٦٩٨].

٢- ترويض البصر: لعل العين من أكثر جوارح الإنسان تأثيراً على قلبه، إذ الملذات المرئية والمشاهدة كثيرة جداً، فكل نظرة من النظر إليها يخلق في القلب شهوة، وقد تدعوه بعد ذلك نفسه إلى تحقيقها وتحصيلها، فيقع في المحرمات إذا كانت من الصنف المحرم، وهذا معنى قول الإمام علي عليه السلام: «العين بريد القلب»[٦٩٩]، فإن كل ما يقع على النظر ينتقش في القلب، ولهذا وجب الحذر كل الحذر من خطورة النظر، وقد أمرنا المولى تبارك وتعالى بغضه فقال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ﴾[٧٠٠]، وبهذا نفهم أن الطريق الوحيد لتطهير النظر عن الحرام هو الغض.

٣- ترويض السمع: ومن الجوارح المؤثرة على النفس الأذن، فإن السماع يؤثر على

(٦٩٦) منتخب ميزان الحكمة: ٤٥٤.

(٦٩٧) تحف العقول: ٢٩٨.

(٦٩٨) نهج البلاغة، الحكمة ٤٠.

(٦٩٩) نهج البلاغة الحكمة ٣٦٨.

(٧٠٠) سورة النور: ٣٠-٣١.

النفس إما تكاملياً كسماع القرآن والمواعظ والإرشاد، وإما يؤثر تأثيراً تسافليّاً كسماع الغناء والغيبة والنميمة.....، فعلى المؤمن أن يروض أذنه على عدم سماع المحرمات كي يستكمل بذلك تهذيب نفسه، وأخص بذلك الغناء هذا المرض الخطير المستشري، فإنه على الرغم من كثرة الآيات والروايات الدالة على أنه من الكبائر، نجد الناس منشدة إليه، وكأنهم أمروا بسماعه.

وقد روي أنه قد جاء رجل إلى الصادق عليه السلام فقال له: بأبي أنت وأمي إنني أدخل كنيفاً لي، ولي جيران عندهم جوار يتغنين ويضربن بالعود، فربما أطلت الجلوس استماعاً مني لهن، فقال عليه السلام: لا تفعل، قال الرجل: والله ما أتيتهن، إنما هو سماع أسمعه بأذني، فقال عليه السلام: لله أنت أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً﴾[٧٠١]. فقال: بلى والله لكأني لم أسمع بهذه الآية من كتاب الله من أعجمي ولا عربي، لا جرم إني لا أعود إنشاء الله وإني أستغفر الله، فقال عليه السلام: «قم واغتسل وسل ما بدا لك فإنك كنت مقيماً على أمر عظيم، ما كان أسوأ حالك لو مت على ذلك، احمد الله وسله التوبة من كل ما يكره، فإنه لا يكره إلا كل قبيح، والقبيح دعه لأهله، فإن لكل أهلاً»[٧٠٢].

النتيجة: فإذا حقق الإنسان هذه الطرق يكون مجاهداً لنفسه، وينتصر عليها فتترك وتعظم وتنقاد إلى العقل والحق، وتصل إلى مرحلة الاطمئنان فتنعم برضا الله ورضوانه،

---

(٧٠١) الإسراء: ٣٦.

(٧٠٢) من لا يحضره الفقيه ١: ٨٠ ح١١٧.

وتدخل جنة ربّها الّتي أعدها لها، وأما إذا أهمل نفسه وخانها فتتسلط النفس حتى تدخله المهالك، وتجعله عند الله أهون لك، ولعلّ أعظم مثال للحرب بين العقل والنفس، والذي انتصر فيها العقل عند بعضهم فأوصلهم إلى روح وريحان، وانتصرت فيها النفس عند بعض آخر فأوصلتهم إلى حميم جهنّم ولهيبها، واقعة كربلاء، فإن أصحاب الحسين عليه السلام وأهل بيته بمجاهدتهم نفوسهم نصروا الحق ونصروا إمامهم ولو أدى ذلك إلى قتلهم وسفك دمائهم، وأما عمر بن سعد وأصحابه، فقد سيطرت عليهم نفوسهم فخذلوا الحق وانتصروا للباطل، ولنذكر معركتين من هذا القبيل، هذا عمر بن سعد الّذي منّاه ابن زياد بملك الري إن قتل الحسين عليه السلام، بقي ليلة بطولها يفكر، وتارة يسمع لعقله وأخرى لنفسه إلى أن تغلبت عليه فخرج لقتال الحسين عليه السلام، وهذا العباس بن علي عليهما السلام عندما وصل إلى ماء الفرات جاهد نفسه حتى عزم على عدم شرب الماء قبل الحسين فقال:

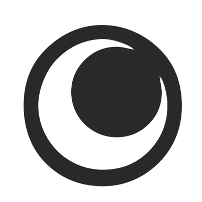
يا نفس من بعد الحسين هوني وبعده لا كنت أن تكون

هذا حسين وارد المنون وتشربين بارد المعين

تالله ما هذا فعال ديني ولا فعال صادق اليقين

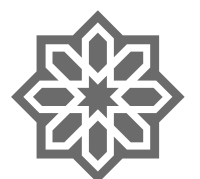


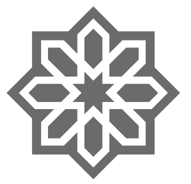


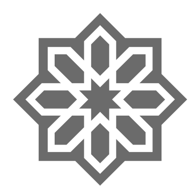


الليلة الثامنة والعشرون

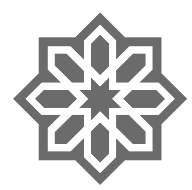
علاقة الإنسان بالآخرين (الأخلاق والآداب)







- سعة نظام الحقوق في الإسلام
- العلاقات الاجتماعية الخاصة
- العلاقات الاجتماعية العامة





الليلة الثامنة والعشرون

علاقة الإنسان بالآخرين (الأخلاق والآداب)

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ

التوبة: ٧١

ومما جاء في خطبته صلى الله عليه وآله: «أيها الناس... وتصدّقوا على فقرائكم ومساكينكم ، ووقروا كباركم وارحموا صغاركم وصلوا أرحامكم... ومن حسّن منكم في هذا الشهر خُلُقه كان لـه جوازاً على الصراط يوم تزل فيه الأقدام...».



خلق الله الإنسان مفطوراً على حب الاجتماع، فالطبع الاجتماعي من ضمن هيكليته الفطرية، فتجده يألف الآخرين ويميل إلى لقائهم، وينفر من الوحدة والانفراد، قال الله تعالى: ﴿يا أيّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لتعارفوا﴾[٧٠٣]، وترجع هذه الرغبة إلى أسباب حياتية ونفسية، وغيرها لا يهمنا التعرض لها، إلاّ أن المهم أن نتعرف على أن لهذا الاجتماع والتآلف حقوقاً على كل فرد من

(٧٠٣) التوبة: ٧١.

أفراده، وصونها يوجب صون المجتمع عن الفساد والانحراف، كما أن التقصير في تحصيلها يوجب تردي المجتمع، وفساده وانحرافه، ومن هنا كان كل إنسان مكلفاً من جهته بالقيام بالأعمال التي من شأنها النهوض بالمجتمع إلى أرقى وأطور ما يمكن أن يصل إليه، وطبعاً لو تعمقنا في النظام الإسلامي ونظريته تجاه المجتمع لوجدنا أن هناك ارتباطاً واندكاكاً كبيراً بين الفرد والمجتمع، إذ كما أن الفرد محقوقٌ لمجتمعه، وعليه واجبات يجب أن يقدمه لأمته، كذلك المجتمع محقوقٌ للفرد وعليه واجبات لابد من تقديمها إليه، هذا من حيث الحقوق، وكذلك من حيث الآثار، فإن جميع الآثار أو معظمها الّتي تتحقق في المجتمع تنعكس تلقائياً على الفرد، وكذلك العكس، فإن الآثار الّتي تظهر على الفرد سرعان ما تصبح سيرةً وسلوكاً في المجتمع، ولنأخذ مثالاً على ذلك أن من واجبات الأفراد تجاه مجتمعهم «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، فلو قام كل فرد به، أوجدوا في المجتمع حالة القداسة لأحكام الشريعة، وحققوا حداً وبنياناً عظيماً يحول بين المعصية والمجتمع، وأثر ذلك يظهر على كل فرد، فلا ترى من يتجرأ على المعاصي ويتمادى فهيا، لأن ذلك يؤثر في إيجاد مناخ مناسب للتقوى، وجوٍ مليءٍ بالإيمان والعمل الصالح.

سعة نظام الحقوق في الإسلام

لو نظرنا نظرة فاحصة ومتأملة ودقيقة في جملة المذاهب الوضعية ومقارنتها مع الإسلام، نجد هوة سحيقة، ومسافات شاسعة بين تلك النظم ونظام الإسلام، فالنظام الإسلامي يحمل السعة والشمول الحقوقي لكل شيء من انسان وحيوان ونبات وجماد، فلا تجد شيئاً مهما كان صغيراً إلاّ وقد جعل لـه الإسلام حقاً وحداً، كما أن النظام

الاسلامي مع ما يتمتع به من سعة وشمول لجميع جزئيات الحياة ومجالاتها، كذلك يعطي النظام الدقيق المفعم بالحيوية والتكامل، بحيث يضمن السعادة والرفاه لكل أحد، وهذا معنى أن الإسلام أعطى لكل ذي حق حقه.

وقد نظم الإسلام العلاقات الاجتماعية بين الفرد ومجتمعه، وصنّفها إلى صنفين، العلاقات الاجتماعية الخاصة، والعلاقات الاجتماعية العامة، وفيما يلي عرض لبعض هذه العلائق.

العلاقات الاجتماعية الخاصة

ونقصد بها تلك العلاقات والروابط بين الأقرباء وذوي الأرحام، وتتنوّع إلى حقوق الوالدين، وحقوق الأسرة من الزوجة والأولاد، وحقوق الرحم.

الأول: حق الوالدين

لقد أولى الإسلام اهتماماً بالغاً للوالدين، ففرض على الفرد احترامهما وتقديرهما وبرهما، ومنع من إيذائهما وعقوقهما، وقد تواترت النصوص على ذلك، واليك نظام الحقوق للوالدين.

ـ **بر الوالدين:** قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[٧٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً﴾[٧٠٥].

---

(٧٠٤) لقمان: ١٤.

(٧٠٥) الأحقاف: ١٥.

فقد جعل الإسلام برهما من أكبر الفرائض المفترضة على الفرد، حيث جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «بر الوالدين أكبر فريضة»[٧٠٦]، وجعل شكره مقروناً بشكرهما، فمن لم يشكر والديه لم يشكر الله تعالى، وعن الإمام الرضا عليه السلام: «إن الله عز وجل أمر بالشكر لـه وللوالدين، فمن لم يشكر والديه لم يشكر الله»[٧٠٧].

ولهذا كان موضعاً للدعاء، فإن الإمام زين العابدين عليه السلام يطلب من الله تعالى أن يوفقه لبرهما، بقوله: «اللهم اجعلني أهابهما هيبة السلطان العسوف، وأبرّهما برّ الأم الرؤوف، واجعل طاعتي لوالدي، وبرّي بهما أقرّ لعينيّ من رقدة الوسنان، وأثلج لصدري من شربة الظمأن حتى أوثر على هواي هواهما»[٧٠٨].

ولم يقتصر الإسلام على برهما في حال حياتهما، بل فرض برهما بعد وفاتهما أيضاً، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «سيد الأبرار يوم القيامة رجل برّ والديه بعد موتهما»[٧٠٩]، وقال في بيان كيفية برهما بعد وفاتهما: «الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وانفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم الّتي لا توصل إلاّ بهما، وإكرام صديقهما»[٧١٠].

وفي قبال ذلك نهى عن عقوقهما، وجعله من أكبر الكبائر الّتي توعد الله عليه النار، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة: الإشراك بالله، وقتل النفس المؤمنة بغير الحق، والفرار في سبيل الله يوم الزحف، وعقوق الوالدين»[٧١١]، وقد رتب

(٧٠٦) غرر الحكم: ٤٤٢٣.

(٧٠٧) الخصال ١: ١٥٦ ح١٩٦.

(٧٠٨) الصحيفة السجادية: الدعاء ٢٤.

(٧٠٩) بحار الأنوار ٧٤: ٧٢/ ٥٥.

(٧١٠) الترغيب والترهيب ٣: ٣٢٣/ ٣٢.

(٧١١) المصدر السابق ٣: ٣٢٧/ ٣٢.

على العقوق عقوبات متعددة نذكر بعضها:

١ـ العاق لوالديه لا يغفر لـه أبداً، فعن رسول الله ﷺ: يقال للعاقّ، اعمل ما شئت فإنّي لا أغفر لك[٧١٢].

٢ـ العاق لوالديه شقي عاص، فعن الصادق عليه السلام: «عقوق الوالدين من الكبائر، لأن الله تعالى جعل العاقّ عصيّاً شقيّاً»[٧١٣].

٣ـ العقوق يوجب قلّة الرزق والذلة، قال الإمام الهادي عليه السلام: «العقوق يعقّب القلة، ويؤدّي إلى الذلّة»[٧١٤].

ومعنى العقوق، إيذاء الوالدين وعدم تلبية طلبهما ـ إذا كان جائزاً ـ وعدم احترامهما وتعنيفهما بالقول أو العمل، والنظر الماقت لهما، وعدم الانفاق عليهما، وقد حدد القرآن الكريم أصغر العقوق وهو «أف» ليعلّم الفرد أن كل ما كان فوقه كان عقوقاً من باب أولى، قال تعالى: ﴿وَقَضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً ۞ وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً﴾[٧١٥]، وفي تفسيرها عن الباقر عليه السلام: «هو أدنى الأذى، حرّم الله فما فوقه»[٧١٦]، وعن

---

(٧١٢) بحار الأنوار ٧٤: ٨٠/ ٨٢.

(٧١٣) علل الشرائع ٢: ٤٧٩/ ٢.

(٧١٤) بحار الأنوار ٧٤: ٧٤/ ٦١.

(٧١٥) الإسراء: ٢٣.

(٧١٦) بحار الأنوار ٧٤: ٧٨/ ٧٦.

الصادق عليه السلام: «أدنى العقوق «أف» ولو علم الله عز وجل أهون منه لنهى عنه»[٧١٧].

حدود طاعة الوالدين: المستفاد من الآيات والروايات أنه لا حدود لطاعة الوالدين عدا ما إذا أمرا بمعصية الله أو الشرك به، فعند ذلك يسقط حق الطاعة لهما، ولكن يبقى برهما قائماً، فلا يجوز عقوقهما وإن كانا فاسقين أو حتى كافرين، وفي هذا الصدد يقول تعالى: ﴿وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ﴾[٧١٨]، وقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما﴾[٧١٩]، أما في ما عدا ذلك فحق الطاعة قائم لهما، فعنه عليه السلام قال لبعض أصحابه: «ووالداك فأطعهما وبرهما حيين كانا أو ميتين، وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك فافعل، فإن ذلك من الإيمان»[٧٢٠].

الثاني: حقوق الأسرة

أ) أهمية الأسرة في الإسلام: ليس من شك أن الأسرة لها الأثر الذاتي والتكويني النفسي في تقويم السلوك الفردي، وبعث الحياة، والطمأنينة في نفس الطفل، فمنها يتعلم لغته، ويكتسب القيم والفضائل الروحية.

وقد ساهمت الأسرة بطريق مباشر في بناء الحضارة الإنسانية، وإقامة العلاقات التعاونية بين الناس، ولها يرجع الفضل في تعلم الإنسان لأصول الاجتماع، وقواعد

---

(٧١٧) الكافي ٢: ١٤٨ ح١.

(٧١٨) لقمان: ١٥.

(٧١٩) العنكبوت: ٨١.

(٧٢٠) الكافي ٢: ١٥٨/ ٢.

الآداب والأخلاق، كما أنها السبب في حفظ كثير من الحرف والصناعات الّتي توارثها الأبناء عن آبائهم.

ومن الغريب أن الجمهورية الّتي نادى بها أفلاطون، والتي تمجد الدولة، وتضعها في المنزلة الأولى قد تنكّرت للأسرة، وأدت إلى الاعتقاد بأنها عقبة في سبيل الإخلاص والولاء للدولة، فليس المنزل مع ما له من القيمة العظمى لدينا سوى لعنة وشر في نظر أفلاطون، وإذا كان من بين أمثالنا أن «بيت الرجل هو حصنه الأمين» فإن أفلاطون ينادي اهدموا هذه الجدران القائمة فإنها لا تحتضن إلاّ إحساساً محدوداً بالحياة المنزلية.[(٧٢١)]

ب) واجبات الأسرة: إن الأسرة مسؤولة عن نشأة أطفالها نشأة سليمة متسمة بالاتزان، والبعد عن الانحراف، وعليها واجبات ملزمة برعايتها، وهي:

أولاً: أن تشيع في البيت الاستقرار والطمأنينة، وأن تبعد عنه جميع ألوان العنف والكراهية والبغض، فإن أغلب الأطفال المنحرفين، والذين تعوّدوا على الاجرام في كبرهم، كان ناشئاً على الأكثر من عدم الاستقرار العائلي الّذي منيت به الأسرة.

إن إشاعة الود والعطف بين الأبناء لـه أثره البالغ في تكوينهم تكويناً سليماً، فإذا لم يرع الآباء ذلك، فإن أطفالهم يصابون بعقد نفسية تسبب لهم كثيراً من المشاكل في حياتهم، ولا تثمر وسائل النصح والإرشاد الّتي يسدونها لأبنائهم ما لم تكن هناك مودة

---

(٧٢١) النظام التربوي في الإسلام: ٦٥، نقلاً عن آراء أفلاطون وأرسطو في فلسفة الأخلاق والسلوك: ١٤٣.

صادقة بين أفراد الأسرة، وقد ثبت في علم النفس أن اشد العقد خطورة، وأكثرها تمهيداً للاضطرابات الشخصية هي الّتي تكون في مرحلة الطفولة الباكرة، كما أن تفاهم الأسرة وشيوع المودة فيما بينها مما يساعد على نموه الفكري، وازدهار شخصيته.

ثانياً: أن تشرف الأسرة على تربية أطفالها، وقد أكد علماء الاجتماع على ضرورة ذلك.

ثالثاً: يرى بعض المربين أن من واجبات الآباء والأمهات تجاه أطفالهم تطبيق الأمور التالية:

١ـ اتفاق الأب والأم على معايير السلوك، وأن يؤكد كل منهما الآخر فيما يتخذاه من قرارات نحو أولادهما.

٢ـ أن يكون وجود الطفل مع الأب بعد عودته من عمله جزءاً من نظام حياته اليومية.

هذا كله بالنسبة إلى الأولاد.

أما بالنسبة إلى الأب والأم فقد جعل الإسلام منهاجاً مشتركاً بينهما، ودعا هما إلى تطبيقه على واقع حياتهما حتى تخيّم عليهم السعادة، وهي:

١ـ الحب والمودة

دعا الإسلام إلى سيادة الحب والمودة والتآلف بين أفراد الأسرة، وأن يجتنبوا عن كل ما يعكر صفو الحياة والعيش، وتقع المسؤولية بالدرجة الأولى على المرأة فإن باستطاعتها أن تحوّل البيت إلى روضة أو جحيم، فإذا قامت بواجبها ورعت ما عليها من الآداب كانت الفذة المؤمنة، فقد أثر عن رسول الله ﷺ أن شخصاً جاءه فقال له: «إن لي زوجة

إذا دخلت تلقتني، وإذا خرجت شيعتني، وإذا رأتني مهموماً قالت ما يهمك؟ إن كنت تهتم لرزقك فقد تكفل به غيرك، وإن كنت تهتم بأمر آخرتك فزادك الله هماً. فقال لـه رسول الله: بشرها بالجنة، وقل لها: إنك عاملة من عمّال الله»[٧٢٢].

٢ـ التعاون

وقد حث الإسلام على التعاون فيما بين الزوجين على شؤون الحياة، وتدبير أمور البيت، وأن يعيشوا جميعاً في جو متبادل من الود والتعاون. والمسؤولية تقع في ذلك على زعيم الأسرة، وهو الزوج، فقد طلب الإسلام منه أن يقوم برعاية زوجته ويشترك معها في شؤون المنزل، فقد كان رسول الله ﷺ يتولى خدمة البيت مع نسائه، وقال: «خدمتك زوجتك صدقة»، وكان أمير المؤمنين عليه السلام يشارك الصديقة الزهراء عليها السلام في تدبير شؤون المنزل، ويتعاون معها في إدارته، ومن الطبيعي أن يخلق في نفوس الأبناء روحاً من العواطف النبيلة الّتي هي من أهم العناصر الذاتية في التربية.

٣ـ الاحترام المتبادل بين أطراف الأسرة

فعلى الزوج احترام زوجته وتقديرها، وكذلك على الزوجة أن تحترم زوجها وتقدره، ذلك لأنه إذا شاع الاحترام بينهما فسيتعلم الأولاد الاحترام، وكذا العكس فلو انعدم الاحترام بين الزوجين نشأ الأولاد على عدم الاحترام والتقدير لا للوالدين ولا للآخرين.

وعلى هذا فنستطيع القول بحق أن الأسرة هي الخلية الّتي إن صلحت صلح الصرح

---

(٧٢٢) مكارم الأخلاق ١: ٢٢٩.

الإسلامي، وإن فسدت فسد المجتمع.

٤ـ صلة الرحم

من الحقوق الّتي أولى الإسلام لـها أهمية كبيرة، الرحم، ونقصد به العلاقة النسبية بين بعض أفراد المجتمع كالوالدين والأخوة والأخوات وأبنائهم، والأعمام والعمات والأخوال والخالات وأولادهم، والأجداد والجدات، وكل من يتفرع عنهم، فهؤلاء أرحام الإنسان، وقد فرض الإسلام صلتهم ودعا إليها، وفيما يلي بعض النصوص الدالة على وجوب صلة الرحم:

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾[(٧٢٣)]؛ أي اتقوا الأرحام، وتقواها يعني المحافظة عليها وصلتها وصونها، فعن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية يقول: «هي أرحام الناس إن الله عز وجل أمر بصلتها وعظّمها، ألا ترى أنه جعلها منه»[(٧٢٤)].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ﴾[(٧٢٥)]، ففي تفسير الإمام الصادق عليه السلام قال: «من ذلك صلة الرحم وغاية تأويلها صلتك إيّانا»[(٧٢٦)]، وفي قبال ذلك حرّم قطيعة الرحم، بل في بعض الأخبار أنها من الكبائر الّتي توعد عليها النار، قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِى

---

(٧٢٣) النساء: ١.

(٧٢٤) الكافي ٢: ١٥٠.

(٧٢٥) الرعد: ٢١.

(٧٢٦) بحار الأنوار ٧٤: ٩٨ ح٤٠.

الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ ۞ أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ﴾[(٧٢٧)]، وقد ذكر لها في الروايات عقوبات كثيرة كالتعجيل بالفناء، وحلول النقمة، وأن الرحمة لا تنزل على قاطع رحم، وأن عقوبته معجلة في الدنيا قبل الآخرة إلى غير ذلك.

معنى صلة الرحم: لا يقصد الإسلام من صلة الرحم التزاور والسلام عليه وتحيته والسؤال عن حاله فحسب، وإن كان هذا العمل محبوباً لله تبارك وتعالى، وقد ورد الكثير في فضل التزاور والتحابب، ولكن لصلة الرحم معنى أعمق، وهو كف الأذى عنهم، وعيادة مريضهم، وتوديع مسافرهم واستقبال غريبهم، وإعطاء فقيرهم، ومواساة مكروبهم، والوقوف معهم عند مصائبهم ونزول البلاء بهم، وقضاء حوائجهم، وتقديم العون لهم، وأعظم أنواع الصلة تقديم الهداية لهم وتحبيبهم إلى الإيمان، أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وفي هذا الشأن يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «أيّها الناس، إنه لا يستغني الرجل وإن كان ذا مال عن عترته ـ عشيرته ـ ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم، وهم أعظم الناس حيطة من ورائه، وألمّهم لشعثه، وأعطفهم عليه عند نازلةٍ إذا نزلت به، ولسان الصدق يجعله الله للمرء في الناس خير لـه من المال يرثه غيره، ألا لا يعدلنّ أحدكم عن القرابة يرى بها الخصاصة أن يسدّها بالذي لا يزيده إن أمسكه ولا ينقصه إن أهلكه، ومن يقبض يده عن عشيرته، فإنّما يُقبض منه عنهم يد واحدة، وتقبض منهم عنه أيدٍ كثيرة، ومن تلن حاشيته يستدم من قومه المودة»[(٧٢٨)].

---

(٧٢٧) محمد: ٢٢-٢٣.

(٧٢٨) نهج البلاغة: خ٢٣.

آثار صلة الرحم: ويترتب على صلة الرحم آثار عظيمة، واليك بعضها كحافز على صلة الرحم:

١ـ عن الإمام الباقر عليه السلام: «صلة الأرحام تزكي الأعمال، وتنمي الأموال، وتدفع البلوى وتيسّر الحساب، وتنسئ في الأجل»[٧٢٩]، أي تطيل الاعمار.

٢ـ وعنه عليه السلام قال: صلة الأرحام تحسن الخلق، وتسمّح الكفّ، وتطيّب النفس، وتزيد في الرزق، وتنسئ الأجل»[٧٣٠].

٣ـ عن الإمام الهادي عليه السلام: «فيما كلّم الله تعالى به موسى عليه السلام قال موسى: ما جزاء من وصل رحمه؟ قال: يا موسى أنسئ لـه أجله، وأهوّن عليه سكرات الموت»[٧٣١].

٤ـ عن الزهراء عليها السلام: «فرض الله صلة الأرحام منماة للعدد»[٧٣٢].

٥ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «صلة الرحم تزيد في العمر وتنفي الفقر»[٧٣٣].

إلى غير ذلك من الآثار المهمّة، والتي يرغب في تحصيلها المؤمن والفاسق، والمسلم والكافر.

(٧٢٩) الكافي ٢: ١٥٧ ح٣٠.
(٧٣٠) الكافي ٢: ١٥٠ ح٤.
(٧٣١) أمالي الصدوق: ١٧٣ ح٨.
(٧٣٢) بحار الأنوار ٧٤: ٨٤ ح٢٣.
(٧٣٣) بحار الأنوار ٧٤: ٨٨ ح٢٢.

العلاقات الاجتماعية العامة

كما نظم الإسلام العلاقات الخاصة للمجتمع، كذلك نظّم العلاقات الاجتماعية العامة، وقد صنفها إلى أصناف كثيرة، فقد نظّم علاقة الجيران فيما بينهم، ونظم العلائق بين المعلّم والتلميذ، والعامل والمستأجر، والمشير والمستشير، والمؤمن مع أخيه، وجميع هذه العلائق تعرض لها الإمام زين العابدين في رسالته القيمة «رسالة الحقوق»، ونحن هنا سنقتصر على علائق ثلاثة.

الأولى: **علاقة الجار بالجار**

ومن الحقوق الّتي ركز عليها الإسلام حق الجار، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَبِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَالْجارِ ذِي الْقُرْبى وَالْجارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾[٧٣٤]، ومن عظمة حق الجار أن تأكيد النبي عليه أوجب أن يظن المسلمون أنه ﷺ سيورثه، أي سيجعل لـه نصيباً من الميراث، كما ورد ذلك عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «ما زال رسول الله يوصينا بالجار حتى ظننا أنه سيورّثه»[٧٣٥] بل جعل تمام الإيمان بالله واليوم الآخر عدم أذية الجار[٧٣٦] كما أن من يؤذي الجار يخرج عن الانتساب لأهل البيت عليهم السلام، قال الإمام الرضا عليه السلام: «ليس منّا من لم يأمن جاره بوائقه»[٧٣٧].

---

(٧٣٤) النساء: ٣٦.

(٧٣٥) نهج البلاغة: الكتاب ٤٧.

(٧٣٦) الكافي ٢: ٦٦٧ ح٦.

(٧٣٧) عيون أخبار الرضا ٢: ٢٤ ح٢.

ما هي حقوق الجار: وتتلخص حقوق الجيران بعدة أمور:

الأول) كف الأذى عنه: يرون أن رجلاً من الأنصار جاء إلى رسول الله ﷺ وقال له: يا رسول الله، إني اشتريت داراً من بني فلان، وإن أقرب جيراني مني جواراً من لا أرجو خيره ولا آمن شره، قال: فأمر رسول الله ﷺ علياً وسلمان وأبا ذر وثالثاً لعله المقداد أن ينادوا في المسجد بأعلى أصواتهم؛ بأنه لا إيمان لمن لم يأمن جاره بوائقه، فنادوا بها ثلاثاً.[٧٣٨]

الثاني) تحمل الأذى منه: قال الإمام الكاظم عليه السلام «ليس حسن الجوار كفّ الأذى، ولكن حسن الجوار الصبر على الأذى»[٧٣٩]، فصحيح أن دفع الأذى عن الجار هو الحق القائم له، ولكن لو كان الجار مؤذياً فلا يبرر ذلك أن ترد الأذى عليه، بل الصبر على تحمل الأذى منه، من الحقوق عليك، هذا رسول الله ﷺ يضرب للبشرية أروع وأنبل الخُلق في الصبر على أذى الجار، حيث روي أنه كان له ﷺ جار يهودي في المدينة، وكان هذا اليهودي في كل يوم يأتي بأوساخ داره وفضلاته ويضعه أمام باب النبي ﷺ، وكان النبي لا يتكلم معه أبداً في هذا الأمر، وقد أراد بعض أصحابه أن يأتي إلى اليهودي ويعنفه ليمنعه من أذية النبي ﷺ، غير أن رسول الله ﷺ لم يقبل، وتمر الأيّام، ويخرج رسول الله ﷺ ذات يوم فلا يجد على بابه ما كان يراه في كل يوم، فقال لأصحابه: ما بال أخ اليهود؟ فقيل له: يا رسول الله إنه مريض، فقال لهم: قوموا بنا لعيادته، فلما رآه اليهودي ظن أنه جاء ليقتص منه فخاف، إلاّ أن النبي هدأ من روعه، وأخبره أنهم جاؤوا

---

(٧٣٨) وسائل الشيعة ٨: ٤٨٧ ح١.

(٧٣٩) الكافي ٢: ٦٦٧ ح٩.

لعيادته، فتعجب من هذا الخلق الرفيع الّذي لا يصدر إلاّ من الأنبياء، فأسلم على يدي النبي صلى الله عليه وآله.[٧٤٠]

الثالث) تفقد الجار: من حقوق الجار التفقد لأحواله، وكما قال النبي صلى الله عليه وآله: إن استغاثك أغثته، وإن استقرضك أقرضته، وإن افتقر عدت عليه، وإن أصابته مصيبة عزّيته، وإن أصابه خير هنّأته، وإن مرض عدته، وإن مات اتبعت جنازته، ولا تستطل عليه بالبناء، فتحجب عنه الريح إلاّ بإذنه، وإذا اشتريت فاكهة فأهد له، فإن لم تفعل فأدخلها سرّاً، ولا تخرج بها ولدك تغيظ بها ولده، ولا تؤذه بريح قدرك إلاّ أن تغرف لـه منها»[٧٤١].

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام: «أما حق جارك فحفظه غائباً، وإكرامه شاهداً، ونصرته إذا كان مظلوماً، ولا تتبع لـه عورة، فإن علمت عليه سوءاً سترته عليه، وإن علمت أنّه يقبل نصيحتك نصحته فيما بنيك وبينه، ولا تسلمه عند شديدة، وتقيل عثرته، وتغفر ذنبه، وتعاشره معاشرة كريمة»[٧٤٢].

وأهم ما أكدت عليه النصوص أن لا تبيت شبعاناً وجارك جائع، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع»[٧٤٣].

---

(٧٤٠) بحار الأنوار ٣٥: ١٢٧ ح٢.

(٧٤١) مسكن الفؤاد: ١٠٥.

(٧٤٢) الخصال: ٥٦٩.

(٧٤٣) الكافي ٢: ٤٦٦٨ ح١٤.

الثانية: علاقة المسلم بأخيه المسلم

اهتم الإسلام بعلاقة المسلمين بعضهم ببعض، وركز على أن الارتباط بين أفراده ينبغي أن يقوم على أساس الحب والكرامة، وللوصول إلى مجتمع متكامل أكد على روابط متعددة:

أ) إشاعة الروابط الأخوية: اعتبر الإسلام أن الرابطة الايمانية الّتي تربط المؤمنين بعضهم ببعض، هي العلاقة الأخوية، فالمؤمن وإن لم تلده أمك، إلاّ أنك تشترك معه في الدين والايمان، بل اعتبر الرابطة الايمانية أقوى من الروابط النسبية، فهذا نبي الله نوح يطلب من ربه نجاة ابنه الكافر حيث قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾[(٧٤٤)]، فيأتيه النداء: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ﴾[(٧٤٥)]، فقد علل انقطاع العلاقة بينه وبين ابنه بأنه قام الابن بعمل غير صالح وهو الكفر، بينما نجد الإيمان يقرّب البعيد حتى يصبح ملتصقاً، كما حصل لسلمان الّذي قال فيه النبي ﷺ: «سلمان منّا أهل البيت»، ومن هنا كان ما وصفه القرآن للرابطة بين المؤمنين قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[(٧٤٦)]

ب) الطفل والإسلام: اهتم الإسلام بالطفل كثيراً، وجعل له نظاماً خاصاً، بدءاً من انعقاد نطفته، بل حتى قبلها وإلى بلوغه، وقد أولى مسؤولية تطبيق هذا النظام على الأسرة في جوانب معينة، وعلى المجتمع في جوانب أخرى، أما ما أوكله إلى الأسرة،

---

(٧٤٤) هود: ٤٥.

(٧٤٥) هود: ٤٦.

(٧٤٦) الحجرات: ١٠.

فاختياره المرأة الصالحة حتى تكون أماً له، وتحسين اسمه، وإجراء مراسيم الولادة التي جاء بها الشارع المقدس، وأحب أن أخص منها بالذكر أموراً ثلاثة:

أولاً: تربيته تربية صالحة: ليس تحبيب الإسلام لطلب الولد لمجرد تفريغ شحنات العطف والحب المختزن في قلب الأبوين، ولا لمجرد إشباع غريزة الأب والأم في أن يكون لهما ولد، بل صدر هذا التحبيب من الشارع المقدس ليكون الولد استمراراً لبقاء جنس الإنسان على الأرض، وليكون خليفة له فيها، ومن الواضح للجميع أن هذا الاستخلاف لا يحقق معناه إلا إذا كان الإنسان متخلقاً بالأخلاق الحميدة، وسالكاً المسالك السليمة، وهذه الأخلاق لا تتكيّف في طبع الإنسان إلا بتربيته عليها من صغره، وترسيخها منذ نعومة أظفاره، إذ عن أمير المؤمنين عليه السلام «الولد كالوعاء ما وضعت فيه أخذ»، وأيضاً جعل الله تعالى ميراث المؤمن أن يترك ولداً عابداً، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «ميراث الله من عبده المؤمن ولد يعبده من بعده»[٧٤٧].

ثانياً: العدل بين الأولاد: من شدة تأكيد الإسلام على رعاية الأطفال، أمر رب الأسرة أن يعدل بينهم في المأكل والمشرب والملبس، بل حتى في توزيع الابتسامات والقبلات والمزاح، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إن الله يحب أن تعدلوا بين أولادكم حتى في القُبَل»[٧٤٨].

ويقول النعمان بن بشير، أعطاني أبي عطية (هدية) فقالت أمي: لا أرضى حتى تُشهد

(٧٤٧) بحار الأنوار ١٠٤: ١٠١ ح٨٥.
(٧٤٨) كنز العمال: ٤٥٣٤٦.

النبي ﷺ فأتى النبي فقال: إنّي أعطيت ابني من عمرة عطية فأمرتني زوجي أن أُشهدك، فقال ﷺ: أعطيت كل ولدك مثل هذا؟ قال: لا، قال ﷺ: اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم لا أشهد على جور[٧٤٩].

ثالثاً: التثقيف والتعليم: من حق الولد على والديه، وعلى مجتمعه أيضاً أن لا يحرموه من الثقافة والتعليم، وخصوصاً في العلوم والمعارف المتطورة في عصره، كالكمبيوتر والإنترنت في أيامنا الآن، حتى لا يكون متخلّفاً فيشعر بالنقص في نفسه، وقد يحركه هذا النقص للانتقام من أفراد مجتمعه، فيسود المجتمع الاضطراب والقتل والفساد.

وأما الجوانب التي تلقى على المجتمع فبالإضافة إلى أنه ينبغي أن لا يحرمه من الثقافة والتعليم مهما كان نسبه ووضعه ولونه وبلده، لابد وأن يوفر له الحماية من الأعداء والأمراض والأخطار، ويرعاه حتى ينضج ويصلب عوده ويعظم فكره فيعود بالخير والنفع على مجتمعه.

وبعد هذا كله نستطيع أن ندرك ونفهم بعمق مراد النبي ﷺ من رحمة الأولاد والصغار بقوله: (وارحموا صغاركم).

ج) الشيخوخة والإسلام: من الواضح أن من يعيش يكبر، ومن يكبر يهرم، والهرم في البشر يفقدهم الكثير من كمالات الجسد، إذ تخور قواه حتى تصبح عند البعض أقل قدرة من الطفل، كما تتنازل مقدراته الفكرية والعقلية، فيبتلي بالنسيان والغفلة وعدم الالتفات، وهذا كله يجعل من التعامل معه وضعاً خاصاً، وطريقة فريدة، فيحتاج الى

---

(٧٤٩) كنز العمال: ٤٥٩٥٧.

الكثير من الاحترام والتوقير، وإلى مزيد من الرعاية، والى فيض من الحنان، حتى لا يشعر بثقله في المجتمع، وبتهميش أفراده له، فالمجتمع الذي يعزل العُجّز عن الحياة العملية، بسبب عدم تأقلم قدراتهم معها، لا يدرك أنه يدخل إلى هذا الهرم أقسى وآلم حدث في حياته، إذ يشعره بنهايته، وخلاص فائدته، وأنه لم يعد صالحاً، إلا لانتظار أجله، فمن هنا لابد وأن يعوّضه بما يمنع هذا التفكير ويحول بينه وبين أهاجيسه، وذلك بالاحترام والتقدير والرفق والرعاية، وفيض الحنان، والعطف، فقد جاء عن رسول الله ﷺ قوله: «من لم يرحم صغيرنا، ولم يعزّز كبيرنا فليس منا»[٧٥٠]، ولذا أكد ﷺ في خطبته على توقيرهم واحترامهم فقال: «وقّروا كبارکم».

الثالثة: علاقة المسلم بغير المسلمين

قسّم الإسلام الكفار إلى قسمين، كافر حربي؛ وهو الّذي نصب الحرب والعداء للإسلام وأهله، وهدفه هدم النظام الإسلامي، واقتحام دار المسلمين، وسفك دمائهم وذلهم. وكافر ذمي ــ أهل الذمة ــ وهو من تعاقد مع أهل الإسلام على أن يعيش معهم بسلام لـه ما لهم وعليه ما عليهم، لا يغير عليهم، ولا يغيروا عليه، ولا يعين على المسلمين، أحداً ولو كان من أهل ملته.

والكافر الحربي لم يضمن لـه الإسلام أي حق في بلاد المسلمين، لأنه أراد الشر بأهل الإسلام، فهذا موجب لسلب حقوقه، كما جرت عادة الدول في الماضي والحاضر من سلب الحقوق المدنية من كل من يريد الشر بالدولة والنظام أو أهله، ولعلّ هذا ما وافق

(٧٥٠) بحار الأنوار ٤٣: ٢٨٢ ح٤٩.

عليه العقلاء في كل زمان ومكان، بمعنى: أن العقلاء وبدافع من عقولهم سلبوا الحقوق العامة عن كل من ينصب العداء للدولة أو النظام، فلم يأت الإسلام بجديد.

أما أهل الذمة فقد احترمهم الإسلام وصانهم وصان عرضهم ومالهم، يعيشون ويحيون بين المسلمين وفي بلادهم لـهم مالهم، وعليهم ما عليهم، وينعمون بحمى الإسلام، وينتصف لـهم الحاكم من كل من ظلمهم، ولم يمنع عنهم السلام، ولا حرّم على المسلمين الاختلاط بهم، وهذا ما أدب به النبي وأهل بيته الكرام المسلمين، من صون حقوقهم وعدم التعدي عليهم، فقال علي عليه السلام: «الناس صنفان، إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق»، فنحن نعيش مع أهل الذمة لوجود مناظرة خلقية، أي الذمي إنسان كما نحن، وكما أن الإنسان المسلم محترم لشخصه كذلك الانسان يحترم لشخصه، إلاّ أن يسقطه بما يضمره من سوء كما في الكافر الحربي، كذلك أهل الذمة يحترمون بشخصهم وإنسانيتهم وآدميتهم.

ومن هنا كان أهل البيت عليهم السلام قد استوعبوا كل الناس بأخلاقهم وجميل صنيعهم، فأمير المؤمنين علي عليه السلام يأتي إلى الكوفة مع يهودي ولما يبلغ الكوفة، يستمر علي عليه السلام في السير معه، فيقوله اليهودي: ألم تقل أنك تريد الكوفة، فقال علي عليه السلام: نعم، فقال لـه اليهودي، فلماذا تمشي معي في طريق يبعدك منها، فيقول عليه السلام أشايعك، فقال له: ما هذه الأخلاق الّتي لم نعهدها، فقال عليه السلام: «هكذا علمنا نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله»[٧٥١]، وبهذا الخلق العظيم استوعبوا كل الناس مسلمهم وكافرهم، حرهم وعبدهم، وأما من لم يتفاعل مع

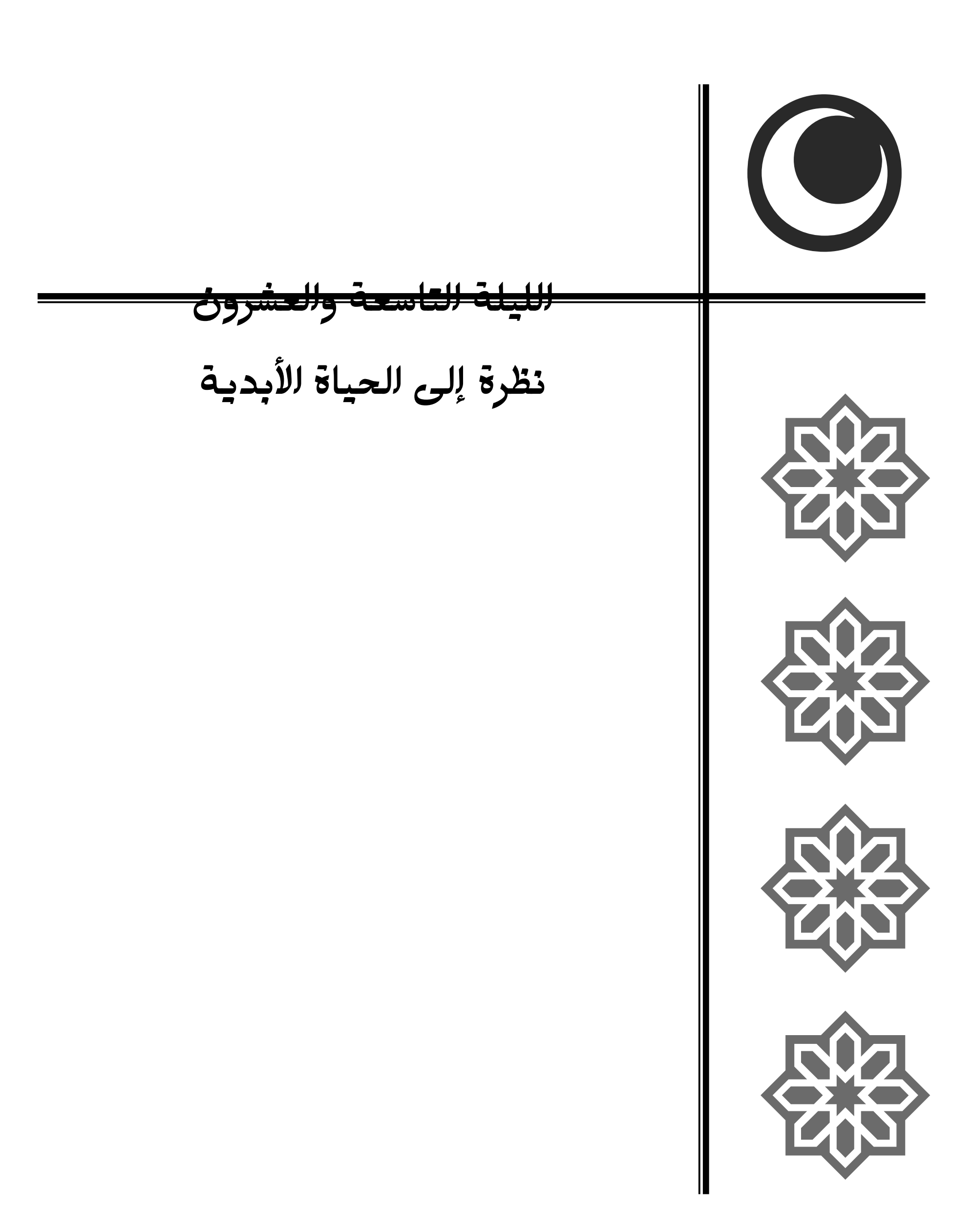
---

(٧٥١) حلية الأبرار ١: للسيد هاشم البحراني المتوفى في ١١١٧هـ..

أشخاصهم عليهم السلام وأخلاقهم فسرّه حسدهم وحقدهم على الإسلام وأهله، فهؤلاء الّذين خرجوا لحرب الحسين عليه السلام يعرفون موقعه وخطره في الإسلام، لكن كان في قلوبهم أحقاد بدرية وحنينية، فأرادوا أن يجعلوا في معركتهم مع الحسين وأهله طلباً لثأرهم من الإسلام وعترة النبي صلى الله عليه وآله، ولهذا أنشد يزيد بعد ما أدخل الرأس الشريف إلى الشام: «فلقد قضيت من النبي ديوني».







الليلة التاسعة والعشرون

نظرة إلى الحياة الأبدية

- المعاد في الكتاب والسنة
- قصص القرآن الكريم لاثبات المعاد
- الموت، بوابة يوم القيامة
- جهنم وعذابها
- الجنة ونعيمها

الليلة التاسعة والعشرون

نظرة إلى الحياة الأبدية

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ
خالِدِينَ فِيها أَبَداً وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً

النساء: ١٢٢

ومما جاء في خطبته ﷺ: «أيها الناس إن أبواب الجنان في هذا الشهر مفتحة فاسألوا ربكم أن لا يغلقها عليكم ، وأبواب النيران مغلقة فاسألوا ربكم أن لا يفتحها عليكم والشياطين مغلولة فاسألوا ربكم أن لا يسلطها عليكم».



مما لا شك فيه أن قضية المعاد والحياة الأخروية أصبحت من المسائل ذات الأهمية الكبيرة في عالمنا اليوم حيث انتشار المذاهب المادية، وضعف الإيمان من جانب، ومن جانب آخر ظهور الكثير من المستجدات في واقع الحياة، فأدى ذلك كله إلى أن يصبح

موضوع المعاد من المواضيع التي تحتل الواجهة.

ومن الملفت للنظر ما نقله الشهيد مطهري «قده» عن بعض من أحصى آيات القرآن التي تتكلم عن المعاد فكانت «١٤٠٠» آية[٧٥٢]، مما يكشف عن أن القرآن الكريم لم يول أي موضوع مثل ما أولاه للمعاد ولأجل هذا التأكيد البليغ على حتميته ووقوعه، اعتبر المسلمون، بل جميع من يؤمن بالأديان السماوية أن الإيمان بالمعاد من ضروريات الإيمان بالتوحيد والنبوة، كما أن من أنكره عُد من الكافرين الخارجين عن رتبة الدين، ولهذا كان المعاد أصلاً من أصول الأديان، ونحن سنتكلم في هذا الأصل عن حقيقته وضرورة الإيمان به، وأدلة ثبوته في القرآن ومنازل البرزخ ويوم القيامة.

المعاد في الكتاب والسنة

اختلف المتدينون في معنى المعاد، وقد ذكرت لذلك نظريات ناهزت الخمسة، وكلها تسعى للوصول إلى التفسير الحقيقي والواقعي للمعاد، واستعراض هذه النظريات يخرج الكتاب عن موضوعه، غير أن ما أتفقت عليه كلمة الفلاسفة الإمامية، وتواترت فيه الروايات أن معنى المعاد هو عودة الأرواح إلى الأجساد التي كانت عليها قبل الموت، وسوقهم إلى ساحة المحشر ليجازى المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، فالمعاد هو الحشر بالروح والجسد ونفس الخصائص الشخصية التي كان عليها في الدنيا، وعندما ينتهي من حسابه يدفع به روحاً وجسداً إما إلى الجنة منعماً، أو إلى النار معذباً، قال

---

(٧٥٢) المعاد للشهيد مطهري: ١٥.

تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ ۞ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۞ أَ يَحْسَبُ الإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ ۞ بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ ۞ بَلْ يُرِيدُ الإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ ۞ يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ﴾(٧٥٣).

وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ ۞ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(٧٥٤).

قصص القرآن الكريم لإثبات المعاد

تعرض القرآن الكريم في كثير من الآيات إلى الاستدلال على وجود المعاد ولعل ذلك يعود إلى أنه قضية غير ممكنة الإدراك لكثير من البشر، كما أنها مورد لتشكيك المشككين، فلهذا أكثر البيانات والبراهين بشأن القيامة وعود الأرواح إلى نفس الأجساد التي كانت عليها في الدنيا قطعا للمعاذير، وإقامة للحجة البالغة، وفي هذا السياق عرض القرآن الكريم لإثبات هذا الأمر مجموعة من القصص نذكر منها

قصة عزير النبي ويوم القيامة: قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها قالَ أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِها فَأَماتَهُ اللهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قالَ كَمْ لَبِثْتَ قالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عامٍ فَانْظُرْ إِلى طَعامِكَ وَشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلى حِمارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظامِ كَيْفَ

---

(٧٥٣) القيامة: ١– ٦.

(٧٥٤) الزلزلة: ٦–٨.

نُنْشِزُها ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ له قالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٧٥٥].هذه الآية تتحدث عن قصة نبي الله عزير، وتعالج استبعاد المعاد لتثبته بشكل قاطع يروى أن عزيراً النبي عليه السلام خرج من منزله يريد سفرا بعيداً وفي طريقه مر على قرية أصابتها الحوادث الطبيعية بالهدم والخراب فتلاشت وذهب أهلها، وأصبحوا عظاما ورميماً، بعد أن تفرقت أجسادهم، وذهبت في التراب وأجواف الحيوانات، ويصور القرآن الكريم هذا الجزء من القصة بقوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها﴾.

تأخر عزير في القرية برهة من الزمن، وأخذ يفكر ويتأمل الوضع المؤسف الذي عليه القرية، ثم انقدح في ذهنه هذا السؤال، إذ قال بتعجب: ﴿أَنَّى يُحْيِي هذه اللهُ بَعْدَ مَوْتِها﴾ لقد انتهت به رؤيته للأجساد المتلاشية والعظام البالية إلى طرح سؤالين، إن إحياء هذه الأجساد بعد مدة طويلة من موتها أمر عظيم، وأنه كيف تجتمع هذه الأجزاء المتناثرة، والعظام البالية، لتعود من جديد حيّة؟!، كان عزير يؤمن بالمعاد الجسماني، ويعلم أن الله تعالى على كل شيء قدير، فهو قادر على إحياء من أماته، ولكن كان يبتغي من وراء سؤاله هذا أن يصل بإيمانه وعقيدته إلى أعلى درجات اليقين والعلم، وعلى أي حال فبعد ما عرض ما في روعه من تساؤل أماته الله مئة عام، حيث كان هو جالساً، وإلى جانبه حماره وبيده زاده وطعامه، فإذا به يموت مع حماره، ومضت السنوات تلو السنوات، فلما كملت المئة بعثه الله مرة أخرى، وسأله: كم لبثت؟ فقال: لبثت يوماً أو بعض يوم

(٧٥٥) البقرة: ٢٥٩.

فجاءه الجواب: ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عامٍ فَانْظُرْ إِلى طَعامِكَ وَشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلى حِمارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً﴾.

لما نظر عزير إلى حماره كيف يحيا بعد مئة عام من موته، ولما تأمل المشهد برمته قال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وواضح أن هذه القصة تؤكد على أن عودة الأرواح إلى نفس البدن الذي كان قبل الموت، وبقدرة الله تعالى تُجمع العظام ويستعاد نفس اللحم والعروق والدماء، وبتلك الكيفية الدنيوية لا غيرها[(٧٥٦)].

قصة إبراهيم عليه السلام والمعاد: قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى قالَ أَ وَلَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[(٧٥٧)].

تتحدث هذه الآية عن طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيفية إحياء الموتى، ولم يكن طلبه هذا لعدم إيمانه بالمعاد الجسماني بدليل قوله: ﴿أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾، فالإيمان عند إبراهيم تام وكامل، ولكن يرغب في رؤية ذلك عمليا، لأن رؤية هذه العملية تؤدي الى الثبات والاطمئنان، فأمره الله تعالى أن يحضر أربعة من الطيور المختلفة في نوعها، ثم يقطعها أجزاءً صغيرة ويضعها على كل جبل جزءا ثم يناديها فتأتي إليه وكأنه لم يحدث شيء، وفعلاً فعل إبراهيم ما أمره الله به فقطّع أربعة من الطيور

(٧٥٦) بحار الأنوار ٧: ٣٤.

(٧٥٧) البقرة: ٦٠.

المختلفة ثم خلط لحمها، وفرقه على الجبال، فلما دعاهن أجابته، فرأى إبراهيم كيف يجتمع ويتألف لحم كل واحد وعظمه، ثم يرفرفن بين يديه، ويروى أن إبراهيم كان قد نظر إلى جيفة على ساحل البحر تأكلها سباع البر وسباع البحر، ثم يثب السباع بعضها على بعض فيأكل بعضها بعضاً فتعجب إبراهيم وقال: ﴿رب ارني كيف تحي الموتى﴾(٧٥٨).

قصة أبي بن كعب:

كان أبي بن كعب رجلاً عنيداً يحاول دائماً الاستهزاء والسخرية بعقائد المسلمين، ويستخف بها، وقد جاء يوماً إلى رسول الله ﷺ وبيده عظم بال متفتت، ففركه بين يدي رسول الله ﷺ ورمى بذراته في الهواء، وقال: يا محمد، أتزعم أن الله يبعث هذه؟!

فقال ﷺ: نعم، فنزل قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾(٧٥٩)

وهكذا في كثير من آيات القرآن وسوره يستعرض المولى عزّ اسمه مجموعة ضخمة من قصص البشر والتكوين لتكون آيات على المعاد الجسماني، فقد سجل دليلا عليه ما ذكرناه من القصص وكذا قصة أصحاب الكهف الذين ناموا ثلاثمئة عام ثم عادوا إلى الحياة، وإحياء الأرض بعد موتها وإزهار النباتات بعد جفافها... وغير ذلك كثير ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ (٧٦٠).

---

(٧٥٨) بحار الأنوار ٧: ٣٦.

(٧٥٩) يس: ٧٧-٧٨.

(٧٦٠) الذاريات: ٢٠ .

الموت، بوابة يوم القيامة

إن أول منزل من منازل يوم القيامة الموت، وهو عبارة عن انفصال الروح عن البدن فبعد أن كانت الروح مندكة في جسدها ومتلاقحة معه تلاقحا متينا، يأتي الموت ليفرق بينهما.

ويفصل هذا الارتباط العميق بينهما، ولهذا الانفصال عقبات وصعوبات كثيرة نشير إلى عقبتين منها.

العقبة الأولى) سكرات الموت وصعوبة انتزاع الروح من البدن: قال الله تعالى: ﴿وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾(٧٦١).

وهي عقبة صعبة جدا حيث تحمل الشدائد على المحتضر من جميع الجهات، فشدة آلام المرض، واحتباس اللسان، وزوال القوى من الجسد من جهة، وبكاء الأهل وتوديعهم، وهموم يتم الأطفال من جهة، والانفصال من المال والضياع والذخائر والنفائس التي قضى عليها العمر، واتّبع لاستحصالها شتى السبل، وربما اختلط بكثير من أموال الناس ظلما واغتصابا، ولم يدفع حقوق الله وما توجب عليه، وانتبه لكل هذا بعد أن قضى أجله وانقضى أمده، وانقطع كل سبيل ورجاء فكان كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «يتذكر أموالا جمعها وأغمض في مطالبها، وأخذها من مصرحاتها ومشتبهاتها، قد لزمته تبعات جمعها، وأشرف على فراقها، تبقى لمن وراءه ينعمون بها، فيكون المهنأ لغيره، والعبء على ظهره»(٧٦٢).

---

(٧٦١) ق: ١٩.

(٧٦٢) نهج البلاغة: ١٥٩.

ومن جهة أخرى أهوال الدخول إلى نشأة غير نشأة الدنيا التي تأقلم عليها، ورؤية ما لم تكن تراه عينه قبل هذا: ﴿فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ يروى أن أمير المؤمنين عليه السلام أصيب بداء في عينه، فزاره النبي صلى الله عليه وآله فرآه يصرخ ويصيح، فسأله النبي صلى الله عليه وآله هل أن صراخك نتيجة الألم الشديد، أم جزعا وهلعا؟ فقال علي عليه السلام: «ما أشد الألم إذ لم أجد مثله قبله، فقال النبي صلى الله عليه وآله: إذا حضر ملك الموت لقبض روح الكافر، أتى بقضيب من نار، فنزع روحه بذلك، فتصرخ جهنم من شدة وجعه وألمه، فلما سمعه علي عليه السلام قام وقعد وقال: أعد الحديث يا رسول الله، فقد أنساني الوجع، ثم سأله: هل تنتزع روح أحد من أمتك على نحو ما وصفت؟ فقال صلى الله عليه وآله نعم، حاكم جائر، وآكل مال اليتيم ظلما وعدواناً، وشاهد زور»[٧٦٣].

العقبة الثانية) العديلة عند الموت: وتعني العدول عن الحق إلى الباطل حين الممات، وذلك بحضور الشيطان عند المحتضر وتشكيكه بوساوسه، ليخرجه عن الدين.

ولهذا فيبغي أن يقوم الإنسان بأعمال في الدنيا تدرأ عنه العديلة عند الموت، ونحن نذكر بعضها:

١- المواظبة على أوقات الصلاة: إن مما ينفع في هذه العقبة أن يقيم الإنسان الصلاة في وقتها، فقد روي أن ملك الموت ينظر إلى جميع الناس خمس مرات كل يوم أوقات الصلاة، فيلقن من كان يؤدي صلاته في وقتها الشهادة ويكفيه شر إبليس اللعين[٧٦٤].

---

(٧٦٣) بحار الأنوار ٦: ١٧٠، نقلا عن الكافي.

(٧٦٤) سفينة البحار ٢: ٥٤٩.

٢- تعظيم حقوق الله: فقد جاء عن الصادق عليه السلام أنه كتب إلى بعض أصحابه: «إذا أردت أن يختم عملك بخير: فتقبض روحك وأنت في أفضل الأعمال، فعظّم حقوق الله بأن لا تصرف نعمه في معاصيه، ولا يغرّنك حلمه عليك، وأكرم من ذكرنا أو ادعى حبنا ومودتنا سواء صدق في قوله أو كذب، فينفعك صدقك، ويضره كذبه»(٧٦٥).

٣- أن يقرأ عقيب كل فريضة: «رضيت بالله ربا، وبمحمد صلى الله عليه وآله نبياً، وبالإسلام دينا، وبالقرآن كتابا، وبالكعبة قبلة، وبعلي عليه السلام وليا وإماما، وبالحسن، والحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، وموسى بن جعفر، وعلي بن موسى، ومحمد بن علي، وعلي بن محمد، والحسن بن علي، والحجة بن الحسن (صلوات الله عليهم) أئمة، اللهم إني رضيت بهم أئمة فأرضني لهم، إنك على كل شيء قدير»(٧٦٦).

فقد ورد أن محمد بن سليمان قال للصادق عليه السلام ما تقوله الشيعة أن الإيمان على قسمين: ثابت مستقر ومؤتمن زائل، فعلمني دعاء أقرأه يكمل به إيماني ولا يزول فعلمه الصادق عليه السلام الدعاء المذكور يقرأه عقيب كل صلاة فريضة(٧٦٧).

٤- منزل القبر: إن القبر من المنازل المهولة الموحشة في السفر إلى يوم القيامة وهو الذي يقول كل يوم: «أنا بيت الغربة، أنا بيت الوحشة، أنا بيت الدود»(٧٦٨).

ولهذا المنزل عقبات صعبة جداً وأماكن موحشة مهولة إليك بعضها:

(٧٦٥) بحار الأنوار ٧٤: ٣٠٣.
(٧٦٦) مفاتيح الجنان: التعقيبات العامة.
(٧٦٧) منازل الآخرة، للشيخ القمي: ١٢.
(٧٦٨) بحار الأنوار ٦: ٢١٨.

وحشة القبر: فعن النبي ﷺ قال: «لا تمر على الميت ساعة أشد من ليلة القبر الأولى، فترحموا على موتاكم بالصدقة.. »[٧٦٩].

ومما يخفف من الوحشة في القبر، حب علي عليه السلام وأتباعه، وفي هذا يروى عن أبي سعيد الخدري أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي عليه السلام: «يا علي أبشر فإنه لا حسرة لشيعتك عند الموت، ولا وحشة لهم في القبور، ولا خشية يوم النشور»[٧٧٠].

ضغطة القبر: فعن الصادق عليه السلام «لما سئل: هل يفلت أحد من ضغطة القبر، فقال نعوذ بالله منها ما أقل من يفلت من ضغطة القبر»[٧٧١].

وسببها عدم الاحتراز من البول، والنميمة والغيبة، وأذية الرجل أهله، وخشونته في التحدث معهم.[٧٧٢]

سؤال الملكان: بعد شرج القبر يأتي الملكان في هيئة هائلة، لهما صوت كالرعد، وأعين كالبرق، ويسألانه عن ربه ونبيه ودينه وإمامه وحجته، ولذا يستحب أن يلقن الميت بالتلقين المعروف فقد ورد أنه إذ لقن الميت: يقول منكر لنكير، دعنا نعود، فقد لقنوه تلقين الحجة ولا يحتاج إلى سؤال فيتركان السؤال ويعودان»[٧٧٣].

البرزخ: بعد إكمال السؤال من قبل الملكين تبدأ حياة البرزخ قال تعالى: ﴿وَمِنْ

---

(٧٦٩) سفينة البحار ٢: ٤٧.

(٧٧٠) بحار الأنوار ٧: ١٦٨.

(٧٧١) بحار الأنوار ٦: ٢٦١.

(٧٧٢) بحار الأنوار ٦: ٢٢٢.

(٧٧٣) بحار الأنوار ٦: ٢٢.

وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٧٧٤].

وهي ما بين الدنيا والآخرة، وهي إما في سعادة ونعيم، وإما في عذاب وشقاء وقد يطلق كثيرا على القبر بلحاظ أنه أول منزل من منازل البرزخ والمؤثر الوحيد على الحياة البرزخية بنعيمها أو شقائها العمل الصالح، فقد روي أن قيس بن عاصم جاء مع رهط من بني تميم إلى رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن يعظهم موعظة نافعة، فقال ﷺ يا قيس! لابد لك من قرين يدفن معك وهو حي وتدفن معه وأنت ميت، فإن كان كريما يكرمك، وإن كان لئيما يهملك، ولا تحشر إلا معه، ولا تسأل إلا عنه فلا تجعله إلا صالحا لأنه إن كان صالحا تأنس به وتستأنس معه، وإن كان فاسدا لا تستوحش إلا منه، وذلك عملك ثم أمر النبي ﷺ حسان بن ثابت أن ينظمها شعرا فقال:

تخير خليطا من فعالك إنما قرين الفتى في القبر ما كان يفعل

ولا بد بعد الموت من أن تعده ليوم ينادى المرء فيه فيقبل

فإن كنت مشغولا بشيء فلا تكن بغير الذي يرضى به الله تشغل

فلن يصحب الإنسان من بعد موته ومن قبله إلا الذي كان يعمل

ألا إنما الإنسان ضيف لأهله يقيم قليلا بينهم ثم يرحل[٧٧٥]

٥- **يوم القيامة:** وهي من أهول المنازل وأشدها وأعظمها، ويحدث عنها القرآن:

---

(٧٧٤) المؤمنون: ١٠٠.

(٧٧٥) بحار الأنوار ٧٤: ١١١.

﴿ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾[٧٧٦].

ومن هنا سميت بالفزع الأكبر وبالصافة ويوم الدين والواقعة..... والى غيرها من الأسماء التي تكشف عن هولها وصعوبتها وشدتها حتى أن جبرائيل كان يخاف من ذكر اسمها، فقد سأله عيسى: متى تقوم القيامة؟ فارتعش جبرائيل بسماعه اسم القيامة ارتعاشا شديداً بحيث سقط على الأرض مغشيا عليه، ولما صحا قال: يا روح الله ليس المسؤول بأعلم من السائل عن أمر القيامة[٧٧٧].

وفي يوم القيامة يجاز الناس محسنهم ومسيئهم فيحاسبون عن كل صغيرة قدموها قبل الكبيرة ومن شدة دقة الحساب، يقول: ﴿يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصاها﴾[٧٧٨].

كما أن الله تعالى يأتي بالشهود على الإنسان فيشهدون على ما قدم وأخر فيشهد الله عليه قال تعالى: ﴿وَاللهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ﴾[٧٧٩].

والملائكة التي كانت تشهد عليه وعلى أعماله قال تعالى: ﴿وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[٧٨٠].

كما يشهد على الإنسان بقاع الأرض فقد جاء في الروايات أن الله يأتي بالأرض

---

(٧٧٦) الأعراف: ١٨٧.

(٧٧٧) بحار الأنوار ٦: ٣١٢.

(٧٧٨) الكهف: ٤٩.

(٧٧٩) آل عمران: ٩٨.

(٧٨٠) ق: ٢١.

فتشهد ما عمل العباد على ظهرها قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۞ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾[(٧٨١)].

وأعجب ما في الأمر أن جوارحه تشهد عليه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[(٧٨٢)].

ومن الشهود النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام كما ورد ذلك في الآيات والروايات.

ثم تنصب الموازين، قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[(٧٨٣)].

جهنم وعذابها

جهنّم هو المكان الذي أعدّ ليكون مثوى الكفار والظالمين والمنافقين والمسيئين في عالم الآخرة، فهم سينتقلون في يوم القيامة بعد محاسبة أعمالهم إلى ذلك المكان، إنه مكان سيئ جداً، يعذّب فيه ساكنوه بألوان العذاب والأذى، لينالوا بذلك جزاء أعمالهم السيئة.

إنّ وضع جهنّم وأنواع العذاب والمشاقّ التي يعانيها أهل النار ليس معروفاً لنا في هذا العالم جيّداً، بل وليس قابلاً للتصوّر بصورة صحيحة وحقيقية.

إنّ عالم الآخرة عالمٌ آخر، وإنّ عذابه يناسب كذلك عذاب ذلك العالم، ولكنّنا نعلم

(٧٨١) الزلزلة: ٤.

(٧٨٢) النور: ٨.

(٧٨٣) الأعراف: ٨.

إجمالاً أنّ ذلك المكان مكانٌ سيئٌ ومؤلم جداً.

إنّ الأفضل عند بيان جهنّم وألوان العذاب فيها هو مراجعة الآيات الكثيرة والعديدة التي نذكر نماذج منها هنا:

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً ۞ لِلطَّاغِينَ مَآباً ۞ لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً ۞ لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَلا شَراباً ۞ إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً ۞ جَزاءً وِفاقاً ۞ إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً ۞ وَكَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً ۞ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً ۞ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذاباً﴾[٧٨٤]. ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ ۞ يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[٧٨٥].

﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى﴾[٧٨٦].

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾[٧٨٧].

﴿وَأَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ ۞ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۞ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ۞ لا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ ۞ إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ ۞ وَكانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ ۞ وَكانُوا يَقُولُونَ أَ إِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَ إِنَّا

(٧٨٤) النبأ: ٢١-٣٠.

(٧٨٥) التوبة: ٣٤-٣٥.

(٧٨٦) طه: ٧٤.

(٧٨٧) التحريم: ٦.

لَمَبْعُوثُونَ ۞ أَ وَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ۞ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ۞ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ۞ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۞ لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ۞ فَمَالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۞ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۞ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ۞ هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾[٧٨٨]

وكخلاصة فإن ما ذكر بشأن جهنم وعذاباتها هو:

- أنّ حطب جهنّم هو البشر والأصنام والمعبودات المزيّفة.
- أنّ جلود الجهنميين ولحومهم تشوى في جهنم ولكنّها سرعان ما تتجدد حتى يذوقوا العذاب جيداً.
- أنّ نار جهنّم مثل الخيمة تحيط بالكافرين من جميع الجهات والأطراف، وهم يحترقون في النار.
- أنّ الذين يدّخرون الذهب والفضة ويكنزون أموالهم ولا يؤدّون حقوقها الواجبة، تذوّب تلك الأموال في جهنّم، وتكوى بها وجوه أصحابها، وجنوبهم وظهورهم.
- أنّ على أهل جهنم لباس من نار وهم يوضعون في السلاسل والأغلال، ثم تصبّ المعادن الذائبة على رؤوسهم.
- أنّ طعام أهل جهنم من شجرة اسمها الزقّوم، وهم يأكلون منها لشدّة جوعهم، ولكنّها تغلي في بطونهم مثل الماء الحارّ، وتتلاشى أعضاؤهم

(٧٨٨) الواقعة: ٤١-٥٦.

الداخلية.

- أنّ الماء الّذي يشربه أهل جهنّم ليس سوى الحميم الغسّاق، وقد مرّ معناهما، فكلّما طلب أهل جهنّم الماء من شدة العطش يعطون هذا المشروب الوبيء.
- أنّ نار جهنّم مكان ضيق جدا، وأنّ الجهنّميّين يطرح بعضهم على بعض بحيث يستغيثون من شّدة الضيق.
- أنّ جهنّم تلتهب من باطن ذات الإنسان ومن داخله، وتحرق روحه وقلبه.
- أنّ في جهنّم لا يوجد موت، والجهنّميون يطلبون الموت من شدّة العذاب الّذي يعانون منه، ولكن لا موت هناك.
- أنّ لجهنّم دركات ومراتب مختلفة، وكلّ فريق يوضع في الدرك الّذي يناسبه.

إنّ الأمور المذكورة نماذج من خصائص العذاب الّذي يعذّب به المسيئون في جهنّم. هذا مضافاً إلى أنّ جهنّم وصفت في القرآن الكريم، وعلى سبيل المثال ـ بأنها مكان سيئ ومؤلم جداً، ونجد هذا النوع من التعابير والألفاظ بوفرة في الكتاب العزيز.

عذابٌ مهين، عذابٌ أليم، عذابٌ شديد، عذابٌ عظيم، عذابُ الحريق[٧٨٩]، عذابٌ

---

(٧٨٩) الحريق: المحرِق.

مقيم، عذابُ الهون[٧٩٠]، بئس المصير، بئس مثوى الظالمين. بئس المهاد، ساءت مصيراً. ذلك الخزي العظيم. عذاب غليظ. وما يشابهها من الأوصاف والنعوت الّتي يوصف بها عذاب جهنّم الرهيب.

إنّ لكل هذه الأوصاف والتعاريف حقيقة، والهدف منها هو بيان شدّة العذاب الأخرويّ، وصعوبته، لكن يجب أن نعلم أنّ المعرفة الكاملة بالأمور الأخروية ليست ممكنة لنا في هذا العالم، لأنّ عالم الآخرة عالم آخر يتّصف بخصائص خاصة.

إنّ العذاب الأخروي لابد وان يتناسب مع ذلك العالم أيضاً، ولا يمكننا أن نتصوّره أفضل من هذا.

كيف يمكننا من خلال هذه الألفاظ والمفاهيم الدنيويّة، الاطلاع الكامل على حقائق العالم الآخر وواقعياته؟

وفي هذه الأوصاف والتعاريف أيضاً تُوجد شواهد على أنّ العذاب الأخرويّ على نمط آخر، فقد جاء في وصف نار جهنّم ﴿نارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ ۞ الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾[٧٩١]. فإنّه يستفاد من هذه الآية أن نار جهنّم تشرف على داخل الذات البشرية وعلى باطن روح الإنسان، وتلامس أعماقه.

وكذا يقول: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ﴾[٧٩٢] فإنّه يستفاد من هذه الآية أن حطب جهنّم هو الناس والأوثان، لا أنها نارٌ من الخارج أو أنّ نار جهنّم تُشعل

---

(٧٩٠) الهون: الذلّة.

(٧٩١) الهمزة: ٦-٧.

(٧٩٢) البقرة: ٢٤.

بموادّ أخرى، ثم يلقى فيها الإنسان، بل إن الإنسان نفسه هو الّذي يوقد النّار ويكون مادّة لهيبها، وهو يكون حصب جهنّم، في حين أن النيران الدنيوية ليست هكذا.. إن نيران جهنّم ليست منفكّة عن وجود الإنسان.

كما يقول تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نارٍ﴾[٧٩٣] فمن هذه الآية الكريمة يستفاد أن ألسبة أهل جهنّم مصنوعة من النّار، أعدت لهم وهيّئت ليلفّوا بها وليذوقوا مزيداً من العذاب.

وأخيراً، فمن هذه الشواهد وأمثالها يستفاد أن العذاب الأخروي هو على صورة أخرى، وهو بالتالي أشدّ وأصعب مما نتصوّر، أعاذنا الله وجميع المؤمنين منها.

الجنة ونعيمها

إنّ عالم الآخرة عالمٌ آخر يتّسم بخصوصيات أخرى تختلف ـ بصورة كلية ـ عن هذه الدنيا. إنّ آيات القرآن والأحاديث تخبر عن وجود الحساب والسؤال والجواب والميزان في القيامة. طبعاً لجميع هذه الأمور حقيقة وواقع ويجب أن نؤمن بها جميعاً، ولكن ليست من الضروري أن تكون مصاديق هذه المفاهيم في عالم الآخرة عين مصاديقها الدنيويّة، بل من الممكن أن تكون بنحوٍ آخر، بل وتكون أكمل بلا شك لأنها من سنن العالم الأخروي.

وعلى كل حال إنّ علينا أن نستفيد لتعريفها ووصفها من آيات القرآن، وأحاديث المعصومين ومن جملة هذه الأمور «الجنّة ونعيمها» ولدينا آيات كثيرة حولها نشير إلى

---

(٧٩٣) الحج: ١٩.

نماذج منها:

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا هذَا الَّذِى رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً وَلَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيها خالِدُونَ﴾[٧٩٤].

﴿وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٧٩٥].

﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٧٩٦].

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۞ يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ ۞ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٧٩٧].

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ

(٧٩٤) البقرة: ٢٥.

(٧٩٥) آل عمران: ١٣٣.

(٧٩٦) التوبة: ٧٢.

(٧٩٧) الزخرف: ٧٠-٧٢.

الثَّمَراتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾(٧٩٨).

﴿وَجَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ۞ مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً ۞ وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً ۞ وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا ۞ قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً ۞ وَيُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلاً ۞ عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً ۞ وَإذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ۞ عالِيَهُمْ ثِيابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً﴾(٧٩٩).

- إن الجنة مثوى الموحّدين والمحسنين، وهو مكانٌ راقٍ جداً إلى درجة أنّنا لا يمكننا إدراك حقيقتها، ولا وصف نعمها في هذا العالم.. وكلّ ما قيل في هذا المجال كان بقدر فهمنا، وقد أدّي في قوالب هذه الألفاظ الدنيوية، وبالمفاهيم المتعارفة، في حين أنّ حقيقتها ـ في الجنّة ـ أعلى وأسمى من هذه المفاهيم الدنيوية.
- إنّ هناك نِعماً في الجنة لم ترها عين ولا سمعت بها أذن، ولا خطرت على قلب بشر.
- إنّ الجنّة الّتي ورد ذكرها في القرآن الكريم والأحاديث تعني البستان

(٧٩٨) محمد: ١٥.

(٧٩٩) الإنسان: ١٢-٢١.

الزاخر بالأشجار، وقد وصفت بأنّها بستان (أو بساتين) مليئة بالأشجار الخضراء الجميلة الّتي تجري من تحتها الأنهار ذات المياه العذبة الباردة.. تتدلى منها الفواكه المختلفة المتنوعة الجميلة من أغصانها.

- إن فواكه الجنّة لذيذة وجذّابة جداً وهي في متناول المؤمنين هناك كلّما اشتهى المؤمن شيئاً منها تدنو إليه الأغصان، وتضع ثمارها بين يديه بمنتهى الخضوع، ليأكل منها ما يشتهي ويخلف الله مكانها مثلها.
- وفي الجنّة أنواع المشروبات اللذيذة وبوفرة كبيرة.. وفيها أنهارٌ جارية من اللبن والعسل المصفّى والماء العذب الهنيء.. ولا يطرأ على فواكه الجنّة ومشروباتها فسادٌ ولا تغيير، ولا تتعفّن ولا تنتن.
- المؤمنون يتّكئون على كراسي وأرائك مريحة، وهم يلبسون أفضل وأجمل الألبسة، ويحادثون الأنبياء والشهداء والأئمة وعباد الله الصالحين، ويعيشون مع أزواج جميلة وحنونه، لطيفة المعشر، ويتمتعون بنعمة الأنس والمودّة وأنواع الملذات، يقوم بخدمتهم باستمرار غلمانٌ في منتهى الجمال والأدب، وبأنواع الوسائل الفخمة، والأدوات والأواني الجميلة الجذابة.
- إنّ الجنة مكانٌ واسعٌ جداً سعة السماوات والأرض بل أوسع.
- الجنّة مكان أمن واستقرار، وراحة ولذة، ومتعة.
- أهل الجنّة إخوانٌ وأحبّة، ولا مكان في الجنة للشيخوخة، ولا للضعف والمرض، والموت والأذى والانزعاج. الجنّة مكانٌ دائمٌ وخالدٌ للمؤمنين

ليعيشوا فيه إلى الأبد.

m الأطعمة في الجنة على نحو لا يوجب نشوء البول والغائط، وأشجارها من نوع آخر.

وبكلمة واحدة: يوجد للمؤمن في الجنة كل ما يحبّ ويشتهي: ﴿ وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾[٨٠٠].

بل إنّ هناك نعماً لم تخطر لهم ببال أصلاً ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ والأهم من ذلك رضوان الله ﴿ وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾.

ليس جميع أهل الجنة في درجة واحدة، بل تختلف وتتفاضل درجاتهم بتفاوت علمهم ومعرفتهم وإخلاصهم وعملهم. عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «الجنّة مئة درجة، ما بين كلّ درجة منها كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها سمواً، وأوسطها محلة، ومنها تتفجر أنهار الجنّة، فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله إنّي رجل حُبِّبَ إليَّ الصوت فهل لي في الجنّة صوتٌ حسنٌ؟ فقال: إي والذي نفسي بيده، إن الله يوحي إلى شجرة في الجنة: أن أسمعي عبادي الّذين اشتغلوا بعبادتي وذكري عن عزف البرابط والمزامير، فترفع صوتاً لم يسمع الخلائق بمثله قط من تسبيح الرب»[٨٠١].

قال أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين عليه السلام (الشيخ الصدوق): «اعتقادنا في الجنّة أنها دار البقاء ودار السلامة، لا موت فيها ولا هرم، ولا سقم ولا مرض، ولا آفة ولا

(٨٠٠) الزخرف: ٧١.

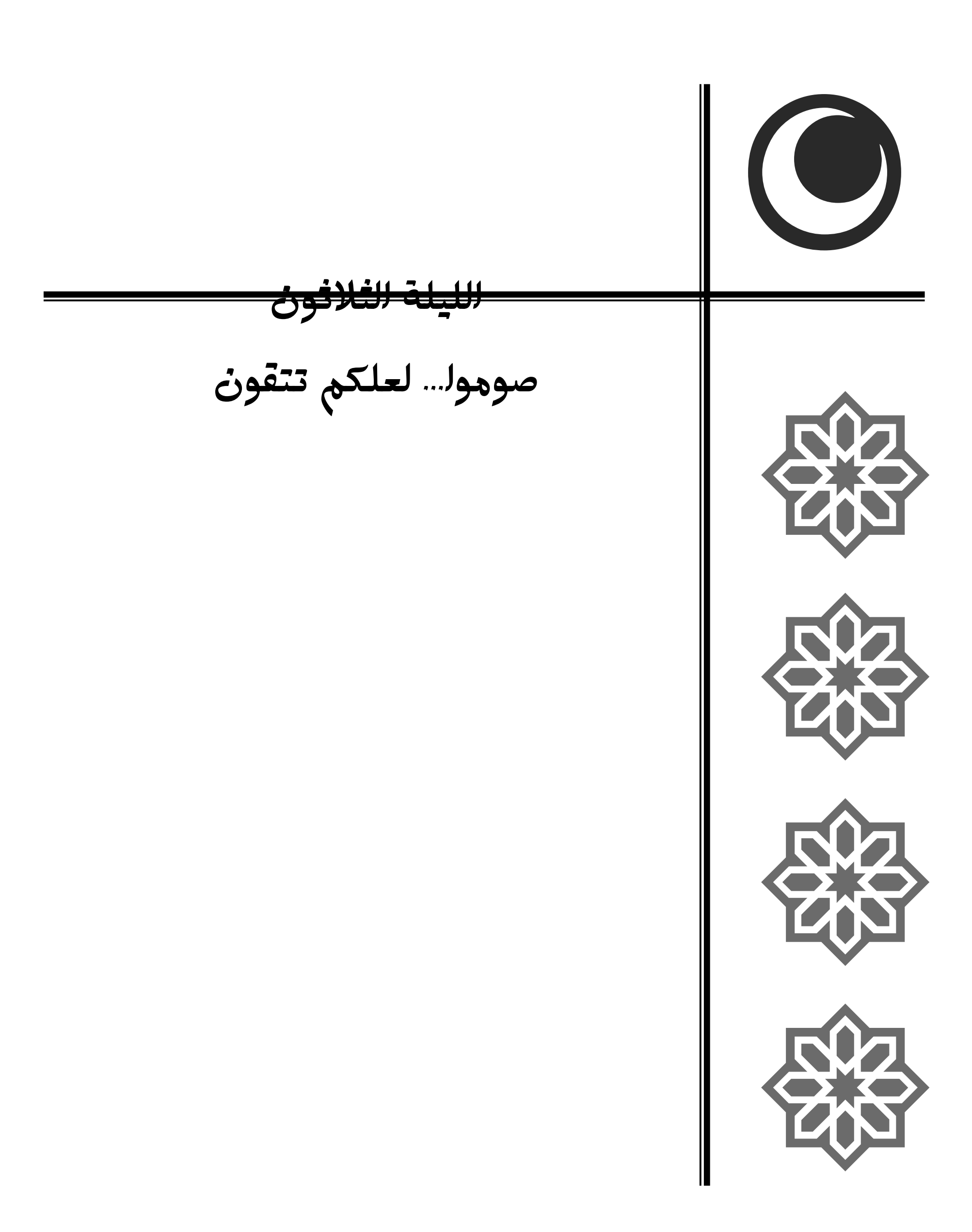
(٨٠١) بحار الأنوار ٨: ١٩٦.

زمانة، ولا غمّ ولا همّ، ولا حاجة ولا فقر، وأنّها دار الغناء والسعادة، ودار المقامة والكرامة، لا يمسّ أهلها فيها نصبٌ ولا لُغوب، لهم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين، وهم فيها خالدون. وأنها دارٌ أهلها جيران الله وأولياؤه وأحبّاؤه، وأهل كرامته، وهم أنواعٌ على مراتب: منهم المتنعّمون بتقديس الله وتسبيحه وتكبيره في جملة من ملائكته، ومنهم المتمتّعون بأنواع المآكل والمشارب والفواكه والأرائك والحور العين واستخدام الولدان المخلّدين والجلوس على النمارق والزرابيّ ولباس السندس والحرير، وكلٌّ منهم إنّما يتلذذ بما يشتهي ويريد»[٨٠٢].



(٨٠٢) بحار الأنوار ٨: ٢٠٠.





الليلة الثلاثون

صوموا... لعلكم تتقون

- معنى التقوى لغةً واصطلاحاً
- التقوى في القرآن الكريم
- التقوى في نهج البلاغة
- آثار التقوى في الدنيا والآخرة
- صفات المتقين في خطبة أمير المؤمنين عليه السلام

الليلة الثلاثون

صوموا... لعلكم تتقون

أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

التوبة: ١٠٩

ومما جاء في خطبته ﷺ الشعبانية: «... أفضل الأعمال في هذا الشهر الورع عن محارم الله عز وجل».



لقد أكد القرآن الكريم على أنّ علّة تشريع الصيام بلوغ مرتبة التقوى، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٨٠٣]، فإذا حقق الصيام هذه الغاية، فقد حقق هدف التشريع، وبلغ الصائم رتبة الصائمين،

(٨٠٣) البقرة: ١٨٣.

وحصل على رضا رب العالمين وثوابه وأجره، وأمّا إذا لم يحقق صيامه التقوى، فهو كمن لم يصم من حيث النتيجة، إذ مثل هذا الصوم لا ينفع إلاّ في سقوط التكليف، وأمّا الآثار العظيمة المرتبة على الصيام، فلا تحصل ما لم تتحقق التقوى، ومن أجل ذلك وفي ختام أيام الصيام ولياليه ذات الفضيلة، وختاماً لما بدأناه من أول هذه الليالي من المهم جداً أن نتكلم عن التقوى، وخصائصها وآثارها، لكي نعلم عظيم الأثر الذي يحققه صيام نهار رمضان وقيام لياليه.

معنى التقوى لغةً واصطلاحاً

التقوى لغةً مأخوذ من الوقاية، والوقاية تعني الحذر والاحتراز والبعد والاجتناب، ولها مراتب بحيث كلما كان الحذر والاجتناب أكثر كانت التقوى أكمل، ولكن مجرد الحذر والاجتناب عن شيء ليس معناه التقوى المطلوبة في الإسلام، وإنّما التقوى التي دعا إليها الإسلام وأكد عليها القرآن الكريم: عبارة عن قوة روحية وملكة نفسية تتولد في الإنسان بسبب التمرين على العمل الذي يحصل منه الحذر والاجتناب من الذنوب[٨٠٤].

وأما التقوى في الاصطلاح الإسلامي هو: اجتناب ما حرّم الله وإتيان ما أوجبه على العبد، كما جاء هذا المعنى في كثير من الآيات والروايات، وإذا ترك الإنسان المحرمات والمكروهات وحتى المشتبهات وعمل بالمستحبات فهذا هو الورع الذي دعا إليه النبي ﷺ في خطبته الشعبانية، وعبّر عنه بأفضل الأعمال في شهر رمضان المبارك.

(٨٠٤) هذا التعريف للتقوى بحسب ما فهمه الشهيد مطهري من خلال دراسته للتقوى وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل في الحديث عن التقوى في نهج البلاغة.

التقوى في القرآن الكريم

أكد القرآن الكريم في مجمل آياته على التقوى، وقد جعل لها قيمة عظيمة، وموقعاً متميزاً على سائر الصفات الأخرى، وفيما يلي بعض خصائص التقوى في القرآن، والتي تعكس بشكل واضح موقعيتها في الإسلام.

١ـ التقوى غاية العبادة

خلق الله تعالى الإنسان لأجل عبادته، قال تعالى: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[٨٠٥]، ولذا نجده تعالى قد أكد أن أهم أهداف بعثة الأنبياء والمرسلين. الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[٨٠٦]، وقال: ﴿وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[٨٠٧] ومن الواضح أن الله تعالى لا يأمر بالعبادة لحاجة منه إليها، أو لنقص فيه يريد أن يستكمله بعبادتنا، إذ الله تعالى غني مطلق، بل كمال العبادة وفائدتها تعود أولاً وأخيراً إلى نفع الإنسان وكماله وترقيته.

ومن جهة أخرى نجد أن القرآن الكريم لم يجعل العبادة هي الغاية النهائية لخلق الإنسان، بل العبادة هي الغاية المتوسطة، ويترتب عليها غايات أخرى، فمن هذه الغايات التقوى، قال تعالى: ﴿يا أيّها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ

---

(٨٠٥) الذاريات: ٥٦.

(٨٠٦) النحل: ٣٦٦.

(٨٠٧) مريم: ٣٦.

تَتَّقُونَ﴾[٨٠٨] فالتقوى هي الغاية والهدف من العبادة التي خلق الإنسان لأجلها، وهذا يعني أن الكمال المطلوب لله، والذي يراد من الإنسان الوصول إليه هو التقوى، وأن الأرضية التي تهيّئ للوصول إلى هذا الكمال هو العبادة.

٢ـ التقوى موجبة لحب الله

ذكر القرآن مواضيع عديدة تورث حب الله لعبده، كالعدل والإحسان، والصبر والثبات والتوكل...، فقال تعالى ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٨٠٩] وقال: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[٨١٠] وقال: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٨١١]، وقال: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٨١٢]، ومن هذه المواضيع التي يحبها الله، ويحب من يتصف بها التقوى، قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[٨١٣].

ومحبة الله تعالى لعبده هو كشف الحجاب عن قلبه، وتمكينه من أن يتقرب إليه، وان يوفقه للأنس به والوحشة ممّا سواه.

٣ـ التقوى سبب لنيل ولاية الله:

من الواضح جدّاً أن همّ العبد أن يصل إلى ولاية الله وحصنه المنيع، لأنه لا يوجد في

(٨٠٨) البقرة: ٢١.
(٨٠٩) آل عمران: ١٣٤.
(٨١٠) آل عمران: ١٤٦.
(٨١١) آل عمران: ١٥٩.
(٨١٢) الممتحنة: ٨.
(٨١٣) آل عمران: ٧٦.

ولاية الله خوف ولا حزن، قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٨١٤] فيصبح العبد في كنف الله، ومورداً لفيوضاته ومظهراً لتجلي عظمته، ومما يحقق نيل هذه الولاية التقوى، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾[٨١٥].

وهناك خصائص أخرى وما ذكرناه أهمها، تركنا التعرض للباقي اختصاراً.

التقوى في نهج البلاغة[٨١٦]

إن كلمة التقوى من أكثر كلمات نهج البلاغة استعمالاً، فليس هناك في نهج البلاغة مفهوم أو معنى أعتني به أكثر من التقوى، كما أنه ليس هناك كتاب ـ بعد القرآن الكريم ـ يركز فيه على التقوى أكثر من نهج البلاغة، غير أن أمير المؤمنين عليه السلام لا يطرح التقوى على أنه مفهوم يرادف الحذر والاجتناب، وفق ما يذكره أهل اللغة، بل التقوى في نهج البلاغة عبارة عن قوة روحية تتولد للإنسان من التمرين العملي الذي يحصل من الحذر المعقول من الذنوب، وعليه فالحذر المعقول والمنطقي يكون مقدمةً للحصول على هذه المرتبة الروحية العالية، فليست التقوى في منظور نهج البلاغة عبارة عن الحذر والاجتناب الذي يؤدي بالانسان إلى اعتزال المجتمع والحياة العامة خوفاً من

---

(٨١٤) يونس: ٦٢.

(٨١٥) الجاثية: ١٩.

(٨١٦) البيان والتوضيح من الشهيد مرتضى المطهري في كتابه (في رحاب نهج البلاغة)، ترجمة الشيخ اليوسفي الغروي.

الوقوع بالمعصية، وفوات التقوى، بل التقوى في مفهومه قوة يخلقها الحذر إلى أن تصل إلى درجة الملكة فلا يضطر صاحبها إلى ترك المجتمع والاعتزال، إذ هو يحفظ نفسه من دون أن يخرجها عن المجتمع، فمن كانت تقواه بمعنى الحذر الذي يمنعه من مخالطة مجتمعه، ويحدو به إلى الانزواء، كان كمن يأوي إلى جبل ليعصمه من المرض المعدي، أما من كانت تقواه بالمعنى الصحيح وأعني الوصول إلى درجة الملكة والقوة المانعة عن الذنوب، كان كمن يقي نفسه من المرض المعدي بالتلقيح ضده، فلا يضطر عليه السلام إلى أن يخرج من البلد أو إلى أن يجتنب الناس، بل يسعى إلى مساعدة المرضى كي ينقذهم مما هم فيه من الألم والمرض.

يقول سعدي الشيرازي واصفاً التقوى بالمعنى الأول:

رأيت يوماً عابداً في الجبال مقتنعاً عن دهره بالرمال
فقلت هل تنزل يوماً لكي ترى البلاد والمنى والمنال
فقال لي لا إن فيها لمن بنات حوّا كل ذات جمال
وحينما يكثر وحل الطريق يزلق فيه الفيل قبل الرجال

إذن، فالتقوى في منظومة نهج البلاغة، قوة معنوية وروحية تحصل على أثر التمرين والممارسة، ولها آثار ونتائج منها تيسير الحذر من الذنوب لا أنها هي بنفسها الحذر.

وفيما يلي بعض النصوص للإمام علي عليه السلام تؤكد هذا المعنى:

قال الإمام علي عليه السلام: «إنّ تقوى الله حمت أولياء الله محارمه، وألزمت قلوبهم مخافته،

حتى أسهرت لياليهم، وأظمأت هواجرهم... »[٨١٧]، وقال عليه السلام: «إنّ تقوى الله دواء داء قلوبكم و.... ».

حيث أكد عليه السلام في هذه المقطوعة أن الحذر من الحرام، والخوف من الله تعالى من لوازم وآثار التقوى، لا أن نفس الحذر والخوف هو التقوى.

وهناك الكثير الكثير في نهج البلاغة ما يؤكد على أن التقوى عند أمير المؤمنين عليه السلام عبارة عن قوة مقدسة روحية ينشأ منها أنواع من الإقدام والإحجام، إقدام على القيم المعنوية، وإحجام عن الدنايا المادية، وهي آلة تهب لروح الإنسان قدره يتسلط بها على نفسه ويمتلكها.

آثار التقوى في الدنيا والآخرة

إن للتقوى آثاراً عظيمةً جداً تعود فوائدها إلى الفرد المتقي، والمجتمع المتقي، وقد ذكر القرآن الكريم آثاراً كثيرة وجمة وإليك بعضها:

١ـ بالتقوى خروج من الضيق:

الإنسان في هذه الدنيا غالباً ما يتطوق بالمصائب والابتلاءات، وهذه الابتلاءات على نوعين، فمنها ما يتمكن الإنسان من حلها، ورفع مشاكلها، وهي قليلة جداً، ومنها ما لا يتمكن من حلها، ويقف عاجزاً أمام هذا النمط منها، وليس لـه أدنى حول، إلاّ أن يغيثه الله تبارك وتعالى، ويخرجه من هذا الضيق، وبالتقوى يخرج المتقون من هذا الضيق، وتحل مصائبهم ومشاكلهم بعدما كانت مبرمة، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ له

(٨١٧) نهج البلاغة: خ ١١٢.

مَخْرَجاً﴾[٨١٨]، أي من الضيق، لمصائبه ومحنه، ويقول تعالى أيضاً: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ له مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾، وعن أمير المؤمنين عليه السلام لأبي ذر: «... ولو أن السماوات والأرض كانتا على عبد رتقاً ثم اتقى الله لجعل الله لـه منهما مخرجاً... »[٨١٩].

٢ـ بالتقوى تدر الأرزاق:

إن من أكثر ما يشغل بال الفرد في المجتمع الرزق، وكم يسعى لتحصيله، وكم ينفق من عمره في سبيل تحصيل قوته وقوت عياله، ويمكننا القول بأن حركة المجتمعات البشرية في معظم الأوقات تفرغ في سبيل تحصيل الرزق والقوت، مع أن هناك طريقاً سهلاً قوياً يحقق للإنسان رزقه وما يكفيه، وهو التقوى، فبالتقوى تدر الأرزاق، وبالتقوى تحصل الأقوات، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ له مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾[٨٢٠].

٣ـ بالتقوى تقبل الأعمال:

لا شك أن أهم ما يهتم به المؤمن أن يقبل الله أعماله التي يقوم بها من الصلاة والصيام والزكاة والحج...، ودائماً يخاف الإنسان من أن لا تكون هذه الجهود من عباداته موضع قبول الله تعالى، وأيضاً هناك الكثير من الروايات التي أكدت على أن المؤمن ينبغي أن يهتم بشكل كبير بقبول العمل، بغض النظر عن قلته أو كثرته، فلا ينفع عمل مهما كثر إذا رده الله تعالى، كما أن العمل القليل قد يغني الإنسان إذا كان محققاً للقبول.

---

(٨١٨) الطلاق: ٢.

(٨١٩) بحار الأنوار ٢٢: ٤١١، ح٣٠.

(٨٢٠) الطلاق: ٢-٣.

والطريق الذي رسمه الله تعالى لقبول الأعمال التقوى، قال تعالى: ﴿إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[٨٢١]، فالتقوى سبب من أسباب القبول، بل هي السبب الوحيد بدلالة إفادة (إنّما) على الحصر، وقد وردت هذه الآية في قصة هابيل وقابيل ابني آدم حيث اختلفا في أمر فحكّما فيه أباهما آدم، فأشار عليهما أن يقدما قرباناً إلى الله فمن يتقبل الله قربانه يكون هو الصائب، فقدم قابيل كبشاً عظيماً ظناً منه بأن عظمة ما يقدمه وغلاءه يكون موضع رضى وقبول الله تعالى، وقدم هابيل سنابل القمح، وكانت علامة القبول، أن يضعا القربانين على جبل فإذا نزلت النار وأكلت قربان أحدهما دل ذلك على قبول الله له، وفعلاً نزلت النار على قربان هابيل وأكلت سنابل القمح، فتعجب قابيل، واستغرب من قبول الله السنابل التي لا تعدل شيئاً أمام الكبش، فقال لـه أخوه هابيل: ﴿إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.[٨٢٢]

فعظمة العمل وكثرته لا تعدو شيئاً عند الله إلاّ بالتقوى، ومن هنا قال علي عليه السلام: «لا يقل عمل مع التقوى، وكيف يقل ما يتقبل»[٨٢٣]، ومما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وآله أباذر، قال: يا أباذر كن للعمل بالتقوى أشد اهتماماً منك بالعمل»[٨٢٤].

٤ـ بالتقوى تنال كرامة الله تعالى:

لقد خلق الله تعالى الإنسان كريماً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ وإنّما يذل

---

(٨٢١) المائدة: ٢٧.

(٨٢٢) وردت هذه القصة في القرآن في سورة المائدة.

(٨٢٣) بحار الأنوار ٦: ٣٨ ح٦٢.

(٨٢٤) كنز العمال: ٨٥١.

ويهان بالمعاصي والذنوب، وهذه الكرامة أعطاها ووهبها لجميع البشر على نمط واحد، وبحد متساوٍ، غير أنه بامكان كل فرد من الطاقم البشري أن يصبح أكرم من سائر البشر وذلك بالتقوى، قال تعالى: ﴿يا أيّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾[٨٢٥].

٥ـ بالتقوى تنال رحمة الله:

ليس هناك أوسع من رحمة الله تعالى، وبالتقوى تنال وتستحصل، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[٨٢٦].

٦ـ بالتقوى ينال الإنسان الجنة:

قال تعالى: ﴿إنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾[٨٢٧]، وقال عز من قائل: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ كَذلِكَ يَجْزِى اللهُ الْمُتَّقِينَ﴾[٨٢٨].

وهناك آثار أخرى عزفنا عن ذكرها مراعاة للاختصار.

ولعل أعظم الآثار للتقوى تعكسها خطبة المتقين لأمير المؤمنين عليه السلام:

---

(٨٢٥) الحجرات، ١٣.

(٨٢٦) الأعراف: ١٥٦.

(٨٢٧) الحجر: ٤٥.

(٨٢٨) النحل: ٣١.

كلام أمير المؤمنين في صفات المتقين[(٨٢٩)]

رُوِيَ أَنَّ صَاحِباً لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يُقَالُ لـه هَمَّامٌ[(٨٣٠)] كَانَ رَجُلاً عَابِداً فَقَالَ لـه يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ صِفْ لِيَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ فَتَثَاقَلَ عليه السلام عَنْ جَوَابِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا هَمَّامُ، اتَّقِ اللَّهَ وأَحْسِنْ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا والَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ. فَلَمْ يَقْنَعْ هَمَّامٌ بِهَذَا الْقَوْلِ حَتَّى عَزَمَ عَلَيْهِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وأَثْنَى عَلَيْهِ، وصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله ثُمَّ قَالَ عليه السلام

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ لِأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ ولَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ، فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، ووَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ، فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ، مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، ومَلْبَسُهُمُ الِاقْتِصَادُ، ومَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ، غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، ووَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ، نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ، ولَوْ لَا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ وخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ، عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ والْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وهُمْ والنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا

---

(٨٢٩) نهج البلاغة، خطبة ١٩٣/ ص٤٣٦.

(٨٣٠) همام بن عبادة صاحب أمير المؤمنين، ومن خواص شيعته الخلّص، وكان عابداً ناسكاً مجتهداً، ومما يدل على عظمته وجلالة شأنه وزهده وتقواه، أنه صعق ووقع صريعاً بمجرد ما سمع من مولاه هذه الخطبة، شوقاً إلى الثواب والرضوان، وخوفاً من العقاب والنار. .

وهمّام اسم على المسمّى: أي ذا همّة عالية، ولهذا نرى بأنّه لم يقنع من مولاه الجواب الموجز، وأصرّ عليه بالتفصيل. .

والإمام كان يخاف على همّام لذا قال في آخر الخطبة: أما والله لقد كنت أخافها عليه.

مُعَذَّبُونَ،[٨٣١] قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ وشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ، صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً، أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً، تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ، يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ، أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا، وأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا، أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ، يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلًا، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ، ويَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ، فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً، وظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ، وإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ، أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وأَكُفِّهِمْ ورُكَبِهِمْ وأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ، وأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ، قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ، بَرْيَ الْقِدَاحِ يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ، فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى ومَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ، ويَقُولُ لَقَدْ خُولِطُوا ولَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ، لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ ولَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ، فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، ومِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ، إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لـه فَيَقُولُ أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي ورَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي

---

(٨٣١) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: استقبل رسول الله الشاب حارثة بن مالك بن النعمان الأنصاري فقال له: كيف أنت يا حارثة بن مالك؟ فقال يا رسول الله مؤمن حقاً، فقال لكل شيء حقيقة، فما حقيقة قولك؟ فقال يا رسول الله صلى الله عليه وآله عزفت نفس عن الدنيا فأسهرت ليلي، واظمأت هواجري (نصف النهار)، وكأني أنظر إلى عرش ربي، وقد وضع للحساب، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون في الجنة، وكأني أسمع أهل النار في النار، فقال لـه رسول الله صلى الله عليه وآله: عبد نوّر الله قلبه، أبصرت فأثبت، فقال الشاب: يا رسول الله أدع الله أن يرزقني الشهادة معك، فقال صلى الله عليه وآله: اللهم ارزق حارثة الشهادة. فلم يلبث إلاّ أيّاماً حتى بعث رسول الله سريّة فبعثه فيها فقاتل فقتل تسعة أو ثمانية ـ ثم قتل، وفي رواية أنه استشهد مع جعفر بن أبي طالب في مؤتة.

بِنَفْسِي، اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، واجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، واغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ، فَمِنْ عَلَامَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لـه قُوَّةً فِي دِينٍ، وحَزْماً فِي لِينٍ، وإِيمَاناً فِي يَقِينٍ، وحِرْصاً فِي عِلْمٍ، وعِلْماً فِي حِلْمٍ، وقَصْداً فِي غِنًى، وخُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ، وتَجَمُّلًا فِي فَاقَةٍ، وصَبْراً فِي شِدَّةٍ، وطَلَباً فِي حَلَالٍ، ونَشَاطاً فِي هُدًى، وتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ، وهُوَ عَلَى وَجَلٍ يُمْسِي، وهَمُّهُ الشُّكْرُ، ويُصْبِحُ وهَمُّهُ الذِّكْرُ، يَبِيتُ حَذِراً ويُصْبِحُ فَرِحاً، حَذِراً لِمَا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ والرَّحْمَةِ، إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ، وزَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَى، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، والْقَوْلَ بِالْعَمَلِ، تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ قَلِيلًا، زَلَلُهُ خَاشِعاً، قَلْبُهُ قَانِعَةً، نَفْسُهُ مَنْزُوراً، أَكْلُهُ سَهْلًا، أَمْرُهُ حَرِيزاً، دِينُهُ مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ، الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، والشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ، إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، ويُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، ويَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ، بَعِيداً فُحْشُهُ، لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلًا خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ، فِي الزَّلَازِلِ وَقُورٌ، وفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ، لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، ولَا يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ، يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ، لَا يُضِيعُ مَا اسْتُحْفِظَ ولَا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ ولَا يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ، ولَا يُضَارُّ بِالْجَارِ، ولَا يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ، ولَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، ولَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ، إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ، نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ، والنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ، أَتْعَبَ نَفْسَهُ لِآخِرَتِهِ، وأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ، بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ ونَزَاهَةٌ، ودُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ ورَحْمَةٌ، لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وعَظَمَةٍ، ولَا دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وخَدِيعَةٍ،

قَالَ فَصَعِقَ هَمَّامٌ صَعْقَةً كَانَتْ نَفْسُهُ فِيهَا، فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام:

أَمَا واللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ أَ هَكَذَا تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا، فَقَالَ لـه قَائِلٌ: فَمَا بَالُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ عليه السلام وَيْحَكَ إِنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ وَقْتاً لَا يَعْدُوهُ وسَبَباً لَا يَتَجَاوَزُهُ فَمَهْلًا لَا تَعُدْ لِمِثْلِهَا فَإِنَّمَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ.(٨٣٢)

لا غرو في ذلك فإن المفرغ لهذا الكلام هو سيد المتقين وضياء المتهجدين ونور العارفين أمير المؤمنين، وهل يوجد شخصية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله اتصف بهذه الأوصاف غير علي عليه السلام وأهل بيته، فكان ما قاله لهمام نابعاً من ذلك القلب السليم، فأثر ما أفرغه منه في الضمائر الحية والقلوب السالكة إلى الله تعالى، ولقد كانت سيرتهم من أولها إلى آخرها تعكس هذه الصفات وتجسدها والإمام الحسين عليه السلام قابل أحباءه وأعداءه بهذه الصفات حتى شهد بذلك العدو قبل الصديق، لقد كانت شخصيته تتمتع بهذه الصفات في أعسر الأوقات في كربلاء يوم عاشوراء.

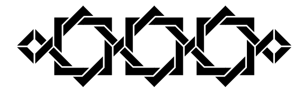
---

(٨٣٢) وهنا نكات لابد منها:.

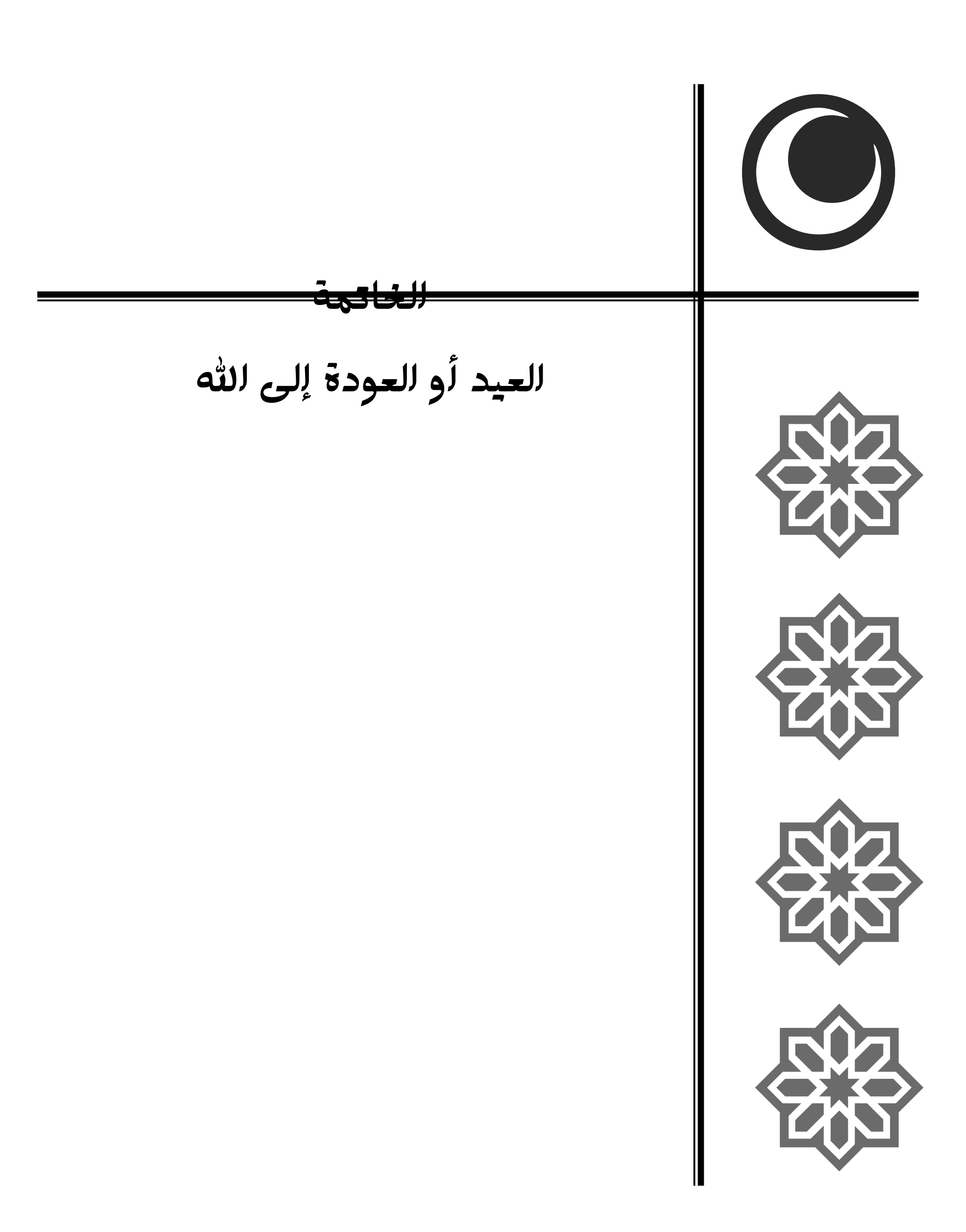
١ـ لا يخفى أن تأثير المواعظ تتقّدر بمقدار حال المتعظ، وحيث كان همام من المتعظين، أثّرت فيه المواعظ، وأمّا عروض موته فإنه تقدير إلهي بحلول أجله في ذلك الوقت. .

٢ـ إن ما أشار إليه الإمام في هذه الخطبة من صفات المتقين يتجاوز عن السبعين، ولعلّه أراد أن يتمّها ولكن حل أجل همام فلم يتمكّن من إتمامها. .

٣ـ ثمّ إنّ هذه الصفات لها مراتب ودرجات يمكن الوصول إليها في الجملة، واللازم بذل الجهد لإدراك أعلى مراتب الأولياء والأبرار.







الخاتمة

العيد أو العودة إلى الله

- معنى العيد لغةً واصطلاحاً
- العيد حكم تشريعي خاص
- الأعياد الإسلاميةالأربعة
- فلسفة الأعياد الإسلامية

الخاتمة

العيد أو العودة إلى الله

اللهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لأَوَّلِنا وَآخِرِنا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ

المائدة: ١١٤



معنى العيد لغةً واصطلاحاً

العيد في اللغة، مأخوذ من عاد بمعنى العود أي عاد إليه، فهو كل يوم يحتفل فيه بذكرى كريمة أو حبيبة[٨٣٣]، وفي الاصطلاح الإسلامي: هو الذكرى الّتي يجتمع المسلمون فيها

---

(٨٣٣) معجم الوسيط: ٦٣٥، لسان العرب: مادة عيد.

ويبرزون إلى الله تعالى فيحمدونه على ما منّ عليهم من الرحمة فيه والمغفرة، وليس العيد في الإسلام للعب والتلهي، وارتداء أفخر الثياب وأغلاها ثمناً، والتلذذ بأصناف الطعام، وألوان الشراب، وعدم المبالاة بالأحكام والحدود الشرعية، كما درج على ذلك الناس في هذه الأزمنة، فالعيد في التشريع المقدس وإن كان لا يمنع من فرح المؤمن فيه، بل يدعو إليه، ولا يمنع من ارتداء الجديد، وأكل الطيبات، لكن لا يعني ذلك أن يرضى بجعل الطعام واللباس والسرور في العيد إلى درجة التفاخر والتباهي وبذل المال الكثير في تحصيله، بل لعل هذا العمل بداية لانحراف الكثير من الفقراء الّذين لا يتمكنون من جلب ما تراه أطفالهم من الطعام والثياب عند أطفال الأغنياء، فيقدم رب الأسرة ـ لما يداخله من رحمة بأطفاله ـ على جلب المال ولو من غير حلّه، أو إذا كان كثير التحفظ والتدين، فيقترض مبلغاً لعله يرهقه وفاؤه ويوجب التقصير على بيته وعياله، وقد لا يتمكن من وفائه، ويتنازع مع صاحبه فتفسد العلاقات الاجتماعية، ويمنع الإحسان ويسود التفكك في المجتمع الإسلامي.

علينا جميعاً السعي لفهم المعنى الحقيقي للعيد، وما هي الواجبات الملقاة علينا تجاهه؟ وما هي أعياد الدين الإسلامي وفلسفتها؟ وقبل ذلك كله ينبغي أن نتعرف على مشروعية الأعياد في الإسلام، فنقول:

العيد حكم تشريعي خاص

ذكر العلماء المحققون أن الأحكام الإلهية لا يجوز الزيادة فيها أو النقيصة، فمثلاً الصلاة فرضها الله تعالى بالكيفية الّتي نعرفها، فلا يجوز أن نضيف عليها شيئاً، وإن كان

مستحسناً، إذا كان ذلك الشيء الّذي تضيفه مما يخلّ بالهيئة التشريعية للصلاة، كإضافة ركعة إليها، فمثلاً أصلي الظهر خمسة ركعات، أو أضيف في كل ركعة ركوعين أو غير ذلك مما يخل بالكيفية المشروعة، نعم إذا كانت الاضافات غير مخلة بها فلا يضر، كما لو أكثرت الدعاء فيها، أو أطلت في سجودها وركوعها وقيامها على نحو لا يخلّ بالكيفية المشروعة، إذاً فالزيادة أو النقيصة في الأحكام الإلهية إذا كانت فهي غير جائزة، وهذا ما يصطلح عليه في عرف الفقهاء: أن الصلاة توقيفية، بمعنى أن تشريعها، بأجزائها وشرائطها وموانعها ومقدماتها موقوفٌ على إذن الشارع المقدس، فما لم يأذن به لا يجوز الادخال فيها أو الاخراج، وما نريد أن نعرفه الآن هو هل أن الأعياد توقيفية؟ أو أن كل إنسان أو مجتمع، أو قبيلة، يمكنهم تشريع العيد في يوم أو أيام يختارونها؟ ظاهر الفقهاء العظام أن الأعياد في التشريع الإسلامي توقيفي، بمعنى لا يحق لأحد أن يؤسس للمسلمين عيداً، وينسبه إلى الإسلام إلاّ أن يأذن به الشارع المقدس، مهما كان ذلك اليوم عظيماً عند الناس، نعم لو اعتبر عيداً باسم الوطن، أو المجتمع كيوم الانتصار، أو يوم أعد تكريماً لعظيم كالأم أو العالم الفلاني، أو ما شاكل ذلك، فلا يضر، ولكن لا يمكننا تحميله على الإسلام، بأن ينسب إلى الإسلام، ويعتبر من ضمن طقوسه، وممارساته، واختياراته. وهذه المسألة على مقدار من الأهمية ينبغي أن يلتفت إليها المجتمع المسلم، إذ كثيراً ما نجد تأثير هذه الأعياد الّتي لم ينص عليها الإسلام إلى درجة، قد يتغافل عن مناسبة إسلامية تتعارض مع ذلك اليوم، لشدة شيوع عيد ذلك اليوم في مجتمع ما، فكم رأينا بعض المسلمين في مجتمع ما يحتفلون بيوم على أنه عيد متعارف عليه، في حين يعتبر ذلك اليوم ذكرى محزنة في الإسلام، وينبغي للمؤمن المسلم اظهار الحزن فيه لا الفرح

والسرور.

الأعياد الإسلامية الأربعة

يستفاد من النصوص الإسلامية، أن أعياد المسلمين أربعة لا غير، وهي يوم الفطر، وهو اليوم الأول من شوال، وهو عيد الافطار، وحلية الطعام والشراب في النهار، بعدما كان محظوراً في أيام شهر رمضان، ويوم النحر، المسمى بعيد الأضحى، وهو اليوم العاشر من ذي الحجة بعد ما يقضي الحاج من المزدلفة إلى منى، ويوم الجمعة في كل اسبوع، وعيد الغدير، وهو اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، يوم نصب أمير المؤمنين عليه السلام إماماً للمسلمين.

وقد وردت الروايات الكثيرة في إثبات هذه الأعياد، أما الفطر والأضحى فهما محل إجماع واتفاق بين المسلمين جميعاً، وأما الجمعة، فقد ورد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام «عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: أن جبرئيل أتاني بمرآة في وسطها كالنكتة السوداء، فقلت له: يا جبرئيل ما هذه؟ قال: هذه الجمعة، قال: قلت، وما الجمعة؟ قال: لكم فيها خير كثير، قال: قلت، وما الخير الكثير؟ فقال: تكون لك عيداً ولأمتك من بعدك إلى يوم القيامة، قال صلى الله عليه وآله: قلت وما لنا فيها؟ قال: لكم فيها ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله مسألة فيها وهي لـه قسم في الدنيا إلاّ أعطاها، وإن لم يكن لـه قسم في الدنيا ادُّخِرت لـه في الآخرة أفضل منها، وأن تعوّذ بالله من شرّ ما هو عليه مكتوب صرف الله عنه ما هو أعظم منه»[٨٣٤].

---

(٨٣٤) جامع الأحاديث: ١٤٦.

وأما مشروعية عيد الغدير، فقد ورد في جملة من النصوص ما يدل عليه، نذكر منها رواية واحدة فقط، فقد «سئل أبو عبد الله الصادق عليه السلام: هل للمسلمين عيد غير يوم الجمعة والأضحى والفطر؟ قال عليه السلام: نعم أعظمها حرمة، قلت: وأي عيد هو جعلت فداك؟ قال: اليوم الّذي نصب فيه رسول الله صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين عليه السلام، وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه» قلت: وأي يوم هو؟ قال: وما تصنع باليوم إنّ السنة تدور ولكنّه يوم ثامن عشر من ذي الحجة، فقلت: وما ينبغي لنا أن نفعل في ذلك اليوم؟ قال: تذكرون الله عز وجل فيه بالصيام والعبادة والذكر لمحمد وآل محمد، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله أوصى أمير المؤمنين عليه السلام أن يتخذ ذلك اليوم عيداً، وكذلك كانت الانبياء عليهم السلام تفعل، كانوا يوصون أوصياءهم بذلك فيتخذونه عيداً»[٨٣٥].

فلسفة الأعياد الإسلامية

بعدما عرفنا أن أعياد المسلمين أربعة: الفطر والأضحى والغدير والجمعة، ينبغي لنا أن نتعرف على معنى العيد في هذه الأيام، حيث أن العيد في الإسلام يحمل عناوين متعددة في حالات معينة، وهي كالآتي:

١ـ الفرح بالقبول والغفران: لا شك في أن جميع الأعياد الأربعة لابد وأن تعبر عن فرح وسرور لكل فرد مسلم، ولكن ليس المراد بفرحة العيد لذات العيد، بل ما يحمله العيد من معان ومفاهيم عظيمة في الإسلام، فعيد الفطر يعني أن يفرح الإنسان الصائم القائم برضا الله عنه وقبوله لأعماله، لأن ذلك إن تحقق فيحقق للمؤمن فرحة ليس بعدها

(٨٣٥) الكافي ٤: ١٤٩ ح ٣.

ولا قبلها فرحة، فهو ينعم بجنان الله عليه، أن لم يضيع لـه ما قدّمه في ذلك الشهر من الصيام والقيام والدعاء والمناجاة والصلاة، فعن علي عليه السلام أنه قال في بعض الأعياد: «إنما هو عيد لمن قبل الله صيامه، وشكر قيامه»[٨٣٦]، فالفرح بغفران الله تعالى هو عيد الصائم القائم، وليس الفرح بالزينة والثياب وحلّ الطعام والشراب، يروى أن «سويد بن غفلة دخل على أمير المؤمنين عليه السلام في يوم عيد فإذا عنده خوان عليه خبز السمراء ـ أي الحنطة ـ وصحيفة فيها خطيفة وملبنة، فقال له: يا أمير المؤمنين يوم عيد وخطيفة؟! فقال عليه السلام: هذا عيد من غفر لـه»[٨٣٧]، لقد كان يظن سويد أنه لا تناسب بين الخطيفة ـ وهي اللبن الّذي يطبخ ويختطف بالملاعق بسرعة ـ وبين العيد، حيث إن معنى العيد كما يفهمه الناس توفير الطعام الجيد والثياب الفاخرة الجديدة، فأفصح الإمام عليه السلام عن مكنون العيد وحقيقته، وأنه عيد المغفرة والقبول، لا عيد اللبس والطعام والشراب، وكما أن هذا المعنى قد سجلته النصوص في عيد الفطر، كذلك في عيد الأضحى، فهو عيد غفران ذنوب الحاج، وقبول حجه وسعيه، وقبول الرضا عليه.

فاللعب واللهو والانشغال في اللذائذ يفقد العيد قدسيته وعظمته ووقاره، ولهذا يروى أنه «مرّ الإمام الحسن عليه السلام في يوم فطر بقوم يلعبون ويضحكون، فوقف على رؤوسهم، فقال: إن الله جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه، فيستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته، فسبق قوم ففازوا، وقصّر آخرون فخابوا، فالعجب كل العجب من ضاحكٍ لاعب في اليوم الّذي يثاب فيه المحسنون، ويخسر فيه المبطلون، وأيم الله لو كشف الغطاء لعلموا أنّ المحسن

(٨٣٦) شرح النهج لابن أبي الحديد ٢٠: ٧٣.
(٨٣٧) بحار الأنوار ٤٠: ٣٢٦ ح ٧.

مشغول بإحسانه، والمسيئ مشغول بإساءته، ثم مضى»[٨٣٨].

وأما عيد الغدير فهو عيد البيعة، عيد إكمال الدين وإتمام النعمة، وقبول الإسلام ديناً خالداً، كما ورد ذلك بقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾[٨٣٩].

٢ــ العيد هو العودة إلى الله تعالى: ومن المعاني العميقة الّتي يحملها العيد أنه يعبّر عن تحقق العودة إلى الله تبارك وتعالى، وقد ذكرنا سابقاً أن أهل اللغة يقولون بأن معنى العيد من عاد ويعود، وهو ما يتناسب مع العودة إلى الله تعالى والرجوع إليه ذلك أن العابد إنما يقوم بطقوسه العبادية من الصيام والصلاة والدعاء والمناجاة لكي يعود إلى ربه ويرجع إليه بعد أن كان هارباً منه تاركاً لمراضيه، عازفاً عن الطاعة، ففي شهر رمضان يبدأ العبد بتطهير نفسه وقلبه وعقله حتى يرفع تمام الحجب المظلمة الّتي صنعها لنفسه مع ربه، وبالعيد يتحقق العود إلى الله والرجوع إليه، وكذا الحاج، فإنه بما يقوم به من فروض الطاعة من الاحرام والطواف والسعي والوقوف في عرفات والمزدلفة... يرجع ويعود إلى ربه تبارك وتعالى، ليعود الله عليه بالرحمة والمغفرة.

٣ــ أن يتذكر في يوم العيد يوم القيامة: فقد ورد أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام خطب في يوم الفطر فقال: «أيّها الناس، إنّ يومكم هذا يثاب فيه المحسنون ويخسر فيه المبطلون، وهو أشبه بيوم قيامكم، فاذكروا بخروجكم من منازلكم إلى

---

(٨٣٨) تحف العقول: ٢٣٦.

(٨٣٩) المائدة: ٣.

مصلاّكم خروجكم من الأجداث إلى ربّكم، واذكروا بوقوفكم في مصلاّكم وقوفكم بين يديّ ربّكم، واذكروا برجوعكم إلى منازلكم رجوعكم إلى منازلكم في الجنة.

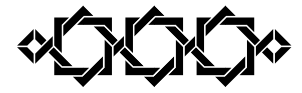
عباد الله إن أدنى ما للصائمين والصائمات أن يناديهم ملك في آخر يوم من شهر رمضان: أبشروا عباد الله فقد غفر لكم ما سلف من ذنوبكم، فانظروا كيف تكونون فيما تستأنفون؟![٨٤٠]

وعلى العموم فإن العيد في الإسلام يعتبر شعاراً من شعائر الله تعالى، فالفرح والسرور للتوفيق في العبادة، ولغفران الله تعالى الذنوب، ومن هذا المنطلق يعطي أمير المؤمنين بعداً عميقاً للعيد، فيعتبر أن الفرحة ليست منحصرة بالأعياد الأربعة، بل يمكن أن يحصل ذلك في كل يوم لا يعصى الله فيه، فالعيد في ترك المعصية فعن علي عليه السلام: «كل يوم لا يُعصى الله فيه فهو عيد»[٨٤١].

والحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين.

(٨٤٠) تنبيه الخواطر ٢: ١٥٧.

(٨٤١) شرح النهج ٢٠: ٧٣.





أهم مصادر الكتاب

كتب التفسير وعلوم القرآن

البيان في تفسير القرآن...الإمام الخوئي

التفسير الكبير...الفخر الرازي

التفسير المبين...الشيخ محمد جواد مغنيه

التفسير المعين...الشيخ محمد هويدي

الميزان في تفسير القرآن...العلامة الطباطبائي

تفسير الأمثل...الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

تفسير القرآن الكريم...السيد عبد الله شبر

مجمع البيان في تفسير القرآن...الشيخ الطبرسي

كتب الحديث والفقه

احقاق الحق...السيد التستري

كتب الأخلاق والآداب

الأربعون حديثاً..الإمام الخميني

الحقائق في محاسن الأخلاق .... الفيض الكاشاني

الدار الآخرة..السيد عبد الحسين دستغيب

الدعاء عند أهل البيت (عليهم السلام) ....الشيخ الآصفي

الذنوب الكبيرة..السيد دستغيب الشيرازي

القلب السليم..السيد عبد الحسين دستغيب

المراقبات ....الشيخ الملكي التبريزي

المواعظ العددية..الشيخ المشكيني

النية والاخلاص..الإمام الخميني

الهوى في حديث أهل البيت (عليهم السلام)..الشيخ الآصفي

آداب النفس..الموسوي الميامو‌ئي

أخلاق أهل البيت (عليهم السلام)..السيد مهدي الصدر

أسرار الصلوة..الشيخ الجوادي الآملي

تسلية الفؤاد..السيد عبد الله شبر

تهذيب الأخلاق..ابن مسكويه

دروس في الأخلاق..الشيخ المشكيني

روضة التائبين ....الشيخ الكرزكاني

سر الصلوة..الإمام الخميني

سيماء الصالحين..الشيخ رضا مختاري

شرح رسالة الحقوق ....السيد علي القبانجي

في رحاب التقوى ....الشيخ محسن الخرازي

مبادئ الأخلاق ....الطباطبائي التبريزي

مصباح الشريعة.......... المنسوب للإمام الصادق عليه السلام

مفاتيح الجنان.......... الشيخ عباس القمي

مكارم الأخلاق.......... الشيخ الطبرسي

منازل الآخرة.......... الشيخ عباس القمي

منهاج النجاة.......... الفيض الكاشاني

كتب التاريخ والسيرة

الحياة السياسية للإمام الحسن عليه السلام .... السيد جعفر مرتضى العاملي

الصحيح من سيرة النبي الأعظم.......... السيد جعفر مرتضى العاملي

الموسوعة التاريخية.......... الشيخ هادي اليوسفي

أئمتنا.......... علي محمد علي دخيل

أهل البيت عليهم السلام.......... الشيخ محمد جواد مغنية

إعلام النساء.......... علي محمد علي دخيل

حياة الإمام الحسن عليه السلام .... الشيخ باقر شريف القريشي

حياة الإمام الرضا عليه السلام.......... السيد جعفر مرتضى العاملي

حياة الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام .... الشيخ باقر شريف القريشي

سيد المرسلين.......... الشيخ جعفر السبحاني

سيرة الأئمة الاثني عشر .... السيد هاشم معروف الحسيني

صلح الحسن.......... الشيخ راضي آل ياسين

فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد.......... السيد القزويني

منتهى الآمال.......... الشيخ عباس القمي

نساء أهل البيت عليهم السلام.......... احمد خليل جمعة

بحوث عامة

الإمام المهدي المصلح العالمي المنتظر........................ايوب الحائري
التقوى في القرآن الكريم..السيد كمال الحيدري
المسلم ومعتقداته..أيوب الحائري
النظام الاجتماعي في الإسلام...الشيخ باقر شريف القريشي
سقوط إسرائيل من العلو والإفساد إلى الزوال............الشيخ مهدي الفتلاوي
عشرون سؤال وشبهة حول المرأة.......................................أيوب الحائري

اللغة

١ـ المنجد
٢ـ المعجم الوسيط...لمجموعة من الباحثين
٣ـ لسان العرب...ابن منظور



الفهرس التفصيلي لمحتويات الكتاب